

حياة السعداء

دراسة لبناء النفس الإنسانية
مستقاة من الكتاب والسنة

إعداد

أ. د. فالح بن محمد بن فالح الصغير

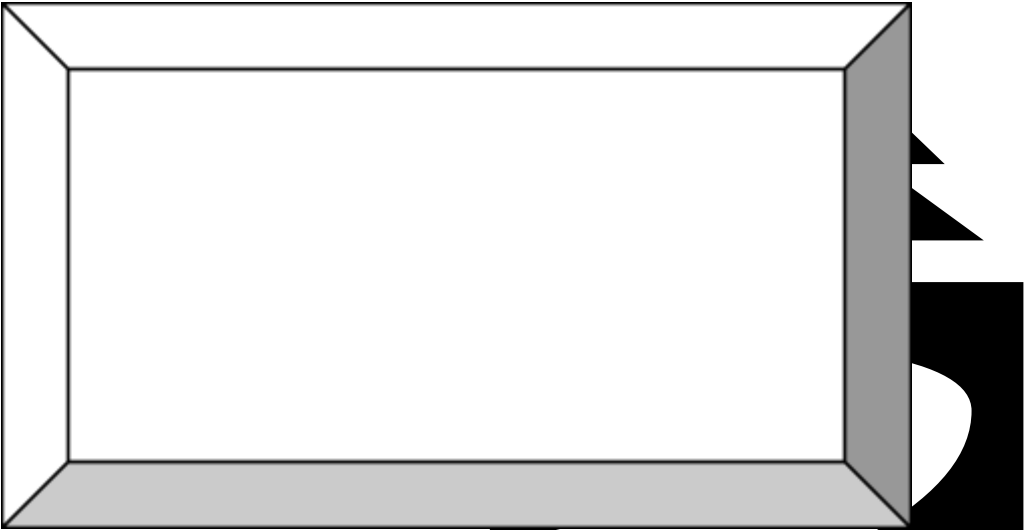


الرياض 1434 هـ

حقوق الطبع
محفوظة



المملكة العربية السعودية - ص . ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٥٣٦
هاتف : ٤٢٨٥٣٩٠ المعرض : ٢٦٧٧٥٨٤ فاكس : ٢٦٧٢٥٥٨
التوزيع : ٠٥٠٦١٠٨٦٦٧ - ٠٥٠٦١٠٨٧٠٧ الغربية : ٠٥٠٦٤١٦٠١٩



.آيات السجدة في المصحف فوقها شرطة وهذه لا يمكن مسحها
اختصار الفراغ في نهاية الفصول سيؤدي إلى دمج الأسطر مع الصفحة السابقة وهو ما يظهرها بشكل
مضغوط يختلف عن رغبتكم في ترك فراغات بين الفقرات

=====

بدون كلمة رقم هل تحتاج

..... ،ص480 = أخرجه أبوداود (ص577، 4090) كتاب اللباس *

ص.488= أخرجه مسلم (ص1128، 2577) كتاب البر والصلة، باب تحرير الظلم *

• ص493= أخرجه مسلم (ص1176، 6876) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب
التعوذ من العجز والكسل وغيره

• أخرجه الترمذي (ص469-470) كتاب الطب، باب الدواء **والحد** عليه. وأحمد (4/315)،
رقم18851). وهو حديث صحيح

الصحيح: والحد عليه

• أخرجه النسائي (ص569-570) كتاب تخريج الدم، باب الحكم في السحرة. و الترمذي
(ص476، رقم2072) كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق [أين رقم الحديث
النسائي]

.في صفحة 267: الصلاة /ن أعظم ماذا يقصد بالنون هنا

الحمد لله، خَلَقَ الإنسانَ محمد بن عبد الله، كان خَلَقَهُ القرآن الكريم، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كثرت المستجدات والنوازل في هذه الأزمنة المتأخرة، التي نحتاج إلى تبصّر وتأمّل، ومن أشدها وقعاً ما يكون متصلاً بالنفس الإنسانية، فيؤثر عليها سلباً أو إيجاباً، ومن ثمّ ينتقل هذا التأثير إلى سائر جوانب الحياة الأخرى، وقد يورث أمراضاً وأسقاماً، وضعفاً وفقوراً، وانقطاعاً للتواصل، وقلة نتائج وغيرها.

وقد شغل الإنسان في هذه القضية حتى أوجد علوماً لها مثل علم النفس الذي أصبح علماً يدرس وله نظرياته وتطبيقاته، وكذا الطب النفسي في الجانب العلاجي أصبح تخصصاً له قواعده ومنطقاته.

والإسلام بمصدره العظيم، القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد أكمل الله سبحانه وتعالى بهما الدين، وأتمّ بهما النعمة على المؤمنين، قد حوياً المنهجية الكاملة للمؤمن في هذه الحياة، التي إذا ما استقأها وسار عليها أوصلته إلى سعادة الدارين، من سعة الحياة والطمأنينة فيها، إلى نعيم الآخرة وسعادتها. وقد كان التطبيق العملي لهذا الدين هو حياة النبي ﷺ، فقد جعله الله سبحانه القدوة والأسوة للمؤمنين، فقال سبحانه: { تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسَتَكُنْ مِنَ الْمُتَكِلِينَ } (١).

والناظر في حياته ﷺ يجد توجيهات عظيمة، ومعالجات لكثير من الإشكالات النفسية التي تستدعي من المختصين إبرازها ودراستها وتنزيلها على الواقع، فهي مليئة بالمعالم والإشارات، بل والأسس لبناء النفس الإنسانية بناءً إيجابياً منتجاً، ولمعالجات ما يطرأ عليها من منغصات.

وقد كتب الله سبحانه وتعالى أن أشارك في شيء من هذه الأسس والمعالم في برنامج في قناة المجد الفضائية لمدة عام كامل بعنوان: **(حياة السعداء)** والتي كانت فكرته: استخلاص القضايا النفسية – بناء وعلاجاً – من الحديث النبوي، مدعمة بما يعضدها من القرآن الكريم. وهي فكرة لا أعرف من تطرق إليها بمثل الصورة التي عرضت إلا قليلاً من إشارات وعبارات، ومن هنا أردتها انطلاقة لئن يخوض المختصون في هذا الجانب، ليستخرجوا ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة من كنوز تفيد علماء النفس والأطباء النفسانيين، وعامة

¹() سورة النحل، الآية 97.

المسلمين ليجدوا فيه ما يثرون علمهم، ويؤصلونه، وليجد كل مسلم ما يعينه على درب السعادة الحقة، وما يعالج به ما يطرأ من مشكلات. وهذا لا يعني بأي حال - كما قد يفهمه البعض - إلغاء الطب النفسي أو إضعافه، أو عدم فعاليته، بل هو إثراء وتكامل وتأصيل. هكذا أحسب. كما لا يعني أن ما أذكره جميعه مسلم، بل كثير منه يحتاج إلى مزيد من البحث والتقويم، فحسبي أنها لبنة في هذا البناء الكبير الذي نحتاج إليه جميعاً.

ولأهمية هذه الفكرة أعدت النظر مرة أخرى فيما ألقيت في البرنامج لكي أصوغه في كتاب - كما طالب بذلك كثير من المستمعين والمستمعات - فيستفيد منه الجميع.

وعلى ذلك تتسطر أهداف هذا الكتاب فيما يلي:

- 1 - بناء الشخصية النفسية البناء الصحيح المنتج المؤسس على القرآن الكريم والسنة النبوية.
- 2 - ربط المسلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلی الله علیه وسلم في جميع شؤون حياته.
- 3 - إضافة لبنة إيجابية في علم النفس وفي الطب النفسي السلوكي مستنبطة من الكتاب والسنة ومن تطبيقات النبي صلی الله علیه وسلم.
- 4 - إيجاد طرق ووسائل لعلاج أمراض النفوس.
- 5 - تصحيح مسار كثير من المعالجين بالرقية الشرعية أو بغيرها.
- 6 - تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة في سلوكيات المعالجين والمرضى.
- 7 - محاولة تجميع العوامل المساعدة للوصول إلى السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

وكانت خطة هذا الكتاب كما يلي:

مهدت بتمهيد وضحت فيه منهج الإسلام في التعامل مع الأمراض والقضايا النفسية.

ثم قسمت الكتاب إلى قسمين، **فالقسم الأول:** في الجانب البنائي، وقد أطلت فيه إذ هو الأصل فبدأت بالمنطلق وهو العلم وأثره على النفس، ثم في أقسام البناء، وهي أعمال القلوب، كالإخلاص والتوكل والخوف والرجاء وغيرها، وأعمال الجوارح كالصلاة والزكاة وقراءة القرآن وغيرها.

والقسم الثاني: في الجانب العلاجي، مثل: تقوية الإرادة، والرقية الشرعية، وبدأتها بذكر بعض أسباب الأمراض النفسية، وختمت بعلاقة الرؤى والأحلام بالجانب النفسي وتأثيرها، وكيفية التعامل معها.



ولخصت ما في هذا الكتاب من أفكار في الخاتمة. وأشير هنا إلى أنني أطلت بعض الشيء في كل موضوع من الموضوعات التي تطرقت إليها، لإفادة القارئ، ثم في تفصيل الرابط بين هذه الموضوعات وبين القضية النفسية بناءً وعلاجًا.

هذه أهداف العمل وخطته، ولا أزع الكمال أو مقاربته ولكن أرجو أن تكون إضافة يُنطلق منها للمواصلة والإنضاج، فهي محاولة شخصية استنتاجية وتأملية في بعض النصوص القرآنية والنبوية مستفيدًا من بعض التفاسير والشروح، وإن كان اعتمادي أكثر على التطبيقات النبوية.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله من المدخرات في الحياة وما بعد الممات، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

فالح بن محمد بن فالح الصغير

المشرف العام على شبكة السنة النبوية وعلومها
faleh@alssunnah.com



(²) سورة طه، الآية 124.
(³) أخرجه الترمذي (ص560، رقم 3459) أبواب صفة القيامة. وأحمد (4/124، رقم 17164). والطبراني في الكبير (6/439، رقم 6997). قال الترمذي: هذا حديث حسن.
(⁴) سورة الذاريات، الآيتان 20-21.

منطلق المنهج الإسلامي:

أ - معرفة الإنسان لذاته: من خلال التدبر والتفكر في كينونة ذاته وطبيعتها الممتازة والمؤلفة من مادة وروح، والآيات التي أودعها الله فيه من خلايا وأعضاء وأجهزة، فضلاً عن المشاعر والأشواق التي تتوزع في النفس، لأن هذا يولد في نفس الإنسان شعوراً بعجزه أمام هذا الخلق المعقد، وأمام عظمة الخالق سبحانه وتعالى، مما يدفع به للاستسلام والتحاكم إلى تشريع هذا الخالق ودستوره في الحياة.

يقول الله تعالى: { ن ن ط ن ط ط ط ط ه }⁽⁵⁾.

ب - حسن التصور عن الله سبحانه وتعالى: يمكن تحديد هذا المحور من خلال النقاط التالية:

- أنه الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، واحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وأنه لا ند له ولا شريك له في الملك، وأنه يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، قال الله تعالى: {أَبْ يٰ أَبِ يٰ أَبِ يٰ أَثَ ثَذُتْ} (6).

- حسن الظن بالله تعالى ورحمته بعباده، وأنه تعالى أقرب من عباده من

⁵ (سورة الإخلاص).

(6) أخرجه مسلم (ص1169، رقم 2675) كتاب الذكر والدعاء، والترمذي (ص544، رقم 2388) كتاب الزهد، باب ما جاء في حسن الظن.

13() سورة هود، الآية 7.

14) سورة البقرة، الآية 36.
15) سورة المؤمنون، الآيتان 115-116.
16) سورة الذاريات، الآية 56.
17) سورة الحج، الآية 31.
18) سورة الملك، الآية 2.
19) سورة البقرة، الآية 264.

الموقف من الأمراض:

أولاً: الموقف الإيجابي

ويتمثل في:

- [illegible]

آثار هذا الموقف:

1- تكفير السيئات ودخول الجنة: لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» (23).

²⁰() سورة البقرة، الآيات 155-157.

²¹() سورة البقرة، الآية 216.

22) أخرجه البخاري (ص1003، رقم 5667) كتاب المرضى، باب رخص للمريض أن يقول: إني وجع. ومسلم (ص1126، رقم 2571) كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من المرض.

23() سورة الزمر، الآية 10.



2- رفعة الدرجات: لقوله تعالى: {ثِيَابُ الْجَنَّةِ خُضْرَاءُ جُذُوعُهُمْ حُجْرٌ جَمِيدٌ} (24)

4- عبودية الله في السراء والضراء: وهي غاية وجود الإنسان في الأرض، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه العبودية بقوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (25).

5- تذكير بنعمة الله على العبد: حيث أن الابتلاء نعمة من الله تعالى وفضل منه، وأن أشد الناس بلاء هم أقربهم إليه سبحانه وتعالى، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، حين سئل أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه» (26).

6- الرضى والطمأنينة: لأن المريض حين يدرك أن المرض من الله تعالى تطمئن نفسه ويهدأ باله، ويسلم أمره إليه، وبذلك لا يدع مجالاً لوساوس الشيطان أن تلج قلبه أو تخترق إيمانه وعقيدته. والله تعالى يقول: {ثُمَّ قَفَّ يَقُوقٌ} (27).

7- التعامل الإيجابي في الحياة: إن الرضى لأمر الله تعالى والاستسلام لقرره يجعل الإنسان متفائلاً في الحياة ويسعى فيها من غير كسل أو عجز، بل إنه يساهم في بناء المجتمع وحمانيته حسب الطاقة الموجودة لديه، والإمكانية التي تساعده على ذلك، الأمر الذي يجعله عنصراً إيجابياً وفاعلاً في الحياة.

8- المحاسبة والرجوع عن السليبيات: إن المرض وجميع الابتلاءات تجعل الإنسان يراجع صفحات حياته الماضية، ويحاسب نفسه على ما اقترف فيها من أخطاء وسيئات، ويبدلها بالأعمال الصالحة وفعل الخيرات. وذلك بالاجتهاد في الطاعات وتقديم القربات بين يدي الله تعالى، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، والإصلاح بين الناس وغيرها.

ثانياً: الموقف السلبي

ويتمثل في:

1 - التحسر على الماضي: وذلك بالجزع والتضجر من مرضه وبلائه،

(24) أخرجه مسلم (ص 1295، رقم 999) كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

(25) أخرجه الترمذي (ص 547، رقم 2398) كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء.

وابن ماجه (ص 580، رقم 4023) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء. وأحمد (1/172)، رقم (1481). وهو حديث صحيح صححه الترمذي وغيره.

(26) سورة البقرة، الآيات 155-157.

(27) أخرجه مسلم (ص 990، رقم 2230) كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.

وأحمد (2/429، رقم 9532).

وعدم الصبر عليه، والإكثار من الشكوى والنجوى للناس من غير أن يحيل الأمر إلى الله تعالى.

2 - لوم النفس: من خلال التأسف على أمور مقدرة عليه كأن يقول لو أني فعلت كذا ما صار كذا، فيعيش طول مرضه ومعظم أوقاته في حالة التأنيب النفسي، وهذا يولد قلقاً واضطراباً نفسياً ربما يحدث خلافاً في تصرفاته وسلوكه مع الناس.

3 - التعلق بالمخلوقين: من المشعوذين والسحرة ليجدوا لمرضه علاجاً أو دواء، دون أن يلجأ إلى الله تعالى، وهذا خدش في العقيدة والإيمان، لأن المشعوذين لا يملكون من أمرهم شيئاً فكيف بهم أن يشفى الناس على أيديهم وهم الذين يتعاملون بالكفر والشرك مع شياطين الجن، وقد نهى رسول الله ﷺ الذهاب إليهم قائلاً: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»⁽²⁸⁾.

آثار هذا الموقف:

1- إن قدر الله تعالى واقع لا محال، وأن الجزع والتضجر لا يغير من الأمر شيئاً.

2- إن السخط لقدر الله وأمره، دليل على ضعف الإيمان بالله تعالى، وألوهيته وربوبيته.

3- إن الله تعالى بسخط من عباده المتضجرين من قدره، لقوله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽²⁹⁾.

4- إن الحسرة والسخط والندامة ينتج عنها أمراض نفسية خطيرة، مثل الاكتئاب والقلق وعدم الإنتاج، وغيرها. مما يهيئ الجسم لاستقبال أمراض عضوية أخرى.

5- التعامل السلبي في الحياة، سواء في الأمور الدينية من تقصير في أداء الواجبات والفروض، أو في الأمور الدنيوية من إساءة الخلق والحسد والحقد مع المجتمع من حوله.

⁽²⁸⁾ أخرجه الترمذي (ص546، رقم 2396) كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء. وابن ماجه (ص582، رقم 4031) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء. وهو حديث صحيح.

⁽²⁹⁾ سورة هود، الآية 49.

وسائل التعامل مع المرض:

وهناك بعض الوسائل يمكن استخدامها لتخفيف وطأة المرض والشفاء منه، وهي:

- 1 - معرفة طبيعة الحياة الدنيا، وأنها دار ابتلاء واختبار، وأنها معبر للآخرة، وأن الاستقرار الحقيقي في الآخرة.
- 2 - معرفة الإنسان لنفسه، كما سبق الإشارة إليها، من خلال التفكير والتدبر في حقيقة الوجود الإنساني في الأرض ومعرفة المهام المكلف بها.
- 3 - اليقين بحسن الجزاء، لقوله تعالى: ﴿مَهْ بِهْ هُ﴾⁽³⁰⁾.
- 4 - الإيمان بقرب الفرج والشفاء، لقوله تعالى: ﴿وَوُؤْ وَوُؤْ وَوُؤْ وَوُؤْ﴾⁽³¹⁾. وفي قصة يعقوب عليه السلام الدروس والعبر في الأمل بقرب الفرج وزوال الهم، حين انتظر السنين على غياب ولده يوسف عليه السلام، وهو على يقين بأن الله تعالى سيبدل همه وحزنه فرحًا وفرجًا، وقد حقق الله له هذا الأمل فالتقى بيوسف عليه السلام على أحسن حال وأفضل مقام.
- 5 - استغلال الحياة بالإنتاج والعمل والطاعة وكل ما هو مفيد، وعدم ضياع الوقت بالتأسف والتحسر وجميع سفاسف الأمور، يقول عليه الصلاة والسلام: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽³²⁾.

الموقف من التداعي:

لا يعارض المنهج الإسلامي التداعي والعلاج عند الأطباء المختصين، بل يحض عليه ويحرص على ذلك، ما دام الأمر ضمن الضوابط الشرعية، بحيث لا يكون العلاج بالمحرم، وترك التداعي بالحلال مخالفة شرعية صريحة لقول

⁽³⁰⁾ سورة الشرح، الآيتان 5-6. ⁽³¹⁾ أخرجه مسلم (ص1161، رقم 6774) كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إلى الله. وابن ماجه (ص13، رقم 79) المقدمة. ⁽³²⁾ أخرجه الترمذي (ص469، رقم 2038) كتاب الطب، باب ما جاء في التداعي والحث عليه. وابن ماجه (ص494، رقم 3436) كتاب الطب، باب ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء. وأبو داود (ص549، رقم 3855) كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى بلفظ: «قالوا يا رسول الله أنتدأوى؟ قال: تداووا، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد، وهو الهرم». وهو حديث صحيح.

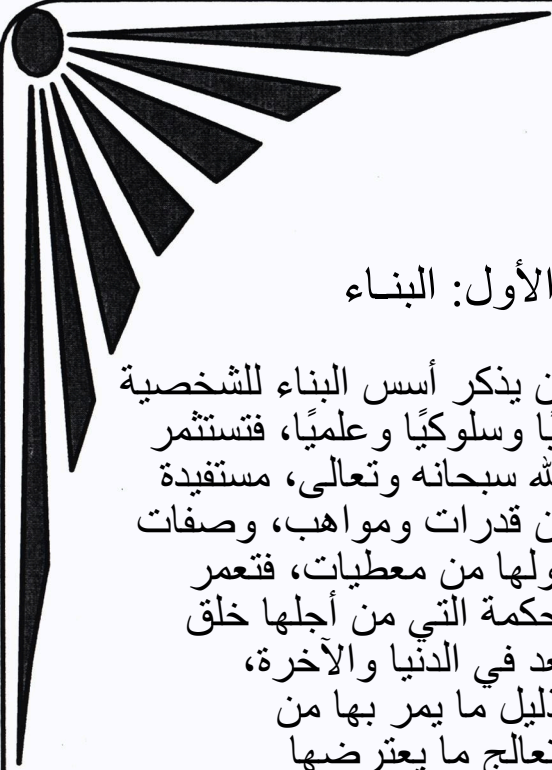


النبي ﷺ الذي أمر بالتداوي فقال: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽³³⁾

أي لا بد من التوفيق بين القراءة والدعاء وتناول الأدوية والعقاقير عند الأطباء الموثوقين.



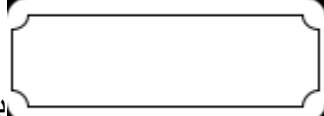
³³() أخرجه أبو داود (ص522، رقم 364) كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم. والترمذي (ص608، رقم 2682) كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة. وابن ماجه (ص34، رقم 223) المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. وأحمد (5/196، رقم 21763). وهو حديث صحيح لغيره.



القسم الأول: البناء

والمراد بهذا القسم: أن يذكر أسس البناء للشخصية السوية جسمياً ونفسياً وسلوكياً وعلمياً، فتستثمر حياتها وفق منهج الله سبحانه وتعالى، مستفيدة مما منحها سبحانه من قدرات ومواهب، وصفات وسمات، ومما حولها من معطيات، فتعمر الكون، وتحقق الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان، فتسعد في الدنيا والآخرة، وتستطيع تذليل ما يمر بها من عقبات، وتعالج ما يعترضها من مشكلات.

وقد اخترت مجموعة من هذه الأسس التي اعتبرها المنطلق الحق للشخصية السوية.



مدخل البناء في الأعمى برسوله صلى الله عليه وسلم وبشريعته، فهو مفتاح كل خير، والدال لكل فضيلة، يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ويزكي النفس ويظهرها، ويعلو بهمة الإنسان، ويكسوه السكينة والوقار، خير ميراث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

ولأثره العظيم نفصل فيه بعض التفصيل في بيان أهميته وأثره على النفس والمجتمع في الدنيا والآخرة، مفتتحين بما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيره، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»⁽³⁴⁾.

العلم في اللغة: العلم: إدراك الشيء على حقيقته، وهو اليقين والمعرفة، وقيل: العلم يقال لإدراك الكلّي والمركب، والمعرفة تقال لإدراك الجزئي والبسيط.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الكونيات وعلم الآثار. وجمعه: علوم⁽³⁵⁾.

في الاصطلاح: (المقصود به هنا هو العلم الشرعي)، أي: العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكل ما يتعلق بالعقيدة والتشريع والأخلاق.

* * *

حكم العلم الشرعي:

العلم الشرعي منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية، أما ما هو فرض عين فهو العلم بما يجب على الإنسان فعله ولا يسعه جهله، مثل ما علم من الدين بالضرورة، مثل أركان الإيمان (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) وكذلك أركان الإسلام (من الصلاة والزكاة

⁽³⁴⁾ المعجم الوسيط 2/ 624 مادة (علم).

⁽³⁵⁾ أخرجه ابن ماجه (ص34، رقم 224) المقدمة، باب فضل العلم. والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 193، رقم 1543). يقول الألباني رحمه الله: إن السيوطي قد جمع طرق الحديث حتى أوصلها إلى الخمسين، وحكم من أجلها بالصحة، وحكى العراقي صحته عن بعض الأئمة، وحسنه غير واحد، والله أعلم (ينظر: مشكاة المصابيح للتبريزي بتحقيق الألباني 1/ 76).

والصيام (الحج) ومعرفة أدائها على الوجه الشرعي المطلوب، يقول عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»⁽³⁶⁾.

وما هو واجب على شخص معين، كمن لديه مال عليه تعلّم أحكام الزكاة، ومن يبيع ويشترى عليه أن يتعلّم أحكام البيع والشراء، والمرأة عليها أن تتعلّم أحكام الحيض والنفاس وغير ذلك.

أما ما هو فرض كفاية فإذا قام به من يكفي من الأمة يسقط الإثم عن الجميع، وهو التخصص في العلم الشرعي ومعرفة فنونه وفروعه، كعلوم العقيدة، وعلوم القرآن، وعلم الحديث، وعلم أصول الفقه، وغيرها من التخصصات الشرعية، وهي غير واجبة على جميع الأمة تعلمها في حال وجود من يتعلمها، وما ورد من فضل العلم هو لهؤلاء الذين يقومون بهذا العلم.

أهمية العلم وفضله:

تعددت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة حول العلم وفرضيته وأهميته في حياة الناس والأمم، سواء كان العلم الشرعي أو العلم التجريبي المدعم بالإيمان بالله تعالى وتوحيده، لأنه في النهاية يوصل الإنسان إلى حقيقة وجوده وحقيقة الكون والحياة، ويقرب صاحبه من الله تعالى ويبعده عن مخالفة أمره، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثَوْرٌ وَوَيْثٌ وَوَيْثٌ وَوَيْثٌ﴾ (37).

ولفضل هذا العلم وأهميته كانت أولى الآيات التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تحض على العلم وتحث عليه، لأن هذه الرسالة الجديدة والتي كانت خاتمة الرسالات لا بد أن تركز على دعامة العلم وركنه الشديد، لأنه السبيل الصحيح للإيمان بالله تعالى، يقول تبارك وتعالى: {چ چ چ چ د د د د د} (٣٨).

وكان الله تعالى أراد - أيضًا - أن يخبر هذه الأمة أن العصور القادمة ستشهد تطورات علمية وتحولات فكرية واسعة، فعليكم بالعلم والإيمان حتى تتمكنوا من مواكبة تلك العصور ومواجهة التحديات الجديدة بقوة وثبات.

ثم جاءت الآيات تترى في فضل العلم وأهله وعلو مكانتهم وشأنهم عند الله تعالى وعند الناس، يقول تبارك وتعالى: {بِمِ بِي تَج تَح تَخ تَم تِي تِي تَج تَم تِي تِي جَح} (39).

كما جعل الله تعالى أهل العلم مرجعية الناس وملاذهم حين تلتبس عليهم الأمور

36) سورة فاطر، الآية 28.
37) سورة العلق، الآيات 1-5.
38) سورة المجادلة، الآية 11.
39) سورة النحل، الآية 43.

أو تحل بهم الأزمات أو تكاد نار الخلاف تنشب بينهم، فيقول جل وعلا: {يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي أَتَتْكُمْ مِنْ قَبْلُ فَكُنْتُمْ كَالْأَعْمَىٰ الَّذِي كَفَىٰ لَهُ سَبِيلًا} (٤٠).

لأن أهل العلم عندهم من العلوم الشرعية من الكتاب والسنة، ومن أخبار الأمم وقصصهم ومن حكم العقلاء والمصلحين وتجاربيهم، ما يجعلهم أكثر صواباً وقرباً من الحق والعدل، بخلاف الذين يجهلون ذلك كله ثم يخوضون في الأحداث فما يزيدها إلا ناراً وفتنة وخراباً، وهو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (٤١).

كما أشار عليه الصلاة والسلام إلى فضل أهل العلم ومكانتهم وأنهم ورثة الأنبياء فقال: «وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر» (٤٢).

*

حاجة الإنسان إلى العلم الشرعي:

1 - معرفة الله تعالى والإيمان به وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، وترك ما سواه من الآلهة، سواء المصنوعة من الأحجار والأشجار، أو من النظريات والمذاهب والأفكار.

2 - تحرير العقل من الأساطير والخرافات، لأن مثل هذه الأمور لا يجد لها مكاناً في المجتمعات المتعلمة للعلوم الشرعية الصحيحة، بل إنها تزدد وتتكاثر في المجتمعات المتخلفة والجاهلة التي لا تقيم للعلم وزناً ومكانة.

3 - يحتاج الإنسان إلى العلم الشرعي لمعرفة أحكام دينه، من الحلال والحرام، من خلال كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فعليه أن يكون على دراية كافية باللغة العربية حتى يفهم الخطاب الإلهي في القرآن والهدي النبوي من السنة المطهرة.

4 - العلم ضرورة لبلوغ المعالي وتحقيق الأهداف في الحياة، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى غايته المنشودة من غير أن يركب سفينة العلم ويجلس مع أهل العلم ويأخذ منهم العلوم والفنون والأخبار، لأنها تكون له زاداً وعتاداً لمواجهة التحديات التي تقف دون تحقيق الأهداف والغايات.

⁴⁰ (أخرجه البخاري (ص22، رقم 100) كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم. ومسلم (ص1264، رقم 6796) كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه.

⁴¹ (أخرجه الترمذي (ص608، رقم 2682) كتاب العلم، باب ما جاء في فضل العبادة.

⁴² (أقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، ص25).

5 - العلم ضرورة عصرية لمواجهة التحديات التي تواجه الأمة وتهدد مصالحها وثرواتها وخيراتها، فإذا تسلحت الأمة بالعلم وسخرت إمكاناتها وطاقتها من أجل تعليم أبنائها، فإنها بذلك تؤسس قواعد متينة وتبني حصونا منيعة أمام أطماع الأعداء وسياساتهم اتجاه هذه الأمة وبلادها.

6 - بالعلم الشرعي والعمل به يمكن نشر رسالة الإسلام بين شعوب العالم بجميع أطيافهم وأعراقهم ولغاتهم وعاداتهم، فلا يمكن نشر هذا الدين من قبل أناس لا يعرفون شيئاً عن حقيقة التوحيد والعبودية لله وحده، ولا يعرفون عن القرآن أو السنة أو السيرة النبوية وسيرة الصحابة إلا النزر اليسير، ولكن بالعلم يمكن أن يهدي الله تعالى الناس إلى هذا الدين، لأن العلم يخاطب العقل والفطرة، وهما المحركان الأساسيان للتحوّل الفكري والعقدي عند الإنسان.

7 - بالعلم الشرعي الصحيح يمكن الوقوف في وجه التيارات الفكرية المعادية، سواء القادمة من الخارج عبر المستشرقين أو من الداخل عبر أعلامهم، وقد أثبت أهل العلم من هذه الأمة هذه الحقيقة حين دحضوا افتراءات المستشرقين وأباطيلهم حول مصادر التشريع الإسلامي وغيرها.

* * *

علاقة العلم بالعمل:

إن العلم الشرعي والعمل بمقتضاه أمران لا ينفصلان عن بعضهما، فالعلم الشرعي المجرد عن العمل به يتحوّل إلى عبء على صاحبه وحساب شديد في الآخرة، كما أنه يصنع نفوراً لدى الناس، إذا رأوا أن عمل هذا العالم الشرعي يخالف أقواله وما يدعوا إليه، وقد ورد عن الزهري رضي الله عنه قوله: «لا يرضين الناس قول عالم لا يعمل ولا عامل لا يعلم»⁽⁴³⁾.

ومن أجل ذلك كان العمل ملازماً وواجباً للعلم الشرعي، لأنه الصورة العملية له على الواقع، وقد كان عليه الصلاة والسلام قدوة عملية للإسلام الذي جاء به، كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها: «كان خلقه القرآن»، وقد وصفه الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿كَانَ كَلِمَاتٍ﴾⁽⁴⁴⁾.

وقد أمر الله تعالى عباده باتخاذ الرسول ﷺ قدوة وأسوة لأنه يجسّد هذا الدين وتعاليمه على أرض الواقع فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا رَسُولَ اللَّهِ فَتُنقِلُوا﴾⁽⁴⁵⁾.

فالعلم الشرعي يفرض على صاحبه الالتزام به وترجمته في سلوكه

⁽⁴³⁾ سورة القلم، الآية 4.
⁽⁴⁴⁾ سورة الأحزاب، الآية 21.
⁽⁴⁵⁾ سورة البقرة، الآية 44.

ومعاملته وأخلاقه وجميع شؤون حياته، فإذا فرّق العالم الشرعي بين علمه في الحلال والحرام والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين عمله الذي يخالف كل ذلك فإن الله تعالى توعد على ذلك الوعيد الشديد، وقد كثرت النصوص الشرعية في هؤلاء.

يقول تبارك وتعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾⁽⁴⁶⁾، ويقول: ﴿كُلُّ دَٰكٍ﴾⁽⁴⁷⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام في حال الذين كانوا يأمررون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»⁽⁴⁸⁾.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل، وسيكون قوم يحملون العلم يباهي بعضهم بعضاً حتى إن الرجل ليغضب على جلسائه أن يجلس إلى غيره أولئك لا تصعد أعمالهم إلى السماء»⁽⁴⁹⁾.

كما ورد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قوله: «إني لأحسب العبد ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها»⁽⁵⁰⁾.

ويقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «لقيت مشايخ يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبتته العامل منهم بعلمه وإن كان غيره أعلم منه»⁽⁵¹⁾.

* * *

أحوال السلف في طلب العلم:

بما أن العلم من مقتضيات فهم الدين وبه يتقرب الإنسان إلى الله تعالى، حتى يصبح أكثر إيماناً بالله وأكبر خشية منه جل وعلا، لقوله تعالى: ﴿وَوُؤُ

⁽⁴⁶⁾ سورة الصف، الآيتان 2-3.
⁽⁴⁷⁾ أخرجه البخاري (ص1223، رقم 7097) كتاب الفتن، باب الفتنة تموج لموج البحر. ومسلم (ص1293، 7483) كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله.

⁽⁴⁸⁾ اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي، ص22.

⁽⁴⁹⁾ المرجع السابق، ص37.

⁽⁵⁰⁾ صيد الخاطر لابن الجوزي ص173.

⁽⁵¹⁾ سورة فاطر، الآية 28.

{وي⁽⁵²⁾}، فإن أهل العلم من السلف قضوا أعمارهم وأزمانهم في طلب العلم الشرعي وفهمه وتوثيقه ومن ثم نشره، وسافروا شرقاً وغرباً، وتنقلوا بين الأمصار من أجل طلب العلم، وقد ذكر القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام حين رافق الخضر، وما لقي في رحلته من التعب والنصب من أجل أن يتعلم منه بعض العلوم قال تعالى: {أَبْ بَ بَابِ بِ يَدِي بِ يَدِي} ⁽⁵³⁾.

كما أن كثيراً من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ضربوا أمثالاً رائعة في رحلاتهم الطويلة والشاقة من أجل العلم الشرعي، لا سيما أهل الحديث الذين سَخَرُوا كل إمكاناتهم من أجل أن تصل السنة النبوية إلى الأمة من بعدهم نقية من الشوائب والزيادات، فقد سافر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه من المدينة المنورة إلى مصر ليتأكد من صحة حديث يحفظه عن رسول الله ﷺ، يقول عطاء بن أبي رباح: خرج أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخذل الأنصاري - وهو أمير مصر - فأخبره فعجل عليه، فخرج إليه فعانقه، ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيري وغير عقبة، فابعت من يديني على منزله، قال: فبعت معه من يدي على منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعجل فخرج إليه فعانقه، فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيري وغيرك في ستر المؤمن، قال عقبة: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمناً في الدنيا على خزية، ستره الله يوم القيامة» فقال له أبو أيوب صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخذل إلا بعريش مصر (54).

وكان علي بن المديني من العراق يرحل إلى سفيان بن عيينة بمكة، للذاكرة في الحديث⁽⁵⁵⁾.

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه وهو من كبار التابعين: إني كنت لأسافر مسيرة الأيام والليالي في الحديث الواحد⁽⁵⁶⁾.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن وإلى مصر وإلى الشام والبصرة، والكوفة، وكان من رواة العلم وأهل ذلك، كتب عن الصغار والكبار⁽⁵⁷⁾.

وإن كتب السير والتراجم حافلة بأخبار علماء السلف وطلبهم للعلم،

⁵²() سورة الكهف، الآية 62.

⁵³ (معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص 117).

⁵⁴) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص 23.

55) معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص 118.

56) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص 91.

⁵⁷) أخرجه البخاري (ص1، رقم 1) كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

والظروف القاسية التي كانوا يمرون بها عبر رحلاتهم وأسفارهم، ولعل كتاب «الرحلة في طلب الحديث» للإمام أبي بكر الخطيب يعبر عن شيء من تلك الأسفار، حيث يورد قصصاً وتحفاً نادرة عن الرحلات من أجل طلب العلم لا سيما أهل الحديث.

* * *

وسائل معينة لتحصيل العلم الشرعي:

إن الوسائل والطرق التي يحصل الإنسان من خلالها على العلم الشرعي كثيرة ومتنوعة، ويمكن الإشارة إلى بعضها:

1- الإخلاص لله وابتغاء وجهه تعالى في رحلة طلب العلم، حتى يؤتي ثماره وآثاره الإيجابية على النفس والمجتمع، يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى»⁽⁵⁸⁾.

فإذا خلا العلم من النية الصادقة أو الإخلاص في طلب العلم تحول إلى آفة على صاحبه ومجتمعه، بل إن ما بذله من أجل هذا العلم يذهب هباء منثوراً، لأنه كان من أجل مآرب دنيوية بحتة، كالشهرة أو المنصب أو المال أو غيرها.

2- الدعاء والتضرع إلى الله تعالى طلباً للحصول على العلم الشرعي، لأنه من أوتيه وعمل به فقد نال خيراً كثيراً، وقد أمر الله تعالى رسوله بهذا الدعاء في قوله: {ذُذْتُ} ⁽⁵⁹⁾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»⁽⁶⁰⁾.

3- تقوى الله تعالى ومراقبته في السر والعلن، في الالتزام بأمر الله وطاعته، والانتهاز عن نواهيه ومعاصيه، يقول تبارك وتعالى: {يُؤْتِيكَ مِنْهُ} ⁽⁶¹⁾.

ويقول الإمام الشافعي في أثر المعصية على التحصيل العلمي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

4- القراءة والمطالعة في الكتب الشرعية والاعتكاف عليها في التخصصات المختلفة، في العقيدة والتفسير والحديث والفقه واللغة والسيرة وغيرها، لأنها الأساس في البناء العلمي عند الإنسان، ويمكن بعد ذلك

⁽⁵⁸⁾ سورة طه، الآية 114.

⁽⁵⁹⁾ أخرجه البخاري (ص17، رقم 71) كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. ومسلم (ص417، رقم 1037) كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

⁽⁶⁰⁾ سورة البقرة، الآية 282.

⁽⁶¹⁾ أخرجه مسلم (ص324-325، رقم 1873).

التخصص في أحد هذه العلوم والبحث في أغواره وكشف أسرارهِ والاجتهاد فيه.

5- التتلمذ على أهل العلم كل في تخصصه، والتواصل معهم مباشرة أو عبر وسائل الاتصال الأخرى، وحضور دروسهم العلمية وندواتهم ولقاءاتهم، لا سيما إذا وجد لقاءً دوري معهم في دراسة كتاب شرعي أو مناقشة مسائل علمية، وكذلك الاستفادة من تجاربهم وخبراتهم الطويلة في التحصيل العلمي.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كؤماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله! نحب ذلك. قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل» (62).

6- الصبر في رحلة طلب العلم، وتحمل المشقات المترتبة فيها، من تعب وسهر وسفر وإنفاق ويعد عن الأهل، والحرمان من بعض الميزات والطيبات، وهي سنة كونية لمن يريد بلوغ المعالي وتحقيق الأهداف المنشودة، وكما قال الشاعر:

لا تحسبن المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبْرَا

7- ترجمة العلم الشرعي إلى واقع عملي، والافتداء بالرسول ﷺ في هذا المجال، فإنه عليه الصلاة والسلام كان خلقه القرآن، وحياته العملية كانت تطبيقًا حقيقيًا لما جاء به من عند الله، حتى وصفه الله تعالى بقوله: {كُنتَ} (63).

9- محاولة الكتابة في الموضوعات العلمية الشرعية في التخصصات المختلفة، لأنها تدفع صاحبها للبحث في بطون الكتب والمصادر الأساسية حتى يأخذ الموضوع حقه من جميع الجوانب المتعلقة به، وهذه وسيلة عملية من وسائل التحصيل العلمي عند الإنسان.

* * *

ثمرات العلم الشرعي وآثاره:

للعلم الشرعي ثمرات يانعة وآثار إيجابية على حياة الإنسان ومجتمعه، ومن أهم تلك الثمرات:

⁶² سورة القلم، الآية 4.
⁶³ سورة آل عمران، الآية 18.

1- أن العلم يزيد من إيمان صاحبه، ويوصله إلى حقيقة التوحيد والربوبية، ويمنعه من الوقوع في الشرك الذي هو أكبر المعاصي، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ثُبُتْ دُفُّ قَفْقَفْ ج ج ج ج ج﴾ (64)، حيث استشهد الله تعالى بالملائكة والعلماء على توحيده.

وَيَقُولُ تَعَالَى: {لَئِنْ كَذَّبْتُمْ عَنْ وُدِّي وَوَدَّيْهِ وَوَدَّيْنِ وَوَدَّائِي وَوَدَّائِي} (65)، وَيَقُولُ: {كَيْفَ يَكُونُ لَكُمْ دِينٌ بِلَا حُجَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} (66)، وَهَذِهِ إِشَارَاتٌ وَأَضْحَةٌ عَلَى أَثَرِ الْعِلْمِ فِي تَقْوِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ وَبِالتَّالِيِ عَلَى جَوَارِحِهِ وَأَفْعَالِهِ.

2- إن العلم الشرعي يمنح صاحبه تقوى الله تعالى وخشيته في السر والعلن، لقوله تعالى: {وَوُؤْ وِ وَ وِ} (67)، وقوله تعالى: {تَّ تَّ تَّ تَّ تَّ} (68).

3- العلم الشرعي والعمل به يرفع من درجات صاحبه عند الله تعالى كما أخبر جل وعلا: {بِمِ بِي بِي تَج تَح تَخ تَم تِ تِ تِج تَم تِ تِ} (69).

4- الفوز بالجنة والنجاة من النار، يقول عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة»⁽⁷⁰⁾.

5- الأجر العظيم المترتب على طلب العلم يماثل أجر الخروج في سبيل الله، لقوله عليه وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»⁽⁷¹⁾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله»⁽⁷²⁾.

6- دوام الأجر لطالب العلم في الحياة وبعد الممات، لقوله تعالى: {يَرْبِيهِ بِدَنَاءٍ ثَمَنًا مِمَّا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا لَا يَصْلَحُ} (73)، والحكمة هي العلم النافع.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة:

64() سورة سبأ، الآية 6.

65} سورة المدثر، الآية 31.

66 ﴿سورة فاطر، الآية 28.﴾

67 ﴿سورة الإسراء، الآية 107.

68) سورة المجادلة، الآية 11.

⁶⁹) أخرجه الترمذي (609، رقم 268) كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة.

وابن ماجه (ص34، رقم 223) المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

⁷⁰ () أخرجه الترمذي (ص 601، رقم 2647) كتاب العلم، باب فضل طلب العلم. وقال: حسن

غریب

⁷¹() أخرجه أحمد (2/350، رقم 8587).

72} سورة البقرة، الآية 269.

⁷³) أخرجه مسلم (ص716، رقم 4223) كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد

فاته

⁷⁸ (سورة النساء، الآية 83).

حقيقة الحياة والكون والإنسان، وأن مآل هذا الكون كله إلى الله تعالى، وأن الحياة الدنيا إنما هي معبر للوصول إلى الدار الأبدية، وأن كل ما يجده الإنسان في هذه الحياة إنما هو اختبار وابتلاء، حيث يجزى عليه الإنسان في تلك الدار الأبدية، وهذا الإيمان والعلم يشرح صدر العالم ويهدأ من روعه في الشدائد والمصائب، فلا تتمكن من نفسه الوسوس ولا الهمزات، ويعيش عمره في العلم ومن أجل العلم، وهي سعادة لا يشعر بها إلا أصحابها.

13 - إن العلم الشرعي يمنع الإنسان من الوقوع في دوامة الأهواء والشهوات التي تقود النفس إلى الهاوية، أثناء الفتن والأزمات، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكَ دُونُ اللَّهِ حَافِظٌ وَنَصِيرٌ} (79)، حيث يصور الله تعالى حال المنافقين حين حدوث الأمن للمسلمين وحصول الخير لهم، أو حين يتمكن الرعب والخوف من نفوسهم، سارعوا إلى إفشاء ذلك بين الناس ونشره من غير علم أو دليل، ولو رد هؤلاء ما جاءهم إلى الرسول ﷺ وإلى أهل العلم وذوي الألباب لكان خيراً لهم في الحاليتين.

14 - العلم الشرعي يحث صاحبه الإكثار من الطاعة والاجتهاد في العبادات، كأداء الفرائض على أفضل وجه، وتلاوة القرآن والتدبر في آياته، وقيام الليل والتضرع بين يدي الله تعالى وبث شكواه إليه، والمواظبة على قراءة الأذكار اليومية، وغيرها من الأعمال الصالحة.

15 - إن العلم الشرعي الصحيح يقود إلى التوازن والاعتدال في كل شيء ويمنع دخول الغلو والتطرف إلى المجتمع، كما يبعد عنه التميع في تفسير النصوص وفي أداء الفرائض والعبادات، أو التهاون في المحظورات والمحرمات، بل إن هذا العلم يهدي المجتمع إلى الوسطية التي تميز هذه الأمة عن غيرها، قال تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكَ دُونُ اللَّهِ حَافِظٌ وَنَصِيرٌ} (80).

16 - العلم الشرعي يحمي المجتمع من الوقوع في كبائر الإثم وما ينتج عنها من المفساد والدمار على الأخلاق وعلى الناس في الميادين المختلفة، فالعلم الشرعي يحذر الناس من وبال المعاصي كالربا والزنا والخمر والمخدرات والسرقه وغيرها من الكبائر، لأنها جميعاً تفتك بالمجتمع وتفرق أبنائه وتحلّ فيهم العداوات والأحقاد والضغائن.

17- العلم الشرعي يسهم في استقرار المجتمعات والأمم، لأنه يستند إلى الإيمان بالله تعالى والالتزام بشرعه الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويمنع الظلم

⁷⁹ (سورة البقرة، الآية 143).

⁸⁰ (سورة النحل، الآية 43).

والاعتداء بين الناس، فيسود الأمن والاستقامة، وتقل الجريمة والانحراف، ويعيش الناس مطمئنين على أموالهم وأنفسهم ومصالحتهم.

18 - إن العلم الشرعي يحل كثيرًا من مشكلات الناس، لأن أهل العلم الشرعي - إضافة إلى علمهم - هم أهل الحكمة والاستقامة والخبرة، فلا يجاملون أحدًا على حساب حقوق الآخرين، لذا أمر الله تعالى عباده الرجوع إليهم لحل مشكلاتهم وفضّ نزاعاتهم بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ الْغُلَامَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُو آيَاتِهِ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأُولَئِكَ الْمَلَائِكَةُ يُذَكِّرُونَ} (٨١).

* * *

العلم الشرعي والبناء النفسي:

وبعد: فالعلم - مع هذا كله بفضائله وآثاره - له أهميته العظمى في البناء للنفس السوية، ومعالجة ما يطرأ عليها من تغيرات ويتجلى هذا البناء - إضافة إلى ما ذكر سابقاً -:

- 1 - يبني معرفة الإنسان تجاه ربه، فيزداد تعظيمًا وخشية له.
 - 2 - يبني معرفة الإنسان تجاه الكون واتجاه الأشياء، فتزداد عبوديته لله سبحانه.
 - 3 - يبني ثقة الإنسان بربه، فتزداد قوة وتماسكًا وشجاعة.
 - 4 - يبني حسن الظن بالله سبحانه، فيزداد تفاؤلاً نحو المستقبل، فيتجه للنماء والإنتاج.
 - 5 - يبني حسن التوازن في النظر إلى الأشياء، فلا يغلو بشيء على حساب شيء آخر، ولا يميّع الأمور ويتساهل في الأحكام.
 - 6 - يعرف الأحكام الشرعية، فلا يزلّ نحو الخرافة والشعوذة التي ترديه المهالك.
 - 7 - يعرف حسن الاقتداء، فيورثه الاعتدال في السلوك والأخلاق، فيعامل ربه بالإحسان، وخلقّه بالإحسان.
 - 8 - يعلم الإنسان الطريق الصحيح للتعامل مع الأزمات الشخصية، كالأزمات أو المصائب، ومع الأزمات العامة، فلا يضل ولا يُضل.
- هكذا يبني العلم الشخصية السوية ويعالج ما يعترضها من العقبات.
- ومن هنا كان من الغبن الفاحش أن يترك المسلم سبيل التعلم والتفقه ويتجه إلى أشياء جانبية، فحري لبناء أنفسنا ومعالجة أوضاعنا أن نتجه إلى العلم الشرعي ونعتز به، ونعظمه في نفوسنا وتعتز به.

وأخيرًا:

⁸¹() أخرجه مسلم (ص39، رقم 159) كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.

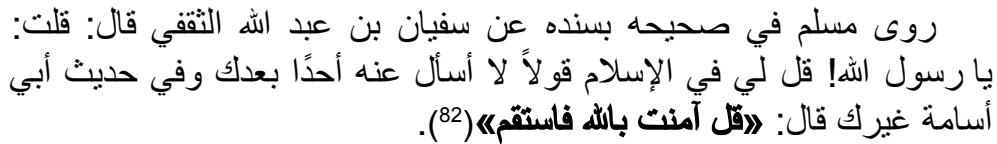


فإن العلم الشرعي، يشكل لبنة أساسية لبناء المجتمع الإسلامي السليم، القائم على الحب والوئام، والعدالة والمساواة، والأمن والاستقرار، لأنه يبصر هذا المجتمع بتوحيد الله تعالى ووجوب عبوديته وحده دون سواه، كما أنه يعرفهم بالحقوق والواجبات في المجتمع الذي ينتمي إليه، فلا يتجاوز حدوده المرسومة له، كما لا يتعدى على حقوق الآخرين.

كما أن هذا العلم يحذر الناس من وبال المعاصي والمنكرات التي تهوي بالنفس إلى الهاوية وتعرضها للآفات والوساوس في الدنيا، ومن ثم خسرانها الأكبر في الآخرة.

وفي الحالتين فإن العلم الشرعي يحقق السعادة النفسية داخل الإنسان كما يحقق العدالة الاجتماعية في مجتمعه، وهي الصورة المثلى للسعادة الحقيقية التي يسعى الإنسان بشتى الوسائل لتحقيقها في هذه الحياة.





الاستقامة في اللغة: استقامَ الشيء: اعتدل واستوى⁽⁸³⁾.

1 - سلوك الصراط المستقيم.

3- لزوم أوامر الله واجتناب نواهيه ومعرفة أثر ذلك.

ومنطلق هذا البحث هو التوجيه النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت بالله ثم استقم»⁽⁸⁵⁾.

وقوله جل ذكره: {أَبْـبُؤْبَابُ} (87).

⁸⁴ () سبق تخريجه.

85 ﴿سورة هود، الآية 112.﴾

⁸⁶() سورة فصلت، الآية 30.

⁸⁷() سورة الفاتحة، الآية 6.

* * *

أولاً: الاستقامة في العقيدة:

ثانيًا: الاستقامة في العبادة:

⁹⁰ (سورة الأنعام، الآية 162).

الثمرة الأولى لاستقامة العقيدة، لأن من أهم مقتضيات استقامة العقيدة أن هذا الإله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، وبعث مع كل مخلوق رزقه، وبيده مقاليد أمور الكون، وإليه معادها، إن هذا الإله هو الوحيد الذي يستحق العبودية، ويستحق أن توجه إليه الأعمال، فثمة علاقة وطيدة بين استقامتي العقيدة والعبادة، يقول تبارك وتعالى: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْعِبَادَةِ لَأَقُولَنَّ بَلْ لَكُمْ أَعْيُنٌ لَا تَبْصُرُ} (91).

ثالثاً: الاستقامة في التشريع:

أما الاستقامة في التشريع فتعني التحاكم إلى منهج الله تعالى في جميع العلاقات والمعاملات، ابتداء من علاقة الإنسان مع أسرته في بيته وانتهاء بعلاقته مع القضايا المصيرية الكبرى، وإن الحياد عن هذا المنهج والتحاكم إلى غيره يعدّ خرقاً عقدياً خطيراً يجلب غضب الله تعالى وسخطه على الناس، لأن التحاكم إلى غير منهج الله تعالى يدل على وجود منهج وقانون أفضل وأصلح منه، وإن الاعتقاد بهذا يعدّ كفراً واضحاً، لذا جاء التحذير الإلهي للأمة من مغبة اللجوء إلى تشريع آخر، أو التحاكم إلى قوانين بشرية ظالمة، وأنه لا سبيل لهم ولا اختيار إلا التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، يقول تبارك وتعالى: {وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ} (92).

ويقول أيضاً: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ} (93).

ففي ظل هذا التشريع الرباني تتحقق العدالة والمساواة بأجلى صورها، لأن الناس سواسية أمام حكم الله، فلا يستثنى هذا الحكم أحداً مهما بلغ من الجاه والمكانة والنسب بين قومه، فيجلس في الخصومات الغني مع الفقير، والسيد مع عبده، والأمير مع مأموره، والتاريخ الإسلامي حافل بأحداث وصور رائعة تعبر عن قوة هذا التشريع الرباني وقوة قضائته وكيف أن أكابر الناس وساداتهم كانوا يرضخون ويضعفون أمام حكمه وقضائه.

رابعاً: الاستقامة في الأخلاق:

إن الاستقامة الخلقية تعني تلك الخوارج والمشاعر الوجدانية الطيبة التي تدغدغ النفس الإنسانية، وتزكيها وتملؤها بكل معاني الخير من حب وإيثار وعفة وتعاون وإحسان وغيرها، ثم تتحول تلك الوجدانيات إلى ترجمة واقعية

(91) سورة النساء، الآية 65.

(92) سورة الأحزاب، الآية 36.

(93) أخرجه مالك في الموطأ (2/904، رقم 1609) كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق. وأحمد (2/381، رقم 8939). والحاكم (2/613، رقم 4221). وفي رواية مالك: «حسن الأخلاق»، ورواية أحمد: «صالح الأخلاق» وكذلك الحاكم، وفي رواية أخرى للحاكم (2/67، رقم 422) مكارم الأخلاق.



يعبر عنها سلوك الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع الناس من حوله.

وعلى نقيض الاستقامة الخلقية يوجد الانحراف الخُلقي، الذي هو نتاج الوسوسة الشيطانية التي تغذي النفس الإنسانية بالخباثت والشرور، فتتحول هذه النفس إلى مرتع خصب للمعاصي والمنكرات التي تترجم إلى واقع عملي تتجسد في سلوك الإنسان وحركة جوارحه.

من أجل ذلك كان من أهم المبادئ التي جاء الرسول ﷺ لإرسائها في الأرض هو تثبيت دعائم الأخلاق في واقع الناس، حيث يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽⁹⁴⁾، كما جاء الثناء الإلهي لرسوله عليه الصلاة والسلام في الآية الكريمة {كُنتَ تَدْعُ إِلَىٰ خَيْرٍ} ⁽⁹⁵⁾.

وهذا يدل على أن الاستقامة الخلقية لها شأن عظيم في حياة الناس، وأنها مقياس أساس لمعرفة حضارة أمة أو انحطاطها، وهو ما عبّر عنه الشاعر بقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن من أهم العوامل التي تمرن النفس على اكتساب الاستقامة الخلقية، هي العبادات التي تمثل حبل التواصل مع الخالق جلّ وعلا، فالصلوات الخمس التي يقف الإنسان فيها بين يدي الله تعالى، ويبدأ بالتحميد والثناء، والاستعانة به في الحياة، ومن ثم الدعاء بالاستقامة العامة في الدنيا والآخرة، استقامة في العقيدة واستقامة في العبادة والأخلاق بقوله {ثُمَّ تَدْعُ إِلَىٰ خَيْرٍ} ⁽⁹⁶⁾، فضلاً عن الأذكار الأخرى من تسبيح وتكبير وتعظيم، وكذلك العبادات التي تزكي النفوس وتقوّم الجوارح على صنوف الخير، كالصيام والزكاة والحج، والإنفاق في سبيل الله وغيرها، كلها تعين المسلم على تأسيس الدعامات الخلقية لديه.

لذا جاء في شأن الصلاة: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ حَمْدٌ لِلَّهِ} ⁽⁹⁷⁾، وجاء في شأن الزكاة: {كُلُّ شَيْءٍ رَزَقْنَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ⁽⁹⁸⁾، وجاء في شأن الصيام: «وإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم»⁽⁹⁹⁾، وجاء في شأن الحج: {أَبْشِرُوا بِالْأُمَّةِ السَّائِمَةِ} ⁽¹⁰⁰⁾، وغيرها من النصوص كثير.

⁹⁴ (سورة القلم، الآية 4.

⁹⁵ (سورة الفاتحة، الآية 6.

⁹⁶ (سورة العنكبوت، الآية 45.

⁹⁷ (سورة التوبة، الآية 103.

⁹⁸ (أخرجه البخاري (ص306، رقم 1904) كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا سُئِمَ؟.

ومسلم (ص469، رقم 2706) كتاب الصوم، باب فضل الصيام.

⁹⁹ (سورة البقرة، الآية 197.

¹⁰⁰ (سورة النحل، الآية 90.

103 () سورة فصلت، الآية 33.

* * *

108 سورة الحجر، الآية 9.

3 – الاستقرار والإنتاج:

ثم إن الاستقامة تدفع صاحبها للعمل بجد وإخلاص في أي مكان كان، في البيت أو المدرسة أو الشارع أو المصنع أو المتجر، وهذا يؤثر بصورة إيجابية على نوعية الإنتاج المتعلق بطبيعة العمل، سواء كان نتاجاً فكرياً أو صناعياً أو زراعياً أو تقنياً، لأن جميعها يصب في صالح الأمة وتفوقها المادي والمعيشي.

4 - تحقيق الخيرية:

إن مفهوم الخير مفهوم واسع يشمل خصلاً كثيرة، وقد حددها الله تعالى في كل ما أمر به ونهى عنه، فأى إنسان أو أمة أخذت بهذه الخصال تدخل ضمن هذا المفهوم، ومن تلك الخصال الاستقامة، فإذا ما وجدت هذه الخصلة في أي واقع فإنها تضيف عليه صفة الخيرية، لذا وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بهذه الصفة بقوله: {وَوُفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ} (١١٤).

ومن أجل ذلك عَدَّ الله تعالى هذه الأمة بأنها خير الأمم لأنها عرفت دين ربها وسارت عليه، وبذلت في سبيله الأموال والدماء، يقول تبارك وتعالى: ﴿ث

¹⁰⁹() سورة النور، الآية 55.

110) سورة الأعراف، الآية 96.

111) سورة الجن، الآية 16.

112 ﴿سورة المائدة، الآيتان 65-66﴾

113 سورة البينة، الآية 7.

114) سورة آل عمران، الآية 110.

ثُذُتْ ثُذُتْ ثُذُتْ ثُذُتْ ثُذُتْ (115).

5 - العزة والنصر والقوة والغلبة:

إن صدق التعامل مع الله تعالى في السراء والضراء، وفي السر والعلن، وصدق التوكل عليه والاستعانة به لا من غير سواه، وأداء الفرائض والواجبات كما يريد الله تعالى، يمنح الأمة النصر والتمكين والغلبة والقوة، لقوله تعالى: {كَذُوْ وُوْ وُوْ وُوْ وُوْ} (116).

وبالمقابل فإن الحياء عن الصراط المستقيم، واللجوء إلى غير الله تعالى، واتباع الهوى وترك الفروض والواجبات، والتكالب على الدنيا، سبب في هوان الأمة وذلكها وضعفها وتحكم الأعداء بها، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» (117).

* * *

الاستقامة والمرض النفسي:

من فضل الله تعالى أن أهم ما يشرح صدر المؤمن، ويضفي عليه السكينة - كما سبق - استقامته الحقة على شرع الله تعالى، واتباعه لهدي نبيه صلى الله عليه وسلم، فهذا من أهم العناصر للطمأنينة والسكينة، وعدم القلق والاضطراب والشكوك والأوهام.

وحتى تؤدي الاستقامة أكلها مع شرائح المجتمع عامة والمريض النفسي خاصة، لا بد من بعض الإجراءات أو اتباع بعض التوجيهات، للتغلب على الأمراض النفسية وتخفيف وطأتها على الإنسان المريض، ومن تلك التوجيهات - وهي جزئيات الاستقامة - لكن ينص عليها بخصوصها:

1 - الثقة بالله تعالى:

وذلك باللجوء إليه وحده بالدعاء وتقديم الطاعات بين يديه، والثقة المطلقة أنه هو الشافي الأول والأخير، وأنه الذي بيده مقاليد الأمور، فلا يتحرك ساكن، ولا يسكن متحرك إلا بأمره، والكون كله بقضيبته، وأنه على كل شيء قدير، ثم أنه هو الذي ابتلى عبده بالمرض وهو الذي يشفيه، لقوله تبارك وتعالى: {ثُوْئُوْ} (118).

(115) سورة محمد، الآية 7.

(116) أخرجه أبو داود (ص501، رقم 3462) كتاب البيوع، باب النهي عن العينة. والبيهقي في السنن الكبرى (5/316، رقم 10484). وهو حديث صحيح.

(117) سورة الشعراء، الآية 80.

(118) سورة يوسف، الآية 87.

والله تعالى عند حسن ظن عبده به، فلا يسيء العبد الظن بربه فيتعب ويشقى، ومن ثم يطول المرض أو ربما لا يبرأ منه أبداً.

2 - التفاؤل وتقوية الإرادة:

إن المرض ابتلاء من الله تعالى، وهو حالة ضعف يصيب الإنسان، وبالتالي فإن هذه الحالة تحتاج إلى الصبر وقوة في الإرادة، والابتعاد عن كل ما يحدث اليأس أو القنوط من رحمة الله تعالى بالشفاء، فإن الصبر على المرض يعد نصف العلاج، وإن الصابرين والمتفائلين لديهم قابلية الشفاء أكثر من غيرهم، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ (119).

3 - التدوي:

ولا بد للمريض النفسي وغير النفسي، أن يأخذ بالعلاج ويتناول الدواء الذي يصفه الطبيب المختص إلى جانب قراءة القرآن والدعاء، ما دام هذا الدواء مباحاً وغير محرم، ويعد هذا من باب الأخذ بالأسباب، ولكي يتحقق مفهوم التوكل بالمعنى الصحيح، ثم إن النبي ﷺ يقول بصريح العبارة: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو قال دواء إلا داء واحداً قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم» (120).

* * *

مناهج وسلوكيات خاطئة:

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى بعض السلوكيات التي تخل بالاستقامة مع الله تعالى، فتخرجها عن مسارها الصحيح، وتأخذ بصاحبها إلى دروب مظلمة ومستنقعات أسنة، وتزيد من شقائه ومرضه في الحياة فضلاً عن سخط الله تعالى وعذابه يوم القيامة، ومن تلك الانحرافات:

1 - اللجوء إلى السحرة والمشعوذين والكهّان والدجالين:

ربما يصيب مفهوم الاستقامة عند الإنسان في عقيدته التي هي سنام أمره ومناطق قبول عمله من عبادات وطاعات، لأن الخلل الذي يصيب العقيدة يفسد جميع ما يترتب عليه من أعمال، ومن الأمور التي تفسد العقيدة وتخل بها هو التخلي عن الله تعالى وكتابه وسنة نبيه ﷺ في الأمراض لا سيما النفسية منها، ومن ثم اللجوء إلى المشعوذين والسحرة ليبرأهم ويشفيهم مما هم فيه،

¹¹⁹ (أخرجه الترمذي (ص 469-470، رقم 2038) كتاب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

¹²⁰ (أخرجه أحمد (2/ 429، رقم 9532). وأبو يعلى (9/280، رقم 5408). وهو حديث صحيح.

وتصور – أخي القارئ – أن هذا الكاهن أو الساحر لو كان صادقًا لنفع نفسه، فهل يتجه إلى نفع غيره وهو لم يستطع أن يقدم لنفسه سوى الذلة والهوان لمستخدميه من الجن.

من السلوكيات التي تحيد بالاستقامة عن مسارها، اعتراض الإنسان على حكم ربه وقدره حين ابتلاه بحال معينة، من مرض أو فقر أو عجز أو أية مصيبة أخرى، فيتضجر من الحال ويتأفف منها بصورة دائمة، ويكثر من الشكوى إلى العباد، وربما يتلفظ بألفاظ تخدش عقيدته، متجاهلاً حقيقة الابتلاء الذي هو جزء من سنة الله تعالى في كونه، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَذُكِّرُ النَّاسَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَنَّ لَهُمْ فِيهَا أَشْجَارٌ لَهُمْ فِيهَا أَعْنَابٌ ۖ فَيَذَرُوهَا كَعَجَرٍ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (122).

إن مداخل الشيطان على النفس كثيرة ومتنوعة، وأحد هذه المداخل عندما يصيب الإنسان بلاء أو مرض، ثم تطول الفترة دون جدوى للخلاص والشفاء، فحينها يجد الشيطان فرصة مناسبة للولوج إلى نفس المبتلى لينفث فيها من همزاته ونزغاته، لا سيما إذا أخذ المبتلى ببعض الأسباب للخروج من أزمتة، فيوسوس إليه الشيطان أين نتيجة دعواتك الطويلة وقراءتك للقرآن وأنت لا تزال تعاني المشكلة نفسها، فيثير هذا النفث في نفس المبتلى ريباً وتشكيكاً في شرع الله تعالى، لا سيما أولئك الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فيتأثرون بأضعف المؤثرات الشيطانية، وينقادون بكل سهولة وراء ما يملئ عليهم شياطينهم من الشبهات.

فإن الأولى لهؤلاء الناس أن يلجئوا إلى الله تعالى في بداية الأمر ويسدوا
وساوس الشيطان من كل منفذ، لقوله تبارك وتعالى: ﴿يَجِدُكَ دُونَكَ﴾

121) سورة الملك، الآية 2.
122) سورة الأعراف، الآية 200.

عندما يعتقد الإنسان أن منافذ الخلاص من المصيبة قد سدّت في وجهه، فيخبره الطبيب أنه لا يوجد دواء لمرضه، أو تقع عليه خسارة مالية، ونحو ذلك فيجد نفسه - فيما يظن - مضطراً إلى اللجوء إلى الأساليب الشيطانية من سحر ودجل وخرافة، فيحيد عن منهج الله تعالى الذي أمره جل وعلا بالاستقامة عليه، فيسرع الهرولة إليهم، فلا يجد إلا الشقاء والخسارة المالية، ومن ثم يقع في اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، فيفتح باباً عظيماً للشيطان فيزيده بأساً وقنوطاً، حتى يشك في قدرة المولى جل وعلا على حل مشكلته، فتتوالى الأسئلة على ذهنه لم يُقدر عليّ ذلك؟ وما بال غيري في حالة أخرى؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي قد يخرج بها من الملة والعباد بالله.

وبناء على ذلك من أهم خطوات الاستقامة ومعالمها: عدم اليأس والقنوط، واستشعار أن فرج الله قريب، يتذكر دائماً قول الله تعالى: ﴿وَوَوِّدُ وَوَوِّدُ وَوَوِّدُ﴾ (125)، وقوله عليه الصلاة والسلام في وصيته لابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» (126)، وقول الشاعر:

وليعلم أنه مع اليأس لا ينفع الدواء، إذ أن المناعة النفسية تكون ضعيفة، فلنجدد استقامتنا الحقيقية حتى لا نخدش فتنًا تُرهم أسس النفسية السوية.

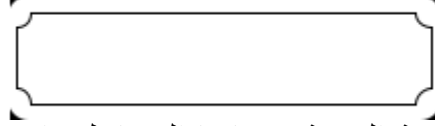


¹²³() سورة إبراهيم، الآية 22.

124 } سورة الشرح، الأيتان 5-6.

125) أخرجه أحمد (1/307، رقم 2804).

المعجم الوسيط 1/249.



من أهم أسس النفسية السوية، وبنائها المتماسك: الإخلاص في التعامل مع الله سبحانه، وصدق التوجه إليه، ولذا؛ نبسط الكلام هنا عن الإخلاص من هذا الوجه.

مفهوم الإخلاص:

الإخلاص في اللغة: كلمة الإخلاص: كلمة التوحيد، وسورة الإخلاص: قل هو الله أحد⁽¹²⁷⁾.

وفي الاصطلاح: أن يقصد العبد بقوله وفعله مرضاة الله تعالى تنفيذاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، دون النظر في ذلك إلى مغنم أو سمعة أو جاه أو لقب. وهو أمر خفي تكتنفه النفس الإنسانية لا يطلع عليه غير الله تعالى، الذي خلق هذه النفس ويعلم ما توسوس بها وما تجول فيها من خير أو شر.

أما **النية** فهو تمييز العمل، والقصد به وجه الله تعالى.

وبذلك يكون الإخلاص هو الشطر الثاني من النية، أي أنه جزء منها.

يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى»⁽¹²⁸⁾

* * *

⁽¹²⁷⁾ سبق تخريجه.
⁽¹²⁸⁾ سورة البينة، الآية 5.

مدار قبول الأعمال على الإخلاص:

إذا كان المقصد والدافع إلى أي قول أو عمل أو اتخاذ أي نمط من الحركة في الحياة يبتغي به صاحبه وجه الله تعالى فإن ذلك يحقق معنى الإخلاص ويعّد صاحبه من المخلصين لله تعالى، وهو الأمر الذي أشار إليه الله تعالى في كتابه المبين في مواطن كثيرة، منها:

قوله تعالى: {كَلِمَاتٍ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ حُنْفًى فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ لَآلِئٌ مَّعِشَةٍ} (129) وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِكُمْ ذَلِكُمْ سُبُلٌ كَثِيرٌ قَدْ جَاءَ لَكُمُ الْكِتَابُ فِي الْفُرْقَانِ} (130) وقوله: {ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ فِي قُرْآنٍ مُّعَرَّبٍ} (131).

وقوله جل ذكره: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (١٣٢).

وكذلك فإن رسول الله ﷺ كان يعلم الصحابة حقيقة الإخلاص والعمل لله تعالى في كثير من المواقف والأحداث، ليتجنبوا الاغترار بالشكل والصورة التي لا تعبر عن حقيقة الشيء وكنهه، وأولى هذه التوجيهات يتمثل في الحديث المشهور بين المسلمين: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى...»⁽¹³³⁾

وفي هذا الحديث القول الفصل بين ما يكون لله وما يكون لغيره.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (134).

عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (135).

* * *

ثم إنه عليه الصلاة والسلام علق الإخلاص لله وحده دون سواه وجعله من معالم الإيمان وتمامه، لأنه يعبر عن اليقين المطلق بالله سبحانه وتعالى وأنه المعبود الذي يستحق أن توجه إليه الأعمال والأقوال، من أمر ونهي، وحب

¹²⁹() سورة الزمر ، الآية 2.

130 (سورة الأنعام، الآية 162).

131) سورة النساء، الآيتان 145-146.

132 () سبق تخريجه.

¹³³ () أخرجه مسلم (ص1124، رقم 6542) كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

¹³⁴() أخرجه البخاري (ص1285، رقم 7458) كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ع ع ع)

¹³⁵ أخرجه أبو داود (ص661، رقم 4681) كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه.

وبغض، يقول عليه الصلاة والسلام: «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»⁽¹³⁶⁾.

* * *

منطلق البحث في هذه الشعيرة:

وأما منطلق هذا البحث فهو الحديث الطويل الذي يتحدث فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أهمية الإخلاص في الأعمال والأقوال في الحياة الدنيا، فضلاً عن جزائه الأوفى عند الله تعالى يوم تقوم الأشهاد، وهو حديث الرهط الثلاثة الذين أواهم الغار:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أوفوا المبيت إلى غار فدخلوه فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منكم اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغيق قلبهما أهلاً ولا مالا ففأى بي في طلب شيء يوماً فلم أربح عليهما حتى ناما فخلت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغيق قلبهما أهلاً ولا مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فأنفرت شينا لا يستطيعون الخروج قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فارتبتها عن نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسي ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت لا أجل لك أن تقض الحاتم إلا بحقه فخرجت من الوفوع عليهما فأنصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فأنفرت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الثالث اللهم اني استأجرت أجراً فاعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فتمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجره فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرفيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت اني لا أستهزئ بك فأخذته كله فاستأفه فلم يترك منه شيئاً اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فأنفرت الصخرة فخرجوا يمشون»⁽¹³⁷⁾.

في هذا الحديث بيان وتذكير للأمة عن أصل العلاقة التي تربط العبد بربه وخالقه، وأنها تدخل في كثير من الأحيان في عملية المد والجزر، بين قوة في الإيمان وضعف فيه، بين الصفاء الذي يسدل على النفس السكينة والهدوء وبين

⁽¹³⁶⁾ أخرجه البخاري (ص362، رقم 2272) كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك أجره. ومسلم (ص1188، رقم 6949) كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار والتوسل بالعمل الصالح.

⁽¹³⁷⁾ (سورة العنكبوت، الآية 65).

حتى المشركين في الجاهليات الأولى قبل الإسلام، كان عندهم هذا الاعتقاد في النوازل والمخاطر التي تحدث بهم، وكانت دعواتهم إلى الله وحده من غير وسيط أو صنم، لكنهم سرعان ما كان الشيطان يغشيهم وينسيهم تلك الصعاب بعد نزوحها، فيرجعون إلى أصنامهم وأحجارهم، قال الله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ لِيُزَكِّيَ اللَّهُ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْهُمْ لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سُوٓءُهُمْ وَلِيُؤْثِقَ لَهُمْ الْوَعْدَ ۚ﴾ (١٣٨).

* * *

وفي هذا الحديث يقدم الرهط الثلاثة ثلاثة أعمال كانت خالصة لله تعالى، أنقذتهم في ساعة العسرة وأفرجت الصخرة عن الغار الذي آواهم، وهي:

وهو من الأعمال الصالحة التي أمر الله عباده بها، ورفع من شأن صاحبها، حيث جاء الأمر الإلهي باقتران هذا العمل بتوحيده سبحانه وتعالى بالعبودية، قائلاً: {بِكِ كَيْ كُ كُ ن ن} (139). وأيضاً قوله تعالى: {بِكِ كَيْ كُ كُ ن ن} (140).

وبالمقابل جاء التحذير والوعيد لمن لم يحسن إلى والديه، بل وصل الأمر بهذا التحذير إلى أن إظهار أي علامة أو تلميح يدل على التضجر منهما يدخل في دائرة الإساءة لهما، لقوله تبارك وتعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أَنَّكُمْ إِلَىٰ آبَائِكُمُ مُّخْطِئُونَ﴾ (١٤١).

فضلاً عن الأحاديث الكثيرة التي وردت بهذا الشأن، فقد سئل النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله: قال الصلاة على وقتها قال ثم أي قال ثم بر الوالدين قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله⁽¹⁴²⁾.

¹³⁸() سورة النساء، الآية 36.

139) سورة الاسراء، الآية 23.

140) سورة الإسراء، الآيتان 23، 24.

141} أخرجه البخاري (ص89-90، رقم 527) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها. ومسلم (ص52، رقم 85) كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال.

¹⁴²() سورة الإسراء، الآية 32.

وقد تقرب أحد هؤلاء الرهط إلى الله تعالى ببره إلى والديه وذكر موقفًا من موافقه الكثيرة مع والديه، والذي كان فيه من المخلصين مع الله تعالى، والله أعلم بإخلاصه، من أجل ذلك أفرج الله تعالى بإزاحة جزء من الصخرة عن غارهم.

ثانيًا: ترك الزنا:

الزنا من الكبائر التي نهى الله عنها في كتابه المبين، وعدّها من الفواحش الكبيرة التي تفسد الناس وتفسد المجتمعات، لما له من آثار على أخلاقيات الأمة ومقوماتها واختلاط أنسابها والآثار السلبية المتنامية التي لا تنتهي من جرّائها، فضلاً عن العقوبة الربانية المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: (زُرْزُورٌ كَى كَى كَى) (143).

وجاءت السنة النبوية لتؤكد عظم فعل الفاحشة وعقوبته، وكذلك الأجر المترتب على تركه واجتنابه، يقول عليه الصلاة والسلام: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله..» (144).

فكان العمل الثاني الذي تقرب به أحد الرهط الثلاثة إلى الله تعالى، هو الامتناع عن فعل الزنا، بعد أن تهيأت له أسبابه، وسهل عليه الوقوع فيه، ولكن لم يمنعه من ذلك إلا خوف الله تعالى، واستشعاره بمراقبته له، وكان مخلصاً في تلك الوقفة مع الله تعالى، فأزاح الله تعالى بسبب ذلك الإخلاص جزءاً آخر من الصخرة عن باب الغار.

ثالثاً: إعطاء حقوق الأجير:

قال عليه الصلاة والسلام: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعط أجره»⁽¹⁴⁵⁾. وقال في حديث آخر: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»⁽¹⁴⁶⁾.

وهذا يعني أن أكل مال العامل أو الخادم أو الأجير يعد من الأفعال المذمومة التي نهى عنها الرسول عليه الصلاة والسلام، وتوعد من يفعل ذلك بالخصومة والجفاء يوم القيامة، وهذا يدل على أنه سيحاسب حساباً عسيراً أمام

¹⁴³ () أخرجه البخاري (ص230، رقم 1423) كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين. ومسلم (ص415، رقم 1031) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل.

144) أخرجه البخاري (ص361-362، رقم 2270) كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى صلاة العصر.

¹⁴⁵ () أخرجه ابن ماجه (ص350، رقم 2443) كتاب الرهون، باب أجر الأجراء.
¹⁴⁶ () سورة الطلاق، الآية 3.

الله تعالى وسيخاصمه النبي ﷺ لانتزاع حقوق الناس منه إما بإلقاء سيئاتهم عليه، أو أخذ حسناته لهم.

ولأهمية هذا الحق وعلو شأنه عند الله تعالى، تقرب الأخير من الرهط الثلاثة إلى الله تعالى، بورعه وخوفه من الاقتراب من المال الحرام الذي كان تحت يده وهو لأجير، بل لم يكتف أنه حفظ هذا المال وقام برده إلى صاحبه، بل قام باستثماره حتى ازداد أضعافاً مضاعفة، فذكر هذا الفعل لربه وهو في ذلك الموقف العصيب مع أخويه الآخرين، حيث لم يدفعه هذا الورع وهذا الفعل إلا خوفه وخشيته من ربه ومحاسبته، والله أعلم به من ذلك، فأزاح الله تعالى عنهم الصخرة كاملة، فخرجوا جميعاً من ظلمة الغار إلى نور الدنيا وسعتها.

لقد قدّم كل نفر من هؤلاء الرهط عملاً واحداً من الأعمال الصالحة التي كانت خالصة لله تعالى، وهي لا تعبر عن جميع الأعمال الصالحة، فالعمل الصالح الذي يدفعه الإخلاص، لا يتمثل في مجموعة محددة من الأعمال والأقوال، وإنما هو كل عمل أو قول يبتغى به وجه الله تعالى، صغيراً كان أو كبيراً.

ومن هذه الأعمال الصالحة النابعة من الإخلاص ما يلي:

1- الأعمال القلبية:

وهي أحاسيس القلب وأحاديثه وتصوراته نحو خالقه جل شأنه، بصورة تنعكس على واقع الإنسان في حركاته وسلوكه، ومن الأعمال القلبية التي تربط الإنسان بربه:

- **التوكل على الله تعالى:** وهو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب، ويجازى الإنسان عليه، بل سبب في حفظه من المكاره والشرور، لقول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (147).

- **الرجاء والطمع في رضى الله تعالى ورحمته وجنته، وهو يدخل في باب حسن ظن الإنسان بربه وهو عمل قلبي، يقول الله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ خُفِّيَتْ لَكُمْ﴾ (148).**

ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «إن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني» (149).

(147) سورة السجدة، الآية 16.
(148) أخرجه مسلم (ص1169، رقم 2675) كتاب الذكر، باب فضل الذكر والدعاء. والبخاري (ص1272، رقم 7405) كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِمُ﴾ [آل عمران: 28].
(149) أخرجه مسلم (ص68، رقم 128) كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسينة لم تكتب.

ويقول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فآكتبوها سيئة وإذا همّ بحسنة فلم يعملها فآكتبوها حسنة فإن عملها فآكتبوها عشرين» (150).

- الخوف منه جل وعلا، فلا يغطي جانب الرجاء على جانب الخوف في الإنسان، بل لا بد من توازن بينهما لقوله تبارك وتعالى في الآية السابقة: {إِذَا كُنْ

غَ كُ} (151) وهو من الأعمال القلبية التي يرتبط العبد بربه ويحدد مدى إخلاصه له جلّ وعلا.

- الشكر على نعم الله والآئه التي لا تعد ولا تحصى، شكرًا قلبيًّا صادقًا لله تعالى، حيث يقول الله تعالى: {قَدْ قَفَّ قَفَّ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ} (١٥٢).

- **الصبر** على الابتلاءات المختلفة التي يُبتلى بها الإنسان في حياته، من فقر أو مرض، أو ظلم، أو حبس، أو غير ذلك، فالعمل الصالح القلبي يكمن في مدى تصبر هذا الإنسان لقضاء الله تعالى وقدره، ومدى تقبله وترضيه لأمر الله تعالى، والآيات القرآنية ملئية بالجزء الكبير للصابرين في هذه الحياة، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ (١٥٣).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»⁽¹⁵⁴⁾.

كل هذه الأعمال القلبية وغيرها كثيرة ومتفرعة تدخل ضمن العمل الصالح الخالص لله تعالى.

2- الأعمال اللسانية (القول):

وهي كل ذكر لله تعالى، في أي موقف كان، فلا ينحصر العمل اللساني في الصلاة فحسب، بل هناك مواطن ومواقف يجب على الإنسان ألا يغفل أو يتهاون فيها عن العمل اللساني، ومن ذلك:

- قراءة القرآن:

[illegible]

¹⁵⁰() سورة السجدة، الآية 16.

151) سورة إبراهيم، الآية 7.

152) سورة البقرة، الآية 177.

153} أخرجه مسلم (ص1295، رقم 7500) كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

154) سورة المزمل، الآية 4.

155) سورة النمل الآيتان 91-92.

ج ج چ چ د د ڈ ڈ ذ ذ ٹ ٹ ظ ظ ز ز ر ر ک {⁽¹⁵⁶⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة»⁽¹⁵⁷⁾.

ويقول أيضاً: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»⁽¹⁵⁸⁾.

- ذکر اللہ جل و علا:

وهو من الأعمال اللسانية الذي يشمل كل العبادات القولية، من قراءة القرآن والاستغفار والدعاء وغيرها، وقد أمر الله تعالى بهذه العبادة القولية، وأثنى على أصحابها، وبيّن أهميتها، يقول جل وعلا: ﴿بِمِ بِي بِي تَج تَح تَخْتَم تِي تِي تَج تَم ثِي﴾⁽¹⁵⁹⁾. ويقول عليه الصلاة والسلام: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»⁽¹⁶⁰⁾.

- الدعاء:

وهو من الأعمال اللسانية التي تعين الإنسان على مخاطبة ربه جل وعلا، وطلبه العفو منه والغفران والرضى والجنة، وباللسان يرفع الإنسان إلى خالقه حوائجه ويبث إليه شكاويه ومعاناته، يقول الله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيهِ سُمْ وَلَا مُلٌ ۚ لَّهِ الْفَتْحُ وَالْغَلَبُ ۚ﴾ (١٦١) .

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وباللسان يؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، وقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الأداة في مسألة الحسبة بقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»⁽¹⁶²⁾.

- الدعوة إلى الله تعالى بالنصيحة والحكمة:

واللسان أداة مهم في دعوة الناس إلى دين الله تعالى وهدايتهم، فإذا أخلص المسلم في هذه الدعوة، وأحسن استخدام هذه الأداة كما كان عليه الصلاة والسلام يستعملها مع صحابته، فإن الله تعالى سيبارك في مسعاه وإنه سيرى

¹⁵⁶() أخرجه أحمد (2/ 342، رقم 8475).

157) أخرجه مسلم (ص325، رقم 804) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

158() سورة الرعد، الآية 28.

159) أخرجه البخاري (ص1112، رقم 6407) كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى.

160 ﴿سورة البقرة، الآية 186﴾

161) أخرجه مسلم (ص42، رقم 47) كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار.

162) سورة النحل، الآية 125.

وبالمقابل فإن استخدام اللسان بغير هذا النمط بالقسوة أو الشدة أو الإساءة وغيرها، فإن المخاطب سيزيد في عصيانه وتمرده، ويشتد في عداؤه ومعادنته، وهو ما عبر عنه الله تعالى إتماماً للآية السابقة: {ثُذْثُثٌ ذُو ثُنَىٍّ لَّهُ كَتَابٌ يُغْنِي عَنْهُ كِتَابَ الْأُولَىٰ وَمِنْ أَمْرٍ يُعْزِئُهُمْ مِنْ أَنْوَاعِنَا} (١٦٦).

وهنا لفظة مهمة للدعاة والمربين والمصلحين لا بد من الانتباه إليها، لمدى أهميتها وضرورتها في المسيرة الدعوية وهداية الناس، والقُدوة في ذلك الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام، فقد كان أحسن الناس بياناً، وأطفهم قولاً، وأقلهم كلاماً، حتى إن الأعرابي الذي يأتيه من البادية بجفائه وقسوته، ما يلبث لحظات إلا وقد تغيرت حاله وتحسنت أخلاقه وأطباعه، ومعلوم قصة الأعرابي الذي بال في المسجد وكاد الصحابة أن ينالوا منه، ولكن النبي ﷺ بحسن خلقه ولطف كلامه، جعل هذا الأعرابي يلين إليه وإلى دعوته، حتى قال: «اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً» (167).

- التدريس:

والتدريس رسالة عظيمة وأمانة كبيرة في أعناق المدرسين والمعلمين، أمام الناس الدنيا، وأمام الله تعالى في الآخرة، وهذه الرسالة بحاجة إلى إتقان وإخلاص لتوصيلها إلى الطلبة، وهي كسائر العبادات، يُجازى الذي يؤديها على وجهها المطلوب، ويُعاقب المتكاسل والمتهاون فيها، وليس من الضروري أن يكون التدريس بمادة شرعية أو دينية، بل تشمل جميع المواد العلمية والدينية.

ولا بد أن يكون المدرس على قدر من الوعي في استخدام أداة اللسان لإيصال المعلومة إلى أذهان المستمعين من الطلبة باختيار أفضل الأساليب وأحسن الكلام.

163 () سورة طه، الآيتان 43-44.

164 (سورة إبراهيم، الآيتان 24-25).

165 } سورة إبراهيم، الآية 26.

¹⁶⁶) أخرجه البخاري (ص1051، 6010) كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

167) سورة النساء، الآية 103.

وعلى مدرسي المواد العلمية ألا يألوا من جهودهم في المزج بين المادة العلمية والأخلاق، لأنهما متلازمان، لا تصلح الحياة بوحدة منها دون الأخرى.

3- الأعمال العبادية المباشرة:

ويقصد بها، الأعمال التي أمر الشرع بوجوبها، والتي تحمل الصفة الخيرية والجزاء من الله تعالى، فهي كل ما يقوم به الإنسان من عبادة أمر بها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسها:

- الصلاة: وهي من أركان الإسلام الخمسة، وهي أقوال وحركات يؤديها الله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة، في أوقات محددة، بالهيئة نفسها التي كان يؤديها الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي عمود الدين، من أنكرها فقد كفر، وهي أول ما يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة، يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتُ أَنْ يَقُولَ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَمَاذَا تَقُولُونَ﴾ (168).

ويقول عليه الصلاة والسلام: « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »⁽¹⁶⁹⁾.

فإذا أخلص المسلم أداء هذه الفريضة كما يريد الله تعالى، فإنه يعد من المؤمنون الصادقين الذين حكى عنهم الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه المبين، كقوله تعالى: {ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ي د ت ذ ث ظ ر ز} (١٧٠). ويكون بعد ذلك أثرها النفسي كثيراً.

- الصيام: وهذا الركن الإسلامي هو من أكثر الأركان بياناً لمدي إخلاص الإنسان فيه، لأنها عبادة قائمة بين الإنسان وربّه بحيث لا يقبل الرياء أو الجزاء في الدنيا من جاه أو مال أو شهرة وغيرها، ومن أجل ذلك تكفل الله تعالى، بمجازاة الصائم مباشرة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه في الحديث القدسي: « قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة » (171).

- الحج: والحج ركن من أركان الإسلام، وهو عبادة، يمزج بين الذكر والفعل، إلا أن الجانب الفعلي والحركي أكبر من الجانب القولي، لذا أعدّه كثير من أهل العلم بأنه عبادة بدنية، لكثرة التنقلات والأسفار فيه، ما بين المشاعر وأداء المناسك، يقول الله تعالى: { هـ م ع س لى كفى } ، والمسلم الذي

168() أخرجه مسلم (ص51، رقم 82) كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة

169 () سورة الأنفال، الآيتان 3-4.

170) أخرجه البخاري (ص306، رقم 1904) كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم. ومسلم (ص468، رقم 1151) كتاب الصيام، باب صفة اللسان للصائم.

¹⁷¹ (أخرجہ البخاری (ص568، رقم 1350) کتاب المحصر، باب قول الله تعالى: (يٰۤاَيُّهَا

يخلص في أداء هذا الركن بأركانه، يرجع كيوم ولدته أمه خاليًا من الذنوب والخطايا، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»⁽¹⁷²⁾.

- الإحسان إلى الآخرين:

والإحسان باب واسع من أبواب العمل الصالح، ويترتب على الإخلاص فيه أجر متنام من الله تعالى، لأنه يشمل كل أنواع الخير والرحمة زيادة عما افترضه الله تعالى، فهو لا يتوقف عند عمل معين أو ذكر محدد، ولا يتوقف هذا الإحسان إلى البشر فحسب، بل يتعداهم إلى الدواب والطيور وجميع الكائنات الأخرى، والتوجهيات الإسلامية واضحة وصريحة في هذا الباب، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه «أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها»⁽¹⁷³⁾.

وينصح عليه الصلاة والسلام الأمة بالرحمة إلى الدواب قائلا: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»⁽¹⁷⁴⁾.

4- الأعمال المالية:

الزكاة: والزكاة من أهم الأعمال المالية التي تدخل في دائرة العمل الصالح، فإذا أخلص الإنسان في إخراج مال الزكاة، فإنه يحصل على مكسبين عظيمين، وهما: امتثال أمر الله تعالى، والآخر تزكية النفس من حب الدنيا والتفريط عن الشرائع الفقيرة في المجتمع، يقول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾⁽¹⁷⁵⁾.

وهناك أبواب أخرى لإخراج المال عبرها وإيصالها إلى مستحقيها، وهي الصدقات الطوعية التي حث الله تعالى عباده عليها في آيات كثيرة وبين الجزاء المترتب عليها، وكذلك الأحاديث النبوية، يقول الله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾⁽¹⁷⁶⁾.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿رُكَّعًا مَّكَرًا مَّكَرًا﴾⁽¹⁷⁷⁾.

⁽¹⁷²⁾ أخرج مسلم (ص996، رقم 2245) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم.
⁽¹⁷³⁾ أخرجه مسلم (ص873، رقم 1955) كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بالإحسان في الذبح.

⁽¹⁷⁴⁾ سورة التوبة، الآية 103.

⁽¹⁷⁵⁾ سورة البقرة، الآية 274.

⁽¹⁷⁶⁾ سورة البقرة، الآية 254.

⁽¹⁷⁷⁾ أخرجه البخاري (ص233، رقم 1442) كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿رُكَّعًا مَّكَرًا مَّكَرًا﴾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً»⁽¹⁷⁸⁾.

5- الأعمال المباعة:

ويدخل في دائرة العمل الصالح والإخلاص فيه، جميع الأعمال المباحة والاعتيادية النابعة من الفطرة والحاجة الإنسانية، إذا قصد الإنسان من ورائها رضى الله تعالى، والأخذ بالحلال الذي أمر به الله تعالى، ومثال بعض هذه المباحات:

- النكاح: رغم أنه سنة كونية وفطرة إنسانية، إلا أنه يتحول إلى طاعة وعبادة إذا تم عقده بين الزوجين وفق شرع الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»⁽¹⁷⁹⁾.

وهو رحمة ونعمة من الله تعالى لعباده في الحياة، يقول جل شأنه: ﴿ذُرْثُرٌ

- الأكل والشرب: حتى الأكل والشرب وتناول جميع الطيبات التي أودعها الله تعالى في الأرض لعباده، إذا اكتسبت بالحلال، فإنها تتحول إلى عبادة وعمل صالح للإنسان، إذا ابتغى وجه الله تعالى، من أجل أن يتقوى على الكسب أو وأداء الفرائض والعبادات المختلفة، بل إن الإنسان ليكسب الأجر على اللقمة البسيطة حينما يناولها في فم زوجته، يقول عليه الصلاة والسلام لأحد الصحابة: «وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك» (181).

- النوم: ومن الأعمال الاعتيادية المباحة التي يشملها العمل الصالح، النوم الذي يعدّ راحة جسمية للإنسان من نصب العمل في النهار، ليقوم بعده وينطلق من جديد ويباشر أعماله وعباداته، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ قُفِّ﴾ (182).

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا

¹⁷⁸ () أخرجه مسلم (ص406-407، رقم 1006) كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

179) سورة الروم، الآية 21.
180) أخرجه البخاري (ص 1162-1163، رقم 6733) كتاب الفرائض، باب ميراث البنات. ومسلم (ص 714، رقم 1628) كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

181 { سورة النبا، الآية 9.
182 { أخرجه البخاري (ص317، رقم 1975) كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم. ومسلم (ص472، رقم 1159) كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر.

رسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا» (183).

والنوم هو إعطاء الجسد حقه من الراحة، فيكون ذلك أجرًا لصاحبه.

- السعي في طلب الرزق: وهو من العمل الصالح المنصوص عليه في التشريع الإسلامي صراحة، يقول تبارك وتعالى: {تَدْتُّ ثُدَّتْ فِ قَفَقُ} (184).

والذي يسعى وراء رزقه في الحياة بالطرق المشروعة فإنما هو في جهاد وعبادة ما دام خروجه من بيته وجهده المتواصل من أجل أن يأتي بهذا الرزق الطيب إلى أسرته فيطعمهم منه، وهو من الأعمال العظيمة التي أشاد بها الرسول صلی الله عليه وسلم بقوله: «أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله» (185).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» (186).

- الإنس والأحاديث في المجالس: ومعلوم أن الإنس والكلام مع الآخرين من الأمور المباحة للإنسان، لأنه بحاجة إلى من يؤنسه في الحياة، ومعلوم أن الإنسان اجتماعي بفطرته، ولكن يجب ألا يتجاوز هذا الأُنس والحديث فيه الحدود المباحة ليتحول إلى لغو وغيبة ونميمة، من أجل هذا جاء النهي من النبي صلی الله عليه وسلم بقوله: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»⁽¹⁸⁷⁾ وإذا دخل في الأُنس المزح فيجب أن يكون مشروعاً، فلا يكون كذباً وافتراءً، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا صدقاً.

بل على المؤمن الواعي أن يستغل مجالس الأُنس لأداء رسالته، ويحوّر أحاديثها لصالح دعوته ودينه، ويسعى لتحويلها إلى مجالس العلم والمعرفة ومواجهة الواقع، بدل اللّهُو واللّعب والسخرية، لأن كثيراً من رواد هذه

¹⁸³() سورة الملك، الآية 15.

184) أخرجه مسلم (ص403، رقم 994) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال. والترمذي (ص456، رقم 1966) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على الأهل. قال: حديث حسن صحيح.

¹⁸⁵ () أخرجه الترمذي (ص536، رقم 2344) كتاب الزهد، باب في التوكل على الله. وابن ماجه (ص607، رقم 4162) كتاب الزهد، باب التوكل واليقين. قال الترمذي: حسن صحيح.

186) أخرجه البخاري (ص5105، رقم 6018) كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره. ومسلم (ص41، رقم 47) كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف.

¹⁸⁷ () سورة آل عمران، الآيتان 169-170.

المجالس يهربون من هموم الواقع وضغوط الحياة المختلفة، فيكون المدخل عليهم من الأبواب التي يعانون منها.

* * *

آثار الإخلاص:

إذا أخلص الإنسان في أعماله القلبية واللسانية والمالية وفي كل حركاته وسكناته، فإن الله تعالى سيجازيه على ذلك في الدنيا والآخرة، بالثمرات الياينة والنتائج الإيجابية كما يلي:

1 - الإخلاص يجرد النفس من العوائق الدنيوية:

الإخلاص يرفع نفس الإنسان ويسمو بها إلى المعالي، ويطهرها من العوائق والأدران الدنيوية الزائلة، فيحل فيها حب الله تعالى، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، ويحل التجرد لله وحده، فيسعى بكل ما أوتي من جهد وقوة أن ينال رضا الله تعالى، وذلك بتقديم الأعمال الصالحة خاصة له جلّ وعلا.

والمتمأمل في حال المصلي والمزكي والمتصدق والصائم والمجاهد في سبيل الله تعالى، سيجد أن الذي يدفعه إلى هذا العمل هو استجابته لأمر الله تعالى، إلا ما رحم الله، وهناك بعض العبادات التي قد يخفيها الإنسان عن الآخرين، وتبقى بينه وبين الله تعالى فحسب، فلا يشوبها رياء ولا مجاملة ولا خداع، مثل الصيام الذي لا يفيد صاحبه الرياء، ولا يحس من حوله إن أفطر، ومن أجل ذلك جاء الجزء الإلهي للصائم، بقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: **«الصوم لي وأنا أجز به»** دليل على أن الصائم مخلص في صيامه لله تعالى وليس فيه حظ أو جزاء دنيوي.

وكذلك الحال بالنسبة للذي يبيع روحه في سبيل الله استجابة لداعي الجهاد، فيترك الدنيا بزخرفها وبهارجها، ويترك القصر المشيد، والمركب الفاره، والعيش الرغيد، ويترك الأهل والولد، امتثالاً لأمر الله، ونصرة للمسلمين، رغم طول المسافة ومشقة الطريق، وما يدفعه إلى ذلك إلا إخلاصه لله تعالى، ومن أجل ذلك يكتب الله تعالى له الأجر العظيم في الآخرة، والعزة والنصر في الآخرة، وإن قُتِلَ فيكون شهيدًا، ويُغسل من الذنوب، ويدخل الجنة بغير حساب، ويحشر مع الأنبياء والرسل، يقول الله تعالى: ﴿كَذَكَ كَذَكَ كَذَكَ كَذَكَ كَذَكَ﴾ {١٨٨}.

ذلك دلالة على أن النفس قد تحررت من أصفاد الدنيا وزخرفها، وانطلقت

¹⁸⁸ () أخرجه أبو داود (ص716، رقم 5088) كتاب الأدب، باب ما يقول: إذا أصبح. والترمذي (ص773، رقم 3388) كتاب الدعوات. وكذلك أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

نحو الله تعالى، وقد وضعت الدنيا في يديها وتحت إرادتها، وليس العكس كما هي حال الكثيرين الذين ملكت نفوسهم الدنيا واستولت عليها من كل جانب.

2 - النجاة لما يتعرض له من المصائب:

ومن أثر الإخلاص لله تعالى في الأعمال، أنه يحفظ صاحبه من المصائب ويقيه شر الإنس والجن، ويدفع عنه ذلّ الأعداء وظلمهم، وحديث الرهط الثلاثة شاهد على هذا الأمر، وكيف أن الصخرة انفرجت عنهم كاملة عندما كان لديهم رصيذاً من الإخلاص لله تعالى.

ليس هذا فحسب؛ بل إن الإخلاص لله تعالى يبعد عن صاحبه المصائب النفسية وآفاتهما، لأنه يحول دون وصول الشيطان إلى النفس، ما دام صادقاً في قوله وعمله وسلوكه مع ربه ومع الناس من حوله.

فالصلوات الخمس المفروضة في أوقات متفرقة في الليل والنهار، وصيام شهر رمضان، والزكاة والحج، والنوافل الأخرى من صلاة وصيام وصدقات، وذكر، ودعوة وإحسان، كلها تدخل في العمل الذي يقي الإنسان من الشرور والمخاطر في الدنيا، ومن أجل سلامة المؤمن في دينه وعلاقته مع ربه، ومن أجل سلامة جسمه وماله وأهله، حثّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على بعض الأذكار والدعوات، في ليله ونهاره، كقراءة آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتان، في كل صباح ومساء ثلاث مرات، وكذلك بعض الدعوات يقول عليه الصلاة والسلام: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي»⁽¹⁸⁹⁾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»⁽¹⁹⁰⁾.

وغيرها من الأوراد والأذكار التي حث النبي ﷺ المسلمين عليها، لتكون وقاية وحماية لهم في حياتهم وشؤونهم المختلفة.

3 - سبب في تطهير النفس من النفاق والكذب:

⁽¹⁸⁹⁾ أخرجه البخاري (ص565، رقم 3371) كتاب الأنبياء، باب (10).

⁽¹⁹⁰⁾ أخرجه البخاري (ص400، رقم 2475) كتاب المظالم، باب النهي عن النهبة. ومسلم (ص45، رقم 57) كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي.

إن الإخلاص مع الله تعالى، يطهر النفس من الكذب والنفاق والمجاملات الخادعة، لأن الله تعالى مطلع على سرائر الناس، والدوافع التي تجعلهم يقبلون على أعمالهم وأقوالهم، أو تركهم لها، وبذلك لا يجتمع الإخلاص مع الكذب والنفاق، لأنهما متضادان، وهو ما عبّر عنه الرسول ﷺ بقوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»⁽¹⁹¹⁾. وإذا تخلص العبد من النفاق والكذب سلّم من كثير من الآفات النفسية.

4 - الإخلاص سبب للنصر والتمكين في الأرض:

وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواطن كثيرة، وكذلك هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَحِمُوا رَحْمَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾⁽¹⁹²⁾. ويقول أيضاً: ﴿تَذُدُّنَّ رُكُوكَ كَذِّكَ﴾⁽¹⁹³⁾. ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»⁽¹⁹⁴⁾.

والتاريخ الإسلامي في عصوره الأولى، لا سيما في عصر النبوة خير شاهد حدوث هذا الأثر في واقع المسلمين، فقد حدث تحوّل كبير في حياة الصحابة رضي الله عنهم، اقتربنا بما كانوا عليه في الجاهلية، فقد انتقلوا من بيئة مليئة بالمظالم والحروب والضعف والتمزق، إلى أمة رصينة واحدة، يقودهم قائد واحد عليه الصلاة والسلام في ظل شريعة ربانية واحدة، فأخلصوا نياتهم لهذا الدين ولهذا الرسول، فتذللّت لهم الخطوب، وتوسع سلطانهم شرقاً وغرباً، وخضعت لهم القياصرة والملوك، رغم قلة العدد، وبسطة العتاد.

وما أحوج الأمة في هذا الزمن العصيب الذي تداعت فيه الأمم عليها من كل حذب وصوب، ما أحوجها أن تراجع نياتها وأعمالها، وتوجهها خالصة لله تعالى، لعل الله يبدل ذلها عزاً، وهوانها كرامة، وضعفها قوة.

5 - الإخلاص سبب في سعة الرزق والحياة الطيبة:

إن الله تعالى توعدّ هذه الأمة، ووعدّه الحق، أن إذا أخلصت له وتحاكت إلى حكمه في أحوالها وشؤونها، ولا يقصد غير سواه، وتؤتي أوامره، وتجتنب نواهيه، وعدها بالخير الوافر والرزق الواسع، والعيش الرغيد، فضلاً عن

⁽¹⁹¹⁾ سورة الأنبياء، الآية 105.

⁽¹⁹²⁾ سورة الحج، الآية 41.

⁽¹⁹³⁾ أخرجه النسائي (ص439، رقم 3180) كتاب الجهاد، باب الاستئصال بالضعيف. والبيهقي

(3/345، رقم 6616). وهو حديث صحيح.

⁽¹⁹⁴⁾ سورة الأعراف، الآية 96.

[illegible]

يقول أبو ذر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: {كُفَّ} ثم قال: ⁽¹⁹⁶⁾ «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكتفهم» ⁽¹⁹⁷⁾. وهذا الرزق على مستوى الأمة وعلى مستوى الأفراد.

6 - يكسب الفرد والمجتمع النجاح فى الحياة:

لَقَوْلِهِ تَعَالَى: {ثُ ثْ رَ رٌ كِ كٍ دَ ذَّ غَ غً}، فترى المخلصين في الحياة الدنيا، من أسعد الناس، وأكثرهم تفوقًا ونجاحًا، لأنهم يعملون بخطي ثابتة ومنهج مستقيم، وَيَصْدُقُونَ مع الله تعالى، ولا يريدون من أحد جزاء ولا شكوراً، فجزاؤهم وأجرهم على الله تعالى، لقوله جلّ وعلا: {يَجِدِيكَ تَدْتَدُّ نَارُهُ لِقَائِكُمْ} (١٩٩).

كما ترى المخلصين أقلّ الناس قلَقًا واضطرابًا في الحياة، بل تكتنفهم السكينة والراحة، في كل أحوالهم، بخلاف الرائيين الذين ينتظرون الجزاء من الناس، فلا يعملون إلا بقدر هذا الجزاء، فيفشلون ويقفون ويضطربون، وهذا هو الفصل بين العمل لله والعمل لغيرِه.

7 - الإخلاص يقيم العلاقات الاجتماعية على منهج رفيع:

تحدد العلاقات بين الناس في ظل الإخلاص على أسس متينة، وأهداف سامية، لأنها قائمة على حب الله تعالى، وعلى الخير والمودة والرحمة، التي أمر الله أن تكون الأصل في العلاقات بين الناس، يقول عليه الصلاة والسلام: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»⁽²⁰⁰⁾. وجاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في هذا الصدد.

فتذوب في ظل الإخلاص المصالح الشخصية، والانانيات الفردية، لأن مصير أي علاقة تقوم على غير الإخلاص مرتبط بانتهاك المصلحة أو المنفعة، أما إذا كانت في الله فتبقى أبداً الدهر، بل تبقى إلى يوم القيامة، يقول تبارك

¹⁹⁵() سورة الطلاق، الآية 2.

196) أخرجه ابن ماجه (ص614، رقم 4220) كتاب الزهد، باب الورع والتقوى. وأحمد (5/178، رقم 21591). وابن حبان (15/53، رقم 6669). والنسائي في الكبرى (10/35، رقم 11539) ورجاله ثقات لكنه منقطع.

197 (سورة النحل، الآية 97).

198 () سورة النساء، الآية 124.

199) أخرجه أبو داود (ص661، رقم 4681) كتاب السنة، باب في رد الإرجاء. والحاكم في المستدرک (2/ 178، رقم 2694) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي.

200) سورة الزخرف، الآية 67.

وتعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَعْلَى لَأَكِيدُنَّ﴾ (201) وقوله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظله.. ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه..» (202).

8 - بالإخلاص يُكتب للإنسان العمل الصالح ولو لم يقم به: إذا وجدت النية ولكن منعه العذر مثل حال الصحابة في قصة غزوة تبوك، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيرة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» (203)، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَعْلَى لَأَكِيدُنَّ﴾ (204).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» (205).

* * *

الوسائل المعينة على الإخلاص:

هناك بعض العوامل التي تنشئ عند الإنسان دافع الإخلاص في الحياة، في العبادات وغيرها، ومن أبرز هذه العوامل والوسائل ما يلي:

1 - التأمل في كتاب الله تعالى ولو في آية واحدة:

إن التأمل في كتاب الله تعالى وآياته التي يخاطب الله تعالى من خلالها عباده على الأرض، يولد في النفس تعلقاً بالله تعالى وشعوراً برحمته بعباده، وهو يقرأ خطاب ربه الموجه إليه بأسلوب رائع جميل، ويصفه بالمؤمن ﴿كَذَلِكَ فِيهِ لَطْفٌ وَعَطْفٌ وَحَنَانٌ، ثُمَّ يَرْشِدُهُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى وَالنَّجَاةِ، وَيَحْذَرُهُ مِنْ طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ، وَيَهَيِّئُ لَهُ أَسْبَابَ الْهَدَايَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَحُدُوثِ الْمَعْجَزَاتِ.

يجد القارئ كل هذه الحقائق والرحمات ويلمسها في كتاب الله المبين، فيتولد لديه إخلاص حقيقي نحو خالقه وبارئه، فيوجه كل ما لديه من فعل أو قول لإرضاء الرحمن الرحيم.

2 - التأمل في الكون وفي عظمة الله وقدرته:

(201) أخرجه البخاري (320، رقم 1423) كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين. ومسلم (ص415، رقم 1031) كتاب الزكاة، باب إخفاء الصدقة.

(202) أخرجه البخاري (ص753، رقم 4423) كتاب المغازي، باب (82). ومسلم (ص854، رقم 1911) كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض.

(203) سورة التوبة، الآيتان 91-92.

(204) سبق تخريجه.

(205) سورة آل عمران، الآية 191.

ويقول أيضًا: {وَوُوْثُوْ وُوْ وُوْ يَٰٓيُجِ دُّنَا نُهُ تُوْمُوْ
تُوْمُوْ تُوْمُوْ، مِي بُدِّي مِي دِي يٰٓيُجِ حُمِّي} (207).

إذا علم الإنسان أن الله تعالى خالق الكون، بيده ملكوت السموات والأرض، وأنه لا يجري في الكون من نفع وخير أو ضرر وشر إلا بإذنه، يزداد وثاقه مع خالقه، فلا يلجأ إلا إليه، ولا يقصد أحدًا غيره، ولا يقدم الطاعة والولاء إلا له جل شأنه، فيعيش لله ويعمل لله، ويجاهد في سبيل الله، وينفق في سبيل الله، ولا يخشى في ذلك أحدًا، لأن النفع والضرر من عند الله، يقول عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» (208).

إن من أهم عوامل تكوين الإخلاص في النفس وتقويته وتصفيته لله تعالى، مصاحبة المخلصين والصالحين، لأن الإيمان يزداد وينقص، وبرفقة هؤلاء المخلصين يزداد الإيمان وتصلح الأعمال، وفي مجالسة أهل الخير والصلاح ومصاحبتهم ذكر متواصل لله تعالى، وصلوات وقيام وإنفاق في سبيل الله، وكذلك فيها تذكير بالعذاب والوعيد لمن يخالفه عن أمره تعالى، أي أن هناك تبادلاً في اكتساب الصفات والخصال في المصاحبة الطيبة، لذا يقول عليه

(206) سورة يس، الآيات 37-40.
 (207) أخرجه الترمذي (ص576، رقم 2516) كتاب صفة القيامة، باب حديث حنظلة. وأحمد (1/307، رقم 2804). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
 (208) أخرجه أحمد (2/334، رقم 8398). والحاكم (4/188).

5 - القراءة في السيرة النبوية وسير المخلصين:

ثم لا بد من دراسة سير المخلصين من العلماء والقادة والعامة من المسلمين في التاريخ، ومعرفة ما كان عليه سلف الأمة من الاستقامة والصلاح والإخلاص، حيث أثر هذه العوامل في نبوغهم العلمي، وتقدمهم المعرفي، وفي تكوين القوة والمنعة لهم في الحياة.

والدعاء من المنافذ المباشرة التي يلبي الله تعالى لعباده ما يطلبونه ويرغبون فيه، ومن أهم الأمور التي تعين على كسب الإخلاص في العمل لله تعالى، هو سؤاله جل وعلا هذا الأمر، بالدعاء المستمر والملح، بكورًا وعشيًا، ودبر كل صلاة، وفي أي وقت شاؤوا، وفي أية حال، فإنه قريب من عباده، سميع بدعواتهم، ومجيب لها، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّيْسَ فِيكَ سُلْطَانٌ مِّنْ شَيْءٍ لَّيْسَ لَهُمْ شِرْكٌ بِكَ لَئِنْ لَّمْ يَنفِرْ بِيَدِكَ إِلَٰهَاتُهُمْ لَأَنقَضَنَّ بَيْنَهُمُ الْوَعْدَ لَئِنْ لَّمْ يَنفِرْ بِيَدِكَ إِلَٰهَاتُهُمْ لَأَنقَضَنَّ بَيْنَهُمُ الْوَعْدَ لَئِنْ لَّمْ يَنفِرْ بِيَدِكَ إِلَٰهَاتُهُمْ لَأَنقَضَنَّ بَيْنَهُمُ الْوَعْدَ﴾ (210) ويقول تبارك وتعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (211).

7 - أن يقبل العبد على عمل صالح بصورة سرية ودائمة، لا يطلع عليه أحد من الناس، لأن ذلك يكون عنده الإخلاص لله تعالى، لأنه بعيد عن أنظار الناس ومدحهم وثنائهم، وربما يشفع هذا العمل لهذا العبد يوم القيامة، ويدخله الجنة والنعيم، وليس من الضروري أن يكون عملاً كبيراً وشاقاً، فرب عمل صالح صغير يدوم عليه العبد، يربيه الله تعالى له، فيصبح كالجبال في الأجر

²⁰⁹() سورة البقرة، الآية 186.

210) سورة الأعراف، الآية 55.

211} سورة الزمر، الآية 53.

²¹² (أخرجه البخاري (ص10، رقم 43) كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه. ومسلم (ص318-319، رقم 785) كتاب صلاة المسافرين، باب فصل العمل الدائم.

والمثوبة، تقول عائشة رضي الله عنها عن حال النبي صلى الله عليه وسلم: «وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه»⁽²¹³⁾.

* * *

آثار عدم الإخلاص (الرياء):

إذا كان الإخلاص لله تعالى يجلب للإنسان تلك الثمرات الخيرة في الدنيا، من راحة نفسية، وسعادة وسعة في الرزق والمأكّل والمشرب، ويمنحه النصر والتمكين في الأرض، والنجاح والتفوق في الحياة، فإن خلاف هذا الإخلاص وهو الرياء والعمل لغير الله تعالى، من أجل مصلحة دنيوية أو شهرة بين الناس، أو جاه أو منصب ووظيفة، فإن ذلك يكسب الإنسان عكس تلك الثمرات والنتائج لصاحبه، وهي كالاتي:

1 - التعلق بالمخلوقين:

[illegible]

2- الاضطراب النفسى والقلق:

إذا تعلق الإنسان بالعباد وترك رب العباد، فإنه يبقى في حالة من القلق والتوتر النفسي الدائم والتفكير المستمر لينال إعجاب هذا المخلوق بعمله أو علمه، ويصبح ذلك هاجساً له، لا يتركه أبداً، حتى أثناء نومه ربما يحلم به وبذلك العلاقة، الأمر الذي يهدد النفس ويسهل الطريق أمام الوسواس الأخرى للولوج فيها.

3 - عدم الإنتاج إلا بحوافز دينوية:

إن الذي يعمل من أجل جزاء دنيوي من مكسب مادي أو شهرة أو أي شيء آخر، ربما يعمل بجد وإخلاص في ميدان عمله، ولكن هذا النشاط سرعان ما

²¹³() سورة الحج، الآية 73.

213) سورة الحج، الآية 73.
214) أخرجه مسلم (ص1222، رقم 2808) كتاب صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتجيل سيئات الكافر في الدنيا.

ينتهي إلى خمول وفتور وقلة في الإنتاج، بعد أن يصل إلى غايته، والواقع المعاصر يشهد على هذه الحقيقة، حيث لا يتناسب إنتاج المؤسسات والشركات والوزرات المختلفة أبدًا مع العدد الهائل من العاملين فيها، وذلك بسبب ضعف الوازع الديني لدى الكثيرين من هؤلاء العاملين والموظفين الذين انحسر الإنتاج لديهم، لمعرفتهم أن جزاءهم مضمون في نهاية كل شهر، سواء عملوا أم لم يعملوا، إلا ما رحم الله من بعض عباده المخلصين.

وربما يسأل بعضهم عن حال الكافرين المعاصرين في الدول الأخرى، الذين يعملون وينتجون ويبدعون، فكيف نوفق بين هذا وذلك؟

إن قاعدة ارتباط العمل بالجزاء عامة تنطبق على كل البشر، وأن كل فرد أينما كان بلده وزمانه يسير وفق هذه القاعد في عمله وحركته في الحياة، وإن الآفات التي تنتج عن الإخلاص لغير الله تعالى تتواجد في تلك المجتمعات غير المسلمة، ولكنها بنسب أقل من مجتمعاتنا، ويرجع ذلك لسببين:

أ - إنهم يخضعون لقوانين عمل شديدة لا تستثني أحدًا من الموظفين والعمال، من التزام أو مخالفة، وفي الوقت نفسه تضمن لهم هذه القوانين مكافآت شهرية مغرية جدًا إضافة إلى المكافآت التشجيعية على الإنتاج وحسن الأداء.

ب - الحرية البحثية والآليات المتوافرة لذلك تدفعهم للإبداعات والاكتشافات المتتالية، بخلاف واقع بلاد المسلمين، الذي يعاني قلة الحريات البحثية، وندرة الأجهزة الكشفية والبحثية.

وفي كل الأحوال ينطبق على المخلصين وغيرهم الحديث النبوي الشريف: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته»⁽²¹⁵⁾.

4 - تفشي الآفات الاجتماعية:

مثل الرشوة، والتزوير، والمعاملات الكاذبة، ووضع الفرد غير المناسب في المكان المناسب، مما يسبب انهيار المجتمع ومؤسساته، ويقضي على التكافل والتعاون بين أبنائه، لأن جميع المعاملات والعلاقات ستأخذ طرقات ملتوية ومسارات منحرفة، حتى تتقلب الموازين، بسوء الإدارات المسؤولة عن شؤون الناس وأحوالهم، بمعنى أن المجتمع يتحول إلى مفرزة للمشكلات والآفات النفسية والاجتماعية بصورة لا حدود لها، ذلك أن الغاية أصبحت لدى الناس تبرر الوسيلة، من جراء المعاملات الكاذبة والمظاهر الكاذبة التي تزيف

⁽²¹⁵⁾ سورة الفرقان، الآية 23.

الحقيقة في الواقع.

5 – عدم قبول العمل عند الله:

إن الإخلاص لله تعالى يصفى العمل الذي يقوم به الإنسان، ويغسله من الشوائب والمتعلقات الأخرى التي تتوجه لغير الله تعالى، فإذا نوى الإنسان من وراء أعماله وأقواله جزاء دنيوياً غير رضا الله تعالى، فإن ذلك حسبه، ولن ينال إلا ما تمنى، فقبول العمل ورفضه من الله تعالى يتوقف على النية التي من أجلها حدث الفعل أو القول، لذا إذا قدم أحدهم عمره كله في الأعمال الحسنة والجليلة، ولكنه لم يجعل لله فيها نصيب، فإن الله تعالى لن يدخر له شيئاً منها يوم القيامة، يقول تبارك وتعالى: {ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج} (٢١٦).

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مَا لَا إلهَ إِلَّا هُوَ يُبْذَرُونَ﴾^(٢١٧)

وهو أمر دقيق يجب ملاحظته في واقع الحياة، وتذكير الناس به، في علاقاتهم وأعمالهم، لأنه يحدد المصير والمآل للإنسان يوم القيامة.

وهناك لفظة لا بد من التنبيه إليها، ربما يقف عندها الكثيرون، ويتخوفوا من وضعهم في بعض الحالات التي يمرون بها، وهي مدح الناس للخصال المتوافرة في بعض الأشخاص، أو ثنائهم على بعض أعمالهم، مما يسبب لهم إشكالا في الإقدام على الخير والإحسان إلى الناس، فإن مثل هذا الثناء والمدح لا يناقض الإخلاص في شيء ما دام صاحبه واثقا من صلاح نيته لله تعالى؛ بل قد يكون ذلك من الشهادة لله على خيرية هذا الإنسان.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أ رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽²¹⁸⁾.

عن أنس بن مالك قال: «مرّ على النبي ﷺ جنازة فأثني عليها خيراً. فقال: وجبت. ثم مرّ عليه بجنازة فأثني عليها شراً فقال: وجبت فقيل يا رسول الله قلت لهذه وجبت ولهذه وجبت، فقال: شهادة القوم والمؤمنون شهود الله في

(²¹⁶) سورة البقرة، الآية 264.
(²¹⁷) أخرجه مسلم (ص1151، رقم 2642) كتاب البر والصلة، باب إذا أثنى على العمل الصالح، فهي بشرى لا تضر.
(²¹⁸) أخرجه البخاري (ص428، رقم 2642) كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز.

الأرض»⁽²¹⁹⁾.

* * *

وفي الختام لابد من توضيح بعض النقاط المتعلقة بالإخلاص، لفئتين من الناس، هما:

أولاً: المريض النفسي:

حيث ينبغي عليه معرفة بعض الواجبات المهمة ليخلص عمله، ويدخل بإذن الله تعالى في مرحلة الشفاء، ومن هذه الواجبات:

1 - التعلق بالله الذي خلق الكون كله وإليه مآله، فلا يتنفس كائن ولا يتحرك حركة إلا بإرادته جلّت قدرته، فلا يقصد أحد سواء بالأعمال والأقوال، ولا يرجى غيره للعلاج أو طلب الشفاء. فعليه أن يقوي إخلاصه بأعماله ويلج على الله بطلب الشفاء.

2 - التدبر في كتاب الله المبين وتلاوة آياته، بصورة دائمة وغير منقطعة، لما فيها من التعليمات والتوجيهات التي تنير الدروب وتجلي عنها الظلمات.

3 - لا بد من مجالسة النفس والخلو معها في ساعات معينة، لمراجعة شريط الأعمال والأقوال، وتصحيح ما فيه من أخطاء وذنوب ومعاصي.

4 - الاجتهاد في العبادات، من صلاة، وصيام، ودعاء وذكر، وإحسان، وإنفاق لأنها جميعاً مرتبط الجزء في الدنيا والآخرة.

ثانياً: الداعية:

فعليه معرفة بعض الأمور المهمة لنجاح دعوته، وإثمارها بثمر طيب وحسن، ومن هنا عليه أن يتذكر عظم عمله ويقوي إخلاصه فيه، ومن هذه الأمور:

1 - أن الدعوة عمل عظيم وهي من أجل الأعمال؛ بل أحسنها، فهي مهمة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبها يهتدي الناس ويستنبرون، وبسببها يكمل الله الأمة بالنصر والتمكين.

2 - أن الدعوة من غير إخلاص، لا قيمة لها ولا ثمرة في الحياة الدنيا، فضلاً عن الوبال الذي يرهق كاهل الداعية يوم القيامة.

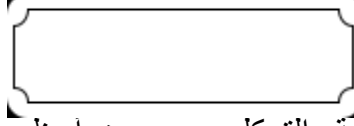
3 - ضرورة تجرد النفس من حظوظ الدنيا وزخارفها، والتوجه الصادق إلى الله تعالى بكل ما يقوم به الداعية، لأن ما يكون لله يبقى ويثمر، وما يكون

⁽²¹⁹⁾ سبق تخريجه.

لغيره، يفنى ويفسد.

4 - فَهُمُ الدَّعْوَةُ بِأَصُولِهَا الصَّحِيحَةِ، وَأَسَالِيبِهَا الْمُبِينَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى
وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، حَيْثُ إِنَّ أَهَمَّ أَوَّلِهَا هُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى.





من أهم الأعمال القلبية: التوكل، وهو من اعظم العبادات وأجلّ القربات، وأثره عظيم على الفرد في سائر شؤون حياته، وقاية من الآفات، وعلاجاً عند وقوعها، واستقامة على الطريق المستقيم، وإنتاجاً في الحياة بما يعود نفعه في الدنيا والآخرة، ونفتتح الحديث عن هذه الشعيرة بما رواه الترمذي – رحمه الله – قال:

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ الْكِنْدِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ حَيَّوَةَ بْنِ شَرِيحٍ عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا تَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»⁽²²⁰⁾.

مفهوم التوكل:

في اللغة: التوكل مأخوذ من (وَكَّلَ) يقال: وَكَّلَ بالله وتوكل عليه واتكل: استسلم إليه، والمتوكل على الله: الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره.

ومن أسماء الله تعالى (الوكيل) أي: هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول إليه.

وقد يأتي (توكل) بمعنى (تكفل) يقال: تَوَكَّلْ بالأمر إذا ضمن القيام به، والله الوكيل هو الذي تَوَكَّلَ بالقيام بجميع ما خلق، الكفيل بأرزاقنا.

ويقال: وَكَّلْتُ أمري إلى فلان أي أَلَجَّته إليه واعتمدت فيه عليه⁽²²¹⁾.

وفي الاصطلاح: هو الاعتماد على الله والثقة به والإيمان بأنه مقدر الأشياء ومدبر الأمور كلها مع النظر في الأسباب العادية من العبد وقيامه بها⁽²²²⁾.

وهذا يعني أن محل التوكل هو القلب، لأنه إيمان وتصديق بأن الله تعالى هو النافع الضار، والمتصرف بأمور الدنيا والآخرة، الأمر الذي يجعل الإنسان يفوض جميع أموره إلى خالقه سبحانه.

أما جوارح الإنسان فيظهر أثر التوكل عليها بصورة إيجابية حينما يأخذ بالأسباب المشروعة مع الاعتقاد القلبي أن الأمر كله بيد الله تعالى، ويظهر هذا الأثر بصورة سلبية حينما يعطل الإنسان نفسه عن الحركة ويترك الأسباب، ثم

⁽²²⁰⁾ لسان العرب، مادة (وكل).

⁽²²¹⁾ فتح الباري (3/4).

⁽²²²⁾ سورة القصص، الآيات 76-78.

أهمية التوكل على الله:

فلا غنى عن التوكل على الله تعالى، وليحذر الذين يغفلون عن هذه الحقيقة من غضب الله تعالى وعقابه، كما حدث لقارون ومُلكه وماله.

223 () سورة القصص الآية 81
224 () سورة الفرقان، الآية 58.

يَعُدُّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهَمِّ مَقْتَضِيَّاتِ الْعَقِيدَةِ، لِأَنَّهُ يَطْلُبُ الْعَوْنَ وَالْقُوَّةَ وَالنَّفْعَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى شَرِكًا بِهِ جَلًّا وَعَلَا، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَعَدَّدَتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالنَّبَوِيَّةُ مِنْ أَجْلِ تَرْسِيخِ عَقِيدَةِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ. وَيُمْكِنُ بَيَانُ هَذِهِ الْمَكَانَةِ وَالْمَنْزِلَةِ لِلتَّوَكُّلِ مِنْ خِلَالِ النُّقَاطِ الْآتِيَةِ:

- إن المسلم يردد في كل ركعة من صلواته هذا المنهج ويتعهد الله تعالى عليه بقوله: {تَتَتَت} (226).

- جعل الله تعالى التوكل عليه من صفات المؤمنين وثمرة من ثمرات الإيمان به جل وعلا، لقوله: {يُؤْتِيهِ} (228). وقوله تعالى: {يُؤْتِيهِ نَجْمٌ} (229).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: {ئى ئى بچ بچ} ⁽²³¹⁾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا {ئى ندى ندى}

225) سورة الفاتحة، الآية 5.
226) سورة آل عمران، الآية 159.
227) سورة آل عمران، الآية 122.
228) سورة المائدة: آية 23.
229) سورة إبراهيم، الآية 12.
230) سورة آل عمران، الآية 173.
231) سورة آل عمران، الآية 173.

- إن الله تعالى أمر عباده المؤمنين عند الخروج من البيوت بالتوكل عليه وحده، حتى يكونوا في حمايته ورعايته إلى أن يعودوا إلى إليها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال يقال حينئذ هديت وكفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين فيقول له شيطان آخر كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقي» (234).

إن التوكل الصحيح هو طلب العون من الله تعالى للوصول إلى هدف أو تحقيق غاية، والأخذ بالأسباب المشروعة المؤدية إليها، فإذا ترك أحد هذين العنصرين فإن التوكل يفقد مضمونه ومفعوله، رغم أن الله تعالى قادر على تأمين كل شيء وإحقاق كل مصلحة وظفر لعباده من غير علة أو سبب، ولا يعني هذا أن فعل السبب ينافي حقيقة التوكل؛ بل يؤكد عليها ما دام المتوكل يعتقد أن حصول الأشياء تتم بأمر الله تعالى وليس من فعل السبب نفسه، ولكن الله جعل الربط بينهما سنة كونية لحكمة هو يعلمها، والمتأمل في منهج القرآن والسنة النبوية وقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام في دعواتهم سيجد هذه السنة واضحة وصريحة، ويمكن الإشارة إلى بعضها من خلال الآتي:

- في الحرب، يطلب الله تعالى من المؤمنين الأخذ بأسباب المواجهة مع الأعداء من العتاد والتجهيزات العسكرية وغيرها، رغم أنه تعالى قادر على هزيمتهم ودمرحهم، قال تعالى: {وَأَوْوُواْ وَوُؤْثِرُواْ وَوَوُواْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ لِلْعَدُوِّ حِلًّا وَلَا صَوْلَةً وَلَا دَعْوَةً وَلَا مَعِيَّةً وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوذِىَ مِنْ اللَّهِ عَذَابًا عَظِيمًا} (236).

232 () أخرجه البخاري (ص777، رقم 4563) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (ثِيَابُكَ ثِيَابُ نَارٍ)
233 () أخرجه أبو داود (ص717، رقم 5095) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته.
والحديث صحيح.

234() سورة الملك، الآية 15.

235) سورة الأنفال، الآية 60.

236 (سورة هود، الآية 81).



- وفي هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، حيث خرج خفية مع أبي بكر رضي الله عنه، رغم أنه عليه الصلاة والسلام كان يستطيع أن يخرج على مرأى من قريش، من غير أن يلحق به أذى، ولكنه أخذ بسبب الحماية والحيطة في ذلك، وجعل هجرته سرًا، وكذلك في سائر أعماله عليه الصلاة والسلام، فكان يلبس في الغزوات الدرع ويحمل السيف والترس، وكان يخطط قبل المواجهة كما حدث في غزوة بدر حين استشار أصحابه وأشاروا عليه بردم الآبار، وكلها أفعال لأسباب لتحقيق الغاية والهدف.

- في الشفاء من الأمراض، أمر النبي ﷺ بالتداوي والعلاج لحصول الشفاء، رغم أن الله تعالى قادر على أن يشفي عباده من غير ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو قال دواء إلا داء واحدا قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم»⁽²³⁸⁾. وأيضاً جعل الله تعالى تحقيق الشفاء في مادة العسل.

* * *

إن التوكل على الله تعالى بالمنهج الصحيح يعطي نتائج وآثاراً إيجابية، تعود بالنفع والفوز للمتوكل في الدنيا والآخرة، ومن أبرز هذه الآثار ما يلي:

إن التوكل على الله تعالى من خلال مفهومه الصحيح سبب في دخول الجنة والفوز برضى الله تعالى والقرب منه، وقد سبق الإشارة إلى الآيات القرآنية الدالة على ذلك، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكد هذه الحقيقة بقوله: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. قالوا: ومن هم يا رسول الله قال: هم الذين لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» (239).

²³⁷ () سبق تخريجه.

(238) أخرجه البخاري ص 1015، رقم (5752) كتاب الطب، باب من لم يرق. ومسلم (ص 111، رقم 218) كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

239() سورة الطلاق، الآية 3.

2 - النجاة من المهالك والشُرور:

ومن آثار التوكل على الله تعالى في الدنيا أنه ينجي صاحبه من شرور الأعداء ومكائدهم، وقد تكفل الله تعالى بهذه الحماية في قوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الدَّعَاءِ﴾ (240)، وقد ظهرت هذه الحقيقة، مع نبي الله إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وحين قيل لرسول الله ﷺ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، بل إن نتيجة تلك المعاناة والصعاب التي لقيها الرسول ﷺ مع صحابته أثمرت وأينعت حين توكلوا على الله تعالى، حيث تحولت تلك المعاناة بفضل عقيدة التوكل إلى فتح وظفر ونشر للإسلام في الجزيرة العربية، ومن ثم في أرجاء المعمورة.

3 - الطمأنينة النفسية:

بالتوكل على الله تعالى تهدأ النفس وتطمئن بالسكينة المنزلة عليها من بارئها، حين فوّضت أمورها وشؤونها إليه، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الدَّعَاءِ﴾ (241) أي أن الله تعالى يكفي عبده المتوكل عليه الهمّ والحزن والقلق والاضطراب، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الدَّعَاءِ﴾ (242)، ليس هذا فحسب؛ بل يجعله يعيش في ذروة السعادة النفسية في جميع أحواله، في السراء والضراء، وفي المنشط والمكره، وفي السر والعلن، لأنه على قناعة تامة أن الذي خلقه تكفل بكل حاجاته، وأنه أرحم به من الخلق جميعاً، ومن هذا المنطلق تعجب الرسول عليه الصلاة والسلام لأمر المؤمن الذي إذا أصابه سرّاء شكر الله تعالى وإن أصابته ضراء صبر عليها.

4 - الوقاية من شرور الشياطين وهمزاتهم:

إن شرور الشياطين لا تدع الناس في راحة وهناء، ولكن المؤمن المتوكل على الله تعالى يتغلب عليها حين يسلم أمره لله تعالى ويستعين به، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال يقال حينئذ هديت وكفيت ووقيت فتنتحى له الشياطين فيقول له شيطان آخر كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي» (243). فالتوكل على الله تعالى يقهر الشياطين ويدحرهم ويرد عليهم نزغاتهم وهمزاتهم.

(240) سورة الطلاق، الآية 3.

(241) سورة الزمر، الآية 36.

(242) سبق تخريجه.

(243) أخرجه الترمذي (ص566، رقم 2488) كتاب صفة القيامة، باب فضل كل قريب هين سهل. وأحمد (1/ 415، رقم 3938). والطبراني في الكبير (19/ 346، رقم 10410). وابن حبان في صحيحه (2/ 216، رقم 470). وهو صحيح بشواهده.

5 - الإيجابية والإنتاج:

ومن آثار التوكل على الله تعالى تكوين الإنسان الإيجابي في الحياة، من خلال جانبين مهمين هما: الجانب السلوكي الذي يتعامل فيه مع الآخرين بأخلاقه الإسلامية العالية، باللين والتسامح وحب الهداية والخير لهم، وهو الجانب الذي حث عليه رسول الله ﷺ بقوله: «حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»⁽²⁴⁴⁾. وقوله: «إن خياركم أحسنكم أخلاقاً»⁽²⁴⁵⁾.

والجانب الثاني هو الجانب الإنتاجي الذي يبرز فيه أثر التوكل على الله تعالى في الالتزام بحقوق العمل وقوانينه، من حيث الدوام والقيام بالأعمال الموكلة على أتم وجه من غير كسل أو تهاون، وكذلك العمل على الإبداع والابتكار في المجال الذي يعمل فيه هذا الإنسان، بحيث لا يتوقف اجتهاده عند حد معين، بل يبذل ما لديه من مهارات ذهنية وعقلية وخبرات ومعارف في سبيل تحسين المجالات التي يعمل ضمنها وتطويرها بشكل مستمر، وذلك بالتوكل على الله تعالى وطلب العون والقدرة منه جل شأنه، وهو شأن المؤمن المتوكل على الله حق التوكل في كل حال وزمان ومكان.

6 - الرزق:

ومن أهم آثار التوكل على الله تعالى بالنهج الذي رسمه رسول الله ﷺ حصول المتوكل على رزقه وحاجاته المعيشية، كما ورد في حديث البحث: «كالطير يغزو خماصاً ويروح بطاناً» لأن الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان خلق معه رزقه ومعاشه من يوم ميلاده إلى يوم أجله، لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكَ يَخْتَارُ﴾⁽²⁴⁶⁾. إلا أنه جل وعلا يريد من عباده أن يسعوا في طلب ذلك الرزق ويعملوا له ويأخذوا بأسبابه، ومن ثم يطلبوا منه جل ثناؤه التيسير في ذلك السعي ودوامه والبركة فيه، يقول تبارك وتعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ فِي مَا مَرَرَتْ مِنْهُ وَأُنتَ سَاهٍ﴾⁽²⁴⁷⁾ حيث طلب من عباده السعي وتكفل هو بتأمين الرزق لهم.

وفي موضع آخر في كتاب الله جاء الربط واضحاً بين التوكل على الله والرزق، في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾⁽²⁴⁸⁾.

ما يناقض التوكل على الله:

توجد أمور كثيرة تنافي حقيقة التوكل على الله تعالى وتناقضها، يقترنها

⁽²⁴⁴⁾ أخرجه البخاري (ص1054، رقم 6035).

⁽²⁴⁵⁾ سورة هود، الآية 6.

⁽²⁴⁶⁾ سورة الملك، الآية 15.

⁽²⁴⁷⁾ سورة الطلاق، الأيتان 2-3.

⁽²⁴⁸⁾ سورة البقرة، الآية 216.

كثير من الناس، بعلم أو جهل أو غير قصد، ولكنها جميعاً مخالقات شرعية كبيرة، يترتب عليها أثم وعقوبات، ومن هذه الأمور:

1- إظهار الجزع والسخط وعدم الرضا بما قدره الله تبارك وتعالى، وهذا من الأمور الخطيرة التي تهدد النفس قبل أي شيء، من خطر اليأس والقنوط من رحمة الله، وهذا ما يناقض حقيقة التوكل على الله، لأن هناك كثيراً من الأمور الظاهرة التي يظنها الإنسان ضرراً وهي في الحقيقة تحمل الخير والثواب له، وكذلك العكس، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ بِيَدِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (249).

2- الذهاب للسحرة والمشعوذين والدجالين، أو التداوي بالحرام، أو التطير، وغيرها من الأمور التي تنافي التوكل على الله وتناقضه، بل إن ذلك يدخل صاحبه في دائرة الشرك مع الله تعالى، من حيث لا يشعر، فقد يطلب المشعوذ أو الساحر من زائره أن يطأ المصحف أو يجعله في دورة المياه أو شتمه، وغير ذلك من الوسائل الشركية والكفرية التي يجعلها شرطاً لشفائه أو إخراجة من مأزقه أو مما يعاني منه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (250).

3- عدم بذل الأسباب لتحقيق المراد، وهو ينافي حقيقة التوكل القائمة على العمل والسعي في الأرض، كالذي يطلب الرزق من غير أن يعمل، أو يطلب الشفاء من غير أن يتداوى، فهذه الأمور تناقض سنة الله تعالى في الكون، وهذا ما دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينهر المتكاسل عن العمل ويأمره بالسعي والحركة، ثم يدعو الله بالرزق الحلال، وقد قال له مقولته المشهورة: إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

4- الشك في اليقينات القرآنية أو النصوص النبوية الواردة في حقيقة التوكل وآثاره على حياة الإنسان، وهذا لا يناقض التوكل فحسب، بل يخرج صاحبه من الملة، ويحل به ما حلّ بقارون وأمثاله.

5 - التملق الزائد الذي يخرج عن حدود الآداب العامة والعادات المألوفة، كالذي يجعل جلّ تفكيره وهمّه في الحياة إرضاء مسؤوله في العمل أو الوزير أو صاحب الجاه، أو غيره من أجل أن يغدق عليه ببعض المتاع أو المال، وكأن هذا الوزير أو الغني هو المتكفل برزقه وبقائه، وهذا يناقض حقيقة التوكل التي تربط الإنسان بملك الملوك وأغنى الأغنياء الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه

(249) أخرجه مسلم (ص990، رقم 2230) كتاب السلام، باب الكهانة.
(250) أخرجه أحمد (3/191، رقم 13004). والبخاري في الأدب المفرد (ص168، رقم 479).

يرجعون.

* * *

توصيات:

وأخيرًا فهذه بعض الوصايا لأولئك القوم الذين ابتلاهم الله تعالى بالعجز أو المرض أو الفقر أو غيرها من الابتلاءات، من أجل أن يصبحوا عناصر إيجابية فاعلة في أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، وهي في الوقت نفسه عوامل معينة على تقوية التوكل على الله تعالى:

1 - تجديد الشعور مع الله تعالى: وذلك بالتواصل المستمر مع الله، وتقوية العلاقة معه في التقرب إليه بالطاعات والدعاء والذكر، وقراءة القرآن وغيرها من العبادات، حتى تستقر النفس، لتنتقل بعدها للحياة بوجه آخر مختلف عما كانت عليه في السابق.

2 - ترك الأسباب المحرمة: وذلك بتبديلها بالأسباب المباحة والمشروعة، التي بينها الشرع وأقرها العلماء، مثل ترك التدابي بالحرام والمعاصي من شرب للخمور أو تناول للمخدرات، أو الوقوف على أبواب المشعوذين والسحرة، وإبدال ذلك باللجوء إلى الله تعالى والوقوف على بابه، فهو أرحم بعباده من أنفسهم وذويهم وجميع الخلق، فلا يرد دعوة عبده المنيب إليه بصدق وإخلاص.

3 - الاعتقاد أن الخير فيما قدره الله وإن كان ظاهره غير ذلك، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

4 - اتباع سبل الخير وملازمة أهل الخير، وذلك بتقوية الإرادة وإخراجها من دائرة العجز والكسل إلى ميدان الحركة والنشاط، لأن الحياة قائمة على السعي من أجل إحقاق الحق ونشره وإبطال الباطل ودحره.

6 - القيام بالأعمال المقدور عليها وعدم تركها، وإن كانت يسيرة، أو كانت ثمرتها بعيدة المنال، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليفل»⁽²⁵¹⁾.

* * *

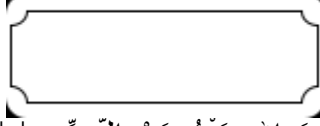
بهذه الصورة يتمكن الإنسان أن يؤدي دوره الحقيقي في الحياة، من خلال التوكل على الله تعالى وفق المنهج الذي رسمه رسول الله ﷺ في حديث

²⁵¹() أخرجه البخاري (ص6، رقم 16) كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان. ومسلم (ص40، رقم 43) كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان.



البحث، وينتقل من مرحلة الكسل والعجز والافتكال على الأمانى والأوهام إلى
مرحلة العمل والجد والإبداع فى واقع الحياة.





عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ فِي النَّارِ»⁽²⁵²⁾.

مفهوم المحبة

في اللغة: أشار ابن القيم رحمه الله تعالى إلى عدة معان لمفهوم المحبة في اللغة فقال:

«وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

الثاني: العلو والظهور، ومنه حَبَبَ الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَبَ الكأس منه.

الثالث: اللزوم والنبات، ومنه: حَبَّ البعير وأحَبَّ إذا برَكَ ولم يَقم.

الرابع: اللب، ومنه: حبة القلب، للُبِّه وداخله، ومنه: الحَبَّة، لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه: حَبُّ الماء: للوعاء الذي يُحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثبوت أيضاً»⁽²⁵³⁾.

وأما في الاصطلاح فإن المحبة: هي ميل القلب نحو شيء معين، وظهور أثر ذلك في سلوك المحب.

* * *

أقسام المحبة:

تنقسم المحبة إلى عدة أقسام:

1 - محبة الله تعالى:

ويمكن تقسيم هذه المحبة إلى قسمين:

- محبة الله تعالى لعبده:

⁽²⁵²⁾ مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، 9/3.

⁽²⁵³⁾ سورة المائدة، الآية 54.

ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» (257).

وفي حديث آخر، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمّاراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأَتَى به يوماً، فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا

²⁶⁰() أخرجه البخاري (ص1169، رقم 678) كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر.

2 - محبة الرسول صلى الله عليه وسلم :

266) الرسالة النبوية، لابن القيم. مراجعة الشيخ عبدالظاهر أبي السمح، ط1، المطبعة السلفية، مكة المكرمة، 1347هـ، ص 21-22.

أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان. ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

2- ألا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها»⁽²⁶⁷⁾.

3 - محبة سائر الخلق:

وهذه من المحاب المستحبة التي يأنس بها الإنسان ويفرح بوجودها، حيث يجد فيها كثيراً من عوامل القوة والثبات في الحياة وهي في مجملها محاب فطرية خلق الإنسان عليها، أو أنها وجدت حين خلق الإنسان على هذه الأرض، ومن الأمثلة على هذه المحبة:

- محبة النفس التي هي من الفطرة، والنفس قد صانها الإسلام وحفظها وجعل لها مكانة عالية، فلا تزهق ولا يعتدى عليها إلا بحق، ومن بذلها في سبيل الله نال درجة الشهداء.

- محبة الولد والأهل والقرابة، لأنها السبيل إلى تكوين مجتمع قوي متماسك.

- محبة الزوجة، وهي التي تنشأ بعد الزواج حين يتألف قلباهما وتتقارب مشاعرهما، فيؤثر ذلك على حال الأسرة وسلوكها، وهي آية من آيات الله لقوله جل ثناؤه: ﴿ذُرِّيَّتُكَ كَانَتْ إِكْرَامًا كَرِيمًا﴾⁽²⁶⁸⁾.

- محبة الصديق أو الصاحب، وهي ناتجة عن تألف الأرواح كما قال عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»⁽²⁶⁹⁾.

- محبة الحيوانات أحياناً، وهي من الفطرة ومن الرحمة التي أودعها الله تعالى في نفوس عباده نحو هذه الكائنات المسخرة للإنسان، حيث تتحقق الألفة بينهم كما هي الحال مع بعض الخيول والطيور وغيرها.

4 - محبة الأشياء:

وهي كثيرة، كمحبة الخضرة والماء، أو النظر إلى مكونات الكون والتأمل فيها، أو حب الهوايات المتنوعة كالقراءة أو الرسم أو الخط أو ممارسة بعض

⁽²⁶⁷⁾ سورة الروم، الآية 21.

⁽²⁶⁸⁾ أخرجه البخاري (ص554، رقم 3336) كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة. ومسلم (ص1149، رقم 2138) كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة.

⁽²⁶⁹⁾ سورة التوبة، الآية 23.

أنواع الرياضة والنشاطات الأخرى.

* * *

المحاذير الممنوعة:

ويمكن تقسيم هذا النوع من المحاب إلى قسمين:

1 - محبة المعصية:

وهي محبة ما نهى الله عنه من الأقوال والأفعال، وتفضيلها على ما أمر بها من المحاب، وذلك مثل محبة الزنا والربا وشرب الخمر والسرقة والظلم وغيرها من المعاصي وتفضيلها على الفضيلة والاستقامة والعدل، وهذا اللون من المحبة ممنوع، لأنها مدخل إلى دائرة الفعل والعمل الذي يستوجب بعدها العقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

[illegible]

2 - محبة ما هو أدنى على ما هو أعلى:

وهذا لا يعني أن محبة الأدنى محرمة، بل ربما تكون جائزة ومستحبة، ولكنها حين يجعل لها الأفضلية على ما هي أعلى تنقلب إلى محبة ممنوعة، وذلك مثل الذي يحب نفسه، فهذه محبة فطرية كامنة في كل نفس إنسانية، ولكن تتحول هذه المحبة إلى معصية حين تُفضل على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك مثل محبة المال والأولاد والدنيا حين تسبق محبة الله ورسوله صلى الله عليه ومحبة الآخرة فإنها محبة ممنوعة يترتب عليها الحساب والعقاب، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ كُلُّ مَكَانٍ غَيْرِ مَسْجِدٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧٣).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (274).

270() سورة فصلت، الآية 17.

271) سورة إبراهيم، الآية 3.

272 ﴿سورة التوبة، الآية 24.﴾

273) سبق تخريجه.

274) سبق تخريجه.

المراد بالمحبة في هذا البحث:

وهذه المحبة هي مصدر التعبّد لله تعالى وهي محرك مسيرة الحياة، وهي أعلى درجات الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» (275).

وهذه المحبة ليست اختيارية، بل هي واجبة ومن أوجب الواجبات، تواعد الله على تركها فقال: {يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَلْبَسُوْا لِكُلِّ فِتْيَةٍ كِسْفًا مِّنَ الثَّيِّبِ مِمَّا رَزَقْنٰهُمْ وَاَلْبَسُوْا لِكُلِّ فِتْيَةٍ كِسْفًا مِّنَ الثَّيِّبِ مِمَّا رَزَقْنٰهُمْ وَاَلْبَسُوْا لِكُلِّ فِتْيَةٍ كِسْفًا مِّنَ الثَّيِّبِ مِمَّا رَزَقْنٰهُمْ} (277).

أ - يتمثل عظمة الله تعالى من خلال الكون وما فيه من الآيات الباهرة، والسنن المنظمة، والكائنات المتكاملة في البر والبحر والسما، وفوق كل ذلك القوة التي تدبرها والحكمة التي تكتنفها، كل ذلك من دواعي محبة الله تعالى وعبادته والتقرب إليه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُفِّقَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ لَهُمَّ زُجْجٌ مِّنَ الشَّجَرِ يَذْرُؤُنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ لِلَّهِ الذِّكْرَ وَهُوَ كَرِيمٌ﴾ (٢٧٨).

ب - يتمثل نعم الله تعالى التي لا تُعد ولا تحصى ابتداءً بخلقه وسجود الملائكة له وانتهاء بإرسال الرسل إليه وهدايته إلى سواء السبيل، وما بين هذا وذاك من النعم والنجاحات والنصر والتمكين صور من إحسان الله تعالى بعبدته ورحمته عليه، فهو القائل: {أَبْ يَٰٓأَبِي يُهَيْبُ بِٱلنَّصْرِ وَيَهَيِّئُ لِمَن يَشَاءُ} (279)، فكل ذلك من عوامل المحبة لله تعالى.

276 () سورة التوبة، الآية 24.

(²⁷⁷) سورة آل عمران، الآيتين 190-191.

278 ﴿سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ، الْآيَةُ 34.﴾

٢٧٩) أخرجه الترمذي (ص ٨٥٩، رقم ٣٧٨٩) كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وقال: هذا حديث حسن غريب.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبُّوني لحب الله إياي»⁽²⁸⁰⁾.
يقول ابن القيم رحمه الله: «تنشأ المحبة من الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم، فإن القلوب جُبلت على حب من تحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه»⁽²⁸¹⁾.

ج - كما يستشعر المؤمن هذه المحبة حين يتلمس رحمة الله تعالى بعباده المذنبين، فهو الرحمن الرحيم، وهو العفو الغفور، وباب التوبة والاستغفار عنده لا يُغلق ولا يسد، ومتى شعر الإنسان بخطئه وأناب إلى الله تعالى فإن رحمته قريبة منه، ولا ينقص ذلك من ملكه شيء، فهو القائل في محكم التنزيل: ﴿كَذَٰلِكَ يَكُفِّرُ بَدَأْتُمْ﴾⁽²⁸²⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽²⁸³⁾.

د - إن معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، من الأسباب التي تولد المحبة عند العبد، كالعلم والرحمة والمغفرة والقدرة والكرم، كلها عوامل تزيد من قرب الإنسان بربه ومحبه له وتقدير العمل الصالح بين يديه، فعلى سبيل المثال حين يتقرب المؤمن إلى الله تعالى بطاعة أو عمل صالح، فإنه يجازيه أضعافاً مضاعفة، كرمًا وتفضلاً منه جل وعلا، فهو القائل: ﴿يَجْزِيكِ يَوْمَئِذٍ فَتًى يَسِيْرًا﴾⁽²⁸⁴⁾، وهو القائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَكُفِّرُ بَدَأْتُمْ﴾⁽²⁸⁵⁾.

فهذه المعرفة بالله تعالى وصفاته تصنع المحبة وتزيدها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى، ولها أصلان: أحدهما، وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، والثاني: هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحبه لأجله»⁽²⁸⁶⁾.

* * *

⁽²⁸⁰⁾ تقريب طريق الهجرتين، ص 444.

⁽²⁸¹⁾ سورة النساء، الآية 110.

⁽²⁸²⁾ أخرجه مسلم (ص 1196، رقم 2759) كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن كثرت الذنوب والتوبة.

⁽²⁸³⁾ سورة النساء، الآية 40.

⁽²⁸⁴⁾ سورة الأنعام، الآية 160.

⁽²⁸⁵⁾ مجموع الفتاوى 84-85/10.

⁽²⁸⁶⁾ سورة آل عمران، الآية 31.

إن محبة الله تعالى ليست مجرد ادّعاء بالقول، أو بعض العواطف والعبرات، وإنما مجموعة من الالتزامات والواجبات العملية تدل على صدق هذه المحبة وقوتها، ومن أهم المقترضيات التي تلازم هذه المحبة ما يلي:

1- تقتضي هذه المحبة اتباع شرع الله تعالى فيما أمر به وما نهى عنه، فإذا لم تترجم هذه المحبة على الواقع في المحافظة على الفروض والطاعات، والسلوك والأخلاق، فإنها تبقى مجرد ادعاء، وصدق الشاعر حين قال:

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَزْعِمُ حُبَهُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ

هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
إِنْ الْمَحْبُوبَ لَمَنْ يَحِبُّ مَطِيعُ

2- تقتضي محبة الله تعالى، حبَّ رسوله صلى الله عليه وسلم، وحبَّ سنته والعمل بها، لقوله تعالى: {قَدْ قَدَّرَ جِدْجِيحٌ} (287).

كما تقتضي هذه المحبة الذود عن النبي صلى الله عليه ومناصرته بكل
الإمكانات والوسائل، لا سيما في هذه الفترة التي كثرت فيها حملات الإساءة
إلى شخصه الطاهر عبر بعض الوسائل الإعلامية الغربية، الأمر الذي يفرض
على الأمة بذل الجهود والأوقات لصدّ مثل هذه الهجمات المغرضة، حتى
يتحقق معنى المحبة له ^{صلى الله عليه وسلم}، فهو القائل: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب
إليه من والده وولده والناس أجمعين» (288).

3- تقتضي محبة الله تعالى، حب القرآن الكريم، بحفظه في الصدور، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، والعمل به وإقامة حدوده، يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو سلمت منا القلوب ما شبعنا من كلام الله، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبة».

وأما إهمال القرآن ووضع على الرف وعدم تلاوته إلا في المناسبات، وعدم التحاكم إليه في أمور الحياة والخصومات، فإنه يناقض محبة الله تعالى ومقتضياتها، بل يعدّ ذلك من الهجران الذي أخبر عنه الله في قوله: {وَوَلَوْ} (289).

4- تقتضي محبة الله تعالى، إدامة ذكره وذكر آلائه ونعمه، وكذلك شكره والثناء عليه، لأن المحب الصادق ينشغل جل أوقاته بمحبوبه، فكيف إذا كان هذا المحبوب هو الله تعالى، خالق الكون والإنسان، الرحمن الرحيم!! وقد أنثى الله تعالى على عباده المؤمنين المحبين له فقال: {كَبَّ كَبْ كَبْ كَبْ كَبْ كَبْ كَبْ كَبْ}

287() سبق تخريجه.

288) سورة الفرقان، الآية 30.

289) سورة آل عمران، الآية 191.

(290) { ٲ ٳ ٴ ٵ ٶ ٷ ٸ ٹ }

5- تقتضي محبة الله تعالى محبة عباده الصالحين، وبغض العصاة والفاستدين والظالمين، لقوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله».

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن من أسباب النجاة والتظلل في ظل الله تعالى في ذلك الموقف العصيب هو الحب في الله تعالى، فقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه»⁽²⁹¹⁾.

ولا تنافي محبة الله تعالى محبة الآخرين، بل هي تقتضيها وتحت عليها ما دامت على المنهج السليم ووفق الضوابط الشرعية، بحيث لا تكون في معصية أو فساد أو ظلم أو غير ذلك من المحرمات.

6 - كما تقتضي محبة الله العمل الصالح، الذي أمر به والمسارعة بقيامه، وعدم التكاسل أو الفتور عنه.

* * *

من يحبّهم الله تعالى؟

إن الله تعالى يحب عباده المؤمنين الصادقين، الذين يأترون بأوامره وينتھون عن نواھيه، كل حسب مستوى إيمانه وما يقدمه بين يديه من الطاعة والعمل الصالح، ولا يمكن بحال الإشارة إلى جميع الأصناف التي يتحلون بهذه التعاليم والصفات، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضهم الذين ذكرهم الله تعالى بشأنهم التعبير الصريح في الدلالة على محبته لهم، وكذلك ما أشار إليهم الرسول صلى الله عليه في بعض أحاديثه، وهؤلاء هم:

1- التَّوَابُونَ الصادقون الذين ينيبون إلى الله تعالى بعد الغفلة والعصيان، وكذلك المتطهرون من جميع الأدران والأنجاس النفسية والجسدية والفكرية، لقوله تعالى: {وَأَوْوُؤُوا} (292).

[illegible]

3- الصّابرون في البأساء والضراء، لقوله تعالى: {وَوُؤ} (294).

4 - المحسنون إلى الناس في الأفعال والأقوال، لقوله تعالى: {هه هه هه}

²⁹⁰ (أ) أخرجه البخاري (ص107، رقم 659) كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد بعد الصلاة. ومسلم (ص415، رقم 1031) كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

291 () سورة البقرة، الآية 222.

292} سورة آل عمران، الآية 31.

293 (سورة آل عمران، الآية 146.

294) سورة البقرة، الآية 195.

295 () سورة آل عمران، الآية 159.
296 () سورة آل عمران، الآية 76.
297 () سورة المائدة، الآية 42.
298 () سورة الحجرات، الآية 9.
299 () سورة الصف، الآية 4.
300 () أخرجه البخاري (ص856، رقم 4836) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ) [الفتح: 2]. ومسلم (ص1227، رقم 2819) كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال.
301 () أخرجه مسلم (ص54، رقم 91) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.
302 () أخرجه أبو يعلى (4/23، رقم 2026) وهو حديث صحيح.
303 () أخرجه الترمذي (ص428-429، رقم 1816) كتاب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الجراد.
وقال: هذا حديث حسن.
304 () أخرجه أبو يعلى في مسنده (7/349، رقم 4386).
305 () أخرجه مسلم (ص963، رقم 2165) كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام.
306 () أخرجه الترمذي (ص320، رقم 1319) كتاب الأحكام، باب ما جاء في سمح البيع وسمح القضاء.

* * *

من يبغضهم الله ؟

إن الله تعالى يبغض جميع الذين لا يأترون بأمره ولا ينتهون عما نهى عنه، ويتفاوت هذا البغض حسب المعصية والمخالفة التي يرتكبها العبد، ولكنه جلّ وعلا أشار في كتابه العزيز إلى بعض الأصناف إشارة صريحة في بغضهم وعدم الرضى عنهم، وبعض هؤلاء هم:

1- الكفار والمشركون، وهم الذين كفروا بالإسلام واتخذوا من دون الله أنداداً من البشر أو الحجر أو الشجر أو المذاهب والأفكار، لقوله تعالى: { ه ه ه ك ت ث ك ك و و و و } (٣٠٨).

2- الظالمون المتجبرون، لقوله تعالى: {كُفَّ كُفًّا} (309).

3- الذين يجهرون بالسوء من القول، لقوله تعالى: ﴿بِذِّئِبٍ ثَنَ ثَنَ﴾⁽³¹⁰⁾.

4- المعتدون على حرّامات الله تعالى وحرّامات الناس، لقوله تعالى: ﴿يُوْثِقُ يَدَ الْفَاعِلِ﴾.

6- الخائنون للعهود والمواثيق لقوله تعالى: {كُلُّ سُلْطَانٍ ذُنُوبٌ مُّهِمَّةٌ لَّهُمْ يَوْمَ هُمْ كَايِلُونَ} (312).

7- المفسدون في الأرض الذين ينشرون الشرّ والخبائث بين الناس ويمنع
نشر الخير والفضيلة، لقوله تعالى: {جج جم حج حم} (313).

8- المتكبرون الذين يتعالون على عباد الله وعلى الحق والهداية، لقوله تعالى: {أَفَكُنْ أَكْأَمُّ مِن دُونِ الْمُنْذَرِينَ أَفَكُنْ أَكْأَمُّ مِن دُونِ الْمُنْذَرِينَ} (314).

9- المسرفون للأموال والطاقات في غير مواضعها، لقوله تعالى: ﴿وَوُ

9 - الفرحون الغافلون عن ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ الَّذِي هُمْ لَكَ بِهِ كَاذِبُونَ﴾

307) سورة البينة، الآية 6
308) سورة آل عمران، الآية 57
309) سورة النساء، الآية 148
310) سورة البقرة، الآية 190
311) سورة الأنفال، الآية 58
312) سورة المائدة، الآية 64
313) سورة النساء، الآية 36
314) سورة الأنعام، الآية 141
315) سورة القصص، الآية 76

* * *

إِنَّ لِمَحَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَثَارًا إيجابية كثيرة في الدنيا والآخرة، منها:

2 - بلوغ أعلى درجات الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان» (318).

4 - إن محبة الله تعالى من أسباب استجابة الدعاء، كما ورد في الحديث السابق: «وإن سألتني لأعطينه».

6 - بلوغ أعلى الصفات الخُلُقِيَّة ونيل الطموحات العالية، لقوله تعالى: {كُلُّ

³¹⁷ (أخرجه أبو داود (ص661، رقم 4681) كتاب السنة، باب في الدليل على زيادة الإيمان. وهو حديث صحيح.

³¹⁸() أخرجه البخاري (ص1127، رقم 6502).

319 (سورة آل عمران، الآية 111).

320 سورة المائدة، الآية 54.

گ گ ل ل ط ط ٹ ٹ ڈ ڈ ہ ہ ب پ ه ه ع ع ئ ئ ك ك و و ؤ ؤ
و و و و }⁽³²¹⁾.

7 - إن محبة الله تعالى تجلب محبة أهل السماء والأرض لحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»⁽³²²⁾.

8 - إن محبة الله تعالى تحقق لصاحبها بشارة في الدنيا، حيث توضع له إشارته في الدنيا قبل الآخرة لحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرايت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن» (323) .

كانت تلك بعض الآثار المترتبة على محبة الله تعالى في حياة المؤمن وبعد مماته، ولكن تمتد هذه الآثار وتتعدد لتشمل جميع أنواع الحفظ والتوفيق والنجاة لصاحبها، الأمر الذي يدفع الإنسان للاجتهاد والسعي من أجل الوصول إلى هذه المحبة بمفهومها الصحيح، والعمل بمقتضياتها.

* * *

وأخيرًا المحبة وأثرها النفسي وقاية وعلاجًا:

فإن محبة الله تعالى من مقتضيات الإيمان به جلّ وعلا، حيث يزداد الإيمان وينقص بمدى قوة هذه المحبة وضعفها، ومن أجل ديمومة هذه المحبة وقوتها، لا بد من الحصول على أسبابها، من المحافظة على الفروض والواجبات وأدائها في أوقاتها بأحسن أداء، وكذلك الإكثار من الدعاء والذكر وتلاوة القرآن والاستغفار، إضافة إلى التأمل والتفكير في الكون وما فيه من آيات والاء، لأن ذلك من الأسباب التي تقرب العبد إلى خالقه، وتقوي أواصر العلاقة به جل شأنه، وبالتالي تنشأ محبة الله في نفس العبد بأجلى صورها وأقوى معانيها، الأمر الذي يجعل حياته كلها سعادة وحبورا، ونجاحا وتوفيقا، وطمانينة وسكينة، وهي من أسمى الغايات التي يسعى المؤمن لتحقيقها في الدنيا.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تَهَوَّنَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، بَلْ يَغْلُو عَلَيْهَا وَيَرَاهَا

³²¹() أخرجه البخاري (ص536، رقم 3209) كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. ومسلم (ص1148، رقم 2637) كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً أمر جبريل فأحبه وأحبه أهل السماء.

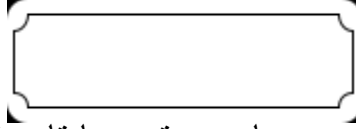
322 () أخرجه مسلم (ص1151، رقم 2642) كتاب البر والصلة، باب إذا أُنْتُي على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

³²³() أخرجه الترمذي (ص530، رقم 2312) كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم. وأحمد (5/173، رقم 21555).



صغيرة، وكلما تذكرها زادت قوة وحيوية وسيطرة على العوارض النفسية،
أرأيت كيف يبذل المحب لمن أحب من والد وولد، وزوجة وقريب، كيف يبذل
لهم الغالي والنفيس ويستترخصه، وذلك لحبهم لهم، فكيف إذا أحب العبد ربه؟ لا
شك أن الأمر أعظم وأجل، فلنحقق هذا في جميع شؤون حياتنا وأحوالها.





الخوف من الله وعقابه، ورجاء رحمته، عبادتان متقابلتان لا يجوز أن تنفك واحدة عن الأخرى، ولا تتم آثارهما الإيجابية إلا باجتماعهما كجناحي الطائر حال طيرانه، فلا يستطيع الطيران إلا بهما، ومن هنا نتناولهما جميعاً، نبدأ بالخوف من الله.

ومنطلق هذا البحث هو حديثان رواهما الترمذي رحمه الله:

الأول: قَالَ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَاجِرِ، عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ مُورِقٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطْتُ السَّمَاءَ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَنَتهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَغْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ لَوِيدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ» (324).

الثاني: قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي النُّضْرِ حَدَّثَنَا أَبُو النُّضْرِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَقِيلٍ الثَّقَفِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو فَرْوَةَ يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنِي بُكَيْرُ بْنُ فَيْرُوزَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ» (325).

حقيقة الخوف:

الخوف المقصود به هنا هو خشية من الله تعالى وعذابه وعقابه ووعيده، وليس الخوف بمعناه العام الذي يدخل فيه الخوف الجبلي، أو الخوف من الأشخاص والأشياء.

علاقة الخوف بالرجاء:

فقد سبق في افتتاحية هذا العنصر، أن عمل الإنسان يجب أن يأخذ مساري الخوف والرجاء معاً، في التعامل مع الله تعالى، لأن طغيان أحدهما على الآخر يدخل صاحبه في دوامة القلق والاضطراب وعدم الاستقرار وبالتالي الضعف والخمول في سائر أعماله، وإن الاستسلام للخوف وحده والغفلة عن الرجاء من الله تعالى أمر في غاية الخطورة على سلامة الإنسان عقدياً، لأن الله تعالى أمر

(324) أخرجه الترمذي (ص558، رقم 2450) كتاب صفة القيامة، باب في ثواب الإطعام والسقي.

(325) سورة السجدة، الآية 16.

عباده بالرجاء والخوف معًا، ووصف أولئك الذين يسلكون هذين المسلكين بقوله تعالى: {كَذَٰلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} (326).

ويمثلّ الخوف الجناح الآخر للطائر كما وصف ابن القيم رحمه الله الإنسان به بقوله: «الإنسان مثل الطائر، الرأس هو المحبة، والجناحان أحدهما الرجاء والآخر الخوف»⁽³²⁷⁾.

* * *

أقسام الخوف:

يمكن تقسيم الخوف إلى عدة أقسام، منها:

الأول: الخوف من الله تعالى:

والخوف من عقابه وعذابه عند التقصير في العبادات والفرائض وهو مطلب ضروري للإنسان في الحياة، وهو من صفات المؤمنين الصادقين، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَفُتُّهُ فَمُزَّجُفٌ مِّنْهُ﴾ (328). لأن الشعور بالخوف من الخالق جل وعلا يوصل الإنسان إلى تحقيق العبودية الصحيحة له جلّ وعلا، وبالتالي يؤثر على سلوكه وأخلاقه وقيمه فيبقيها نحو البرّ والخير.

بل إن الخوف من الله تعالى واللجوء إليه فطرة في النفس الإنسانية، يتحرك بين الظهور والاختفاء، حسب حال الإنسان وإيمانه وعقيدته، ولكنه يظهر بوضوح عند الشدائد والمحن والأزمات، لا سيما إذا تعرضت حياة الإنسان للخطر المحدث أو لمصيبة كبيرة، يقول تبارك وتعالى: ﴿تَذَرْتُمُ اثْنًا وَثُلَّةً مِّنَ الَّذِينَ هَلَكَ لَكُمُ يَوْمَ تَجُوزُ مَذْيَنَ الْجَبَرِ ۚ فَذُوقُوا قَذَابَهُ يَوْمَ تَبْعَثُونَ﴾ (329).

الأدلة على خوف الله:

وردت آيات كثيرة في كتاب الله تأمر الناس بالخوف من خالقهم وترك ما دون ذلك من أنواع الخوف كما في قوله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ أَلَّا تُكْفَرَ﴾ (330) وقوله جلّ وعلا ﴿حِجْ﴾ (331) وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ (332) وغيرها من الآيات القرآنية.

³²⁶() مدارج السالكين (2 / 36).

327 (سورة الأنفال، الآية 2).

328) سورة العنكبوت، الآية 65.

329) سورة آل عمران، الآية 175.

330 } سورة البقرة، الآية 40.

331) سورة المؤمنون، الآية 57.

332 () سورة فاطر، الآية 28.

عوامل تقوية الخوف من الله:

ولعل من أهم العوامل والأسباب التي تولد الخوف من الله تعالى بالصورة التي يريدها الله تعالى هو:

1- معرفة هذا الخالق في صفاته وأسمائه واستشعار عظمته جل وعلا، وذلك من خلال التفكير في كونه وخلاتقه وصنعة إبداعه في ذلك والنظام الذي يسير كل عالم من هذه العوالم عليه من غير خلل أو اضطراب، وهذا الاستشعار يولد في النفس رهبةً لهذا الخالق وعظمته، وكلما أدرك الإنسان هذه العظمة كلما ازداد إيمانا و يقينا بالله تعالى وازداد قرباً وعبادة وطاعة له جل ثناؤه، ومن أجل ذلك كان العلماء أشدّ خشية لله، لأنهم عرفوا الحقائق الكونية والإبداعية لخالقهم أكثر من غيرهم، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثَوُّ وَثْقَا أَلْدَبَارِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [فجر: ٢٨].

2 - تدبر آيات الوعيد التي توعدها الله العزة والمجدة، لما في هذه الآيات من توبيخ وتذكير للنفس، حيث تقربها من الطاعة وتبعد عنها من المعصية، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٣٣٤).

3 - العلم بالله تعالى ورسوله ﷺ، ودينه وكتابه وشريعته، التي يعرف العبد من خلالها العبد الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والطيب والخبيث، وجميعها من الأسباب التي تزيد من خوف العبد من الله تعالى.

[illegible][illegible]

الثانى: الخوف الجبلى:

وهذا النوع من الخوف مباح، لأن الإنسان مفطور عليه، وهو أمر جبلي خارج عن كسبه وإرادته، وهو ملازم لجميع البشر، كلٌ حسب حالته النفسية

333) سورة طه، الآية 124.
334) سورة فصلت، الآيات 15-17.
335) سورة الفرقان، الآية 12.
336) سورة الملك، الآيات 6-9.
337) سورة القصص، الآية 21.

والشعورية، وحسب حالة الشيء المخيف الذي يختلف أثره من إنسان لآخر، فربما يخاف إنسان من شيء ما، ويكون هذا الشيء طبيعياً عند الآخر، ولهذا لا يمكن حصر الأشياء التي يخاف منها الإنسان جبلياً، وقد ذكر الله تعالى في كتابه المبين هذا الخوف الذي أصاب نبيه موسى عليه السلام فقال: {بِمِ بِي بِي تَجْتَحِ} (338).

وقد تعرض لهذا النوع من الخوف أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين خرج مع النبي ﷺ في الهجرة، واتبعهم المشركون إلى باب الغار، فكان يقول رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله والله لو أن أحدهم نظر إلي قدمه لرائنا، فيقول له عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وقد جعل الله تعالى هذا الخوف نوعاً من الابتلاء لبعض عباده ليميز الصادقين من غيرهم، وليمحص إيمانهم هل يصبرون؟ يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كُنَّا فَجُوعًا لَّيْلَةً مِّنَ اللَّيْلِ فَلَمَّامًا لَّيْلَةً مِّنَ اللَّيْلِ لَمَّا أَصْبَحَ سَأَلَ لِقَاءُ رَبِّكَ فَلَمَّا أُنْزِلُوا وَصَّىٰ بِكُمْ فِرْعَوْنُ بِأَن تَكُونَ لَكُم مَّوَدَّةَ وُدٍّ فَنَكَّبْتُمْ وَلَقَدْ صَبَّحْتُمْ مَعَهُ صُبْحًا كَأَنَّكُمْ كُنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ مَعَهُ يَوْمَ الظَّالِمِينَ ۖ فَكَرِهْتُمُوهُمْ وَتُصَادِّقُنَّ فِرْعَوْنَ بِدَوَائِلِكُمْ ۖ أَذَلَّ لَكُم بِذُنُوبِكُمْ أَتَرَىٰ لِكُم مَّا يَكْتُمُونَ ۚ لَقَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُ ۖ وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَن سَبَّاهُ ۚ وَكَانَ لِقَاءُ رَبِّكَ أَكْبَرًا ۚ وَلَٰكِن يَّكْفُرُ بَعْضُ النَّاسِ بَعْدَ الظَّاهِرِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْخَاسِرِينَ ۚ﴾ (٣٣٩).

وإذا خرج هذا الخوف عن حدوده الجبلية والفطرية يتحول إلى مرض نفسي وحالة غير طبيعية تحتاج إلى معالجة ومتابعة، كالخوف من الفقر أو المرض أو الموت أو من بعض الأصوات أو من بعض المشاهد التمثيلية وغيرها.

الثالث: الخوف السلبي:

وهو الخوف الذي يمنع الإنسان من فعل الطاعات وعمل الخير والإحسان وغيره، أو الخوف الذي يدفع الإنسان لاقتتراف المعاصي واستحقاق سخط الله تعالى وغضبه، مثل الخوف من الأصنام أو من السحرة أو من الدجالين الذين يتعاملون مع الشياطين، فيأمرون الناس بالمعاصي والكبائر كالكفر بالله أو رمي المصحف في أماكن قذرة أو غيرها من أعمالهم الكفرية.

ويعدّ هذا النوع من الخوف شركًا بالله تعالى، لأن الإنسان يعتقد من خلاله أن النفع والضرر بيد هؤلاء السحرة والدجالين، فيستسلم لأفعالهم وأوامرهم، والله تعالى يقول: {كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْغِبِّ} (340).

* * *

وَيَدْخُلُ فِي الْخَوْفِ السَّلْبِيِّ الْمَجَامِلَاتُ الْمُقَيَّتَةُ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، كَأَن لَمْ يَصِلْ خَوْفًا مِنْ مَسْئُولِهِ أَوْ مَجَامِلَةً لَصَدِيقِهِ أَنْ يَقُولَ عَنْهُ مُلْتَزِمٌ أَوْ غَيْرُ

³³⁸() سورة البقرة، الآيتان 155، 156.

339 ﴿سورة المائدة، الآية 4﴾

340) أخرجه الترمذي (ص550، 2414) كتاب صفة القيامة، باب عافية من التمس رضا الناس بسخط الله. وابن حبان في صحيحه (1/511، رقم 277). وهو حديث صحيح.

متحضر، أو متشدد، وهو أمر في بالغ الخطورة حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكّله الله إلى الناس»⁽³⁴¹⁾.

ويرجع سبب هذا الخوف إلى ضعف الإيمان عند صاحبه وقلة العبادة والذكر لديه، وكذلك الجهل بأمور الدين وأحكامه.

علاج الخوف السلبي:

إذا تعرض الإنسان للخوف السلبي أو كان على وشك الإقبال عليه فإن عليه بالدواء الذي وصّى به كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك بالأمور التالية:

1- تقوية الإيمان بالله تعالى وقدرته وأنه قادر على كل شيء وقاهر له، وأن ليس للإنسان أمامه حول ولا قوة، لقوله تعالى: ﴿أَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ﴾ (342).

2 - التوكل على الله تعالى وجعله حسيباً في جميع الأمور والشؤون، والإكثار من قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، يقول ابن عباس رضي الله عنه: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ^{صلى الله عليه وسلم} حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» (343).

3- استشعار قضاء الله وقدره في النفس وفي الكون، واليقين التام بأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

4 - دراسة سبب الخوف، فقد يكون لموقف مفاجئ، مثل لحظة حزن أو ترويع أو صدمة لخبر جلل، أو ما شابه ذلك، وكلها مداخل للشيطان إلى النفس إذا لم يستعذ الإنسان من الشيطان أثناءها، لذا؛ ينبغي أن يضع في الحسبان في عملية المعالجة لهذا الخوف أن يُبدأ بالقرآن والذكر والدعاء ومراجعة أهل العلم الشرعي وكذلك المختصين من الأطباء النفسانيين.

5 - التدرّب والتمرّن شيئاً فشيئاً على التفاعل مع أسباب الخوف ومواقفه، وهو ما يحرّر الإنسان من الخوف وأوهامه، لأن كثيراً من الناس يجدون الخوف في بعض المواقف العادية والمألوفة لدى العامة، وهذا يحتاج إلى خوض المواجهة معها، مثل الذي يخاف ركوب الطائرة، عليه محاولة ركوبها مرات كثيرة حتى يعتاد عليها ويكسر حاجز الخوف عنده، أو مثل الذي يخاف من الموت فعليه أن يكثر من زيارة القبور وحضور الجنائز والصلاة عليها،

³⁴¹() سورة فصلت، الآية 30.

342) أخرجه البخاري (ص 777، 4563) كتاب التفسير، باب إن الناس قد جمعوا لكم.

343) سبق تخريجه.

ليبتفهم حقيقة الحياة وسنة الله تعالى في هذا الكون، ليكون على استعداد مع الموت وعدم الخوف منه. وهكذا التعامل مع سائر المواقف المخيفة.

6 - عدم الانزواء وهجر الحياة والناس، لأن العزلة تزيد المرض تقافماً وشدة، وعلى العكس فإن الاجتماع والاختلاط يخفف من وطأته وأثره على النفس.

7 - الدعاء، وهو لب العبادة، وهو الحبل الذي يوصل الإنسان بربه من غير وسيط، يبت مع شكواه ومرضه إلى خالقه جلّ وعلا ويطلب منه الشفاء، وإزاحة همّ الخوف عنه، ومنحه الشجاعة والجرأة لخوض الحياة وصعابها.

وبذلك يتغلب المؤمن على كربة الخوف من الأشخاص والسحرة والأوهام وغيرها، ويتخلص من آثاره على العقل والنفس والجسد.

* * *

آثار الخوف من الله تعالى على الإنسان:

للخوف من الله تعالى آثار إيجابية كثيرة ومتعددة على الإنسان، منها:

1 - إنه يبعث في النفس الشجاعة، فلا يجد الإنسان مقابل الخوف من الله تعالى خوفاً آخر من غيره، وكذلك في سائر الشؤون الحياتية، حيث يستند المؤمن إلى قوة عظيمة وركن متين، وحينها يكفيه الله تعالى أذى الشياطين وأوليائهم، وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكّله الله إلى الناس»⁽³⁴⁴⁾.

2 - إنه يبعث في النفس روح المواجهة مع المشكلات والعقبات، فتتهون لديه كل ما يعترضه في حياته الشخصية ومسيرته الحياتية والدعوية، لأنه على علم ويقين أن الحياة دار فناء وأن ما عند الله تعالى هو دار القرار، وهو التصور الذي تربي عليه الجيل الأول من الصحابة، حين استصغروا الدنيا واستهانوا بها جاءتهم سعيًا بين أيديهم، فخضعت الجبابرة وخارت قواهم أمام تلك الجموع الضعيفة التي خرجت من الجزيرة العربية.

3 - إنه يبعث في النفس الاعتبار والتذكر في آيات الله، وفيما يجري من أقدار الله، فتلين القلوب وتخشع لذكر الله: ﴿يَوْمَ نَأْتِي بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَوْمَ يَكُونُ لِكُلِّ ذُنُوبٍ حَقٌّ﴾⁽³⁴⁵⁾.

4 - إنه يمنع الإنسان من مقارفة المعاصي، والخوض في أعراض المسلمين والاعتداء عليهم وأكل الحقوق والظلم وغيره، فالإنسان الذي يخاف

⁽³⁴⁴⁾ سورة الأعلى، الآية 9، 10.

⁽³⁴⁵⁾ سورة يس، الآية 11.

عاقبة الغيبة والسخرية والاستهزاء، لن يقبل على هذا الفعل أبدًا، وكذلك سائر الأعمال الممنوعة.

5 - إنه يقود إلى عفو الله تعالى: {عَفَا كَذُورُ وَوُؤُ} (346)، ويقول النبي ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة» (347).

6 - إنه يقوي الإيمان: {ت ت ث ط ڈ ظ ف ق} (348).

8 - إنه يمنع الخوف السلبي والمذموم، لما يترتب على الخوف السلبي من عقوبة زاجرة، لا سيما إذا صار في دائرة الشرك التي سبق ذكرها، فإن الخوف من الله تعالى يردع الإنسان من ذلك ويجعل خوفه دائماً من الله وحده دون سواه، وهو ما عبّرت عنه الآية القرآنية: ﴿لَا يَخْشَى الْفِتْنَةَ سِوَاكَ﴾⁽³⁴⁹⁾.

9 - إنه يقود صاحبه إلى الجنة لقوله تعالى: {قَدْ جَاءَ جَ جَ} (350) وقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخُصَمَاءُ تَوَوَّنَا وَنُحْمَاءُ} (351).

* * *

وأخيرًا:

على الإنسان أن يكون على دراية ويقين أنه أمام جبروت الله تعالى وقوته وعظمته، وأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، وأن الأمر في الأول والآخر يؤول إليه، فلا داعي للخوف من غيره من الإنس أو الجان، أو من أي مخلوق آخر، ثم إن استشعار هذه القوة الإلهية يجعل المرء في حالة ترقب دائمة مع نفسه، فيمنعها من اقتراف المعاصي وجلب أسباب غضب الله وسخطه، بل يدفعه أن يقدم بين يدي ربه من العبادات والطاعات وأفعال الخير المختلفة، وجميع ما تستقيم عليه حاله، ثم إن هذا الاستشعار يحرر الإنسان من القلق والاضطراب والهم والحزن، ويدفع عنه وساوس الشياطين وهمزاتهم.



³⁴⁶ () سبق تخريجه.

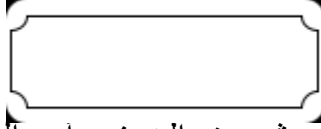
347 (سورة آل عمران، الآية 175).

348 (سورة المائدة، الآية 4).

349) سورة الرحمن، الآية 46.

350 } سورة النازعات، الآية 40.

351) أخرجه الترمذي (ص806-807، رقم 3540) كتاب الدعوات، باب الحديث القدسي: إنك ما دعوتني. وأحمد (5/ 167، رقم 21510). وحسنه الألباني.



سبق معنا في مبحث شعيرة الخوف ان الخوف والرجاء شعيرتان متقابلتان، يجب أن يسير معهما العبد مثل مسيرة الطائر حال طيرانه بجناحين لا يغني أحدهما عن الآخر، وقد سبق الحديث عن الخوف، وندخل في الرجاء مستفتحين بما رواه الإمام الترمذي رحمه الله بسنده – وهو من أعظم أحاديث الرجاء :-

عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً» (352).

مفهوم الرجاء:

في اللغة: رَجَاهَ رَجْوًا، وَرُجُوءًا، وَرَجَاءً، وَرَجَاءَةً، وَرَجَاوَةً، وَمَرْجَاةً: أَمَلَهُ. فهو راج، والشئ مَرْجُوءٌ. وهي مَرْجُوءَةٌ. وفي التنزيل: {اذْذُتْ تَذُتْ} (353) (354).

في الاصطلاح:

هو العمل في الحياة بالمنهج الذي رسمه الشرع، والطمع في قبوله عند الله تعالى وما يترتب عليه من الجزاء الأخروي.

وهذا يعني أن الرجاء يستند إلى ركنين أساسيين: الأول: العمل، والثاني: الطمع في تحقق المطلوب.

مثل المريض حين يراجع الطبيب طلبًا للشفاء والمعافة. وكذلك المؤمن الذي يقوم بمقتضيات توحيد الله تعالى ويعمل صالحًا لينال النجاة والجنة في الآخرة.

* * *

(352) سورة نوح، الآية 13.
(353) المعجم الوسيط 1/ 333 مادة (رَجَاهُ).
(354) سورة السجدة، الآية 16.

علاقة الرجاء بالخوف:

لا يستقيم عمل الإنسان، ولا تستقر نفسه في الحياة إلا إذا عمل ضمن مجال الرجاء والخوف معاً، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، فهما خطان متوازيان في حياة الإنسان، إذا أخذ الإنسان بأحدهما دون الآخر فإنه يضلّ عن سواء السبيل، ويهتز استقراره النفسي، لأن الإنسان حينما يترك جانب الخوف من الله تعالى ومن عذابه، ويبرر كل أعماله وسلوكياته المنحرفة برحمة الله وعفوه، بأنه الرحمن الرحيم، يتجاوز عن عباده بتلك الرحمة، فإن هذا التصور وما تنتطوي عليه من المعاصي والمنكرات، يجعل حياة صاحبه ضرباً من التخبط واللاوعي مع دين الله تعالى، وإلا فلماذا أرسل الله نبيه ﷺ بهذا الدين، أليس من أجل التعبد به والسير على ما شرعه من أمر ونهي؟

وكذلك الحال بالنسبة للإنسان الذي ينتهج مسلك الخوف من الله تعالى وحده في وجوده في الحياة، فإنه أيضًا يضطرب ويصيبه الهلع الدائم من نتائج أعماله في الحياة ويتصور عذاب الله لاحق به لا محاله من جراء ما يقع فيه من الخطايا وما يقترب من منكرات، دون أن يضع في الحسبان رحمة الله وعفوه وغفرانه وتجاوزة عن عباده المؤمنين، وبهذا فإنه يضع نفسه في زاوية ضيقة ومظلمة لا يرى فيها سعادة ولا راحة سوى القلق والخوف.

أما التصور الإسلامي الصحيح نحو الرجاء والخوف، هو تلازم هذين الجانبين في حياة الإنسان، لأن الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه شديد العقاب على الكافرين وعلى العصاة المنغمسين في محاربة دينه وأوليائه، فإنه في الوقت نفسه رؤوف رحيم بعباده المؤمنين الذين يؤدون ما فرض عليهم من الواجبات، وينتھون عما نهوا عنه من المعاصي والموبقات، وهو ما عبّر عنه الله تعالى بقوله: {كَمْ كَيْفٍ لَكَ كَيْفُكَ كَيْفُكَ كَيْفُكَ كَيْفُكَ} (35).

* * *

أقسام الرجاء:

الرجاء قسمان: المحمود والمذموم.

أولاً: الرجاء المحمود (المطلوب):

وهذا الرجاء هو الذي يتوافر فيه عنصر العمل والتوبة، والعمل من لوازم وجود الإنسان في الأرض، لقوله تعالى: {يَجْزِيكَ يَوْمَكَ الْجِزْيَةُ} (356)، والمؤمن الذي يعرف هذه الحقيقة لا يتوانى من القيام بالعمل الصالح المكلف به من الله لينال

355() سورة الذاريات، الآية 56.

356) سورة الكهف، الآية 110.

[illegible]

ولكن من فطرة الإنسان في هذه الحياة أن يقع في بعض الأخطاء والمعاصي، وعندها يأتي دور العنصر الثاني وهو التوبة إلى من هذه الأخطاء، وطلب المغفرة من منه جلّ وعلا، لقوله صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»⁽³⁵⁹⁾.

وأما النصوص الواردة في كتاب الله تعالى في هذا الباب، فكبيرة جدًا نذكر منها:

[illegible]

من وسائل تكفير السيئات:

توجد وسائل عملية لتكفير السيئات، وهي تتعلق بعباداته اليومية، ليدرك الإنسان مدى رحمة الله تعالى حين يقبل على عبادته ويأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، ومن هذه الوسائل:

- الوضوء:

سبب من أسباب رفع الخطايا ومحو الذنوب، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطيائه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» (363).

- الصلوات الخمس وصلاة الجمعة:

الصلاة التي هي خمس فرائض في اليوم واليلة وكذلك صلاة الجمعة فضلاً عن النوافل وسنن القيام وغيرها، كلها مسببات لمحو الأخطاء التي يقع فيها ابن آدم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم

357() سورة هود، الآية 114.

358) أخرجه مسلم (ص1191، رقم 2749) كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار.

359 سورة الزمر، الآية 53.

360) سورة الشورى، الآية 25.

361 } سورة الأنعام، الآية 54.

362) أخرجه مسلم (ص 121، ر

363) أخرجه مسلم (ص123، رقم 251) كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.

$\frac{1}{\sqrt{2}} \begin{pmatrix} 0 & -1 \\ 1 & 0 \end{pmatrix}$

الرباط»⁽³⁶⁴⁾. وقوله صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»⁽³⁶⁵⁾.

- الحج والعمرة:

وأما ركن الحج الواجب أدائه في العمر مرة واحدة، وكذلك نسك العمرة، فإنهما من أسباب مغفرة الذنوب وغسل الأدران عن الإنسان، لقوله عليه الصلاة والسلام: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»⁽³⁶⁶⁾. وقوله: «من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»⁽³⁶⁷⁾.

- حسن الخلق:

بالإضافة إلى ما ذكر من العبادات والطاعات، فإن هناك جيلة بشرية أخرى نابعة من العقيدة الصحيحة، وهي حسن الخلق والسلوك مع الناس والتحلي بأداب الإسلام، وهذا الأمر له وجوه كثيرة ومتعددة لا يمكن إحصاؤها، لأنها تتعلق بوجود الإنسان وحركته وتعامله مع الآخرين، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

الأخوة الصادقة التي تنشأ عن الحب في الله تعالى، فإنه من المكفرات للذنوب كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»⁽³⁶⁸⁾.

العفو والصفح مع الناس سبب لمغفرة الذنوب لقوله تعالى: ﴿ذُكِّرْ لَكُمْ﴾⁽³⁶⁹⁾ والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة.

- الذكر والاستغفار:

الأذكار بصورة عامة مكفرات للذنوب والخطايا، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطيائه وإن كانت مثل زبد البحر» (370).

³⁶⁴() أخرجه مسلم (ص117، رقم 233) كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.

³⁶⁵() أخرجه البخاري (ص285، رقم 1773) كتاب الحج، أبو العمرة. ومسلم (569، رقم 1350) كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة.

³⁶⁶ () أخرجه البخاري (ص293، رقم 1819) كتاب المحصر، باب قول الله تعالى: (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي الْقِتَالِ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ يُنْزِلُ عَلَيْنَا سُبُوحًا مُّطَهَّرًا وَنُنَزِّلُ لَكَ آيَاتِنَا فَاصْبِرْ) ومسلم في الموضع السابق.

367 (أ) أخرجه أبو داود (ص731، رقم 5212) كتاب الأدب، باب المصافحة. والترمذي (ص618، رقم 2727) كتاب الاستئذان، باب المصافحة. وهو حديث صحيح.

368 سورة النور، الآية 22.
369 أخرجه البخاري (ص1112، رقم 6405) كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح. ومسلم

(1171، رقم 2691) كتاب الذكر والدعاء. (1171، رقم 2675) كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على الذكر الله. ³⁷⁰) أخرجه مسلم (ص 1171، رقم 2675)

- حسن الظن:

إن من أهم العوامل والأسباب التي تؤدي إلى غسل الأدران عن الإنسان وتطهير نفسه من وزر الآثام هو حسن الظن بالله تعالى، والذي يُعدّ محور الرجاء مع الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «إن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني»⁽³⁷¹⁾.

- اجتناب الكبائر:

إن عفو الله تعالى ورحمته تنزل بالعبد في معظم أوقاته ما دام مؤمناً ومؤدياً ما فرض عليه من الفروض والواجبات، وما دام بعيداً عن اقتراف كبائر الذنوب والموبقات، لقوله تعالى: {كَمْ كَذَبْتَ كَيْفَ كَذَبْتَ} (372).

من أعظم الرجاء أن باب التوبة مفتوح:

ما دام في الإنسان روح تسري، فإن باب التوبة مفتوح له، والله يتقبل منه توبته في كل حين، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»⁽³⁷³⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽³⁷⁴⁾.

في هذا النوع من الرجاء يتكوّن الإنسان السوي المعتدل، المعافى نفسياً من القلق والاضطراب والخوف، لأنه يسير على المنهج الصحيح، في القيام بالأعمال الصالحة والطمع في الجزاء العظيم المترتب عليه، وكذلك لا يستغني عن التوبة والاستغفار بصورة دائمة عما تصدر منه من أخطاء وذنوب، وهذه هي الصورة المثالية للإنسان المسلم الذي عرف حقيقة الرجاء وعمل بمقتضاها.

وهو مضمون قوله عليه الصلاة والسلام السابق ذكره: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»⁽³⁷⁵⁾.

آثار الرجاء المحمود:

³⁷¹ والترمذي (ص544، رقم 2388) كتاب الزهد، باب ما جاء في حسن الظن بالله.

³⁷² (سورة النساء، الآية 31). أخرجه الترمذي (ص806، رقم 3537) كتاب الدعوات، باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر. وابن ماجه (ص619، رقم 4253) كتاب الزهد، باب ذكر التوبة.

³⁷³ (أخرجه مسلم (ص1196، رقم 2759) كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت.

³⁷⁴ (سبق تخريجه).

³⁷⁵ (سبق تخريجه).

إذا كان عمل المسلم قائماً على أساس الرجاء المحمود، من غير إفراط أو تفريط، فإن ذلك سيثمر نتائج وأثاراً إيجابية كثيرة تعود بالفائدة على صاحبه أولاً، ثم على المجتمع والأمة قاطبة ثانياً، ومن أبرز تلك النتائج الخيرة للرجاء المحمود، بما يلي:

1 - قبول العمل:

إن المسلم حين يقوم بأداء رسالته في الحياة، على النحو الذي رسمه الله تعالى له، ضمن دائرة الأمر والنهي المنصوص عليها في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وما يترتب على ذلك من آداب وأخلاق، فإنه يرجو تحقيق رضوان الله تعالى والفوز بالقرب منه والإقامة في جنته، فإن هذا التصور وحسن الظن بالله تعالى بالجزاء على تلك الأعمال، فإن الله توعده نفسه ووعدده الحق بأنه سيكون عند حسن ظن عبده به، لقوله في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني»⁽³⁷⁶⁾.

وهذه القناعة تدخل المسلم في السعادة الحقيقية، من طمأنينة النفس، وراحة البال، وعدم الخوف من المستقبل، الأمر الذي يسد الأبواب أمام وساوس الشياطين وهمزاتهم.

2 - رفع الخطايا ومحو الذنوب:

إن الرجاء المحمود سبب في محو السيئات والذنوب عن صاحبه، ما دام هذا الإنسان يقوم بما يملئ عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ذكر النصوص الواردة في هذا الشأن، كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁷⁷⁾. وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽³⁷⁸⁾.

3 - الإيجابية والإنتاج:

إن الرجاء المحمود، يعطي الإنسان قوة نحو العمل الجاد والإنتاج المفيد في الحياة، فلا يتوانى ولا يتكاسل عن أداء واجبه بأكمل صورة في الحياة، سواء كانت أداء الفرائض لله تعالى، أو حسن الخلق والتعاون ونشر الخير مع الناس، أو أعماله اليومية في العبادة أو المدرسة أو الوزارة أو المصنع أو غيرها من ميادين العمل المختلفة، وبذلك يتكوّن في المجتمع لبنة قوية تثبت أركانه وقواعده وتحميه من عوامل الانهيار والخراب، وهو ما عبّر عنه الله تعالى في

⁽³⁷⁶⁾ سورة الشورى، الآية 25.

⁽³⁷⁷⁾ سبق تخريجه.

⁽³⁷⁸⁾ سورة الكهف، الآية 110.

قوله: {ثَبَّحْ ثَمَّ ثِيَّ جَحِّ جَمِّ حَجِّ حَمِّ خَجِّ خَمِّ سَجِّ} (379).

4 - الفال المستمر:

وذلك أن الرجاء المحمود، يكون الإنسان المتفائل بالخير والنجاح بشكل دائم، فلا يعرف هذا الإنسان التحسر على فقدان أي شيء في الحياة، لأنه كلما فقد شيئاً تفاعل بأحسن منه، لأنه في حالة حسن الظن بربه في ذلك، فإذا كان مريضاً فإنه يرجو من الله تعالى الشفاء والمعافة ويعيش على هذا الرجاء فترة مرضه، فلا يصيبه اليأس أو القنوط من رحمة الله تعالى أو بتأخير نزول الشفاء عليه، وإذا فقد منصباً أو وظيفة أو مكانة فإنه يسعى إلى أفضل منها بتقاول وأمل في الله تعالى بأنه أرحم عليه من الناس، وهكذا، وهذا التصور والشعور المتجدد لدى الإنسان المسلم، يقضي على كل أسباب اليأس والقنوط التي إذا حلت بالنفس جعلتها غير مستقرة وغير مطمئنة.

5 - قوة العقل والجسم:

الرجاء يعطي فاعلية في قوة العقل للإبداع والابتكار، لأن صاحبه معافى من الخمول الفكري واضطرابه الناجم عن الخوف على النفس وعلى المصالح والأموال والتجارة والمنصب والوظيفة وغيرها من متاع الدنيا، وكذلك فإن هذا الرجاء يجعل صاحبه في حالة نشاط وحركة مستمرة، ربما يسعى أن يقطع آلاف الأميال ويتغرب عن أهله وذويه، ويقضي في ذلك جلّ عمره في سبيل أن يؤدي عملاً يرضي به خالقه، أو ينفع به مجتمعه وأمته، كما كان السلف الصالح من هذه الأمة، فقد انطلقت جيوش المسلمين ودعاتهم من الجزيرة العربية إلى الشرق والغرب لنشر هذا الدين وتبليغه إلى الناس، إلى وصلوا أقاصي الأرض، وهم لا يملكون إلا وسائل النقل البدائية من الخيول أو الجمال، لم يدفعهم إلى ذلك إلا رضا الله تعالى والطمع فيما عنده.

وكذلك المتأمل في حال علماء الأمة سيجد العجب من جلدتهم وصبرهم في سبيل الحصول على خبر أو حديث عن النبي ﷺ، أمثال أئمة الحديث المعروفين، البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، جابوا الأرض وقطعوا السهول والهضاب، وتعرضوا للخطوب والصعاب، من أجل أن يقدموا للأمة كنوز السنة النبوية، لينهل منها المسلمون إلى قيام الساعة، ويأخذوا منها أحكامهم وتشريعاتهم ويتطلعوا من خلالها إلى سيرة نبيهم ﷺ، ولم يدفع هؤلاء الجهابذة إلى هذا العمل العظيم إلا أملهم ورجاؤهم في رضى خالقهم والقرب منه يوم القيامة.

(379) أخرجه أحمد (3/191، رقم 13012). والطيايلى (1/275، رقم 2068). وهو حديث صحيح.

³⁸²() سورة الحجر، الآيتان 49-50.

والمتقاعسين عن واجباتهم الشرعية، كالذي يذنب ويعصي في جنب الله تعالى ثم يطلب منه أن يجازيه أحسن الجزاء، وهذا إخلال بأحد أركان الرجاء وهو تقديم العمل الصالح أولاً، ثم طلب القبول والجزاء ثانياً. وكثير من أتباع هذا التصور لا ينظرون إلى الجانب الآخر الذي رتب الله تعالى عليه عذاباً وعقاباً، وإنما ينظرون من زاوية واحدة وهي أن الله غفور رحيم، وهذا أيضاً إخلال في الرؤية الصحيحة نحو الأشياء والحقائق، لأن الله تعالى الذي وصف نفسه بالرحمن الرحيم، وصفها أيضاً بأنه شديد العقاب، يقول تبارك وتعالى: ﴿تَتَوَلَّوْنَ﴾³⁸³ وهذه إشارة إلى أن الرحمة والغفران يكونان للمؤمنين العاملين الذين يخطئون فيتوبون وهو الرجاء المطلوب، وأن العقاب للذين لا يعملون ولا يتوبون وهم أصحاب الرجاء المذموم.

آثار الرجاء المذموم:

كما أن للرجاء المحمود آثاراً إيجابية على النفس والمجتمع، فإن للرجاء المذموم آثاراً سلبية على النفس والمجتمع، ومنها:

1 - أن هذا النوع من الرجاء فيه اتهام لشرع الله تعالى وتعطيل لأحكامه، من خلال ترك صاحبه للأعمال المأمورة بها، وإتيانه للمنهييات والمنكرات، ثم يطلب من الله تعالى أن يدخله في رحمته وجنته، وهذا التصور يخالف أحكام القرآن والسنة النبوية.

2 - الرجاء المذموم يعطل النعم التي أودعها الله في الإنسان من عقل وحواس وجوارح، لأنه لا يستخدمها في الوجه الذي يريده الله تعالى منه، بل يستخدمها في معصيته ومخالفته، لأنه يتأمل العفو والمغفرة في كل الأحوال.

3 - الرجاء المذموم يولد في النفس مبدأ التسويف والتأجيل، ليس فيما يتعلق بالعبادات وحسب، وإنما في سائر الأعمال اليومية والمعاشية، وهو ما يجلب الضرر والأذى للنفس والمجتمع.

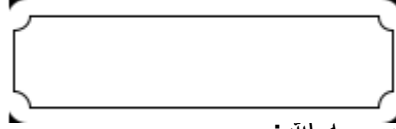
4 - الرجاء المذموم يجلب الاكتئاب والقلق لصاحبه، لأنه لا يعمل وينتظر النتائج، كالذي يريد أن يأتيه رزقه وهو قابع في بيته لا يحرك ساكناً، وهو أمر يخالف سنة الحياة وناموس الكون، من أجل ذلك يبقى هذا الإنسان دائماً في آخر الركب، وقد سبقه الآخرون إلى المعالي ومراتب النجاح والتفوق والإبداع، وهذه الحال تضعه في دوامة القلق النفسي والكآبة المستمرة، أو ربما تكون لديه روح الحسد والانتقام من الواقع والمجتمع.

³⁸³() أخرجه البخاري (ص1301، رقم 7536) كتاب التفسير، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه عز وجل. ومسلم (ص1166، رقم 2675) كتاب الدعوات، باب الحث على ذكر الله تعالى.

من أجل ذلك كله، يجب على الإنسان أن يكون متوازنًا في معظم أحواله مع الله تعالى، فلا يغلب جانبًا على حساب الآخر، لأن ذلك يحدث خللاً في السير الصحيح، وتنحرف به الطريق عن الصراط المستقيم.

إلا أن هناك حالات ربما يزداد فيها الرجاء أحياناً على الخوف، بسبب موقف ما أو نتيجة حادث أو نازلة، كالذي يحضره الموت، ويدرك أن أجله قريب، فلا بد من ارتفاع مستوى الرجاء لديه، وحسن الظن بربه، لينال العفو والمغفرة بإذن الله تعالى، ولا يطغى عليه الخوف، بل يستحضر قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»، وكذلك يعظم الرجاء عند اشتداد الأزمات لئلا يغلق على نفسه باب التفاؤل والاستبشار كما فعل النبي ﷺ في قصة الهجرة وغيرها.





قال الإمام الترمذي رحمه الله:

حدثنا قتيبة بن سعيد وزهير بن حرب - واللفظ لقتيبة - قالاً: حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة»⁽³⁸⁴⁾.

مفهوم حسن الظن:

في اللغة: إن لفظ حسن الظن مركب من لفظين، أحدهما «حسن» وثانيهما «الظن» فالحسن ضد القبح ونقيضه، وقال الأزهري: الحسن نعت لما حسن⁽³⁸⁵⁾.

وأما الظن فيأتي بمعناه اللغوي بمعنى الشك واليقين إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر لأن يقين عيان يقال له العلم وهو يكون اسماً ومصدرًا فإذا كان اسماً يأتي جمعه ظنوناً⁽³⁸⁶⁾.

في الاصطلاح: هو الاعتقاد واليقين بأن الله تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، وبكل ما تقتضيه أسماؤه الحسنی وصفاته العليا، حيث يتولى شؤونهم في الحياة الدنيا ويسهل عليهم أمور الآخرة بإرسال الرسل والكتب، وكلها أسباب وقايتهم من عذابه وغضبه، وبذلك فإنه جل وعلا سبقت رحمته غضبه، والعطاء أحب إليه من المنع.

وحتى يتحقق حسن ظن العبد بربه وخالقه لا بد له أن يتبع بعض السنن والأسباب التي أمره الله تعالى بها من الإيمان به وتقديم الأعمال الصالحة بين يديه يقول تبارك وتعالى: ﴿عَٰلَمٌ كَافٍ بِمَا كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾⁽³⁸⁷⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت

⁽³⁸⁴⁾ لسان العرب، لابن منظور 13/114، حرف النون، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1375هـ/ 1956م.

⁽³⁸⁵⁾ المرجع نفسه، 13/ 272، حرف النون.

⁽³⁸⁶⁾ سورة البقرة، الآية 218.

⁽³⁸⁷⁾ أخرجه الترمذي (ص560، رقم 2459) كتاب صفة القيامة، باب حديث الكيس من دان نفسه. وابن ماجه (ص621، رقم 4260) كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له. ومسنند أحمد (4/124، رقم 1716). والحديث ضعيف، لكن معناه صحيح.

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»⁽³⁸⁸⁾.

* * *

الفرق بين حسن الظن والرجاء والتمنى:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن حسن الظن بالله معناه أن نعتقد عن الله بأنه متصف بالحسن في ذاته وأفعاله وفي أسمائه وصفاته كما يليق بجلاله تعالى من غير تأويل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل، وجميع أفعاله لا تخلو عن الحكمة سواء علمناها أو جهلناها»

وأما الرجاء فهو ارتياح لا انتظار ما هو محبوب عند النفس، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء سمي تمنياً لأنه انتظار من غير سبب»⁽³⁸⁹⁾.

منزلة حسن الظن بالله من الدين:

يقول الله تعالى: { هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ لَّكَ لَئِكَ كُنتُمْ لَكُمْ }⁽³⁹⁰⁾.

ويقول جل ذكره على لسان يعقوب عليه السلام: {پ پ پ پ پ پ پ ن ذ ن ت ت ت }⁽³⁹¹⁾.

ويقول تبارك وتعالى: {تَطُفِطُفْ فَفَقْفَقْ} ⁽³⁹²⁾.

وهو من الأمور التي وصى بها رسول الله ﷺ حيث قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»⁽³⁹³⁾.

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فالصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم

³⁸⁸ () نقلاً عن: مختصر منهاج القاصدين، تأليف ابن قدامة المقدسي ص316.

389 ﴿سورة الزمر، الآية 53﴾

390 (سورة يوسف، الآية 87).

391) سورة الأعراف، الآية 56

392) أخرجه مسلم (ص 1246،

392 (أ) أخرجه مسلم (ص1246، رقم 2877) كتاب الفتن، باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت.

³⁹³ (أ) أخرجه البخاري (ص1050، رقم 5999) كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله. ومسلم (ص1193، رقم 2754) كتاب النوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه.

بعباده من هذه بولدها»⁽³⁹⁴⁾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرض إن رحمتي تغلب غضبي»⁽³⁹⁵⁾ .

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه»⁽³⁹⁶⁾، وفي رواية: «وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»⁽³⁹⁷⁾ .

ويقول عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»⁽³⁹⁸⁾ .

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم»⁽³⁹⁹⁾ .

وقال عليه ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة»⁽⁴⁰⁰⁾ .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»⁽⁴⁰¹⁾ .

* * *

علاقة حسن الظن بالله بالتوكل على الله:

إن حسن الظن بالله تعالى له علاقة وطيدة بالتوكل عليه جل وعلا، فهو أمر عقدي يؤثر على سلوكيات الإنسان وأخلاقياته اليومية، يقول ابن القيم رحمه

⁽³⁹⁴⁾ أخرجه البخاري (ص1273، رقم7404) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) . ومسلم (ص1192، رقم2751) كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله.

⁽³⁹⁵⁾ أخرجه البخاري (ص1050، رقم6000) كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء. ومسلم (ص1193، رقم6972) كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله.

⁽³⁹⁶⁾ أخرجه مسلم (ص1193، رقم6974) كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله.

⁽³⁹⁷⁾ سبق تخريجه.

⁽³⁹⁸⁾ أخرجه مسلم (ص1200، رقم2767) كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله.

⁽³⁹⁹⁾ سبق تخريجه.

⁽⁴⁰⁰⁾ سبق تخريجه.

⁽⁴⁰¹⁾ تهذيب مدارج السالكين، 240.

الله: «فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه، والله أعلم»⁽⁴⁰²⁾.

حيث يوجد من الناس من يتكل على حسن الظن بالله، ويرتكب المعاصي ويقترب المنكرات، فهذا نوع من التناقض وقد توعده الله من يفعل ذلك بالسخط والعذاب يوم القيامة.

حتى قال بعضهم:

وَكثُرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا إِذَا كَانَ الْقَدُومُ عَلَى كَرِيمٍ

وهذا التصور سمّاه أهل العلم من السلف بالغرور، لأنه يؤدي إلى التماذي في المعاصي والمنكرات، الأمر يناقض أصول التشريع في الأمر بالحلال والنهي عن الحرام.

فحسن الظن بالله تعالى ورحمته ومغفرته لا يعني أبداً التغافل عن جانب التهيب الذي أخبرنا عنه جل وعلا في كتابه المبين، حيث يقول: ﴿تَوَدُّونَ أَنَّ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ رَبِّكُمْ كَمَا نَزَلَتْ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (403).

* * *

آثار حسن الظن بالله تعالى:

ولحسن الظن بالله تعالى آثار ونتائج إيجابية تضيء على النفس والمجتمع تميزاً عن سائر النفوس والمجتمعات ومن هذه الآثار:

1 - يجلب السعادة والراحة للنفس ويسدل عليها ستارًا من الطمأنينة، لأن العبد الذي يحسن الظن بربه، يشعر أن رحمة الله تعالى وحنانه ولطفه يلاحقه في كل مكان، فلا يخشى حينها من وساوس الشياطين ونزغاتهم، ولا تطاوله آفات النفس من قلق وجزع واضطراب.

2 - إن حسن الظن بالله تعالى يدفع بالمؤمن للأعمال الصالحة وتقديم العبادات والطاعات بين يديه، لينال القرب والرضوان منه جلّ وعلا، لقول النبي ﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت

⁴⁰²() سورة الحجر، الآيتان 49 – 50.

⁴⁰³ أخرجه البخاري (ص1127، رقم 6502) كتاب الرقائق، باب التواضع.

عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»⁽⁴⁰⁴⁾. فيظهر نوع من التنافس والتسارع بين العباد في سبل الخير والطاعات.

3 - إن حسن الظن بالله تعالى يجعل من المجتمع المسلم في حالة تنافس وتسابق نحو سبل الخير المختلفة، وبذلك يتحول هذا المجتمع إلى مجتمع متمدن ومتقدم، في جميع الميادين العلمية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، لأن أفراد هذا المجتمع لا يريدون جزاء من الناس، بل ينتظرون الجزاء والمثوبة من الله تعالى الذي تعهد لهم به إذا أحسنوا الظن به امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ذُفِّقْ ذُفِّقْ ذُفِّقْ﴾ (405).

4 - إن حسن الظن بالله تعالى يزيد في قلب المؤمن محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وبالتالي محبة أوليائه من المؤمنين، لأن القلب إذا تعلق بالله ورحمته الواسعة التي لا يحدها شيء، يشغف إلى الحياة معها والبقاء في ظلها، لأنها الملاذ الآمن الذي يحد أمنه وسلامته فيها.

5 - إن العبد إذا أحسن الظن بالله تعالى، تمكّن من مواجهة المصائب والنوازل بصبر وثبات، وهو على يقين بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الله تعالى إنما ابتلاه لخير عظيم وأجر كبير يُدخّر له يوم القيامة، وهو ما يجعل العبد المؤمن في حالة من التفاؤل والحركة في الحياة لأنه يرنو إلى ما عند الله تعالى، فتتصاغر أمام يقينه الخطوب العظام والأهوال الجسام.

6 - إن حسن الظن بالله تعالى يجعل النصر والظفر حليف المؤمنين، لأنه يثبت المؤمنين في القتال ويشد من أزهرهم ويزيد من صبرهم، رغم تكاثر الأعداء وقوة عتادهم، فكلما اشتد الخطب وحمي الوطيس اشتدت صلّتهم بربهم وقوي ظنهم بالله تعالى، وهذه الصورة الحية قد نقلها الله تعالى لعباده عبر هذه الآية الكريمة: {ثُمَّ نَآيُجْ بِجْ بِخْ بِمْ بِى بى بى تَجْ تَحْ تَخْ تَمْ تى تى تَجْ تَمْ تى} (406).

وفي المقابل، فكما أن حسن الظن يجلب لصاحبه الرحمة والمغفرة فإن سوء الظن به جل وعلا يجلب عليه العذاب والعقاب يقول تبارك وتعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودٌ بِطَغْوَاهِمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰ ۖ حَسِبُوا أَنَّ أَصْنَانَهُمْ مِنَ الْعُتُقُرِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا يَتَبَوَّأُونَ مَقَامًا يَأْتِمِرُ بِهِ فَلَا اتِّخَاعَ لِلْعُنُوتِ أُولَئِكَ صَفْرَاءُ ۚ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ جَاهِلُونَ} (٤٠٧).

404 سورة الإنسان، الآية 9.
405 سورة الأحزاب، الآية 22.
406 سورة الفتح، الآية 6.
407 سورة ص، الآية 27.

ويقول جل شأنه: {يٰٓـَٔيُّ دِيْنُ ٱ ذٰٓئِىْ} (408).

* * *

وسائل تعين على حسن الظن بالله تعالى:

1 - التدبر في خلق الله تعالى وآياته في النفس والكون والحياة، وكذلك التفكير بما وصف الله نفسه بها من الصفات والأسماء، لأن ذلك يبعث على النفس اطمئناناً واسعاً وراحة كبيرة، ويشعر الإنسان حينها أنه بغنى عن كل ما سوى هذا الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصف بهذه الصفات الجليلة والكريمة.

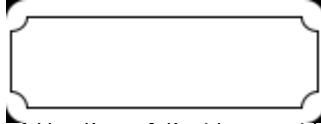
2 - معرفة أهمية حسن الظن بالله تعالى وآثاره الإيجابية على النفس والمجتمع بشكل خاص وعلى الحياة بجوانبها المختلفة بشكل عام، لأنها تزيد من عزم الإنسان نحو حسن الظن بربه وخالقه، وهو الحال التي عاش عليها الأولون من سلف الأمة رحمهم الله جميعها.

3 - قراءة القرآن بصورة دائمة، والتفكير والتدبر في آياته وأحكامه، وهو نوع من الذكر والتعلق الصادق مع الله تعالى، ومعلوم أن كتاب الله حافل بآيات الرحمة والمغفرة، وهي جزء من صفاته جل شأنه، الأمر الذي يجعل الإنسان يحسن الظن بهذا الخالق الرحيم، فيقدم بين يديه شتى الأعمال الصالحة، من الفروض والسنن والنوافل والنفقات وجميع الأعمال الخيرة الأخرى.

4 - فهم الدين وتطبيق أحكامه في الأمر والنهي، وهو من مقتضيات تحقيق حسن الظن بالله تعالى في نفس الإنسان، لأن المعاصي والمنكرات تبعد الإنسان عن حسن الظن بالخالق، بل إنها تجعله يسيء الظن به جل ذكره، كما هو حال المشركين والكفار من غير المسلمين أو كما هو حال كثير من الفاسقين من أبناء المسلمين.



⁴⁰⁸() أخرجه مسلم (ص1295، رقم 2999) كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.



عبادتان قلبيتان عظيمتان يسببان الخير المطلق للإنسان، ومن هذا الخير: الخير للنفس قوة وبناء ومعالجة. هما شكر الله تعالى على نعمه، والصبر على بلائه، فيشكلان معلماً من معالم منهج الإنسان في هذه الحياة ليكون سعيداً في الدنيا والآخرة، نعرض أولاً ما يتعلق بالشكر، ونفتتح بما رواه مسلم رحمه الله:

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ الْأَزْدِيُّ وَشَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ جَمِيعًا عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَاللَّفْظُ لِشَيْبَانَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (409).

حقيقة الشكر:

الشكر كما في مفردات الراغب: تصور النعمة وإظهارها، ويزاد الكفر وهو نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور: مظهرة لسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل: أصله من (عين شكوى) ممتلئة، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه.

وأورد القرطبي عبارات لبعض العلماء في معنى الشكر منها: أن الشكر هو الاجتهاد في بذل الطاعة مع اجتناب المعصية في السر والعلانية، وأقل الشكر هو الاعتراف بالتقصير في شكر المنعم، ولذلك قال تعالى: ﴿تُؤْمِنُوا﴾ (410)، فقال داود: كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منك؟ قال: الآن قد عرفنتني وشكرتني، وقيل: الشكر: أن لا يعصى الله بنعمه، وقيل: الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسموات (411).

وبذلك يمكن تعريف الشكر: بأنه اعتقاد نعمة المنعم سبحانه وإظهار هذا الاعتقاد على اللسان والجوارح.

* * *

(409) سورة سبأ، الآية 13.
(410) تفسير القرطبي 1/271.
(411) سورة لقمان، الآية 20.

1- شكر القلب:

1- شكر القلب:

وإعمار القلب بهذا الحب وهذا الود من شأنه أن يؤثر على الجوارح فيجعلها تتحرك وفق منهج الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى:
{قَفْ قَفْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ} (٤١٣).

2- شكر اللسان:

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا النُّوعِ مِنَ الشُّكْرِ كُلُّ ذِكْرِ لِلَّهِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ تَهْلِيلٍ أَوْ اسْتِغْفَارٍ، مَا دَامَ اللِّسَانُ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

٤١٥) أخرجه مسلم (ص ١١٧١، رقم ٥٠٧٣) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح.

٤١٦) سورة العصر.

وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها، فهو من أعظم أنواع الشكر وأصدقها، ذلك أن ما ينبض به القلب من الحمد والشكر وكذلك ما يردده اللسان يترجم إلى واقع عملي، ومعظم أمور الدين إذا لم تتحول إلى عمل فلا يعد شيئاً في ميزان الشرع، وقد وردت في كتاب الله تعالى مقارنات كثيرة وملازمات متعددة بين الإيمان والعمل الصالح، كما في قوله تعالى في سورة العصر: {أب ب ب ب ب پ پ پ پ پ پ ث ن}، وقوله تعالى: {ؤ و و و و ی ی د ذ ه ح ط ظ ثل}.^(٤١٨)

فبذلك يكون الشكر العملي من أسمى وأعظم أنواع الشكر وأكثرها قبولاً عند الله، واستعمال الجوارح في التعبير عن شكر الله تعالى على نعمه وأفضاله تتمثل في كل أنواع الخير والطاعات، وترك كل المعاصي والمنكرات.

* * *

بما أن شكر الله تعالى وحمده على نعمائه وآلائه نوع من الذكر، وخلق جميل على إدراك فضل الله تعالى على العبد، فإن لهذا الخلق آثار متعددة على نفسية المنعم عليه وعلى سلوكه وأطباعه، بل إن هذه الآثار تتعدى إلى آخرته فينال بالشكر رضوان الله تعالى والقرب منه وعفوه ورحمته، ومن أهم تلك الآثار:

2- إن شكر الله تعالى يولد الشعور بالرضى والقرب منه جلّ وعلا، حيث يحس العبد حينها أن الله خصّه بكرمه فيقبل عليه بالتوبة والاستغفار والثناء عليه سبحانه بما هو أهله، ثم إنه يبادر إلى من حوله فيحسن إليهم، ويبذل جهده في إدخال السرور إلى قلوبهم كما أدخل الله المسرة إلى قلبه بإسباغ النعم عليه، فتستند بذلك الروابط الاجتماعية بين الناس ويضمحل الحقد والضغينة بينهم.

417() سورة الكهف، الآية 107.

418 (سورة آل عمران، الآية 145).

419) سورة آل عمران، الآية 144.

حقوقهم، أو يقصّر في العبادات وأداء الفرائض، ومن أجل ذلك تكرر الحث على الشكر في كتاب الله وتكرر ذكر النعم والآلاء لعل الناس يتفكروا فيها فيشكروا الله عليها بالتقرب إليه بالطاعات والعبادات، كما في قوله تعالى في نهاية كثير من الآيات: {يَذِّكُّ}، كما أثنى الله عز وجل على عباده الشاكرين وجعل الشكر شرطاً لدوام النعمة وزيادتها، فقال تعالى: {ه ه} (420)، وقال: {ق ق ق ق ق ق ق ق} (421).

4- إن شكر النعمة، يؤدي إلى الطمأنينة والراحة النفسية الدائمة، لأنه لم يجعل المال في قلب المنعم عليه وإنما جعله في يده، ولم يفاخر به على الآخرين وينسبه إلى نفسه، وإنما يرجعه في الأصل إلى الله تعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء، ويرزق من يشاء بغير حساب، كما أنه اعتقد أن هذه النعمة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وتسخيرها في طاعة الله وإقامة حكم الله، وإنما هو مكلف للقيام بهذه المهمة ومحاسب عليها يوم القيامة.

إن هذا التصور يلقي بظلال من الراحة إلى نفوس المنعم عليهم لأنهم ساروا على الطريق المرسوم لهم من ربهم، ثم إنه يخرج من قلوب الفقراء والمحتاجين في المجتمع عوامل الحقد والنقمة على المنعم عليهم، فينشأ بين الطرفين الود والتعاون والوئام، وينجلي كل أسباب الضغينة والكراهية التي تؤدي إلى خلخلة المجتمع، وإفشاء القلق وأمراض النفس بين الناس التي قد تؤدي إلى النهب والسرقات أو القتل أو أية جرائم أخرى.

5- إن النفس التي يملأها الخير هي النفس المطمئنة العامرة بحب الله وحب رسوله ﷺ وحب المؤمنين، فلا تجد فيها ما يكدر من صفوها، أو يوسوس لها الاستعلاء والاستكبار على الآخرين. لأن من مداخل الشيطان إلى النفس أن يوحى إليها أن كل ما عندها من الخير والنعم هي من صنعها وكدها وتعبها، وليس لأحد فضل عليها أو منة، وهو مستنقع خطير يصطاد الشيطان من خلاله الضعفاء من البشر.

6- إن الاستقرار النفسي الذي ينتج عن شكر نعم الله يؤدي إلى الاستقرار والأمن في المجتمع، وهو أمر مهم للحفاظ على تماسك الناس فيما بينهم، وكذا الحفاظ على راحتهم النفسية، وعلى العكس من ذلك فإن أي اضطراب في النفس أو غضب سينقلب سلباً على الناس وعلى المجتمع، لذا كان الشكر أمراً مطلوباً لتفادي هذا الخطر على النفس قبل البشر.

7 - الخيرية المطلقة للشاكر في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث السابق، حيث جاءت هذه الخيرة نكرة والنكرة تعم، وبذلك يدخل العبد الشاكر

(420) سورة إبراهيم، الآية 7.
(421) سورة آل عمران، الآية 110.

لنعم الله تعالى في محتوى الخيرية ويصبح جزءاً صالحاً من هذه الأمة التي امتدحها الله بهذه الصفة المباركة {ث ث ذ ث} (422).

8 - إن شكر النعم ومقابلتها بالعمل الصالح وكل ألوان الطاعات والعبادات، هو نوع من الاقتداء بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الذين هم أعالي الناس، وأكثرهم حمداً وشكراً لأنعم الله، وأعلمهم بحقيقة وجودهم وما سخر الله لهم من النعم لبقائهم وسعادتهم في الحياة، فلم تغريهم الدنيا وزينتها، من كثرة الاتباع أو قيادة الناس، لم يغرهم علمهم وحجتهم، لأنهم على دراية كافية بحقيقتها وأنها فضل من الله تعالى وفي الوقت نفسه ابتلاء واختبار.

وقد وصف الله تعالى نبيه وخليفه إبراهيم عليه السلام، بأنه كان عبداً شاكراً
لما أغدق عليه من النعم والآلاء، فقال: ﴿ثُمَّ ثُبَّتْ فَرْفَقَةٌ قَدْ فَتَّقُحٌ﴾ ج ج ج {٤٢٣}.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

9 - إن العبد الشاكر لنعم الله تعالى ينال محبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، للحديث الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إني لأحبك. فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»⁽⁴²⁴⁾.

جود النعمة ونكرانها:

إن كثيراً من الناس لا يقدرّون قيمة تلك النعم ولا يضعونها في مكانها الذي خصّصه الله لها، ويتبجحون بها كل تبجح، فيبدّرون أموالهم تبذيراً في أشياء لا منفعة فيها ولا مصلحة، فضلاً عن إسرافها في المحرمات والمعاصي والصد عن سبيل الله، ثم إنهم ينسبون كل ما تحل بهم من نعم وأفضال إلى أنفسهم، فيتجبرون بها على رقاب الضعفاء ويتكبرون ويتباهون بها بين الناس دون أن يضعوا في الحسبان نصيب إخوانهم الضعفاء فيها، أو مساعدتهم والتودد إليهم من خلالها.

فالذي هذا شأنه يكون منكرًا لنعمة الله بدلاً من شكره والثناء عليه، وكذلك الذي لا يعمل بعمله وقدراته في خدمة الناس ولا يتقن بما وكل إليه يكون منكرًا للنعمة وجاحدًا لها، والذي يفرط بأوقاته ويضيعها في اللهو واللعب والمحرمات منكر لنعمة الله، وإن الذي لا يشكر الله على الأمن والرخاء الذي يحيط به من

422() سورة النحل، الآيتان 120-121.

423) سبق تخريجه.

424) سورة البقرة، الآية 152.

يقول جل ذكره: ﴿يَا مَعْشَرَ نِجَالٍ لِّمَ لَكُمْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِمُوسَىٰ فَجَاءَ الْكَافِرُ﴾ (٤٢٥).

ولكن ما هي النتيجة المترتبة على كفر نعم الله المغدقة على العباد؟

وقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَوُضِعَ الْوِزْنُ وَوُضِعَ الْمِيزَانُ} (427).

بل إن الخسارة الكبرى لكفر النعمة تكون يوم القيامة، حين يقف الإنسان بين يدي خالقه، فتجلى له صحيفته التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، فيرى ما اقترف من كبائر ومعاصم مقابل ما أغدق الله عليه من الخيرات والبركات، وقد صَوَّرَ الله تعالى ذلك المشهد في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تُؤْثَرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٢٩).

425() سورة سبأ، الآيات 15-17.

426) سورة القصص، الآيتان 58، 59.

427 سورة النحل، الآية 112.

428) سورة الأحقاف، الآية 20.

429 { أخرجه البخاري (8، رقم 29) كتاب الإيمان، باب إقضاء السلام. ومسلم (ص366-367، رقم 907) كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف.

خيرًا قط»⁽⁴³⁰⁾.

هذا فضلاً عن الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية التي تنجم عن كفر النعمة، حيث لا يقوم المنعم عليه بأداء الواجب نحو هذه النعمة من الإنفاق في سبل الخير وإعانة المعوزين والفقراء، وهذا يشعل نار الغضب والحقد في نفوس الآخرين، والشاكرون القائمون بأداء هذا الواجب قلة، كما قال الله تعالى: {كَغْ كَغْ} ⁽⁴³¹⁾، وقال سبحانه: {ثَوُّ ثَوُّ ثَوُّ ثَوُّ} ⁽⁴³²⁾، ومن أجل ذلك تزداد مثل هذه الأمراض والمشكلات.

* * *

وسائل معينة على شكر الله تعالى:

هذا وإن لشكر نعم الله تعالى وآلائه على الإنسان وسائل ومعينات، تساعد على تذکر النعمة والقيام بالواجب الشرعي نحوها، ومن تلك المعينات:

1 - التفكير والتأمل في الأنعم المغدقة والتي لا تعد ولا تحصى، ابتداء من نعمة الحواس وسائر الجوارح، ونعمة الصحة والعافية والقوة والمال والولد، حيث إذا فقد الإنسان شيئاً من هذه النعم، يرى عليه أثر ذلك، فيختل جانب مهم في حياته، بل إن كثيراً من النعم لو فقدت من الإنسان جعلت حياته ضرباً من العذاب والاضطراب والشقاء، ومن أجل هذا فإن التأمل والتفكير في هذه النعم القرية جداً من كيان الإنسان ضرورة وسبيل للقيام بواجب الشكر والثناء على المنعم جلّ وعلا.

2 - أن ينظر الإنسان دائماً إلى من هو أسفل منه، وليس إلى من هو أعلى منه في المال والشهرة والمنصب، لأن ذلك يولد الحسد والبغض بين الطرفين، بل ربما يسلك الأدنى سبلاً غير مشروعة من أجل الوصول إلى ما وصل إليه غيره من الثراء أو المكانة الاجتماعية، أو الشهرة وغيرها، ومن أجل ذلك وصّى النبي ﷺ المؤمنين بالابتعاد عن هذا الخلق الذميمة حتى لا يقعوا في شرك الشياطين ويتبعوا الطرق المحرمة لتحقيق غاياته ومآربه فقال عليه الصلاة والسلام: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله» ⁽⁴³³⁾.

3 - الدعاء، وهو الوسيلة المباشرة بين العبد وربّه، يبث عبرها همومه وشكواه لخالقه، ويطلب منه العون والنصرة والتوفيق، ويسأله وحده أن يديم عليه ما هو فيه من نعمة الإيمان والصحة والعافية والمال والأولاد، ولا يعتمد

⁽⁴³⁰⁾ سورة الأعراف، الآية 7.

⁽⁴³¹⁾ سورة سبأ، الآية 13.

⁽⁴³²⁾ أخرجه مسلم (ص1283، رقم 2963) كتاب الزهد، باب الدنيا سجن المؤمن.

⁽⁴³³⁾ سورة القصص، الآية 78.

في ذلك على أحد سواه، ويسأله في الوقت نفسه أن يعينه على الصبر إذا حُرِم بعض تلك النعم.

4 - قراءة القرآن وتدبر آياته، بصورة دائمة، لأنها من الذكر الذي يدخل في باب الشكر باللسان، وقد أمر الله تعالى عباده بتلاوة القرآن وتدبره حتى لا ينقطع الحبل بين العبد وربّه، ويبقى القلب موصولاً مع الله أبداً، فيتجنب العبد المنعّم عليه حينها البطر والاستعلاء على الناس، ويخاف أن يتعرض لحقوقهم ودمائهم وأموالهم.

وأخيرًا:

فلا بد من الإشارة إلى مجموعة من الوصايا لشرائح مختلفة من أبناء المجتمع، كل حسب حاله:

ليعلم الغني أن ما أوتي من مال ليس من حوله وعلمه وقوته وإنما هو عطاء من الله ونعمة من جانب، وابتلاء واختبار من جانب آخر، وأن هذا المال هو مال الله تعالى والإنسان مستخلف فيه، وإذا شاء الله جعله محققاً وأثراً بعد عين، فلا يغرن الإنسان بذلك وينسى فضل الله عليه وينسى شكره، فيتكبر ويتجبر بين خلق الله، فقد علم القرآن الأمة دورساً وعبر في قصة قارون حين أغراه ماله وثراؤه إلى أن تبجح بالقول {ب ب ب ب ب} (434). فكانت نتيجة ذلك التكبر والغرور {ك ك ك ك ك د د س س ط ط ط ط ه ه ه} (435).

ثم ليعلم الشاب القوي، صاحب النشاط المتجدد والحركة والحيوية، أن هذه القوة والحياة في جسمه إنما هو نعمة ومتاع ينبغي استغلالها في سبيل الخير وفي سبيل الله، فلا تكون وسيلة لإيذاء الناس وإحاق الضرر بهم، لأن الله الذي منح هذه القوة والنشاط يستطيع أن يذهبها بين لحظة وأخرى، وليكن في بال كل شاب وفتاة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»⁽⁴³⁶⁾.

ثم وصية لكل إنسان معافي من الأمراض والأوباء أن يخصص أوقاتاً معينة لزيارة المستشفيات ليرى إخوانه المرضى الذين يعانون الأمراض المختلفة، ويأتون ويتألمون معظم أوقاتهم، ليرى ذلك ويعرف فضل الله عليه بما

⁴³⁴() سورة القصص، الآية 81.

435 } سبق تخريجه.

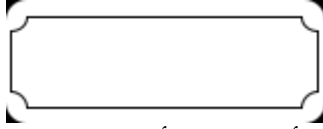
سبق تخريجه. }⁴³⁶



أسبغ عليه من نعمة العافية والصحة، فإن ذلك عامل مهم للقيام بشكر الله تعالى وأداء ما يوجب نحو نعمه ومعافاته له.

وهكذا فإن من أهم الخطوات الواجبة على الإنسان التأمل والتفكير بأنعم الله تعالى وفضله ومنه عليه، لنتحرك إرادة الشكر في قلبه فيردده اللسان ومن ثم تترجمه الجوارح إلى واقع من خلال المحافظة على الفرائض والطاعات، والإحسان إلى الناس وعدم الاستعلاء عليهم، حتى تبقى النفوس طاهرة ومستقرة من الأحقاد والضغائن، ويبقى المجتمع في قوة وترابط.





سبق في مبحث الشكر أن ذكرنا أنه عبادة قلبية تكمل عبادة أخرى هي الصبر، فالشكر حال الرخاء، والصبر حال البلاء، فهما من معالم منهج الإنسان في هذه الحياة، وهما في حال اجتماعهما سبب للخيرية المطلقة في الدنيا والآخرة، وقد فصلنا ما يتعلق بالشكر، وهنا نفصل ما يتعلق بالصبر، ونذكر بالحديث الذي افتتحنا به مبحث الشكر وهو ما رواه مسلم رحمه الله قال:

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ الْأَزْدِيُّ وَشَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ جَمِيعًا عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَاللَّفْظُ لِشَيْبَانَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لُبَيْبٍ عَنْ صَبْهَيْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (437).

هذا الحديث يرسم منهجًا عظيمًا للمسلم، وهو من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام.

حقيقة الصبر:

حبس النفس عن الجزع.

وهو سلاح المؤمنين في الحياة لتخطي صعابها وخطوبها، وهو الدواء الذي يمنح نفوسهم الطمأنينة والسكينة ويحميها من الوسوس والاضطرابات؛ بل إن الصبر مفتاح الفرج من الكربات المختلفة، سواء ما تتعلق بكينونة الإنسان أو خارجها.

ومن دون الصبر لا يستقيم عمل ولا يدوم إحسان ولا تتم طاعة ولا تنجح دعوة، وهذا هو الفيصل بين المؤمن وغيره كما ورد في الحديث، ولعله السبب في وصول هذا الدين إلى أصقاع المعمورة، والقارئ للسيرة النبوية وحياة الصحابة والسلف الصالح سيجد أن تلك الثمار الياقة التي قطفتها الأجيال اللاحقة من سلفهم كانت نتيجة صبرهم على محن الحياة وعوارضها، وتحملهم الأذى والمشقة والجهد في سبيل دين الله الذي هو عصمة الأمر كله.

وهو امتثال لأمر الله تعالى الذي يخاطب عباده المؤمنين بالتحلي بهذا الزاد القاهر لشتى الصعاب، حين يقول جل ثناؤه: ﴿ثَابِتًا وَهَاتِفًا لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾

(437) سورة آل عمران، الآية 200.

نُقْ (438).

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تحث المؤمنين على الصبر وتذكرهم بالجزاء الكبير الذي ينتظرهم من الله تعالى على ذلك.

* * *

أنواع الصبر:

أولاً: الصبر على الطاعة:

رغم أن الإنسان حين يؤدي أية عبادة يشعر براحة نفسية، وراحة في الصدر، إلا أن كثيراً من هذه العبادات تحمل في بعض الأحيان أنواعاً من التعب والنصب والمشقة، مثل الالتزام بالصلاة ومواقبتها في اليوم والليلة خمس مرات أبد العمر، وكذلك إخراج زكاة الأموال التي جبل الإنسان على حبها، وأداء نسك الحج الذي فيه من التعب البدني ما لا يغفل عنه أحد، وغيرها من العبادات، كل هذه الأمور بحاجة إلى تعويد النفس على الصبر عليها، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَنْ يَكُنَّ كُذُوهُ وَوُ﴾ (439).

ثم إن هذه العبادات تحمل معنيين كبيرين، أولها أنها أمر من الرحمن الرحيم الذي هو أرحم بالبشر من أنفسهم، والذي لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا بد أن يُنفذ هذا الأمر ويُطاع الخالق، وهذا نوع من العبودية له جل ثناؤه، والثاني أن في أداء هذه الطاعات لونا من الاختبار والامتحان للإنسان ومدى صبره عليها، لقوله تعالى: ﴿يٰٓرَٔٓيْٓنَا ۙ ذٰلِكَ ۙ ذٰلِكَ ۙ﴾ (440).

فلا بد أن يتقوي الإنسان على أداء هذه العبادات بالصبر الذي أمره الله به، يقول تعالى: ﴿ذٰلِكَ ۙ ذٰلِكَ ۙ ذٰلِكَ ۙ ذٰلِكَ ۙ﴾ (441). لأن الجزع يثبط الإنسان عن أداء العبادات؛ بل إنه يأمره في كثير من الأحيان بالمعاصي والخطايا.

وقد كان رسول الأمة عليه الصلاة والسلام القدوة الأولى في الصبر، كان يعبد الله تعالى حتى تتورم قدماه ويصبر على ذلك، فقد ثبت في الصحيحين أنه قام حتى تقطرت قدماه، فقليل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» (442).

(438) سورة البقرة، الآية 45.

(439) سورة الملك، الآية 2.

(440) سورة يونس، الآية 109.

(441) أخرجه البخاري (ص586، رقم 3648) كتاب التفسير، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك. ومسلم (ص1227، رقم 2819) كتاب صفات المافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(442) أخرجه الترمذي (ص392، رقم 1621) كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً وأحمد (6/20، رقم 23997). وابن حبان في صحيحه (10/484، رقم 4624). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»⁽⁴⁴³⁾.
وقد حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على غرس خلق الصبر على الطاعات في نفوس الصغار حين خاطب أولياء أمورهم: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين وفرّقوا بينهم في المضاجع»⁽⁴⁴⁴⁾.

والإنسان الذي يتربى على خلق الصبر في الطاعة سيجد عند الكبر لذة هذه الطاعة، بل إنه سيقبل عليها بشغف وقوة وهذا كان شأن الصحابة وسلف هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا النوع من الصبر هو أفضل الأنواع، لأنه قيام بالتكاليف بالاختيار.

ثانيًا: الصبر عن المعاصي:

كما أن الصبر مطلوب على طاعة الله تعالى وأداء فرائضه والقيام بواجب الدعوة وما تحمله من متاعب ومصاعب، فإن الصبر مطلوب بالمقابل عن معاصي الله تعالى ونواهيه، وهذا النوع من الصبر هو مقاومة النفس عن اتباع الشهوات والملذات التي حرم الله تعالى على عباده الاقتراب منها وتناولها، لحكم هو يعلمها جلّ وعلا، وللأضرار التي تنجم عن المعاصي والمنهيات، سواء على المستوى النفسي أو الاجتماعي.

ويجب أن يكون امتناع المؤمن عن المعاصي نابغاً من إيمانه بهذا الدين وأنه تنفيذ لأمر الله تعالى وهدى رسوله ﷺ، وهو المنطلق الذي حرك في الصحابة ترك المنكرات التي كانوا عليها في الجاهلية، وقد حفلت سيرتهم العطرة بصور رائعة جسدت معنى الصبر عن المعاصي في صورة عملية فريدة، فهاهم يتركون شرب الخمر ويكسرون دنانها في الأزقة والطرقات بعد نزول آية تحريمها فوراً، وقد كانت هذه الخمر من قبل صديقة سمراتهم وأفراحهم، ولكنهم لم يلقوا لذلك كله بالاً أمام أمر الله تعالى بالاجتناب والترك، وحياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مليئة بأنواع الصبر عن المعاصي وتركها.

وقد التزم بالصبر عن معاصي الله تعالى ونواهيه أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، الذين يعدّون القدوة للمؤمنين إلى يوم القيامة، فهذا نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام يتعرض لأكبر إغراء من امرأة وزير الدولة وقد تزينت بأصناف الحلي والزينة، وتطلب منه الفاحشة رغم توفر أسبابها من الخلوة

⁽⁴⁴³⁾ أخرجه أحمد (2/187، رقم 6756). والدارقطني في السنن (1/430، رقم 887) وهو حديث حسن.

⁽⁴⁴⁴⁾ السيرة النبوية لابن هشام، 1/299.

وغلاق الأبواب وغيرها، ولكنه عليه السلام يصبر على هذا الإغراء والوقوع في المحذور، وتحمل غربة السجن سنين طويلة من أجل ذلك، إلى أن أكرمه الله تعالى بالنبوة وجعله ملكاً على خزائن مصر.

وهذا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تعرض له الدنيا مالاً وجاهاً ونساء، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يركن إلى شيء منها، بل إنه عليه الصلاة والسلام استصغرها أمام مهمة الرسالة والدعوة إلى الله، وعبر عن ذلك لعمه أبي طالب بقوله: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»⁽⁴⁴⁵⁾.

وفي ذلك دروس وعبر لشباب الأمة في مواجهة التحديات المختلفة التي تلاحقهم من كل جانب للنيل من عقيدتهم وقيمهم وأخلاقهم، سواء كانت بوساطة موجات التشويش الفكرية، أو ما تبثه الفضائيات من المجون والسفور والعروض المثيرة التي تخدش الحياء والآداب، وكلها مداخل شيطانية تدغدغ النفس وتحركها للوقوع فيها، ولكن المؤمن الصادق مع الله تعالى، يصبر على ذلك كله ويتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»⁽⁴⁴⁶⁾.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»⁽⁴⁴⁷⁾.

ثالثاً: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

بما أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فإن أقدار الله المؤلمة على عباده كثيرة ومتنوعة، وموقف المؤمن منها الصبر عليها لكسب رضى الله تعالى ومثوبته، ونذكر ثلاثة من هذه الأقدار المؤلمة التي يشترك فيها جميع الناس، وهي:

1- مصيبة الموت

لقد وصف الله تعالى الموت بالمصيبة {كَبْرًا} ⁽⁴⁴⁸⁾، وهو من البلاءات الكثيرة التي يمتحن الله به عباده، وهو من المصائب الكبيرة على نفس الإنسان، لأنه يفرق الأحباب والأصحاب، ويغير النعم واللذات.

والصبر عند مصيبة الموت مأمور به في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأنه

⁽⁴⁴⁵⁾ أخرجه الترمذي (ص519-520، رقم 2260) كتاب الفتن، باب الصابر على الدين في الفتن كالقابض على الجمر. وأحمد (2/390، رقم 9061). وهو حديث صحيح.

⁽⁴⁴⁶⁾ أخرجه مسلم (ص1228، رقم 2822) كتاب الجنة ونعيمها، باب صفة الجنة.

⁽⁴⁴⁷⁾ سورة المائدة، الآية 106.

⁽⁴⁴⁸⁾ أخرجه مسلم (ص372، رقم 926) كتاب الجنائز، باب الصبر على المصيبة. والبخاري (ص204، رقم 1283) كتاب الجنائز.

يكون شخصية المؤمن المتمزن المرتبط مع ربه والراضي بقدره، فيدخل في النفس السكينة والرضى لنزول هذه المصيبة، فلا يصيب المؤمن حينها الحزن واليأس والضجر، لأنه يعلم أن كل ما في هذا الكون ملك لله، يهب متى يشاء ويقبض متى يشاء، وأعظم الصبر يكون عند الصدمة الأولى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري» فقالت: وما تبالي بمصيبتي! فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت. فأنت بابه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة» أو قال: «عند أول الصدمة»⁽⁴⁴⁹⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»⁽⁴⁵⁰⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وفي ولده، حتى يلقي الله يوم القيامة وما عليه من خطيئة»⁽⁴⁵¹⁾.

ومقابلة مصيبة الموت بالصبر والاسترجاع والاحتساب يرضي الله سبحانه وتعالى، ويكتب للعبد الأجر الكبير، وهي صفة لا تتوافر إلا في المؤمن، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول ما سمعته يكتبه قبلها ولا بعدها، يقول: «إن الله عز وجل يقول: يا عيسى، إني باعث من بعدك أمة، إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، قال: يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم، قال: أعطيتهم من حلمي وعلمي»⁽⁴⁵²⁾.

2 - المرض:

المرض من الابتلاءات الكثيرة التي تعرض للبشر، وهو حالة تصيب جسم الإنسان أو نفسيته فيشعر بالتعب والألم، وهو نوع من البلاء يخصه الله من يشاء من عباده فضلاً منه جل وعلا ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يقول ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا

⁽⁴⁴⁹⁾ أخرجه البخاري (ص1115، رقم 6424) كتاب الرقائق، باب العمل الذي يراد به وجه الله.

⁽⁴⁵⁰⁾ أخرجه الترمذي (ص547، رقم 2399) كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر مع البلاء.

وابن حبان (7/187، رقم 2924). وهو حديث صحيح.

⁽⁴⁵¹⁾ أخرجه أحمد (6/450، رقم 27585). والحاكم (11/499، رقم 1289) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم.

⁽⁴⁵²⁾ أخرجه الترمذي (ص546، رقم 2396) كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء.

وابن ماجه (ص581، رقم 4031) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء. وهو صحيح.



أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽⁴⁵³⁾.

ولا يحسن الذي لم يبتلي بالمرض أن الله راض عنه، بل الصواب على عكس ذلك، فربما يكون من أسباب غضب الله عليه أنه لم يبتليه بمرض أو أية وعكة، لأن المرض فضل من الله تعالى بوصفه كفارة للذنوب والخطايا ولصاحبه الأجر الكبير عند ربه يوم القيامة.

والله سبحانه تعالى ينظر إلى العبد المبتلى بالمرض، وينظر كيف يتلقى حكمه وبلاءه فيه، ومن رحمته جل ذكره بالمبتلى أنه أرشده إلى ما يقوم به أثناء هذا الابتلاء، فأمره بالصبر والرضى لحكمه جل شأنه، لأنه الدواء الناجع لمعالجة المرض وغيره من البلاء، ويضرب لنا عز وجل مثلاً في القرآن الكريم لنبيينا أيوب عليه السلام الذي ابتلي في جسده بمرض لم يترك بضعة منه إلا دخله المرض حتى قيل إن الديدان كانت تأكل من جسده الطاهر عليه السلام، فبين جل ذكره صبر هذا النبي ورضاه لحكم ربه، أنه لم ينقطع في الثناء على الله وشكره له لما هو فيه، فقال تعالى: ﴿تَدْتُّتْ تُدَّتُّ ف﴾⁽⁴⁵⁴⁾.

رابعاً: الصبر على أذى الناس

إن أذى الناس لا يسلم منه أحد من البشر، وما دام هناك اختلاط وتداخل بينهم فلا بد من وجود هذه الصورة من الابتلاء، وهي صورة تتكرر في واقعنا اليومي، في الشارع وفي العمل وفي الأسواق، وفي المتجر وفي المصنع، وفي الحي، وفي سائر الميادين الأخرى.

والصبر على أذى الناس وسوء أخلاقهم، مطلب ديني وضرورة دعوية، بل يجب أن يذهب المؤمن إلى أبعد من ذلك، فيقابل هذا الأذى بالحسنى والخلق الحميد، لما يترتب على ذلك من مكاسب دعوية في الدنيا وأجر وثواب في الآخرة، وقد كان خلق الصبر على أذى الناس من صفات النبي ﷺ اللازمة له مع المسلم وغير المسلم، ما دام الأمر لا يتجاوز حدود الله تعالى وحرماته، يقول عليه الصلاة والسلام: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»⁽⁴⁵⁵⁾.

وإذا كان مطلوباً من المؤمن الصبر على أذى الناس، فالأولى أن يمتنع عن إيذاء الآخرين، أو الإضرار بهم، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك، لا سيما إيذاء الجار الذي جعله النبي ﷺ مرتبطاً بمدى الإيمان قوة وضعفاً، في قوله:

⁽⁴⁵³⁾ سورة ص، الآية 44.
⁽⁴⁵⁴⁾ أخرجه الترمذي (ص570، رقم 2507) كتاب صفة القيامة، باب فضل المخالطة مع الصبر على أذى الناس. وابن ماجه (ص582، رقم 4032) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.
⁽⁴⁵⁵⁾ رواه البخاري، برقم 6018، ص1052.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»⁽⁴⁵⁶⁾.

* * *

آثار الصبر على النفس والسلوك:

وللصبر آثار كثيرة على الإنسان في نفسه وسلوكه وأخلاقه، كما أن له مكاسب أخروية كتطهيره من أدران الذنوب وحصول النعيم عند الله تعالى والقرب منه يوم القيامة، ومن أهم هذه الآثار ما يلي:

1- إذا أحلت بالعبد شدة وضائقة وتلقاها بالصبر وعدم الجزع توجهت نفسه إلى ربها ملتجئة إليه لائذة به وعائذة، تطلب منه العون والمدد فيزداد قرباً من الله عز وجل. فيحس العبد بضعفه وقلة حيلته، ويستشعر عبوديته لربه جلّ وعلا مستشعراً قوله تعالى: ﴿فَقُفُّوا قُلُوبُكُمْ لَكُمْ رَاحَةٌ﴾⁽⁴⁵⁷⁾، فينال راحة نفسية وثباتاً مع الرضى بما أصابه، ولا يحدث حوله قلقاً وجزعاً ربما أذى غيره ممن لهم صلة به، ويكون قدوة لغيره في مواجهة الشدائد فيصلح حال مجتمعه، لأن كثيراً من الشرور التي تصيب المجتمع يأتي من جهة الساخطين على ما يصيبهم من شدة وبأس حيث تمتلئ نفوسهم حقدًا وحسدًا على كل ما يحيط بهم.

وهنا همسة في أذن كل مبتلى لأجل ألا يتحول بلاؤه مضاعفاً فيصبح مرضاً نفسياً مزمنًا، فليعي ما قلنا سابقاً في معاملته نفسه بالصبر حتى يسد الباب على الشيطان فلا يلج إلى إليها {مه به هـ}⁽⁴⁵⁸⁾.

2 - إن الصبر على الابتلاء يكشف حقيقة النفوس الصادقة من الكاذبة، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ غَيْرِهِمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁴⁵⁹⁾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ومن يصبر يُصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر»⁽⁴⁶⁰⁾.

3 - سهولة مقاومة العقبات، وتخطي الصعاب التي تعترض مسيرة المؤمن في الحياة، لا سيما العقبات التي تقف في طريقه الدعوي فإنها ذات وطأة قوية وشديدة على نفس المؤمن، ومن أجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ أو خطبٌ من أمور الدين أو الدنيا فزع إلى الصلاة وقال لبلال: «أقم الصلاة أرحنا بها»⁽⁴⁶¹⁾.

4 - الصبر يعود المؤمن على مقاومة المعاصي والشهوات التي تلاحقه

⁽⁴⁵⁶⁾ سورة البقرة، الآيات 155-157.

⁽⁴⁵⁷⁾ سورة هود، الآية 49.

⁽⁴⁵⁸⁾ سورة العنكبوت، الآيات 1-3.

⁽⁴⁵⁹⁾ أخرجه البخاري (ص238، رقم 1469) كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة. ومسلم (ص423، رقم 1053) كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر والقناعة.

⁽⁴⁶⁰⁾ أخرجه أبو داود (ص702، رقم 4985) كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة. وهو صحيح.

⁽⁴⁶¹⁾ سبق تخريجه.

465) أخرجه البخاري في الموضع السابق.

8 - الصبر هو مفتاح النصر والظفر على الأعداء، وهو سلاح المؤمن في مسيرته الدعوية وكذلك في ساحات الوغى عند لقاء الأعداء ومقارعتهم، ولن تنتصر أمة من غير صبر ومصابرة، ولن تتمكن من خصومها والتفوق عليهم فكرياً وعسكرياً واقتصادياً ما لم تكن صابرة، يقول تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُفَصِّلُ الْوَعْدَ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْلُبَ مِنْكُمْ وَلَدَهُمْ أَوْ يَكَبِلَ فِيهِمُ الْأَغْيَالَ أَنْ يَقُولُوا لَا مُقَارَعَةَ لِهَٰؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُ أَنْ يَسْلُبَ مِنْكُمْ وَلَدَهُمْ أَوْ يَكَبِلَ فِيهِمُ الْأَغْيَالَ﴾ (467).

ولعل الصبر كان أحد الأسباب التي مكّنت المسلمين من نشر دينهم في
شَتَى أصقاع المعمورة وفتح بلادها شرقاً وغرباً، وهو تصديق قوله تعالى: ﴿هُدًى مِّنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ كَاشِفٌ كُفُورَ قَوْمٍ لِّمَنِ الْبَصِيرَةُ﴾ (468).

وهناك تأكيد من رب العالمين لعباده المؤمنين الصابرين والمخلصين، بأنه
جل شأنه ناصرهم ومؤيدهم بالملائكة عند مقارعة ومواجهة الكفر والشرك،
حيث قال: ﴿يَجْجِجُ بِجِجٍ يَدِيدَةٍ تَذُدُّ دُوْدَ﴾⁽⁴⁶⁹⁾.

ومن الانتصار بالصبر أيضًا: الانتصار على وساوس الشيطان، حيث يجد المبتلى الصابر آفاقاً رحبة في نفسه فيرى المستقبل أمامه أملاً وبياضاً لثقتَه وحسن ظنه بالله تعالى، وبذلك ينحسر بلاؤه ومرضه فلا يزداد عليه ولا يتطور، بل وينحسر حينها الشيطان وتُشَلِّ وساوسه وتُدحر، بعكس المبتلى الذي يكثر الشكوى والجزع فلا يزيده ذلك إلا طولاً في مدة البلاء وزيادة فيه.

9- الصبر يُكسب صاحبه الخيرية التي أشار إليها رسول الله ﷺ في حديث هذا البحث «وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، وبذلك يصبح الصابر من الخيرين ويصبح جزءاً من أمة الخير التي أشار إليه الله تعالى بقوله: {ث ث ث ث}، وهذا مكسب عظيم ومنال كبير لا يتحقق ولا يحصل إلا للمؤمن الصابر لأمر الله تعالى.

10- الصبر يخفف من وطأة الكربات ويقرب الفرج بعدها، ويجعل بعد كل عسر يسراً، تصديقاً لقوله ﷺ: «وَأَنَّ النُّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ» (470).

وكما قال الشاعر:

⁴⁶⁶() سورة البقرة، الآية 264.

467 (سورة الأعراف، الآية 128).

468 } سورة آل عمران، الآية 125.

469 () أخرجه أحمد (2/307)، رقم 4

470 سورة الحج، الآية 11.

(۱) سورة الحج، آية ۱۱.

ضاققت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

* * *

مناقضات الصبر:

ليس كل إنسان يصبر على البلاء، وليس كل إنسان لديه قوة الصبر نفسها، فبعضهم يجزع والآخر يصبر ولكن لا يثبت كثيراً، والبعض الآخر يصبر ويصابر حتى النهاية، كل حسب درجة إيمانه وإرادته، وحسب نوع البلاء لديه، وقد ذم الله تعالى أولئك القوم الذين لا يملكون أدنى مستويات الإرادة فيجزعون لكل مصيبة أو بلاء، ويريدون أن يعيشوا أبد العمر مرفهين ومنعمين من غير أن يصيبهم ما يعكر صفو سعادتهم ورفاهيتهم، وهذه ليست من سنة الحياة، وقد ذم الله تعالى هذا الصنف من البشر بقوله: ﴿كَيْفَ يَكْفُوكُمْ كَلْبٌ مُّسْتَبِرٌّ تَذَكَّرْتُمْ﴾ (471).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ (472).

ومن المفيد الإشارة إلى بعض أنوا الجزع التي تتناقض حقيقة الصبر وتخالفها، ومنها:

1- الشكوى لغير الله والإكثار من التأفف من الحال والبلاء، والسب والشتم للمصيبة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «ما لك يا أم السائب، أو يا أم المسيب تزفزين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد» (473).

وقال علي رضي الله عنه: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك (474).

وهناك فرق بين الشكوى من المرض والإخبار عن المرض، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في وجعه: «وارأساه» (475)، وقول سعد: يا رسول الله قد اشتد بي الوجع وأنا ذو مال، وقول عائشة: وارأساه.

2 - التشاؤم واليأس من رحمة الله تعالى، والركون إلى وساوس الشيطان وما يمليه عليه من همزاته ونزغاته، لقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ (476).

(471) سورة المعارج، الآيات 19-21.

(472) أخرجه مسلم (ص1128، رقم 2575) كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض.

(473) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ص349.

(474) أخرجه البخاري (ص1243، رقم 7217) كتاب الأحكام، باب الاستخلاف.

(475) سورة يوسف، الآية 87.

(476) سبق تخريجه.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽⁴⁷⁷⁾.

3 - النباحة ورفع الصوت وشق الجيوب ولطم الوجه وحلق الشعر، وأما أشبهها من أفعال الساخطين، لقول الرسول ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية»⁽⁴⁷⁸⁾.

وأما البكاء فإنه جائز، لأنه رحمة، ما لم يكن سخطًا أو جزعًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: دخلنا على أبي سيف القين، وكان ظنرًا لإبراهيم، فأخذه رسول الله ﷺ فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبدالرحمن بن عوف، وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف: إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «إن العين لتدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»⁽⁴⁷⁹⁾.

ومن مناقضات الصبر أيضًا استمرار الحزن، والذهاب إلى المشعوذين والسحرة، والتداوي بالمحرم، والتكاسل عن الطاعات والواجبات.

* * *

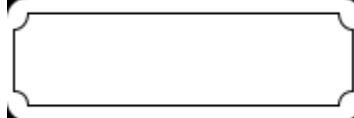
وأخيرًا:

فإن خلق الصبر الذي أمر الله تعالى التحلي به هو زاد المؤمن في هذه الحياة، في سرائه وضرائه، وفي شؤونه الدينية والدنيوية، فهو السلاح الذي يقهر كيد الشيطان فيجعله ضعيفًا، ويمنعه من نفثه وخبثه، ويجعل النفس هادئة مطمئنة وراضية لأمر الله تعالى، وكذلك فإن الصبر هو الزاد الذي يتقوى به المريض على مرضه، كما تقوى به نبي الله أيوب عليه السلام إلى أن أراح الله عنه المرض، وهو مفتاح الفرج ومجلي الكربات، فبالصبر وحده تمكن نبي الله يوسف عليه السلام أن يتحمل ظلم الإخوة وظلمة الحب، وإغراء الشهوة، وغربة السجن، إلى أن قلده الله وسام الصبر فجعله أمينًا على خزائن مصر، كما أن الصبر هو الخلق الذي تحلى به رسول الله ﷺ وصحابته الكرام حين أودوا في سبيل الله وأخرجوا من ديارهم بغير حق، فجزاهم الله في الدنيا نصرًا وتمكينًا، وفي الآخرة جنة ونعيمًا.

وهذا شأن المؤمن مع خلق الصبر في كل أحواله وشؤونه، في حله وترحاله، في سرائه وضرائه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

⁽⁴⁷⁷⁾ أخرجه البخاري (ص207، رقم 1297) كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ.
⁽⁴⁷⁸⁾ أخرجه البخاري (ص108، رقم 1303) كتاب الجنائز، باب إنا بك يا إبراهيم لمحزونون. ومسلم (ص1023، رقم 2315) كتاب الفضائل، باب رحمة الصبيان والعيال.
⁽⁴⁷⁹⁾ أخرجه البخاري (ص1016، رقم 5756) كتاب المرضى، باب الفأل. ومسلم (ص987، رقم 2223) كتاب السلام، باب الطيرة والفأل.





عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عَنَوَى وَلَا طِيرَةَ وَأَجِبُ الْفَالَ الصَّالِحَ»⁽⁴⁸⁰⁾.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا عَنَوَى وَلَا طِيرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ» قالوا: وَمَا الْفَالُ؟ قال: «كَلِمَةُ طَيِّبَةٍ»⁽⁴⁸¹⁾.

هذا حديثان يمثلان منهجاً متميزاً في النظر إلى المستقبل، سواء في النظرة الإيجابية أو النظرة السلبية، وكما هي في المصطلح الشرعي التَفَاؤُل والتشاؤم، وهما مما نتناوله تفصيلاً في هذا المبحث.

مفهوم التَفَاؤُل والتشاؤم:

أولاً: التَفَاؤُل:

الفأل ضد الطيرة، والجمع فؤول، قال ابن الأثير: يقال تفاعلت بكذا وتفاعلت، على التخفيف والقلب، قال: وقد أوقع الناس بترك همزه تخفيفاً. والفأل: أن يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقول تفاعلت بكذا، ويتوجه له في ظنه كما سمع أنه يبرأ من مرضه أو يجد ضالته⁽⁴⁸²⁾.

وبهذا يمكن تعريف التَفَاؤُل: بأنه كل ما ينشط الإنسان ويربجه على شيء محمود من قول أو فعل مرئي أو مسموع.

مثل: أن يكون الرجل مريضاً فيقول له آخر: يا سالم، أو يكون فقيراً فيقول له آخر: يا غني، أو أن يرى حديقة، أو يسمع خبراً ساراً، أو يرى رجلاً اسمه محمد أو محمود وهو يعمل عملاً معيناً.

ثانياً: التشاؤم:

الشأْم والشؤْم ضد اليمن، ويقال: رجل مشؤوم على قومه، والجمع مشائيم. وقيل: شؤْم الدار ضيقها، وشؤْم المرأة أن لا تلد، وشؤْم الفرس أن لا ينزى عليها. ويقال: شأْم فلان على قومه أي أصابهم شؤْم من قبله⁽⁴⁸³⁾.

وبذلك يمكن تعريف التشاؤْم: بأنه ضد التَفَاؤُل، وهو الاعتقاد بأن وجود شيء معين سبب في وجود ضرر أو حزن أو هم، سواء أكان هذا الشيء مرئياً أم مسموعاً. كأن يعزم على مشروع معين فيقول أحدهم: أنت خسران فيتوقف عن

⁽⁴⁸⁰⁾ المرجع السابق.

⁽⁴⁸¹⁾ لسان العرب 10 / 167-168.

⁽⁴⁸²⁾ لسان العرب ج 7 / ص 7.

⁽⁴⁸³⁾ سورة يوسف، الآية 87.

المضي قدماً نحو هدفه، أو يريدُ السفر، فيرى الجوَّ معكراً فيتراجعُ تشاؤماً منه بحلولِ مصيبةٍ إذا أقدمَ على السفر وهكذا.

الزجر والطير والكهان كلهم
مضللون ودون الغيب أقفال

ومثل التشاؤم: التطير، نسبة إلى ما كان يفعله أهل الجاهلية من التطير ببعض الطيور، كالبوم، وسواء كان ذلك بطير، أو حيوان، أو بعض الأيام، أو الشهور، أو السنوات، أو الأحوال.

والتطير مثله مثل التشاؤم، وأصله في الجاهلية: أن أحدهم إذا أراد أمرًا يأتي بطير فيهيجه فإذا طار لليمين، استبشر وعزم، وإذا طار لجهة الشمال، تراجع عن الفعل الذي كان يريده، كالسفر أو الزواج أو التجارة وغيرها. ولم ينحصر التطير في الطيور وحدها، بل تعداها إلى بعض الأيام أو الشهور أو السنوات أو الأحوال.

وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن التطير بقوله: «لا عَنَوَى وَلَا طَيْرَةَ».

* * *

الحكم الشرعي للتفاوت والتشاور:

تعددت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ومن أقوال أهل العلم حول وجوب
التقاؤل في الحياة ونبذ التشاؤم والطيرة وغيرها من ألوان اليأس على الإنسان، ومن
تلك الأدلة:

أولاً: من القرآن الكريم:

1 - قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: {پ پ پ پ پ پ ن ذن ت
ت ذن} (484).

2 - قوله جل وعلا: ﴿هَٰؤُلَاءِ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾

3- قوله تبارك وتعالى عن قوم صالح: ﴿فَقُتِلَ فِئْتَيْنِ خ ۚ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقٰۤء ۚ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ عَذَابُ الْيَوْمِ ۖ فَضْرَبَتْهُم بِرُحْمِمْ عَلٰۤى أَعْيُنِهِمْ فَذَبَحُوا بِأَنفُسِهِمْ فَفُتِلَ فِئْتَيْنِ خ﴾ (486) .

أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً. وذلك أنهم- لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه. فقال: {ج د هـ ز ح ط ي} أي: الله يجازيكم على ذلك، بل أنتم قوم تستدرون فيما أنتم في الضلالة⁽⁴⁸⁷⁾.

[illegible]

⁴⁸⁴() سورة الزمر، الآية 53.

485 } سورة النمل، الآية 47.

486 (تفسير القرآن العظيم 3 / 455).

487) سورة الأعراف، الآية 134.

ث ت ث ت ث ت (488) .

أي: إذا جاءهم الخصب والرزق قالوا: أن هذا ما نستحقه، وإذا أصابهم قحط وجدب بسبب موسى ومن معه، فيقول: {ث ت ث ت}، أي مصائبهم عند الله (489).

ثانياً: من السنة النبوية:

1- قوله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» (490).

2- قوله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة وأحبُّ الفأل الصالح» (491).

3- قوله عليه الصلاة والسلام: «لا عدوى ولا طيرة ويُعجِبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «كلمة طيبة» (492).

4- عن عروة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك» (493).

ثالثاً: أقوال الصحابة:

1- قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا. ولكن يذهب الله بالتوكل» (494). أي: ما منا من أحد إلا ويصاب بهذا التطير.

2- قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك! قالوا فما كفارة ذلك؟؟ قال: أن تقولوا: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك» (495).

خلاصة ذلك كله أن الطيرة منهي عنها، وأنها باب من أبواب الشرك فكأن المتطير جعل غير الله متحكماً.

رابعاً: أقوال أهل العلم:

1- قال ابن القيم رحمه الله: «وسيرُ هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله تعالى، والخوف من غيره، وعدم التوكل عليه والثقة به، كان صاحبها غرضاً لسهام

(488) تفسير القرآن العظيم 2 / 303 .
(489) أخرجه البخاري (ص1016، رقم 5757) كتاب الطب، باب الجذام. ومسلم (ص985، رقم 2220) كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة.

(490) سبق تخريجه.

(491) أخرجه البخاري (ص1019، رقم 5776).

(492) أخرجه أبي داود (ص556، رقم 3919) كتاب الطب، باب لا عدوى.

(493) أخرجه أبو داود (ص555، رقم 3310) كتاب الطب، باب في الطيرة. والترمذي (ص390، رقم 1614) كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة. وابن ماجه (ص510، رقم 3538) كتاب الطب، باب كان يعجبه الفأل. قال الترمذي: حديث صحيح.

(494) أخرجه أحمد (14/286، رقم 6748).

(495) مفتاح دار السعادة ج 3 / ص 340.

الشر والبلاء، فيتسرَّغ نفوذها فيه لأنه لم يتدرَّع من التوحيد والتوكل بجُنَّة واقية، وكل من خاف شيئاً غير الله سلَّط عليه، كما أن من أحب مع الله غيره عُدب به، ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته. وهذه أمورٌ تجربتها تكفي عن أدلتها»⁽⁴⁹⁶⁾.

وقال كذلك: «فأوضح صلى الله عليه وسلم لأئمة الأمر، وبَيَّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعَمَّر الدارين الجنة والنار، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته، فقطع صلى الله عليه وسلم علقَ الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علةٌ منها، ولا يتلبسوا بعملٍ من أعمال أهل البتة»⁽⁴⁹⁷⁾.

2- قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله: «القال ليس من الطيرة لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما يتوجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به وضعف توكله على الله ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن القال يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما»⁽⁴⁹⁸⁾.

* * *

صور من التفاؤل والتشاؤم:

أولاً: صور من التفاؤل:

قال ابن القيم - رحمه الله -: «كانت العرب تتفاؤل فيسمون اللديغ سليماً».

فكانوا يسمون غالب، شجاع، وغلاب، ومهند، وحسام، تفاؤلاً بالشجاعة. وسعيد، وسعد، تفاؤلاً بالسعادة. وأسد، وليث، وأسامة، تفاؤلاً بالقوة. الأسماء هي قوالب للمعاني، فالأسماء تؤثر بشكل كبير على المسميات، والمسميات تتأثر بالأسم من حيث القبح والحسن، كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريدًا أن يكون حسن الاسم حسن الوجه، وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة، كما رأى أنه وأصحابه في دار عقبة من رافع، فأتوا برطب من رطب ابن طاب، فأوله بأن لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، والعاقبة في الآخرة، وأن الدين الذي قد اختاره الله لهم قد

⁽⁴⁹⁶⁾ مفتاح دار السعادة 3 / 281-282.

⁽⁴⁹⁷⁾ القول المفيد 2 / 89 - 90.

⁽⁴⁹⁸⁾ زاد المعاد 2 / 336-337.

أرطب وطاب⁽⁴⁹⁹⁾.

وعن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم أمركم»⁽⁵⁰⁰⁾.

وكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يسمع: يا نجيح، ويا راشد، إذا خرج لحاجته.

وكذلك يكون التفاؤل في الأحوال، والأمكنة كالتفاؤل بالمدن وبعض المواقع المحددة كالحرمين الشريفين، وهكذا.

ثانياً: صور من التشاؤم:

قال ابن القيم رحمه الله: «إن طائرهم ها هنا هو السبب الذي يجيء فيه خيرهم وشرهم، فهو عند الله وحده، وهو قدره وقسمه، إن شاء رزقكم وعافاكم، وإن شاء حرمكم وابتلاككم»⁽⁵⁰¹⁾.

ومن صور التشاؤم:

- إطلاق بعضهم لمن يتشاءمون منه اسم (جوناس)، وهذا في غاية القبح، لأنه أضاف إلى وزر التشاؤم بالشخص التشاؤم بنبي من أنبياء الله تعالى وهو يونس بن متى عليه السلام، لأن أصل كلمة (جوناس) هو (يونس)، والكفار يتشاءمون منه لأن القرعة وقعت عليه لما كان في السفينة وأرادوا أن يلقوا بواحد منهم.

- كما أن العرب كانت تتشاءم من الغراب لما يوحى به من الغربة لا سيما إذا كان أسود اللون، وكذلك الهامة وهي «البومة».

- ومن الشهور كانت تتشاءم من: صفر.

- ومن الأيام: كيوم الأربعاء وليلة الأحد.

- ومن الأشخاص: كالأعور والأحول.

- ومن الأرقام: حيث كانت النصراني تتشاءم من الرقم (13) أما أهل البادية فكانوا يتشاءمون من الرقم (7).

- ومن صور التشاؤم: الذهاب إلى الكهنة والمنجمين والاستماع إلى دجلهم وكذبهم حول ما يعاني منه بعض الناس من المشكلات، فيبشروهم ببعض الأحداث ويحذرونهم من أخرى.

- ومن التشاؤم: تفسير ما يصدر من الإنسان من أحاسيس أو حركات غير إرادية، مثل رفيف العين: حيث يعدونها رجوع المسافر، وطنين الأذن: يأولونها بوجود أحد يغتاب هذا الشخص ويطعن فيه.

- ومن التشاؤم: قراءة الأبراج في الجرائد والمجلات حسب الاسم وتاريخ

⁽⁴⁹⁹⁾ أخرجه البخاري (ص448، رقم 2732-2732) كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

⁽⁵⁰⁰⁾ مفتاح دار السعادة (2/233).

⁽⁵⁰¹⁾ سورة النساء، الآية 32.

الميلاد، والتصديق بما فيها من بشائر أو محاذير.
- ومن التشاؤم أيضاً: اللجوء إلى بعض القنوات الفضائية التي تروج للسحر والشعوذة وتصديق ما يبث فيها من الدجل والكذب وبناء الأحكام على ذلك.

* * *

أسباب ظهور التشاؤم عند الإنسان:

يمكن الإشارة إلى أهم الأسباب والعوامل التي تضع الإنسان في أسر التشاؤم وتفرض عليه واقعاً مريعاً من الإحباط واليأس والقلق في الحياة، ومن هذه الأسباب:

1- ضعف اليقين بالله تعالى وفق التصور الإسلامي الصحيح على أنه الخالق والمدير في هذا الكون، فما تهب من نسمة ولا تسقط من ورقة ولا يتحرك كائن إلا بعلمه وإرادته.

2- غياب حقيقة التوكل على الله في واقع الناس وعدم التفاعل معها بصورة عملية.

3- ضعف الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي هو ركن من أركان الإيمان.

4- نسيان نعم الله سبحانه وتعالى، في نفسه وأهله وماله، أو جحودها في كثير من الأحيان.

5 - الجهل بالدين وأحكامه وضعف العقل وقلة البصيرة.

6 - الجبن والخوف من الآخرين ومن الظروف التي يمر بها الإنسان.

7- قلة ذكر الله سبحانه وتعالى والبعد عن كتابه العزيز وتدبر آياته.

8- سوء الظن بالله جل وعلا وفتور العلاقة بين العبد وخالقه.

9- سوء الظن بالآخرين والنظر إلى ما بأيديهم من نعم ونجاحات.

* * *

معينات صناعة التفاؤل:

يمكن الاستعانة ببعض الوسائل القولية والفعلية لإيجاد التفاؤل والأمل في النفس، ومن أهم هذه الوسائل:

1 - النية الصادقة والخالصة لله تعالى، وأن ما تسعى إليه من وضع مشاريع أو خطط للوصول إلى أهداف سامية وغايات نبيلة إنما هي من أجل رضى الله تعالى وامتنالاً لأمره في العمل الصالح، حتى تتحقق المصلحة الكبرى للمجتمع والأمة، وأما ما يتبع ذلك من ثمرات مادية فإنما هي جزء من الجزاء الدنيوي، فضلاً عن الثواب

الجزيل في الآخرة.

2 - تجنّب الحسد والنظر إلى ما عند الآخرين، بل شارك السعيد في سعادته على ما هو فيه، وآسى المبتلى على مصيبتة وشاركه فيها، وبارك للناجح في تفوقه ونجاحه، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ لَكَ دُونَهُ مُلْكٌ﴾ (502).

3 - حسن الظن بالناس، وعدم محاسبة نواياهم، وعدم مصادرة آرائهم إذا خالفوك ضمن الضوابط الشرعية والعلمية، حتى يستفيد الجميع من وجهات النظر المختلفة، لأن كثرة الآراء والمقترحات تثري الموضوع المطروح أو الحدث النازل بإمكانية الوصول إلى نتيجة إيجابية ترضي جميع الأطراف ويعم الخير في كل الميادين، وبذلك يظهر التفاؤل الجماعي لدى جميع أبناء المجتمع. أما الأحادية في الطرح وإقصاء المخالف وعدم احتوائه فإنه من أسباب التمزق والنزاع وبالتالي ظهور النظرة السوداء إلى الواقع وإلى الأشياء في الخارج.

4 - الاهتمام بالمظهر والجسم من حيث اللبس والأناقة والنظافة، حتى لا يرى فيك الناس تشاؤماً وتكاسلاً وحبوطاً، فالهيئة الحسنة والأناقة تدفع الإنسان نحو التفاؤل والأمل كما تبث هذه الروح في نفوس الآخرين أيضاً.

5 - استقبال الناس والسلام عليهم والاستماع إلى أحاديثهم بأريحية وابتسامة، ومناقشتهم بأحسن الحديث وأطيب الكلمات، لأن القلوب جبلت على قبول ذلك ولفظ ضدها من العبوسة والضيق على الوجه والغلظة والقساوة في الكلام.

وكما قال الشاعر:

قال: السماء كئيبة وتجهما
قلتُ ابتسم بكفي التجهم في السما
قال: الصبا ولّى فقلت له ابتسم
لن يرجع الأسف الصبا المتصرماً

6 - مرافقة المتفائلين والناجحين في الحياة، والابتعاد عن رفقة الفاشلين والمتشائمين في الحياة، لأن المحيط الخارجي له دور كبير على حال النفس سلباً أو إيجاباً، ومرافقة المتفائلين والاختلاط بهم والتنافس المحمود معهم يدفع بالطرفين نحو النجاح والنظر إلى الحياة بمنظار مليء بالأمل والخير والسعادة، وقد أرشد عليه الصلاة والسلام الأمة إلى هذا المعلم المهم حين قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدهم من يخال» (503).

(502) أخرجه أبو داود (ص683، رقم 4833) كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس. والترمذي (ص542، رقم 2378) كتاب الزهد، باب الرجل على دين خليله. وأحمد (2/334)، رقم (8398). قال الترمذي: حسن غريب.

(503) أخرجه البخاري (ص539، رقم 3231) كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدهم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى. ومسلم (ص800، رقم 1395) كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

* * *

آثار التفاؤل:

للتفاؤل آثار عظيمة وكبيرة على حياة الإنسان من جوانبها المختلفة، النفسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية وغيرها، ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الآثار بما يلي:

1 - التفاؤل يعطي الإنسان راحة نفسية دائمة وشعورًا بالاستقرار يجعله يتحرك في الحياة بخطوات مدروسة وناجحة.

2 - يعطي التفاؤل للإنسان الثقة بالنفس كما يمنحه المهمة العالية ويفتح أمامه آفاقًا واسعة، وبالتالي تكون سبل النجاح أمامه مذللة وميسرة.

3 - التفاؤل يمنح الإنسان صحة وعافية في الجسم والبدن كما تقول الدراسات، ويمكن بعدها أن يقوم بأي عمل دون خوف من كفه ونوعه.

4 - الإنسان المتفائل يكون أقدر من غيره على تحمل المسؤوليات المختلفة، في الإدارة وتنفيذ المشروعات، والقيادة والسياسة وغيرها.

5 - التفاؤل يصنع في الإنسان روح الشجاعة والإقدام، فلا يفكر في النتائج السلبية بقدر ما يفكر في الجانب الإيجابي، فإذا نجح شكر الله وأثنى عليه، وإذا أخفق صبر على ذلك وأعاد الكرة ثانية وثالثة أو تحرك في مسارات أخرى لتحقيق هدفه المنشود.

6 - التفاؤل يمنح صاحبه الإتقان في العمل، وبالتالي جودة عالية في الإنتاج مع زيادة في الكمية وبأقل الأثمان والخسائر.

7 - التفاؤل يمنح صاحبه العفو والصفح ويمنعه من الثأر والانتقام، وهذا يعني أنه يصنع في الإنسان بُعدًا في النظر وإشراقًا للمستقبل، حيث لا ينظر المتفائل إلى القريب العاجل وإنما إلى البعيد الآجل، وقد أعطى رسول الله عليه الصلاة والسلام العالمين درسًا في هذا الجانب، فعن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظللتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» (504).

(504) مفتاح دار السعادة ج 3 / 272.

* * *

آثار التشاؤم:

كما أن للتفاؤل آثاراً إيجابية في حياة الإنسان بجوانبها المختلفة، فإن للتشاؤم آثاراً عكسية وسلبية على تلك الجوانب، ومن أهم هذه الآثار:

1 - التشاؤم طريق يقود إلى الشرك بالله تعالى، ولا شك أنه من أعظم الأضرار والآثار، لأنه يدفع صاحبه إلى اتباع المسالك المحظورة مثل اللجوء إلى السحرة والمشعوذين والدجالين لإخراجه من الحال التي هو فيها، وبالتالي تنفيذ ما يؤمر به من هؤلاء من الكفر والشرك وارتكاب الكبائر الأخرى.

2 - التشاؤم يجعل من صاحبه أسيراً للوساوس الشيطانية، حتى يصاب بالهوس، حيث يفسر كل شيء تفسيراً سلبياً فلا يرى شيئاً إلا بمنظار أسود، يقول ابن القيم رحمه الله:

«واعلم أن من كان مُعْتَنِيّاً بها قائلاً بها - يعني الطيرة - كانت إليه أسرع من السَّيْلِ إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوسوس فيمّا يسمعه ويراه ويُعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه؛ فإذا سمع سفرجلاً، أو أهدي إليه تطير به، وقال: سفرّ وجلاء، وإذا رأى ياسميناً أو سمع اسمه تطير به، وقال: يأس ومين، وإذا رأى سوسنة أو سمعها، قال: سوء يبقى سنة، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشاءم بيومه»⁽⁵⁰⁵⁾.

3 - التشاؤم: سبب في ضعف البصيرة وفساد الرأي، يقول الماوردي رحمه الله: «اعلم أنه ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل»⁽⁵⁰⁶⁾.

3 - يرى المتشائم أن جميع أسباب الشقاء انعقدت فيه، وأنه المبتلى الوحيد على ظهر الأرض، وأن جميع من حوله من الناس يعيشون في سعادة دائمة من غير حزن ولا هم ولا نصب، فيتناسى أن الناس جميعاً يبتلون بالمصائب والمتاعب وأفضلهم من يتجاوزها بتفاؤل وتوكل على الله تعالى، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُجِيبُ دُعَاءَهُمْ﴾⁽⁵⁰⁷⁾.

4 - التشاؤم يقضي على معاني المحبة والإخاء بين أبناء المجتمع ويزرع مكانها الشك والتنافر، وذلك من نظرته السوداء إليهم والتباكي لحاله والحسد على حالهم.

5 - التشاؤم يساعد على ضعف البدن وإهماله لأن صاحبه يشغل جلّ وقته في التفكير بالأوهام والخيالات، فلا نفس له في الأكل أو الشراب أو الترويح أو

⁽⁵⁰⁵⁾ أدب الدنيا والدين ص 376.

⁽⁵⁰⁶⁾ سورة البلد، الآية 4.

⁽⁵⁰⁷⁾ سورة الطلاق، الآية 2.

الرياضة، فضلاً عن معالي الأمور والتفكير فيها.

6 – التشاؤم يجعل صاحبه دائماً في آخر الركب، ويوقفه عن المضي نحو البناء والتنمية والإنتاج.

7 – التشاؤم يرمي صاحبه نحو الانطوائية والعزلة ومفارقة الأهل والأقارب والمجتمع الذين ينتمي إليهم.

8 – التشاؤم يدفع المتشائم أحياناً إلى كبائر الإثم من تعاطي المخدرات وتناول المسكرات للخروج من الحالة التي يعانيتها، وبل إنه يؤدي أحياناً إلى الانتحار كحلٍّ نهائي لمشكلته، الأمر الملاحظ في كثير من المجتمعات التي لا تدين بالإسلام.

9 – التشاؤم يقلب المفاهيم والتصورات عند صاحبه، حيث يرى الأبيض أسوداً، والنور ظلمة، والحسن قبحاً، والصديق عدواً، وهكذا.

علاج التشاؤم:

تبين لنا من خلال ما سبق أن التشاؤم مرض نفسي ناجم عن مجموعة عوامل تؤول جميعها إلى خلل في علاقة الإنسان بربه وانقطاع وغفلة عن موارد القوة التي تعين المتشائم على الخروج من أزيمته، ومن أهم العلاجات التي تعيد المتشائم إلى حالته الطبيعية بل تجعله دائم التفاؤل ما يلي:

1 – تقوى الله تعالى في السر والعلن، وذلك بامتنال أوامره والانتهاز عن نواهيه، حتى تنفرح الأزمات وتنزل الصعاب ويجعل الله بعد كل ضيق فرجاً ومخرجاً، يقول تبارك وتعالى: ﴿كُفَّ كُفَّ سَ سَ﴾⁽⁵⁰⁸⁾، ويقول: ﴿يُؤْثِرُ يُوْثِرُ يُوْثِرُ يُوْثِرُ﴾.

2 – الإيمان بقدر الله تعالى خيره وشره، وعدم التضجر والتملل من أمر الله، فما يدري الإنسان مكان الخير والشر، فربما يرى الشر في شيء وهو خير له وربما يرى الخير في آخر ويكون الشر بعينه، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُذِيقُ الْإِنسَانَ خُلُقًا بَعْضًا يَذُوقُ الْخَيْرَ بَعْضًا يَذُوقُ الشَّرَّ بَعْضًا يَذُوقُ الْإِسْخَارَ﴾⁽⁵⁰⁹⁾.

وصدق الشاعر حين قال:

دع المقادير تجري في أعنتها
ما بين غمضة عين وانتباهتها
ولا تبين إلا خالي البال
يبذل الله من حال إلى حال

3 – كثرة ذكر الله تعالى وحمده واسترجاعه والثناء عليه، خاصة حين يوسوس الشيطان للإنسان بأسباب التشاؤم واليأس، بل إن ذكر الله تعالى يحول اضطراب

⁽⁵⁰⁸⁾ سورة الطلاق، الآية 4.

⁽⁵⁰⁹⁾ سورة البقرة، الآية 216.

⁽⁵¹⁰⁾ سورة الرعد، الآية 28.

النفس وفقهه إلى روضة من الأمان والسكينة، يقول تبارك وتعالى: {تِي تَجْ ثَم ثِي} (511).

فإن الله تعالى يتولى عباده ويحميهم من نزغات الشياطين وهمزاتهم إذا لجأوا إليه، ولن يجعل للشياطين عليهم سيلا، يقول تبارك وتعالى: {كَلَّا كَلَّا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْمُرْسَلُ} (٥١٣) .

4- الصبر والاحتساب أمام المشقات المختلفة التي يتعرض لها الإنسان في رحلة الحياة، والتي تعد بمثابة محطات اختبارية لتكوين شخصية الإنسان الناجح وصناعة التقاؤل عنده، وهو زاد المؤمنین وسلاح الناجحين والمتفوقين، لما يترتب عليه من خير في الدنيا وفلاح ونجاة في الآخرة، يقول تبارك وتعالى: {ذٰلِكَ ثَوَابٌ لِّمَنْ صَبَرَ وَخَفِيَ} (٥١٤) .

5- الثقة بالله سبحانه وتعالى وحسن الظن به، وأنه الرحمن الرحيم بعباده، كل ذلك يصنع التفاؤل عند الإنسان ويحرره من أغلال التشاؤم والنظرة السوداء إلى المحيط الخارجي، والله تعالى عند حسن ظن عبده به، قال عليه الصلاة والسلام: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأٍ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة»⁽⁵¹⁵⁾.

6 - الاستشارة والاستشارة قبل الشروع في أي أمر، وكما قيل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وأجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وأجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني قال ويسمى حاجته» (516)

⁵¹¹() سورة الحجر، الآية 42.

512) سورة فصلت، الآية 36.

513) سورة البقرة، الآيتان 155-156.

514) أخرجه البخاري (ص1273، رقم 7405) كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (نُؤْتِيهِ) ومسلم (ص1166، رقم 575) كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله.

(⁵¹⁵) أخرجه البخاري (ص186، رقم 1162) كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى.
(⁵¹⁶) مجموع الفتاوى 23/68.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وإنما يسن له استخارة الخالق، واستشارة المخلوق، والاستدلال بالأدلة الشرعية التي تبيّن ما يحبه الله ويرضاه، وما يكره وينهى عنه»⁽⁵¹⁷⁾.

7- التوكل على الله في جميع الشؤون والأحوال، لأن التوكل الحقيقي يصنع التفاؤل عن صاحبه ويجعله يتطلع دائماً إلى الأفضل ويسعى لذلك دون كلل أو ملل، بل إن التوكل على الله تعالى يفرج عن الإنسان الهموم ويخفف عنه الأثقال، لأنه يستند إلى خالق الكون ومدبره، يقول تبارك وتعالى: ﴿بِهْ ه ه ه هه﴾ (518).

ولمعرفة حقيقة التوكل على واقع النفس حين يحاصرها العنت والمشقة، تأمل قول ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: {ثِيَابُكَ بُرْءٌ وَكَرْتٌ وَغُلَّتْ عَلَيْكَ الْعُنُتُ} (519): قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا {ثِيَابُكَ بُرْءٌ وَكَرْتٌ وَغُلَّتْ عَلَيْكَ الْعُنُتُ} (520) (521).

8- قراءة القرآن والاستماع إليه: كما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿تَتْلُو تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (522). لما في ذلك من تقريج للهموم والغموم وإعطاء القوة والنشاط لصاحبه، لا سيما إذا اقترن ذلك بتدبر آيات القرآن والتفكير فيها والتفاعل معها، يقول تبارك وتعالى: ﴿فَذُقْ فَوَاقٍ﴾ (523). وقد جاءت آيات كثيرة في شأن الحث على تلاوة كتاب الله والإمعان في آياته وتدبر في معانيها وحقائقها.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول أَلَمْ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»⁽⁵²⁴⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه» (525).

ثم إن تلاوة القرآن الكريم وتدبره - بالإضافة إلى فضل ذلك - يعين المسلم على صناعة التقاؤل من خلال ما يقرأ من قصص الأنبياء وأحوالهم مع

⁵¹⁷() سورة الطلاق، الآية 3.

518) سورة آل عمران، الآية 173.

519) سورة آل عمران، الآية 173.

520) أخرجه البخاري (ص777، رقم 4563) كتاب التفسير، باب إن الناس قد جمعوا لكم.

521 ﴿سورة المزمل، الآية 4.﴾

522) سورة النمل الآيتان 91-92.

⁵²³) أخرجه الترمذي (ص655، رقم 2910) كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ القرآن

مَا لَهُ مِنَ الْأَجْرِ. وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (1/555، رقم 540). قَالَ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ: صَحِيحٌ.

524) أخرجه مسلم (ص325، رقم 1874) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن.

525 (١) أخرجه مالك في الموطأ (2/934، رقم 1672) كتاب صفة صلاة النبي، باب جامع ما جاء

فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَأَحْمَدُ (2/220، رَقْمُ 7045). وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

أقوامهم وكذا ما أمر به نبي الله محمد ﷺ.

9 - الدعاء: الذي هو لبّ العباداة والعري التي توصل الإنسان بربه، حيث يبث من خلاله شكواه ونجواه، ويطلب منه العافية والمعافاة، بشرط أن يكون هذا الدعاء مشروعاً وليس محرماً، فعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «من ردتَه الطيرة من حاجة فقد أشرك»، قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»⁽⁵²⁶⁾.

* * *

التفاؤل والعمل:

ولعلنا نخرج قبل النهاية إلى بيان أن التفاؤل ليس نظرة سلبية مقعدة عن العمل، بل يكون مع العمل والجِدِّ فيه ومتابعته وعدم التقصير فيه، فالرسول ﷺ - في جميع ما أصابه - لم يتوقف عن العمل لحظة من اللحظات فيما كلفه الله تعالى به، بل عمل وواصل العمل، وجَدَّ واجتهد حتى نصره الله تعالى، ولذا فعلى المسلم ألا يقعد ويتكاسل، ويرقد ويقول بعد ذلك أنني متفائل، فالحيوانات تعمل، وتحصل على النتيجة، فالطير تغدو خماصاً - يعني جياغاً - وتروح بطاناً كما أخبر النبي ﷺ، فالإنسان أولى.

ومن هنا فالمتفائل الحق هو العامل بحق:

فالتائب عليه المذاكرة، ومن ثم يتفائل بالنجاح.

والتاجر يبيع ويشترى، ومن ثم يتفائل بالمربح.

والمريض يتداوى ويتوكل على الله، ومن ثم يأمل الشفاء.

والمصاب يتوكل على الله ويسترجع ولا يتسخط، ومن ثم تنزل عليه السكينة.

والوالد يعمل بأسباب التربية، ويأمل صلاح ذريته.

والمسؤول يعمل بأسباب نجاح عمله، ويأمل بالوصول إلى نتائج المرجوة، وهكذا.

* * *

وأخيراً:

فإن التفاؤل محبوب ومطلوب، والتشاؤم مذموم وممنوع، ولكل منهما آثاره على حياة صاحبه، فلا فشل ولا خيبة ولا خسران مع التفاؤل، ولا نجاح ولا تفوق ولا نجاة مع التشاؤم واليأس، وكلما اقترب الإنسان من ربه وقَدَّم بين يديه الأعمال الصالحة من قراءة للقرآن وذكر ودعاء وإنفاق في سبيل الله وقضاء حوائج الناس

⁽⁵²⁶⁾ أخرجه أبو داود (ص664، رقم 4700) كتاب السنة، باب في القدر. والبيهقي في سننه الكبرى (10/104، رقم 214) كتاب الشهادات، باب شهادة أهل الأهواء. والطبراني في مسند الشاميين (1/58، رقم 59). حديث صحيح.



والسهر علي مصالح المسلمين كلما زاده الله تعالى تفاؤلاً ونجاحاً وأغدق عليه من النعم ما لا يحصى، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه، وغفل عن ذكره، وأهمل فرائضه، كلما تمكّن الشيطان من نفسه وجعلها أسيرة لهمزاته ووساوسه، فيصيبه التشاؤم واليأس من رحمة الله تعالى، فلا يرى الدنيا بالمنظار الحقيقي حيث الرياض والرياحين في أرجائها، والحب والخير يسود بين أبنائها، ورحمة الله تعالى قريبة منها في وقت وأن، وإنما يرى هذه الدنيا عكس ذلك، مصائب ومأس، وحقد وكرهية، وشتات وتمزق، وفوق كل ذلك عذاب من الله محقق بهم في كل لحظة.





قضاء الله وقدره نافذ في هذه الحياة، وقد قَدَّرت الأشياء وحصولها قبل خلق السموات والأرض، والإيمان بذلك والرضى به والعمل وفق هذا الإيمان من أركان الإيمان، وأصول السعادة في الدنيا والآخرة، ونبدأ بالتعريفات.

القضاء في اللغة:

هذا وقد جاء (قضى) ومشتقاتها في اللغة بمعان أخرى، كما في الآيات القرآنية الآتية:

3 - بمعنى الموت: في قوله تعالى: (فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)⁽⁵³¹⁾.

527) (المعجم الوسيط، مادة (قضى)، ص742.

528) سورة الإسراء، الآية 23.

529 ﴿سورة البقرة، الآية 200﴾

530 { سورة، القصص، الآية 15.

531) مفر دات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص 422.

532 () الصحاح للجوهري 2/ 786، معجم مقاييس اللغة 5/ 62.

الْقَدْرُ فِي اللُّغَةِ:

قدر: «القاف والdal والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته وهو بتسكين الدال وفتحها مع فتح القاف»⁽⁵³³⁾.

وقد ورد في القرآن الكريم معنى القدر أو مشتقاته، فقد جاء بمعنى التضييق كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ أَكْثَرًا مِنْ أَنْ تَضِلُّوا فِيهِ﴾⁽⁵³⁴⁾.

وجاء بمعنى الطاقة كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ أَكْثَرًا مِنْ أَنْ تَضِلُّوا فِيهِ﴾⁽⁵³⁵⁾.

كما يأتي بمعنى التقدير والقياس كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم في رؤية الهلال: «فإن غم عليكم فاقدروا له»⁽⁵³⁶⁾.

فهناك توافق وتقارب بين معنى القضاء والقدر في اللغة.

القضاء والقدر في الشرع:

أما في الاصطلاح فإن القضاء والقدر هو: «تقدير الله الأشياء في القدم، وعلمه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك ومشينته له، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقها لها»⁽⁵³⁷⁾.

منزلته من الدين:

هو ركن من أركان الإيمان حيث لا يكتمل الإيمان إلا به لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حين سئل عن الإيمان: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»⁽⁵³⁸⁾.

* * *

مراتب القدر:

أولاً: العلم:

وهو الإيمان بأن الله تعالى يعلم بالأشياء قبل نشوئها وخلقها، ويعلم حالتها

⁽⁵³³⁾ سورة الفجر، الآية 16.
⁽⁵³⁴⁾ سورة البقرة، الآية 236.
⁽⁵³⁵⁾ أخرجه البخاري (ص306، رقم 1906) كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الهلال. ومسلم (ص439، رقم 1080) كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان برواية الهلال.

⁽⁵³⁶⁾ العقيدة الواسطية لابن تيمية 21.
⁽⁵³⁷⁾ أخرجه مسلم (ص24-2، رقم 93) كتاب الإيمان، باب الإيمان بالإسلام والإحسان.
⁽⁵³⁸⁾ سورة يونس، الآية 61.

الحاضرة وما تقول إليه في المستقبل، لقوله تعالى: {يَدِّعُ نَحْنُ ثُمَّ نُنْشِئُ} (٥٣٩)، وقوله تعالى: {لَهُ نُؤْمِنُ بِمَا يُؤْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ} (٥٤٠).

ومن أنكر هذه المرتبة من العلم فهو كافر لأنه بذلك يطعن في كمال الله تعالى، لأن غياب أي شيء عن علمه جل شأنه يعني الجهل بذلك الشيء وسبحان الله عن ذلك علواً كبيراً، يقول تبارك وتعالى على لسان موسى عليه السلام حين سأله: {حم خج حخ خم سج سح أ ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب ب} (٥٤١).

ثانيًا: الكتابة:

هي الإيمان بأن الله تعالى كتب ما علمه بعلمه القديم في اللوح المحفوظ، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد»⁽⁵⁴²⁾.

ويقول الله تبارك وتعالى في تأكيد هذه الحقيقة: {عَمَّا لَكُنْ تُكَذِّبُونَ} (٥٤٣).

ثالثاً: المشيئة:

هي الإيمان بأن كل ما في الكون يجري بمشيئة الله وإرادته لقوله تعالى:
 {ج ج ج ج ج ج ج ج ج} (٥٤٤). وقوله تعالى: {أ ب ب ب ب ب ب ب
 پ پ پ} (٥٤٥).

رابعًا: الخلق والإيجاد:

هو الإيمان بأن الله تعالى وحده خالق كل شيء وموجده، فهو الخالق الأوحد وكل ما دونه مخلوقات من صنعه جل شأنه، وكل ما ينتج من هذه المخلوقات من آثار وأفعال هي أيضاً مخلوقات لله جل وعلا، يقول تبارك وتعالى: ﴿هـ هـ هـ﴾⁽⁵⁴⁶⁾.

539() سورة الأنعام، الآية 59.

540) سورة طه، الآيتان 51-52.

⁵⁴¹ () أخرجه الترمذي (ص757، رقم 3319) كتاب التفسير، باب سورة ص. وأحمد (1/307)، رقم 2804). والحاكم في المستدرک (2/540، رقم 3840). وهو صحيح.

542 () سورة الحديد، الآية 22.

543 سورة الإنسان، الآية 30.

544 ﴿سورة هود، الآية 118﴾

545 ﴿سورة الرعد، الآية 16.

⁵⁴⁶ (أخرجه البخاري (ص554، رقم 6594) كتاب القدر، باب القدر. ومسلم (ص1151، رقم 6723) كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه.

* * *

ويمكن تقسيم التقدير إلى أربعة أقسام:

2 - التقدير العمري: وهو الذي يتعلق بأعمار الناس وأطوار الخلق التي يمرون بها، وأفعالهم وأرزاقهم في مراحل حياتهم ومن ثم تحديد أجالهم وانقطاع أرزاقهم بها.

3 – التقدير السنوي: وهو أمر الله تعالى المحكم من الآجال والأرزاق في ليلة القدر من كل سنة حين يقضى من اللوح المحفوظ إلى كتبة الملائكة، وهي آجال وأرزاق لا تتبدل ولا تتغير، وهو معنى قوله تعالى: {پ پ پ پ پ پ پ پ ن ت ذذت ث ددث ث فف ف} (٥٤٨).

4 - التقدير اليومي: وهذا هو قدر الله تعالى الأزلي الذي يظهر كل يوم، من خلال حركة الإنسان في الأفعال والأقوال، وما يترتب عليها من رزق، أو حرمان، ومن مغفرة أو عذاب، ومن موت أو حياة، وغيرها من الأجل التي يظهرها الله تعالى في يوم واحد من عمر هذا الإنسان، وهي بالأصل آجال مكتوبة منذ الأزل، يقول تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِكُمْ إِلَٰهٌ مِّنْ سِوَاهِ لَأَخَذْنَا مِنْكُمْ كِفْلًا مِّنْ قَبْلُ ۚ فَتَعْلَمُونَ أَيَّ يَوْمٍ يُؤْتَىٰ﴾ (549).

* * *

ظن كثير من الناس أن إرادة الله تعالى للأشياء تقتضي محبته لها وبذلك

⁵⁴⁷() سورة الدخان، الآيات 3-5.

548 ﴿سورة الرحمن، الآية 29﴾

549) سورة الأنعام، الآية 125.

فإن كل أعمال الخير داخلة في هذه الإرادة، وأن أعمال الشر التي لا يحبها الله تعالى تكون خارجة عن هذه الإرادة، وهذا تفسير خطير يهز قواعد العقيدة الصحيحة، لأن هذا التصور يخرج كثيراً من الأشياء والأفعال خارج إرادته جلّ وعلا، الأمر يناقض صفة المشيئة له وكذلك يؤدي إلى الظن بوجود إرادات أخرى في هذا الكون الذي هو من صنع الله وحده وتحت مشيئته وقدرته، ولذا لا بد من بيان حقيقة الإرادة وأنواعها لإزالة هذا الغش العقدي في أذهان الناس وبيان العقيدة الصافية لهم.

فقد بين كتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم نوعين من الإرادة، الكونية والشرعية:

أولاً: الإرادة الكونية:

فهي إرادة عامة تشمل كل شيء، في هذا الكون سواء كان مما يحبّه الله تعالى أو مما لا يحبه، كالخير والشر، والطاعة والمعصية، والفقر والغنى، والصحة والعافية وغيرها، فكل هذه الأشياء داخلة في الإرادة الكونية التي أراد الله تعالى أن تكون قدرًا واقعًا حتمًا، يقول الله تعالى: {أَبْ بَ بِبُ پَ پِپُّ نَ نُنْتُ تَ تُتُّ ثَ دُدُّ قَ قُقُّ} (٥٥٠).

ويقول تبارك وتعالى: ﴿يٰٓاَيُّهَا نَبِيُّ مُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ اِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِى اَوْثَانًا كَبُلُوا بِهَا بُعْدَ اِثْنِ عَشْرِ مِائَةِ سَنَةٍ اَلَمْ يَكُن لَّكُمْ اَعْيُنٌ رَّاوْنَ﴾ (551).

ويقول جل شأنه: {چ ي ت ت ث ڈ ڈ ٹ} (552).

وغيرها من الآيات التي تدل على أن هناك إرادة كونية كبرى تقود المخلوقات والموجودات ولا يخرج عنها شيء أبداً مهما كان نوع هذا الشيء سواء كان مما أمر الله به أم مما لم يأمر به، كالطاعة والمعصية وغيرها.

ثانيًا: الإرادة الشرعية أو الدينية:

وهي ما أراده الله تعالى لعباده من أحكام وتشريع أنزله في كتابه وسنة نبيه عليه وسلم، من أمر ونهي، وهي مختصة بالأمور التي يحبها الله تعالى، فالله يأمر عباده أن يكونوا مؤمنين قائلين بفرائضه وأحكامه وهذا أمر محبوب إليه جلّ وعلا، ولكن كثير من الناس لا يستجيبون لهذا الأمر فيعصونه ويعرضون عنه، وهذه هي الإرادة الشرعية، كما في قوله جلّ وعلا حين يأمر عباده بالخير والطاعات وينهاهم عن طرق الغواية والشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُفْسِدُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ فِي سَبِيلِ الْمُنْكَارِ ذَٰلِكُمْ يَكُونُ أَلْسِنَتْ لَكُمْ لَٰسَاتُكُمْ يَوْمَ تَأْتِي سُورَةُ الْاٰنْشَارِ وَأُفٍّ لَّكُم مِّنَ الْأَشْجَارِ ذَٰلِكَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَشْجَارُ أَغْصَانًا خَالِفًا لِّمَا كَانُوا فِي سَبِيلِ الْمُنْكَارِ وَكَانَ اللَّهُ عَٰلِمًا بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥٣).

550 سورة النساء، الآية 78.
551 سورة البقرة، الآية 253.
552 سورة النحل، الآية 90.
553 سورة الليل، الآيات 5-10.

556 (أ) أخرجه البخاري (ص1012، رقم 5728) كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون. ومسلم (ص982، رقم 2219) كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة.

557 (أ) أخرجه الترمذي (ص572، رقم 2517) كتاب الزهد، باب اعقلها وتوكل. وابن حبان (2/510، رقم 731). حديث حسن.

ودينهم من المشركين.

- ثم إنه عليه الصلاة والسلام أمر الصحابة بالهجرة إلى المدينة المنورة خشية العنت عليهم من الكفار والمشركين في مكة المكرمة، وقد كانت في هجرته عليه الصلاة والسلام أعظم دلالة على أخذه بالأسباب، فقد هاجر يرفقه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة سرًا، وكان يستطيع أن يهاجر علنًا، ولكنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يبين للصحابة وللأمة من بعدهم أن العمل بالأسباب هو جزء من الإسلام، ولا يعارض قدر الله، وإن تجاهل الأمة هذا الأمر يعرضها للضعف والتخلف والجهل.

فترك الأسباب والاستسلام للقدر يعدّ توكلاً على الله وليس توكلًا عليه، بل إن التوكل الحقيقي هو الأخذ بالأسباب والرضا بالقدر، وهو ما أمر به عليه الصلاة والسلام بقوله: «اعقلها وتوكل»⁽⁵⁵⁸⁾.

* * *

آثار الإيمان بالقضاء والقدر:

للإيمان بالقضاء والقدر ثمرات وآثار عظيمة على الإنسان في نفسه وجوارحه، بل على مسيرته في الحياة ونتاجه فيها، ولا يمكن حصر جميع الثمرات والآثار لأن جلّ أعمال المؤمن الصادق مرتبطة بمدى إيمانه بالقدر وقبوله لأمر الله في السراء والضراء، لذا نذكر بعض الثمرات الجامعة التي ينطوي تحتها سائر الثمرات، وهي:

1 - تحقيق العبودية لله تعالى وحده، والخلاص من الشرك بكل أنواعه وألوانه، فالمؤمن بقضاء الله تعالى وقدره يعلم يقينًا أن كل شيء من عند الله تعالى وبارادته، فلا حول ولا قوة لغيره - جل ثناؤه - من المخلوقات الأخرى من بشر أو حجر أو شجر أو دواب، وبذلك تصفى عقيدة المؤمن من شوائب الشرك ووسائله.

2- الإيمان بالقدر يكسب صاحبه الشجاعة والجرأة في الحق من غير خوف أو تردد، وهذا كان دأب خير القرون ومن تبعهم من سلف هذه الأمة رضوان الله عليهم، حيث لم تأخذهم في الله لومة لائم، وما استطاع صناديد الكفر من العرب والفرس والروم أن يثنوا من عزائمهم أو يخبوا شعلة الإيمان في نفوسهم، فاستذلوا الصعاب وتجاوزوا الخطوب من أجل نشر هذا الدين وتبليغه للعالمين، رغم أنهم دفعوا ثمن ذلك أرواحهم وأموالهم وأولادهم، ولكن الله تعالى حقق لهم النصر والتمكين في الدنيا، والفوز والنعيم في الآخرة.

3- الإيمان بالقدر يكسب صاحبه فضيلة الصبر وقوة التحمل على

⁽⁵⁵⁸⁾ (سورة البقرة، الآية 156).

562) أخرجه الترمذي (ص572، رقم 2516) كتاب صفة القيامة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: يا حنظلة، ساعة وساعة. وأحمد (1/293، رقم 2669). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والترحال، وفي كل زمان ومكان، لأن هذه النفس قد ارتبطت بوشائج قوية وحبال متينة مع الله تعالى الذي خلق كل شيء وقدره تقديرًا، فإذا ارتقى العبد إلى هذه الدرجة من اليقين، أزال الله تعالى عنه الكربات النفسية وجميع الاضطرابات والانفعالات والتشجنات، وأبدلها بروح من عنده جل وعلا، بل إنه جلّت قدرته، يحول نفس هذا المؤمن إلى روضة إيمانية تتجمع فيها ألوان الرياحين والزهور، وتنفث عنها خبث الشياطين من القلق والكآبة واليأس.

6- الإيمان بالقضاء والقدر يغني الإنسان عن سؤال الناس والتعلق بهم في قضاء الحوائج وطلب المنافع ودفع الأضرار، لأن ما كتبه الله تعالى واقع لا محال، والقدر يزرع في نفس صاحبه اللجوء إلى الله وحده في الشكوى وطلب الرزق والتوفيق والسداد والهداية وغيرها، لأنها من الأمور التي تديرها الإرادة الإلهية، وليس للبشر فيها حول ولا قوة، وهذا يعني أن الإنسان لا يكلف نفسه فوق طاقتها أو يمدّ يديه في كل شيء إلى المخلوقات لقضاء حوائجه، فانه تعالى الذي خلق الخلق تكلف بأرزاقهم ومعاشهم وهدايتهم إن هم اتبعوا أو امره وأخذوا بالأسباب التي توصل إلى ذلك، ويكفي في هذا الباب ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام حين وصّى ابن عباس رضي الله عنه وهو غلام صغير: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽⁵⁶³⁾.

7- وأخيرًا فإن للإيمان بالقدر منفعة شاملة تعم المجتمع بكل أطيافه وشرائحه، لأن أبناءه تقبلوا أمر الله تعالى ورضوا بما كتب لهم من النعم وضدّها، فكلّها خير لأنها من منه جلّ وعلا، وبذلك تصفى نفوسهم وتتلاشى الأحقاد والضغائن بين فقيرهم وغنيهم وصحيحهم وسقيمهم، وهكذا.

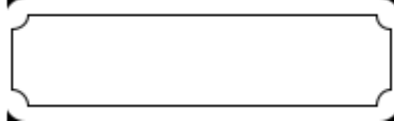
* * *

هذا وإن ضعف الإيمان بالقضاء والقدر يؤدي إلى أضرار ونتائج سلبية عظيمة بخلاف هذه الآثار الإيجابية، وعلى رأسها: القلق والاضطراب وبخاصة من المستقبل، وحال الشدائد، وعدم الراحة والطمأنينة، لأن النفس غير مستقرّة فيظهر هذا على جوارح الإنسان، ومن ثم يتعرض للأمراض النفسية والعضوية وغيرها.



⁽⁵⁶³⁾ () الفتاوى (5/155).





حقيقة العبودية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العباد لله»⁽⁵⁶⁴⁾.

وأما عبودية السرّاء والضراء فهي جزء تفصيلي من العبودية الشاملة لله تعالى التي تتضمن جميع أقوال الإنسان وأفعاله، والتي أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿ج ج ج ج ج ج ج﴾⁽⁵⁶⁵⁾، ويعبر عن هذه العبودية أحياناً بعبودية الشكر على نعم الله، وعبودية الصبر والرضى بقضاء الله وقدره.

* * *

⁽⁵⁶⁴⁾ سورة الذاريات، الآية 56.
⁽⁵⁶⁵⁾ سورة النحل، الآية 18.

عبودية السراء:

هي ما يقوم به العبد من أقوال وأفعال إزاء ما أنعم الله عليه من أنواع النعم والمسرات على نفسه وأهله وماله وأمته.

أنواع السرّاء:

لا يمكن حصر أنواع السراء لأن جميع نعم الله تعالى التي يتمتع بها الإنسان في الحياة هي من السراء، وصدق الله القائل: ﴿قَدْ قَفَّ قَدْ قَفَّ جَ جَ جَ﴾ (566).

لذا يمكن الإشارة إلى بعض النعم التي تدخل في دائرة السراء، ومن أهمها:

1- الهداية إلى دين الله تعالى:

الهداية من أكبر نعم الله تعالى على المؤمن، ومن أعظم أنواع السرّاء التي يسعد بها في الحياة، وينال رضى الله وجناته يوم القيامة، فالهداية إلى الإسلام تعني التصور الصحيح عن الحياة والكون والإنسان، وبالتالي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية ونبذ ما دونه من الآلهة والأنداد، يقول الله تعالى: ﴿هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ﴾⁽⁵⁶⁷⁾.

فالله تعالى هو الذي بمنح الهداية لعباده المخلصين ويهيئ لهم أسبابها، كما أنه جل وعلا يختم على قلوب المفسدين ويضلهم ضلالاً بعيداً، يقول جل ثناؤه:

{أَبْ بَ بَ بَ يَ يَ يَ يَ نَ تَ تَ تَ تَ طَ دُ ذَ فَ فَ فَ} (٥٦٨)

2- الأمن:

إن توفر الأمن والاستقرار في النفس والمجتمع لون من ألوان السراء، فهو نعمة عظيمة وفضل كبير من الله تعالى يمنحه لبعض عباده ويحرم الآخرين منه، والأمن هو الاطمئنان على النفس والدين والأموال والأولاد وجميع المصالح والممتلكات وعدم الخوف عليها من المخاطر والمهلكات، والأمن يجعل الإنسان أكثر حركة وإنتاجاً في الحياة، ومن دون الأمن لا يمكن أن يقوم الإنسان بواجباته كاملة، لأن الخوف يمنعه من السعي في الأرض والعمل بحرية.

ولأهمية هذه النعمة وأثرها على حياة الإنسان جاءت دعوة نبينا إبراهيم عليه السلام بتأمين الأمن والسلامة على البلد الحرام، فقال: {تَذْكُرْتُ لِلدِّينِ

566 () سورة الأنعام، الآية 88.

567) سورة الأنعام، الآية 125.

568) سورة إبراهيم، الآية 35.

ف ف ف ف ف} (569). حيث قدّم عليه الصلاة والسلام في دعائه توفير الأمن على توحيد الله تعالى، لأنه لا يمكن القيام بأداء العبادات والفروض بالشكل المطلوب مع فقدان الأمن والاستقرار.

وهذا يعني أن الأمن نعمة تحقق السعادة والحبور للإنسان، والخوف مصيبة وابتلاء يفقد معه الإنسان حرية العمل والإنتاج والإبداع، يقول تبارك وتعالى: {ذُنُوبٌ تَذُنُّونَ} (570).

3- الصحة والعافية:

إن من النعم العظيمة التي من الله تعالى بها على عباده نعمة الصحة والعافية في النفس والبدن، والتي يغفل عنها كثير من الناس، ولا يشعرون قيمتها ومكانتها إلا حين تنتزع منهم، أو حين تتعرض أجسامهم وحواسهم للضعف والوهن، وقد قيل في المثل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى.

ولا شك أن نعمة الصحة سبب رئيس لأداء العبادات والقيام بالأعمال المبنية على الإنسان من الإنتاج والإبداع والسعي من أجل الرزق، وطلب العلم والجهاد وغير ذلك من الأعمال الصالحة التي تدخل في مفهوم العبادة: ﴿ج ج ج ج ج ج ج﴾⁽⁵⁷¹⁾.

كما أن هذه النعمة تعين على الاستمتاع بالطيبات والملذات التي أباحها الله لعباده، من الطعام والشراب والزواج والنوم وغيرها.

وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أهمية هذه النعمة وضرورة استغلال وجودها في العمل الصالحة والنافعة، في الوقت الذي حذر من الإغفال عنها والإفراط فيها، فقال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»⁽⁵⁷²⁾.

4- المال والبنون:

يعدّ المال والبنون لوناً من ألوان السراء التي يتنعم بها الناس، لقوله تعالى:
{أَبْ يٰ أَبِ يٰ بِي يٰ بِي يٰ بِي يٰ بِي يٰ بِي يٰ بِي يٰ بِي} (٥73) . والمال يشمل العملات النقدية
 والعقارات والممتلكات والمصالح التجارية والصناعية والزراعية، وغيرها،
 كما أن البنون يشتمل الأبناء والبنات وذرائعهم، وهي جميعاً من النعم

⁵⁶⁹() سورة البقرة، الآية 155.

570) سورة الذاريات، الآية 56.

571 أخرجه البخاري (ص1113، رقم 6412) كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق.

572) سورة الكهف، الآية 46.

573) سورة آل عمران، الآية 14.

والمسرّات الدنيوية التي تميل إليها النفوس لأنها من أسباب القوة في الحياة، فالذي عنده المال والأولاد يستطيع أن يحقق أهدافه ويصل إلى آماله أكثر من الذي يفتقد إليهما، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَنْ تُدْرِكَهُم بِهِمْ هَبْ هَبْ هَبْ هَبْ﴾ (٥٧٤).

وإذا أنعم الله تعالى على العبد - إضافة إلى نعمة المال والبنون - نعمة العقل السليم والإرادة الصحيحة، فإن النعمة تكتمل وتصبح ذا مفعول أكبر.

5- الفراغ:

ومن النعم التي يتقلب فيها الإنسان نعمة توافر الزمن الكافي للعمل والإبداع والإنتاج، وتحقيق كل ما هو إيجابي في الحياة، والزمن أو الوقت جزء من المنظومة الكونية، وله دور كبير في تنظيم الحياة ومعرفة السنين والشهور والأيام، ولأهمية الوقت وعظم شأنه أقسم الله به في كتابه المبين فقال: {أب ب

ب ب پ }⁽⁵⁷⁵⁾.

ويتحكم الوقت في أعمار الناس وأعمالهم وحركتهم في الحياة، وهو ثمرة لحركة الشمس والقمر حين تتعاقبان بالليل والنهار، يقول تبارك وتعالى: ﴿تَدُورُ دُورًا رُطُومًا يَوْمَ تُنْفَخُ الصُّورُ يَوْمَ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (576).

فالوقت آية كونية، ونعمة عظيمة، لا بد من المحافظة عليه وعدم الإفراط فيه واستغلاله والاستفادة منه في الخير والبناء، وإن مواقف الناس مع الوقت تحدد مدى تقدمهم وتخلفهم، فمن حافظ عليه واستثمره في الإصلاح والبناء فإنه يرقى ويتقدم ويواكب ركب الحضارة، ومن أفرط فيه وضيعه في اللهو واللعب وسفاسف الأمور فإنه يبقى متخلفاً عن ركب الحضارة ويصبح عبئاً وعالة على الآخرين.

6- الزواج:

ومن السراء أيضاً أن يوفق الله عبده في الزواج ويسهل عليه أعباءه وتكاليفه، ويرزقه الزوجة الصالحة التي تعينه على طاعة الله والعمل الصالح، وعلى تربية الأبناء وبناء الأسرة المسلمة، إضافة إلى كونه سكناً وراحةً للنفس بالنسبة للزوجين، وسبباً لجلب الذرية الصالحة من الأولاد والبنات التي تعدّ من زينة الحياة ومتاعها، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ رُثِيَ بِهِ كَرِهَ لَهَا كَرِهَ اللَّهُ بِكُفْرَتِهَا إِنَّهَا ضَالَّةٌ سَبِيلًا﴾ (577).

574 () سورة العصر، الأيتان 1، 2.

575 ﴿سورة الإسراء، الآية 12.

576 ﴿سورة الروم، الآية 21.﴾

577 سورة الزمر، الآية 9.

7- الدراسة وطلب العلم:

إن السير في طلب العلم والحصول على الشهادات العلمية لا يتوفر لكل الناس، لأن الظروف المختلفة تقف عائقاً لبعض الناس في مواصلة الدراسة والتحصيل العلمي، وهذا ابتلاء ومصيبة، وأما في الجانب الآخر فإن القدرة على مواصلة الدراسة والتحصيل العلمي، وتحقيق الدرجات العلمية العليا تعدّ من النعم الكبيرة وهو نوع من أنواع السراء في الحياة، لأن العلم يرفع منزلة الإنسان عند الله وعند الناس، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مِائَةً أَلْفَ مِائَةٍ نَفْسٍ وَيَرْفَعُ عَنْهُ إِلَى اللَّهِ دَرَجَةً مِائَةَ أَلْفَ دَرَجَةٍ﴾ (578). وبالعلم يزداد إيمان العبد وقربه من الله، فضلاً عن الأجر الذي يناله عند الله إذا أخلص في علمه وسخره في سبيل الله، وكذلك الأثر الذي تتركه هذه النعمة على الأمة وتقدمها ورفقها، يقول جل وعلا: ﴿وَوَدَّاعِلَمُ الْغَيْبَاتِ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْحُكَمَاءُ﴾ (579).

* * *

كيف تتحقق عبودية السراء؟

بناء على الأنواع السابقة للسراء، يمكن تطبيق العبودية من خلالها وفق الآتي:

1- عبودية الهداية إلى دين الله:

إن عبودية الله تعالى على نعمة الهداية إلى دينه لا يمكن حصرها واختصارها في أعمال وأقوال محددة، بل إن هذه العبودية يجب أن تكون ملازمة للإنسان مدى الحياة، لأن نعمة الهداية هي نعمة السعادة والراحة في الدنيا، وهي نعمة الفوز والنجاة في الآخرة، وهما غايتا المؤمن، لذا فإن العبودية نحو هذه النعمة، أن يشكر العبد ربه سبحانه باللسان والجوارح، من خلال التمسك بأوامره وسنة نبيه ﷺ قولاً وعملاً، في الفروض والواجبات، والإحسان إلى الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الأعمال الصالحة، وكذلك الانتهاء عما نهى الله عنه من الأقوال والأفعال، وتجنب أسبابها والطرق المؤدية إليها.

وجسد النبي القدوة عليه الصلاة والسلام هذه العبودية، حين كان يعبد الله حتى تتورم قدماه، وتقول له عائشة رضي الله عنها: قد غفر الله لك ما تقدم من ذلك وما تأخر، فيقول عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبداً شكوراً.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الحال، فقد عرفوا نعمة

(578) سورة فاطر، الآية 28.
(579) سورة النحل، الآية 112.

الإسلام، وعرفوا فضل الله عليهم، لا سيما وقد كانوا على علم بالجاهلية وما فيها من المفسدات العقدية والاجتماعية والمالية وغيرها، فكانت عبوديتهم لذلك تطبيق للإسلام وترجمته إلى واقع عملي، سواء في العبادات والطاعات، أو من خلال السلوك والأخلاق مع الناس من حولهم.

2- الأمن:

وتتحقق العبودية لله تعالى في حالة الأمن والاستقرار الذي يتنعم به الناس، حيث يفرض الوضع الأمن والاطمئنان على النفس والأموال والمصالح واجباً تعدياً على الإنسان، فيشكر الله تعالى ويحمده، ويمتثل لأوامره وينتهي عن نواهيها، ويتقرب إلى الله بالعمل الصالح والدعوة إلى دينه، وكذلك فإن وجود الأمن يفرض على العبد الإخلاص بالعمل والإتقان فيه، والسعي الدؤوب على الإنتاج والنماء والإبداع، كما يفرض عليه المشاركة مع القائمين على الأمن في المحافظة عليه وإصلاح مواطن الخلل والفساد داخل المجتمع، وكل ذلك يدخل ضمن دائرة العبودية لله تعالى التي ينال من خلالها العبد رضى الله وثوابه، إضافة إلى ما يوفر لمجتمعه وأمنه من مقومات القوة والتقدم والازدهار.

وإذا ترك الناس هذه العبودية، وتغافلوا عن نعمة الأمن واستغلوها في المنكرات والمظالم والتجاوزات، فإن سنة الله تعالى قائمة في كل زمان ومكان، فقد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه المبين عن هذه السنة فقال: ﴿ثُمَّ تَدُوتْ ثُدَّتْ قُفْقُفٌ فَخُجٌّ جِجْجٌ جَجَّجٌ﴾ (580).

3- الصحة والعافية:

تتمثل العبودية في هذا النوع من السرّاء في الحمد والشكر لله تعالى على القوة والعافية وترجمة ذلك على الواقع وذلك بالإكثار من الطاعات والعبادات، والمحافظة على الفروض والواجبات، وأدائها في أوقاتها كما يريد الله تعالى، لذا ينبغي الاستفادة من أطوار القوة والعافية التي تمر على الإنسان وتسخيرها في سبيل الله وفي وجوه الخير المختلفة، وعدم الإفراط بها في المعصية والإفساد في الأرض، لأن غياب الصحة والعافية بعد ذلك تحرمه من بعض العبادات والأعمال الصالحة التي كان بإمكانه القيام بها وقت الصحة والنشاط، مثل أداء نسك الحج، وصيام رمضان، والجهد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها.

وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام الأمة على استثمار الصحة والعافية بالعبادة والبناء قبل زوالها فقال: «اغتنم خمسا قبل خمس: .. وصحتك قبل

⁵⁸⁰() أخرجه النسائي في السنن الكبرى (10/400، رقم 1183). والحاكم في المستدرک (4/341، رقم 7846). قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي.

سقمك» (581).

فكم من مريض وضعيف يتمنى لو عادت له عافيته ليقدم بعض الأعمال الصالحة بين يدي الله تعالى، فيصلي صلاة الجماعة في المسجد، أو يحج ويعتمر، أو يخرج إلى الناس ليقضي حوائجهم ويعين ضعيفهم، ولكن المرض والضعف والوهن يحول دون ذلك.

4 - المال:

وتتمثل العبودية هنا في إخراج حق الله من المال بالزكاة، لقوله تعالى: {كَبَّ كَبَّ كَبَّ كَبَّ كَبَّ} (582)، وكذلك الإكثار من الإنفاق والتبرعات في وجوه الخير المختلفة، كالإنفاق على المساكين والمحتاجين ودعم المؤسسات الخيرية، ودور تحفيظ القرآن، وبناء المساجد والمدارس، وتسديد الديون عن المعسرين وغير ذلك من الأعمال المالية الخيرية، قال تعالى: {لَّذَٰلِكَ هُوَ يُبَدِّلُ الْوَجْهَ} (583).

ويُخشى من الإفراط في هذه العبودية يعني حلول غضب الله تعالى وعذابه على المفرط، يقول عليه الصلاة والسلام: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» (584).

5 – الفراغ:

كما تتحقق العبودية في هذا النوع من السرّاء من خلال استثماره فيما يرضي الله تعالى من العبادات والأعمال الصالحة، وإشغال الفراغ وملئه بالعمل والجد والإنتاج والإبداع، فهذا حق الوقت الذي كرّمه الله تعالى وجعل له شأنه عظيمًا، حيث أقسم به في سورة العصر فقال: ﴿أَبْ بَ بِبُ پِ پِ پِ پِ پِ پِ پِ

ث ث ذ}{(585).

لذا؛ فإن الله تعالى يحاسب العبد على الأوقات التي قضى بها عمره وكيفيةها، هل قضاها في الخير أم في الشر؟ يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»⁽⁵⁸⁶⁾.

⁵⁸¹() سورة النور، الآية 56.

582 (سورة التوبة، الآية 60.

⁵⁸³) أخرجه البخاري (ص226، رقم 1403) كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

584 ﴿سُورَةُ النَّسَاءِ، آيَةُ 103﴾

585} أخرجه الترمذي (ص550-551، رقم 2417) كتاب صفة القيامة، باب في القيامة. قال

الترمذي: حسن صحيح.

586 () سورة التحريم، الآية 6.

6 – الزواج والأسرة:

تتمثل عبودية الله تعالى من خلال تكوين الأسرة الصالحة من خلال اختيار كل من الزوجين على أساس الدين والأخلاق، ثم القيام بواجب التربية القويمة نحو الأبناء والبنات، في المحافظة على الفروض والواجبات وغرس حب الله ورسوله صلی الله علیه وسلم في نفوسهم، والبعد عن المعاصي والمنكرات، والبعد عن ظلم الناس والاعتداء على حقوقهم، والوقوف على مصالحهم وقضاء حوائجهم، وكل امتثال لقول الله تعالى للأبناء وأولياء الأمور: ﴿وَأُؤْثِرُوا عَلَىٰ آبَائِهِمْ وَأَوْثَرُوا عَلَيْهِمُ

والإهمال في هذا النوع من العبودية يعرّض الأسرة إلى التفكك والضياع، ويهدد مستقبل الأبناء والبنات في الدنيا قبل الآخرة، لأن شراك الصحبة السيئة سلاحهم حتى يقعوا في مفاصله وأحواله، لذا؛ حرص الشرع على تحقيق هذه العبودية حين ألزم كل فرد من أفراد الأسرة بمسؤولياته وواجباته، يقول عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته...»⁽⁵⁸⁸⁾.

7- طلب العلم والتحصيل العلمي:

للعلم وأهله شأن عظيم ومنزلة عالية عند الله تعالى، لأن العلم هو سبيل لمعرفة الله، التي هي أساس كل المعارف والعلوم، يقول الله تعالى: {بِمِ بِي بِي تَج تَح تَخ تَم تِي تِي تَج تَم تِي تِي جح} (589).

ورسالة أهل العلم عظيمة وهادفة، فهم المناهل التي تتدفق بالعلوم والمعارف على الناس، وهم المراجع في الأزمات والنوازل وفي جميع الأحوال، يقول تبارك وتعالى: {يُؤْتِيكَ مِنْهَا نَفْسٌ فَاسْتَغْنِ} (590).

وبناء على ذلك فلا بد أن تُتَوَجَّ هذه الرسالة العظيمة بالعبودية لله تعالى من خلال المعالم الآتية:

أ - السعي في طلب العلم وتحصيله امتثالاً لأمر الله تعالى وتقرباً إليه وطمعاً في جناته، من غير رياء أو مباهاة، يقول عليه الصلاة والسلام: «من

⁵⁸⁷() أخرجه البخاري (ص143-144، رقم 892) كتاب الرق، باب كراهية التطول على الرق.

588) سورة المجادلة، الآية 11.

589) سورة النحل، الآية 43.

590) أخرجه أبو داود (ص525-526، رقم 3664) كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى. والترمذي (ص603، رقم 2655) كتاب العلم، باب فيمن طلب العلم ل دنیا. وابن ماجه (ص38، رقم 252) المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل. وأحمد (2/338، رقم 8438). وهو حديث صحيح.

تَعْلَمُ عِلْمًا مِمَّا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَا يَتَعْلَمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽⁵⁹¹⁾.

ب - العمل بالعلم الذي يحمله، حتى يعطي الصورة الناصعة عن الدين فلا يحدث عند الناس التناقض والتنافر، والله تعالى يقول: {هُدًى هَهِ هَهُ هَهُ هَهُ} (٥٩٢).

ج - الاختلاط مع الناس وعدم الاستعلاء عليهم، لمعرفة مشكلاتهم ومعاناتهم والمستجدات التي تظهر بين الفترة والأخرى.

د - عدم كتمان هذا العلم عن أحد، وتسخيره وبذله فيما ينفع الناس في الدنيا والآخرة.

* * *

عبودية الضراء:

هي ما يقوم به العبد من أقوال وأفعال إزاء ما يعترضه من المصائب والابتلاءات، في نفسه أو ماله أو أهله وأبنائه.

أنواع الضراء:

لا يمكن أيضًا حصر صور الضراء التي تصيب الإنسان ويبتلى بها في حياته، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضها وأهمها وهي:

1 - المرض:

المرض صورة من صور الضراء، ويبتلى به معظم الناس بشكل متفاوت، يختلف من إنسان إلى آخر، من حيث نوعه وقوته وتأثيره على المريض، ويشمل الجانب العضوي والنفسي في الإنسان.

يقول عليه الصلاة والسلام: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽⁵⁹³⁾.

2 - الفقر:

الفقر صورة أخرى للضرء، حيث يحرم الفقير من المال الذي يتحقق به كثير من الآمال والطموحات، فلا يجد الفقير هذه الوسيلة ويبقى بعيداً عن ملذات كثيرة، ونعم مختلفة، جراء عوزة وفقره، رغم أن كثيراً من الفقراء

591() سورة الصف، الآية 3.

592) سبق تخريجه.

593 ﴿سورة البقرة، الآية 273﴾

يعملون ويسعون إلا أن أرزاقهم محدودة ولا تتوسع كحال غيرهم من الناس، أو ربما يكون الفقر نتيجة مرض أو كارثة أو مصيبة حالت الفقير أن يرقى إلى حال أفضل من الناحية الاقتصادية.

وينظر كثير من الناس إلى الفقر نظرة خاطئة، ويرونها عيباً في الشخص أو خدشاً اجتماعياً عنده، وهي نظرة مخالفة للكتاب والسنة، لأن رسول هذه الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام كان فقيراً، حتى لم يكن توقد في بيته نار شهرًا أو شهرين.

وقد تحدّث القرآن عن الفقراء في مواطن عديدة، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مِّنْ عِندِنَا بِمِيزَانٍ عَمَلُهَا بِهَا نَحْصِيهَا وَنُصْطِيقُهَا﴾ (٥٩٤)، وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٩٥).

هذا وإن معظم الصحابة كانوا فقراء، لا سيما المهاجرون الذي فرّوا بدينهم وتركوا أموالهم وديارهم ومصالحهم في مكة.

3 – الفشل في الدراسة والحرمان من الشهادات العلمية:

تتفاوت القدرات العقلية من إنسان إلى آخر، كما تختلف ظروفهم وأحوالهم، فليس كل إنسان لديه القدرة والظروف التي تدفعه لإكمال دراسته أو السير في طلب العلم والحصول على الشهادات العلمية العليا، رغم أن كثيراً من الناس يجتهدون ويسعون من أجل ذلك، إلا أنهم يفشلون ولا يكتب لهم تحقيق ذلك، ولا شك أن هذا نوع من الضراء، لأن الحرمان من العلم يعني الحرمان من نعم كثيرة وآمال كبيرة.

4 – عدم التوفيق في الزواج:

من أنواع الضراء التي يُبتلى بها كثير من الناس عدم التوفيق في الزواج، بالنسبة إلى الزوج أو الزوجة، سواء لأسباب مادية أو لعدم التفاهم والتلاقي في الأفكار والتصورات، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى الطلاق، وإما يتحمل أحدهما الآخر ويصبر على الضراء احتساباً للأجر أو خشية على مستقبل الأسرة والأولاد.

5 – عدم الإنجاب:

يبتلى بعض الناس بصورة من الضراء الاجتماعي وهي عدم الإنجاب

⁵⁹⁴ (سورة الحشر، الآية 8.
⁵⁹⁵ (سورة الشورى، الآية 50.

مطلقاً أو إنجاب الإناث دون الذكور، وهذا الابتلاء يؤدي في الغالب إلى الخلافات الزوجية، أو إلى الطلاق، أو تعدد الزوجات، مع العلم أنه ابتلاء من الله تعالى لبعض عباده كما قال: {ثُمَّ نَأْتِي مَوْءَاظَهُمْ ثُمَّ نُنْفِئُهُمْ مِنْهَا} (٥٩٦).

* * *

كيف تتحقق عبودية الضراء:

بناء على ما سبق من أنواع الضراء، يمكن تطبيق العبودية فيها وفق الآتي:

1 - في حال المرض:

لقد أمر الشرع المريض بالصبر والرضى بحكم الله تعالى، وأن يجعل نبي الله أيوب عليه السلام قدوة له في محنة المرض، وكيف أنه رضي أمر الله تعالى ولم يستسلم لليأس والقنوط من رحمته ونزول الشفاء عليه، حتى قال فيه الله: ﴿ثُمَّ ثَبُتُ ثَقَفًا﴾ (597).

ثم يحتسب العبد في مرضه، لأنه بذلك يقترب من الله تعالى أكثر ويبتعد عن وساوس الشياطين وهمزاتهم، وهو المدخل إلى الشفاء والتعافي من المرض، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فيقول: انظرا ما يقوله لعوّاده، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه، رفعنا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم. فيقول: لعبدي إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودمّاً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه خطاياه» (598).

ولكي يتجنب المريض الوقوع في المحظورات الشرعية أثناء مرضه فعليه بعض الأمور التي لا بد من تصورها لتحقيق عبودية السراء، ومن أهمها:

أ - اليقين بأن المرض قدر من الله ولا بد من القبول والرضى بهذا القدر.

ب - اليقين بالأجر العظيم المرتب على الصبر إزاء الأمراض.

ج - اليقين بأن الله تعالى هو الشافي، وأن كل ما يأخذه من العقاقير والعلاجات إنما هي أسباب يجب تناولها ما دامت غير محرمة.

⁵⁹⁶() سورة ص، الآية 44.

597) أخرجه مالك في الموطأ (2/940، رقم 1682) كتاب العين، باب ما جاء في أجر المريض. والبيهقي في الكبرى (3/315، رقم 6786). والحاكم في المستدرک (1/348، رقم 1290). وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٥٩٨ (أ) أخرجه مسلم (ص 626، رقم 1467) كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

- د - حسن الظن بالله تعالى، والتفاؤل بالشفاء والمعافة دائماً.
- هـ- الإكثار من ذكر الله تعالى، من الدعاء وقراءة القرآن، والمحافظة على العبادات والفروض.
- و - الإكثار من الإنفاق في وجوه الخير المختلفة، لأنها سبب من أسباب الشفاء.

2- في حال الفقر:

- وتتحقق العبودية لله تعالى في حالة الفقر من خلال الأمور الآتية:
- أ - الصبر على الفقر وقبول أمر الله تعالى، وعدم قطع الأمل في الله تعالى في أن يزيد له في رزقه ويوسع في عيشه.
- ب - العمل والسعي من أجل طلب الرزق بالطرق المشروعة، وعدم التكاثر أو الاعتماد على الغير، أو اتباع الطرق المحرمة من أجل الكسب والحصول على المال.
- ج - الابتعاد عن التسوّل وعدم إظهار معالم الفقر، لأن الغنى الحقيقي في النفس وليس في العرض.

3 - الفشل في الدراسة:

أما كيف يحوّر العبد هذا الابتلاء إلى عبادة؟ فإن عليه أن يتجه نحو طريق آخر في الحياة، ويعمل في مجال آخر غير المجال العلمي، فهناك التجارة والزراعة والصناعة وغيرها من الأعمال والحرف التي يمكن أن يحقق من خلالها طموحات كبيرة كالرزق الواسع والعيش الرغيد، بحيث يعمل وفق الضوابط الشرعية ضمن حدود الحلال والحرام.

والمأمل في أحوال الناس سيجد أن كثيراً من الأغنياء والأثرياء من أصحاب المعروف والمشاريع الخيرية ليس لديهم شهادات علمية، أو أن تحصيلهم العلمي محدود، ولكنهم أفادوا الأمة بأعمالهم الخيرية والدعوية.

4 - عدم التوفيق في الزواج:

إن التعبد عبر هذه المصيبة، تكون بالصبر والحلم واتباع الحكمة في جميع الأحوال، وعدم الخوض في الجدل والنقاش الذي يؤدي إلى مزيد من الانفعالات والمشكلات، وغض النظر عما يكره كل منهما من الآخر، امتثالاً

لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرُ» (599).

5 – عدم الإنجاب:

ويكون التعبد مع هذا الابتلاء بالاحتساب والصبر وقبول أمر الله الذي يهب لمن يشاء من الذكور أو الإناث، ويحرم الآخرين حرماناً مطلقاً، وقد ابتلي رسول الأمة عليه الصلاة والسلام بالحرمان من الذكور، بل إن محنته كانت أشد حيث يوهب له الأولاد ثم يموتون في مقتبل أعمارهم.

* * *

الرسول القدوة:

لقد مرّ النبي عليه الصلاة والسلام في حياته الدعوية خلال ثلاث وعشرين سنة بمعالم كثيرة من السراء والضراء، وكان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في العبودية لله تعالى مع تلك المعالم التي من أهمها:

- فَقَدَ النَّبِيُّ ﷺ زَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَتْ حَضَنًا دَافِئًا وَسَكَنًا مَرِيحًا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْذُ بَدَايَةِ الْوَحْيِ إِلَى أَنْ تَوَفَاهُ اللَّهُ، كَمَا تَوَفَّى فِي السَّنَةِ نَفْسَهَا عَمَهُ أَبُو طَالِبٍ الَّذِي ذَبَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَدَافَعَ عَنْهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، بَلْ إِنْ هَاتَيْنِ الْمَصِيبَتَيْنِ تَرَامَنْتَ مَعَ الْحَصَارِ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي الشَّعْبِ، فَكَانَتْ مَصَائِبُ مُتْرَاكِمَةً وَشَدِيدَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ الصَّبْرُ وَالرَّضَى زَادَهُ وَسِلَاحَهُ فِي مُوَاجَهَةِ هَذِهِ الْمُحَنَةِ.

- لقد أَوْذِيَ عليه الصلاة والسلام من قومه إيذاءً شديداً، حيث اتُّهم بالجنون والسحر، ورمي بالحجارة من صبيان بني ثقيف، وشُجَّ رأسه وكسرت رباعيته، كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الله، لكنه كان صابراً عابداً لله تعالى لأنه عَرَفَ أن طريق الجنة محفوفة بالمكاره والأشواك، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْذِيَ الْكَافِرُ الْكَافِرِينَ فِي أَسْوَاقِهِمْ لِكَيْلَ يُكْفَرُوا فِيهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (60).

- هاجر عليه الصلاة والسلام في سبيل الله فارًّا بدينه وعقيدته مع الصحابة رضوان الله عليهم، وقد تركوا خلفهم الأهل والديار، كل ذلك من منطلق تعبدية، وتنفيذا لأمر الله تعالى بالهجرة، وقد رضي الله عنهم بعد ذلك وقال فيهم: {أَبْ يٰٓيُثَيِّبُ يٰٓيُثَيِّبُ يٰٓيُثَيِّبُ نَذَرْتُ لَكَ أَن تَكُونَ تِلْكَ الْأُمَّةَ السَّاكِنَةُ} (601).

- كان عليه الصلاة والسلام شاكراً لأنعم الله عليه، فقد ثبت في الصحيح أنه

⁵⁹⁹() سورة البقرة، الآية 214.

600 ﴿سورة التوبة، الآية 100.

601) أخرجه مسلم (ص 1021،

(أخرجه مسلم (ص1021، رقم 2312) كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء قط فقال: لا.

قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

- وكان صلى الله عليه وسلم ينفق في سبيل الله ولا يخش فقراً، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر⁽⁶⁰²⁾.

* * *

آثار عبودية السراء والضراء:

إن من أهم الآثار والنتائج الإيجابية التي يخرج بها العبد المؤمن حال عبوديته لله سبحانه وتعالى في كلا الحالتين، ما يلي:

1 - إن الله تعالى يجزي الشاكرين في السراء بالأجر العظيم والزيادة في الأرزاق والنعم المختلفة، لأنهم لم يغفلوا عن شكر الله بالقول والعمل إزاء ما أغدق عليهم من المتاع والطيبات، قال تعالى: {قَفْ قَفْ قَفْ جَجْ} ⁽⁶⁰³⁾، وقال أيضاً: {ه ه} ⁽⁶⁰⁴⁾.

2 - إن الصبر على الضراء، والرضى لأمر الله تعالى من أسباب العفو والمغفرة والثواب الجزيل، لقوله تعالى: يقول الله تعالى: {ثِي ثِي جَج جم حج حم} ⁽⁶⁰⁵⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» ⁽⁶⁰⁶⁾.

2- الشعور بالرضى والقرب من الله عز وجل، حيث يحس العبد الشاكر أن الله عز وجل خصه بكرمه فيقبل عليه بالتوبة والاستغفار والثناء عليه سبحانه بما هو أهله، وينال راحة نفسية عظيمة، ثم إنه يبادر إلى من حوله فيحسن إليهم شكراً لله الذي أحسن إليه ويبذل جهده في إدخال السرور إلى قلوبهم كما أدخل الله المسرة إلى قلبه فتحصل بذلك الفائدة لمجتمعه وتزداد عرى الترابط بينه وبين من أحسن إليهم، فإن فعل ذلك زاده الله من نعمه وأسبغها عليه ظاهرة وباطنة.

⁽⁶⁰²⁾ سورة إبراهيم، الآية 7.
⁽⁶⁰³⁾ سورة آل عمران، الآية 145.
⁽⁶⁰⁴⁾ سورة الزمر، الآية 10.
⁽⁶⁰⁵⁾ سبق تخريجه.
⁽⁶⁰⁶⁾ سورة الذاريات، الآية 56.

3 - إن عبودية السراء والضراء تدخل السكينة والطمأنينة في نفس العبد، لأنه لم يصبه الغرور والتكبر حين أنعم الله تعالى عليه بالنعمة المختلفة، ولم ينس أن يرجع ذلك كله لله تعالى، فبقيت نفسه مطمئنة وسليمة من الكبر والاستعلاء.

كما أنه لم يتأفف عند الضراء من حاله وما أصابه من البلاء، بل رضي بقضاء الله تعالى، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الله تعالى قد أعد له من الأجر والثواب على صبره وثباته، وبالتالي تغتسل نفسه من آفة الحسد والحدق على الآخرين.

4 - إن عبودية السراء والضراء تبني شخصية الإنسان بناءً متيناً، حيث يتطلع في حالتي السراء والضراء إلى الحياة بنظرة إيجابية، فلا يغيره المتاع عن العمل والإنتاج، كما لا تحبطه المصائب والشدائد عن مواصلة الطريق وتجاوز الصعاب للوصول إلى تحقيق الأهداف الممكنة بالوسائل المتاحة.

5 - إن عبودية السراء والضراء يساهم كثيراً في توفير الأمن والاستقرار داخل المجتمع، لأن المنعم عليه بالمال والصحة والإمكانات لا يترك إخوانه الضعفاء ضحية للفقر والبطالة والجهل، بل إنه من منطلق العبودية لله تعالى يمدّهم بجميع أشكال المساعدات سواء بالإنفاق عليهم، أو إيجاد فرص العمل لهم، وغير ذلك من الأمور التي تخرج الغل والكراهية من نفوس المحرومين.

وفي الجانب الآخر فإن المصاب بالضراء يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره، ويتفاعل مع حقيقة البلاء بإيمانه بالجزاء المتأخر عند الله تعالى، فإنه لا يحمل في نفسه حقداً أو ضغينة على أحد، إضافة إلى ما يجده من المتنعم عليه من التعاون والتكافل معه، كل ذلك يساهم في استقرار حال المجتمع وسلامته من عوامل الجريمة والفساد.

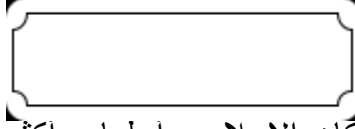
* * *

كانت تلك جولة سريعة مع عبودية السراء والضراء، والتي هي جزء من العبودية العامة التي أشار إليها الله جلّ وعلا بقوله: ﴿ج ج ج ج ج ج ج﴾⁽⁶⁰⁷⁾.

والكيس العاقل من يجعل الأحوال التي يمر بها والظروف التي تعترضه في الحياة ساحة للعبادة وميداناً لطاعة الله تعالى، ليس في حالات الشدة والرخاء فحسب، بل إنه يستطيع أن يجعل من كل عمل مباح عبادة وتقرباً إلى الله حين يحتسب ويخلص النية له جلّ وعلا، فيصبح تناول الطعام عبادة، والنوم عبادة، والرياضة عبادة، والدراسة عبادة وهكذا، حتى تصبح كل حركة وسكنة تصدر منه عبادة يؤجر عليها، وبذلك يؤدي العبد رسالته في الحياة، ويصل إلى الغاية التي خلق من أجلها وهي عبادة الله وحده.

⁶⁰⁷ (أخرجه أبو داود (ص197، رقم 1319) كتاب الصلاة، باب تفريع صلاة السفر. وأحمد (5/388، رقم 23347). حديث حسن.





الصلاة من أعظم أركان الإسلام، واجلها، وأكثرها فائدة، وأوسعها أثراً، وهي من أهم العوامل لبناء الشخصية السوية، ومن أهم أدوات الشفاء للأمراض، ومن أكبر الوسائل لمعالجة المشكلات وتجاوز العقبات. لذا؛ نركّز في هذا المبحث على هذه الجوانب، فنفتتح بما رواه الإمام أحمد رحمه الله قال:

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ وَخَلْفُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَا حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا يَغْنِي ابْنَ زَائِدَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَارٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الدُّوْلِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ أَخُو حُذَيْفَةَ قَالَ حُذَيْفَةُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى» (608).

وما رواه أبو داود رحمه الله قال:

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ قَالَ رَجُلٌ قَالَ مِسْعَرُ أَرَاهُ مِنْ خَزَاعَةِ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرْحْتُ فَكَانَتْهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا بَلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا» (609).

مفهوم الصلاة:

الصلاة لغة: الدعاء، قال تعالى: «وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم» أي ادع لهم، وقال النبي ﷺ: «إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان مطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل» (610).

الصلاة اصطلاحاً: الصلاة: أقوال وأفعال يتعبد الله بها، تفتح بالتكبير وتختتم بالتسليم.

* * *

أهمية الصلاة وفضلها في الإسلام:

الصلاة عمود الدين، وثاني أركان الإسلام، تلي شهادة التوحيد، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل الرسول ﷺ عن الإسلام فأجابه:

(608) سبق تخريجه.
(609) لسان العرب ج 7 / ص 397.
(610) سبق تخريجه.

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»⁽⁶¹¹⁾.

وقد أنشأ القرآن الكريم إلى فضل الصلاة ومكانتها في هذا الدين في آيات كثيرة ما بين كونها فرضاً يؤدي، أو كونها عبادة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وجاء الثناء والجزاء على الذين يحافظون على هذه الفريضة كما في قوله تعالى: {ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ي د ت ذ ذ ذ ذ ر ر} (612).

وبالمقابل جاء التهديد والعقاب على تاركها، كما في قوله تعالى حين يُسأل بعض أصحاب النار عن سبب مقامهم في النار {جم حج حم خج خح خم سج سح سخ سم} (613) .

كما أن الصلاة هي أول ما يحاسب عليها العبد يوم القيامة لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» (614).

والصلاة تميّز أهل الإيمان عن أهل الكفر لقوله صلى الله عليه وسلم: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»⁽⁶¹⁵⁾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»⁽⁶¹⁶⁾.

ومن أهم المعالم التي تدل على أهمية الصلاة أيضًا أن الله تعالى أمر بها في معظم الأحوال، في الصحة والسقم، وفي السفر والحضر، وفي السلم والحرب.

من أجل هذه المنزلة الكبيرة والمكانة الرفيعة للصلاة في هذا الدين كان

⁶¹¹() سورة الأنفال، الآيتان 3-4.

٦١٢ (سورة المدثر، الآيتان 42-43).

⁶¹³ (أ) أخرجه أبو داود (ص133، رقم 864) كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه. والترمذي (ص111، رقم 413) كتاب الصلاة، باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة. والنسائي (ص64، رقم 466) كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة. وابن ماجه (ص204-205، رقم 1426) كتاب الصلاة، باب أول ما يحاسب به العبد الصلاة.

⁶¹⁴() أخرجه الترمذي (ص595، رقم 464) كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة. والنسائي (ص64، رقم 464) كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة. وابن ماجه (ص151، رقم 1079) كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في ترك الصلاة. وقد حسنه الترمذي.

⁶¹⁵() أخرجه مسلم (ص51، رقم 1079) كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

⁶¹⁶() أخرجه أبو داود (ص724، رقم 5158) كتاب الآداب، باب حق المملوك. وابن ماجه (ص232، رقم 1625) كتاب الجنائز، باب ما جاء في مرض رسول الله ﷺ. وهو صحيح.

الأمر بها واضحاً في وصية النبي ﷺ قبل وفاته، عن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»⁽⁶¹⁷⁾. حتى جعل يغرغر بها وما يفصح بها لسانه.

* * *

صفة الصلاة:

وأما كيفية أداء الصلاة ووصفتها، فقد بيّنها رسول الله ﷺ للصحابة بشروطها وأركانها قولاً وعملاً، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»⁽⁶¹⁸⁾، ليس هذا فحسب، بل إنه كان ينبههم إذا وجد خللاً أو قصوراً في أدائهم للصلاة، كما جاء في حديث المصلي صلاته.

وما جاء في صفة صلاته عليه الصلاة والسلام من أحاديث فكثيرة، ويكفي الإشارة إلى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال: إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راکعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»⁽⁶¹⁹⁾.

وينبغي أن يرافق هذه الهيئة والأداء في الصلاة الخشوع وحضور القلب، والتأمل فيما يقوله العبد بين يدي ربه، من أي القرآن والذكر والتكبير والتحميد والتسبيح وغيرها، وقد أشاد الله تعالى بالمؤمنين الذين يخشعون في صلواتهم فقال: ﴿بِبِ بِبِ بِبِ بِبِ﴾⁽⁶²⁰⁾.

* * *

آثار الصلاة:

للصلاة آثار إيجابية عظيمة في حياة المؤمن يلمسها حين يؤديها بأركانها وشروطها، وبالصورة التي كانت يؤديها رسول الله ﷺ، فضلاً عن الآثار الأخروية التي يلقاها المؤمن عند ربه يوم القيامة، ومن تلك الآثار:

1- إن الصلاة من الأعمال التي ترفع درجات المصلي وتزيد من حسناته، كما تكفر عنه السيئات والذنوب التي يقتربها في حياته اليومية، يقول تبارك

⁽⁶¹⁷⁾ أخرجه البخاري (ص123، رقم 757) كتاب الأذان، باب قراءة الإمام والمأموم في الصلوات كلها.

⁽⁶¹⁸⁾ أخرجه البخاري (ص30، رقم 139) كتاب الوضوء، باب إسباغ الوضوء. ومسلم (ص168، رقم 397) كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

⁽⁶¹⁹⁾ سورة المؤمنون، الآيتان 1-2.

⁽⁶²⁰⁾ سورة هود، الآية 118.

621) أخرجه مسلم (ص167، رقم 878) كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة بعدها.

622) أخرجه البخاري (ص90، رقم 528) كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة.

623) أخرجه مسلم (ص167، رقم 395) كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة.

624) سورة العنكبوت، الآية 45.

625) سورة الأعراف، الآية 170.

626) أخرجه مسلم (ص265، رقم 1493) كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة.

627) سورة طه، الآية 132.

الرغید، لقوله تعالى: {ءِے لَیْ كُتَّ وُ وُ وُ وُ وُ وُ وُ} (628).

6- الصلاة في أوقاتها الخمسة تنظم حياة المسلم في ليله ونهاره، حيث يصبح لديه برنامج واضح يسير عليه وفق التقسيمات التي حددها الشرع لأوقات الصلاة، يقول تعالى: ﴿طَوَّافَةٌ عَلَيْهَا لَهَادَةٌ يُهْتَمُّ بِهَا فِي طَرَفِهَا﴾ (629)، فيرتب وضعه وينظم حاله وفق هذا الجدول الزمني الذي حدده الله تعالى، ما بين عمل دنيوي يساهم من خلاله في عمارة الكون وتحقيق ما ينفع نفسه ومجتمعه وأمته، وبين ما يشده إلى الآخرة من خلال هذه الصلوات التي تفصل بين الواحدة والأخرى فترة زمنية محددة، ليتخلص من أعباء الحياة وتعبها ونصبها، فيقف بين يدي خالقه مجدداً عهده وولاءه وثباته على هذا الدين، ليرجع من جديد إلى عمارة الأرض ونشر الخير بين الناس.

وفي هذا استشعار بقيمة الزمن، الذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، لأن تركه وعدم الاستفادة منه يؤدي إلى التخلف والفساد والجريمة، بل سيكون وبالاً على صاحبه إذا لم يستغله بما أمر الله به، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه» (630).

7- الصلاة تحافظ على أمن المجتمع واستقراره، وتقلل من نسبة الجرائم والجنایات بين أبنائه، لقوله تعالى: {وَوُؤْيِي بِدِينِ} (631)، وقد جاء الاقتران بين الأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصية لقمان لابنه: {يٰٓيٰ دِدْنٰ اِنَّهُ تُوْتُوْ تُو تُو تُو} (632). فهذه الآيات تدل صراحة أن هناك علاقة متلازمة بين إقامة الصلاة واجتناب المنكرات التي تشمل كل أنواع المعاصي والمفاسد التي تخل باستقرار الإنسان ومجتمعه.

كما أن الصلاة تُجَمِّعُ الناس في اليوم واللييلة خمس مرات، وفي الأسبوع مرة في صلاة الجمعة، يقفون جميعهم بين يدي خالقهم متكاتفين متراسين، يجددون معاً العهود والمواثيق مع هذا الخالق، ويجددون العهد فيما بينهم، ويتعرفون على أحوالهم وحاجاتهم، فتزيد صلتهم ورحمة بعضهم ببعض، وغيرها من التبعات والفوائد الاجتماعية الأخرى التي تفرزها هذه الصلاة بين المسلمين، وهي من الأسباب التي ترجح كفة الأمن والاستقرار على كفة الجريمة والفساد.

628() سورة النساء، الآية 103.

629) سبق تخريجه.

630 ﴿سورة العنكبوت، الآية 45.

631) سورة لقمان، الآية 17.

632) سبق تخريجه.

* * *

8- وأما آثار الصلاة على المؤمن من الناحية النفسية فيمكن إجمالها فيما يلي:

أ- إن الصلاة تجلب للنفس راحة وطمأنينة في كل أحوالها، لا سيما في النوازل والمصائب التي قد تعتري المؤمن، وهو ما عبّر عنه رسول الله ﷺ عندما يحين وقتها بقوله لبلال رضي الله عنه: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»⁽⁶³³⁾، وقوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»⁽⁶³⁴⁾، فهي الملاذ الذي ترنو إليه النفس دائماً، ليذهب عنها الضيق والحرَج وتحل الراحة والسكينة، فحين يكبر المصلي تكبيرة الإحرام فكأنما ألقى بالدنيا وما فيها من تعب وكدر إلى الوراء، وبدأ يستقبل نوعاً آخر من المشاعر والأحاسيس التي يفتقدها قبل الدخول في هذا المقام السامي مع ربه سبحانه وتعالى.

ب- تعد الصلاة من أهم الأسباب التي تزيل عن المؤمن القلق النفسي الناجم عن مؤثرات الحياة، فهو في صلاته يشعر عظمة خالقه حين يركع له ويسجد له بقلبه وجوارحه، فتصغر في نفسه مسببات ذلك القلق وتوابعه، لأنه يحس أن هذه النفس قد خرجت من ضيق الدنيا إلى سعة رحمة الله وعظمته التي تخضع له كل الخلائق وتسجد له طوعاً وكرهاً.

ج- الصلاة تبعد التوتر عن نفس المؤمن، بسبب تغيير الحركة المستمرة فيها، من قيام وركوع وسجود وقعود وتحريك للسواعد وغيرها، فمثل هذه الحركات وهذه التغيرات يحدث استرخاء فسيولوجياً مهماً في الجسم، وهذا ما يهدأ من روع الإنسان المنفعل أو المتشنج، ويحافظ على توازنه النفسي، وقد وصى الرسول ﷺ المؤمن الغاضب أو المتوتر بالجلوس إلى الأرض ليخف عنه غضبه وتوتره، يقول عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء فليلصق بالأرض»⁽⁶³⁵⁾.

ولعل ما نجده لدى بعض الشعوب عادة السجود ووضع الرأس على الأرض عند الإرهاق أو الضيق أو الاكتئاب لها أصل من هذه الحقيقة، كما هي الحال عند اليابانيين، إلا أنهم يدرجونها ضمن التمارين الرياضية أو المعالجات

⁽⁶³³⁾ أخرجه النسائي (ص469، رقم 3392) كتاب عشرة النساء، باب حب النساء. وأحمد (3/128، رقم 12315). والحديث صحيح.

⁽⁶³⁴⁾ أخرجه الترمذي (ص504، رقم 2191) كتاب الفتن، باب ما أخبر به النبي ﷺ. وأحمد (3/19، رقم 11159). والحاكم (4/506، رقم 8543). قال الحاكم: صحيح على شرط

مسلم.
⁽⁶³⁵⁾ (سورة البقرة، الآية 153).

النفسية، مثل اليوغا وغيرها. ونحن أغنانا الله تعالى بالصلاة، فنؤديها بخشوع ورغب ورهب.

د - الصلاة تدفع عن المؤمن همزات الشياطين ولمزاتهم، في كل أحواله، حيث تدريبه على الشكر في السراء، وعلى الصبر في الضراء، يقول تبارك وتعالى: {تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ} (٦٣٦)، ويقول جل شأنه في آية أخرى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا} (٦٣٧).

* * *

هذا فضلاً عن بعض الفوائد البدنية والجسمية التي يمكن استنباطها من الصلاة، وهي:

- الصلاة تعطي توازناً للجسم، وتخفف الضغط على الدماغ، وذلك من خلال وضعيات الركوع والسجود وما يرافقها من الضغط على أطراف أصابع القدمين، مما يعطي شعوراً للمصلي بالاسترخاء والهدوء.

- السجود الطويل يؤدي إلى عودة ضغط الدم إلى معدلاته الطبيعية في الجسم كله، ويعمل على تدفق الدم إلى كل أجهزة الجسم.

- الصلاة تجنب المصلي بعض الأمراض، مثل الدوالي، كما أنها تقوي العظام وعضلات البطن، وتنشط إفراز المرارة، وحركة المعدة والأمعاء، بسبب حركات الصلاة من قيام وركوع وسجود وغيرها.

- الصلاة تعوّد المؤمن على النظافة البدنية، والعناية بالجسم وتركيبته، وإزالة كل ما يضر به من الأوساخ والروائح الكريهة، من خلال ما تسبق هذه العبادة من عمليات الطهارة والوضوء، إضافة إلى نظافة الثياب وحسن الهيئة، استعداداً لأداء الصلاة، لقول الله تعالى: {كُلُّكُمْ رَافِعٌ رَأْسِهِ} (٦٣٨). وقوله جلّ وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا} (٦٣٩).

* * *

وأخيراً:

فإن الصلاة من العبادات التي جعلها الله تعالى بمثابة محطات، يقف عندها

(٦٣٦) سورة الأعراف، الآية 200.

(٦٣٧) سورة المدثر، الآية 4.

(٦٣٨) سورة الأعراف، الآية 31.

(٦٣٩) أخرجه أبو داود (ص 82، رقم 495) كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة. وأحمد (2/18، رقم 6689). والحاكم (1/197، رقم 708).

المؤمن في رحلة الحياة بين الفينة والأخرى، لتخفف عن كاهله أعباء هذه الرحلة، وتمسح ما تعلقت به من الخطايا، وتلقي على نفسه الراحة والطمأنينة وتدفع عنها نفث الشياطين ووساوسهم، ليتمكن من أداء رسالته في الحياة وفق المنهج الرباني الصحيح.

لذا ؛ لا بد من أداء هذه الفريضة أداء حسنًا، في وقتها المحدد، ومع جماعة المسلمين في المساجد، وتبليغ الناس بأهمية هذا الركن عند الله تعالى ومدى خطورة تركه أو إهماله، وذلك منذ المراحل الأولى في حياتهم، حتى يصبح جزءًا من حياتهم، وهو الأمر الذي وصى به رسول الله ﷺ في قوله: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»⁽⁶⁴⁰⁾.

ولنتذكر دائماً قول الله تعالى: {يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا}، فيستعان بها في جميع الأحوال والظروف.



⁽⁶⁴⁰⁾ سورة البقرة، الآية 45.
⁽⁶⁴¹⁾ أخرجه البخاري (ص229، رقم 1417) كتاب الزكاة، باب الصدقة الرد. ومسلم (ص410، رقم 2350).

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» (642).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» (643).

المال في الإسلام:

إن ما في هذا الكون كله ملك لله تعالى، الإنسان والدواب والطيور والأرض والسموات وما فيهما من الكائنات والجمادات، مخلوقات لله وملك له جل وعلا، لقوله تعالى: {حَمْدُ خُجْ خُجْ خُجْ سَجْ سَجْ سَجْ سَخْ سَخْ سَخْ سَمْ صَحْ صَمْ صُحْ صُحْ} (644)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يَمْلِكَ شَيْئًا وَلَا يَحْصِيَ شَيْئًا} (645).

وبهذا المفهوم فإن المال وكل ما يندرج تحته من المصالح والممتلكات هي ملك لله تعالى.

وأما موقف الإنسان من هذا المال وملكه له فلا يخرج عن أمرين بعد اعتقاده أنه مال الله تعالى وأن ما رزق منه مؤتمن عليه:

1- ينتفع بهذا المال في المباح وضمن الضوابط الشرعية التي رسمت حدود التصرف فيه ومجالاته ومصارفه، لأنه كسائر المخلوقات التي سخرها الله تعالى للإنسان في هذا الكون، لقوله تعالى: {أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ مِنْ نَارٍ وَتُخَوِّفُكُمْ مِنْ نَارٍ} (646).

2- أن ينفق بالمال سائر خلق الله تعالى، لأن المال لم يخلق لفئة دون أخرى من جهة، ولأن الإنسان مستخلف في الأرض ومستعمر فيها من جهة أخرى، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ ثَمَرِ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ أَنْفِقُوا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَنْبُتَ الْغُلَّةُ الْآخِرَةُ} (647)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ ثَمَرِ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ أَنْفِقُوا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَنْبُتَ الْغُلَّةُ الْآخِرَةُ} (648).

(642) أخرجه مسلم (ص1131-1132) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر.

(643) سورة المائدة، الآية 120.

(644) سورة النور، الآية 42.

(645) سورة لقمان، الآية 20.

(646) سورة الأنعام، الآية 165.

(647) سورة هود، الآية 61.

(648) سورة الحديد، الآية 7.

وهذا يعني أن الإنسان موكل بصرف المال في الوجوه التي أمره الله بالصرف فيها، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِيكَ اللَّهُ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ ۚ﴾ (649)

وأما إذا تفاضل البعض على الآخر في استخلافهم لهذا المال، فهذا تقدير الله وقسمته لهم، وهم مستخلفون عليه لينفقوا في سبيله ليس من باب الاستحباب فحسب، بل هو واجب أيضاً كما هي الحال في الزكاة وصدقة الفطر، وكذلك حسب الأحوال المادية التي تمر بها الأمة، فإن النفقة تصبح واجبة في كثير من حالات الفقر والأزمات المادية التي تؤثر على حياة الناس، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَجْزِيكَ اللَّهُ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ ۚ﴾ (650)، ويقول أيضاً: ﴿وَمَا يَجْزِيكَ اللَّهُ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ ۚ﴾ (651).

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي سعيد: «من احتكر فهو خاطئ» (652).

* * *

الإنفاق سنة كونية:

إن جذور الإنفاق ودوافعه ترجع إلى الفطرة الإنسانية السوية التي أودعها الله في نفس الإنسان، المسلم وغير المسلم، فقد عرفت العرب قبل الإسلام بالإنفاق على المساكين والضعفاء، وإكرام الضيف، واشتهرت فيهم شخصيات في هذا المجال كحاتم الطائي وغيره، وهذا يعني أن الفطرة السليمة هي التي تدفع صاحبها للإنفاق على الآخرين. لذا فإن المنفق حين ينفق ويكرم على من حوله، يشعر بسعادة وراحة، لأن الجانب الإيجابي في نفسه يغلب على الجانب السلبي، وهي أصل الفطرة التي فطر الناس عليها، أما إذا خالف الإنسان هذه الفطرة، واستأثر بالخل والشح، فإنه يحرم من هذه السعادة في نفسه، كما يحرم ودّ الناس وثناءهم ودعاءهم.

هذا بالنسبة إلى الإنسان، أما إذا أُمعن النظر في سائر المخلوقات والأشياء في هذا الكون، فإن هناك إشارات كونية واضحة على حقيقة الإنفاق وعلاقتها بالحياة، ومدى تأثيرها على الكائنات المحيطة الأخرى، فالأرض مثلاً تخرج الطيبات المختلفة بأمر الله حين تلقى بركات السماء

(649) سورة النور، الآية 33.

(650) سورة البقرة، الآية 254.

(651) أخرجه مسلم (ص 702، رقم 1605) كتاب البيوع، باب تحريم الاحتكار.

(652) سورة الحج، الآية 5.

من الأمطار والهواء والشمس، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَدْرَأُ مَا تَدْرَأُ نُهُ نُؤُ
نُؤُ نُؤُ نُؤُ نُؤُ نُؤُ﴾⁽⁶⁵³⁾، وحين تحرم هذه البركات يصيبها القحط
والجفاف، ويصيب الناس الفقر والجوع.

وكذلك الحال بالنسبة للدواب والطيور، فإنها تنطلق كل صباح سعيًا
وراء رزقها من أجل بقائها وإطعام صغارها، وكلها أسرار وآيات في كون
الله تبارك وتعالى.

* * *

أنواع الإنفاق:

الإنفاق المشروع نوعان، الإنفاق الواجب والإنفاق المستحب:

الأول: الإنفاق الواجب:

وفيما يلي بعض وجوه الإنفاق الواجب:

1- الإنفاق على الوالدين: في حالات العسر واليسر، فلا يسقط هذا
الواجب ببسر حالهما أو غناهما، لأن الأصل في مال الولد أنه للوالد، لقوله
صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة: «أنت ومالك لأبيك»⁽⁶⁵⁴⁾.

كما أخبر عليه الصلاة والسلام بأولوية من يُنفق عليهم من الناس
الوالدين، فعن كليب بن منفعة الحنفي عن جده أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا
رسول الله من أبرّ قال: «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك،
حقًا واجبًا ورحمًا موصولة»⁽⁶⁵⁵⁾.

2- الإنفاق على الزوجة: حيث إن المرأة إذا خرجت من بيت أبيها فإن
نفقتها تنتقل إلى زوجها، في الملبس والمأكل والمسكن، والعطايا الأخرى،
لقوله تعالى: (وُؤُ وُؤُ)⁽⁶⁵⁶⁾.

وقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم النفقة أجرًا تلك التي
ينفقها الرجل على أهل بيته، فقال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار
أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك؛

⁽⁶⁵³⁾ أخرجه ابن ماجه (ص328، رقم 2291) كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده.
وأحمد (2/204، رقم 6902). وابن حبان (2/1420، رقم 410). والحديث حسن بشواهده.

⁽⁶⁵⁴⁾ أخرجه أبو داود (ص722، رقم 5140) كتاب الأدب، باب بر الوالدين. والنسائي
(ص350، رقم 33) كتاب الزكاة، باب أيتها اليد العليا. وهو حديث صحيح.

⁽⁶⁵⁵⁾ سورة البقرة، الآية 232.
⁽⁶⁵⁶⁾ أخرجه مسلم (ص403، رقم 995) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك.

أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»⁽⁶⁵⁷⁾.

3- الإنفاق على الأولاد: في مجالات الحياة المهمة، التي تتكون من خلالها شخصية الأبناء والبنات على أسس سليمة، وتنمي المهارات والمواهب لديهم، ليكونوا لبنات صالحة في بناء المجتمع ورقية وتقدمه، لا سيما في هذا العصر الذي تنوعت فيه العلوم والتخصصات، وتطورت آليات التحصيل المعرفي، وتوسعت فيه آفاق الأولاد والبنات في هذا الفضاء العلمي الواسع في السنين المبكرة من أعمارهم، الأمر الذي يفرض على الآباء الإنفاق على أولادهم حتى لا يتأخروا عن الركب الحضاري، ولكن في حدود ضوابط الشرع وأحكامه، يقول عليه الصلاة والسلام: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»⁽⁶⁵⁸⁾.

4- الإنفاق على من تحت ولايته: من الخدم والعمال وغيرهم، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم ولست بتاركهم هكذا وهكذا إنما هم بني؟ فقال: «نعم لك أجر ما أنفقت عليهم»⁽⁶⁵⁹⁾.

ولا بد هنا من الإشارة إلى شناعة الفعل وعظم الإثم للذين يخالفون أمر رسول الله ﷺ ووصيته نحو الخدم والعمال وكل من يعملون تحت أيديهم، فلا يعطونهم أجورهم، أو يتأخرون فيها أو ينقصون منها، أو يبخلون عليهم بالطعام أو يسكنونهم في أماكن لا تليق بالإنسان الذي كرمه الله، يقول عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته»⁽⁶⁶⁰⁾.

6- الإنفاق في الزكاة: فالزكاة هي فريضة مالية فرضها الله تعالى للفقراء في أموال الأغنياء، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي ليست إحساناً أو منّة يتفضل بها المؤمن على أخيه المحتاج، وقد كثرت الأدلة من الكتاب والسنة على هذه الفريضة، يقول تبارك وتعالى: ﴿كَفَىٰ بَكْشٍ بَخِشًا

⁽⁶⁵⁷⁾ أخرجه مسلم (ص403، رقم 994) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال.

⁽⁶⁵⁸⁾ أخرجه البخاري (ص238، رقم 1467) كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر. ومسلم (ص405، رقم 1001) كتاب الزكاة. باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين.

⁽⁶⁵⁹⁾ أخرجه مسلم (ص403، رقم 996) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوكة وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم.

⁽⁶⁶⁰⁾ سورة النور، الآية 56.

ويقول عليه الصلاة والسلام في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب».

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» (664).

7- ويلحق بالزكاة زكاة الفطر من حيث الوجوب، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة»⁽⁶⁶⁶⁾.

الثاني: الإنفاق المستحب:

وهو الإنفاق في أوجه البرّ المختلفة، ولا يمكن حصرها، لأنها تتعدد بحسب حوائج الناس وافتقارهم إليها، ومن أهم وجوه الخير التي يمكن أن

666) سورة التوبة، الآية 18.

ينفق الإنسان فيها:

1- بناء المساجد التي يجتمع فيها المسلمون في اليوم والليلة خمس مرات على الأقل، وتقام فيها صلاة الجماعة، ويقرأ فيها القرآن، وتقام فيها الخطب والمحاضرات والندوات العلمية، ويلحق الإنفاق ببناء المساجد الإنفاق على القائمين عليها من الأئمة والمؤذنين والإداريين، وحسب المعمر لبيوت الله قوله تعالى: {كَمْ كُنَّا نَدُورُ رِحْلَةَ الْهُنْدِ أَلْهَىٰ ذَٰلِكُمْ إِلَى اللَّهِ بِيَوْمٍ هَٰذَا تَلْعَبُوا} (667)، **قوله صلى الله عليه وسلم:** «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة» (668).

2- الإنفاق على كتاب الله تعالى: وذلك بطباعته ونشره في العالم، كما هي حال مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، فقد وصل كتاب الله تعالى عبر هذا المجمع إلى أصقاع المعمورة، ومن وجوه الإنفاق على كتاب الله أيضاً إنشاء المعاهد والمدارس الخاصة لحفظ القرآن وتفسيره وعلومه، وكذلك الإنفاق على القائمين عليها وعلى كل ما يخدم هذا الكتاب، يقول عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽⁶⁶⁹⁾.

3- طباعة الكتب النافعة:

وهذا باب مستحدث من أبواب الإنفاق في سبيل الله، وذلك حين يبادر المؤمن المقتدر ماليًا على طباعة الكتب العلمية المختلفة التي ترجع بالفائدة على المؤمن في الدنيا والآخرة، سواء كانت في العلوم التطبيقية كالفيزياء والطب والرياضيات وغيرها، أو في العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه وعلوم القرآن والتفسير والسيرة، وذلك من نفقته الخاصة، للأفراد أو للمؤسسات العلمية والتعليمية، لأن كثيرًا ممن لديهم الإمكانيات العلمية والدعوية لا يستطيعون القيام بمصاريف الطباعة والنشر لمؤلفاتهم ومصنفاتهم، ويعدّ هذا الفعل من الأعمال الصالحة التي تقرب صاحبها إلى الله تعالى، لأنه ساهم في نشر العلم والمعرفة بين الناس، الأمر الذي يعرفهم بالله تعالى، وبحقائق الكون وما فيه من الآيات والنعم، والاستفادة منها للنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

3- الهدايا والهبات: فقد حثّ الرسول ﷺ على الهدايا والعطايا بين

⁶⁶⁷ (١) أخرجه البخاري (ص78، رقم 450) كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدًا. ومسلم (ص216، رقم 533) كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد.

٦٦٨) أخرجه البخاري (ص ٩٠١، رقم ٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

⁶⁶⁹() انظر: صحيح البخاري (ص416، رقم 2577) كتاب الهبة، باب من قبل الهدية.

المؤمنين، لأنها نوع من أنواع الإنفاق الذي يؤلف بين قلوبهم، ويغرس في نفوسهم الحب والرحمة نحو بعضهم البعض، كما ينزع منها البغض والشحناء، فضلاً عما ينال صاحب الهدية من جزاء ومثوبة عند الله، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يحب الهدية ويقبلها ويثيب عليها⁽⁶⁷⁰⁾.

4- رعاية الأيام والأرامل، والوقوف على شؤونهم ومراقبة حوائجهم والعمل على قضائهم، لأنهم فقدوا معيلهم وهم ضعفاء لا يقدرّون على العمل والكسب، لذا حثّ الشرع على رعايتهم والإنفاق عليهم، وقد أعدّ الله تعالى على ذلك أجراً عظيماً، للحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» ثم يقول أبو هريرة: وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر»⁽⁶⁷¹⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار إلى السبابة والوسطى»⁽⁶⁷²⁾.

5- القرض الحسن: وهو إعطاء المؤمن بعض ماله لأخيه المؤمن على سبيل القرض الحسن، ليقضي بها حاجته، على أن يردّها إليه في الأجل المتفق عليه، وقد حثّ الإسلام على هذا الفعل وعده من الإنفاق الذي يثاب عليه صاحبها، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِي بِدِينٍ لَّيْسَ بِدِينِ النَّاسِ أَنتَ تَتَدَوَّلُونَ﴾⁽⁶⁷³⁾.

6- رعاية أهل العلم وطلبة العلم والإنفاق عليهم: إن الإنفاق على العلم الشرعي وطلبته من الأعمال الصالحة التي يؤجر عليها صاحبها، وذلك بدعم مراكز التعليم والإنفاق على مرافقها وأدواتها التعليمية، وكذلك القائمين عليها من المشرفين وأهل العلم، وكذلك الإنفاق على طلبة العلم الذين هم أحوج الناس إلى المساعدة والإنفاق، لأن كثيراً منهم يقطعون المسافات البعيدة، ويصرفون ما لديهم من مال من أجل الوصول إلى البلد الذي يتعلمون فيه، فيكون حاجتهم ماسة إلى السكن والمأكل والملبس وكذلك لوازم التعليم من القراطيس والكتب وغيرها، وكل ذلك لا يتوفر إلا بالدعم المالي لهم.

⁽⁶⁷⁰⁾ أخرجه البخاري (ص956، رقم 5353) كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل. ومسلم (ص1290، رقم 2982) كتاب الزهد، باب فضل الإحسان إلى الأرملة.

⁽⁶⁷¹⁾ أخرجه البخاري (ص912، رقم 5104) كتاب النكاح، باب شهادة المرضعة.

⁽⁶⁷²⁾ سورة البقرة، الآية 245.

⁽⁶⁷³⁾ سورة المائدة، الآية 32.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»⁽⁶⁷⁵⁾.

8- سداد الديون عن المدنيين المعسرين، لا سيما الذين أودعوا السجن، فإن قضاء الدين عنهم وإخراجهم من ظلمات السجن وإرجاعهم إلى أهلهم وأولادهم من أكبر الأعمال والقربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (676).

* * *

1- إخلاص النية لله تعالى:

انطلاقاً من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»⁽⁶⁷⁷⁾، فإن إخلاص النية شرط شرعي لأي عمل صالح، فلا يكون الإنفاق على الناس والوقوف على قضاء حوائجهم من باب الشهرة أو الرياء، أو من أجل تحقيق أهداف دنيوية أخرى، بل يجب أن يكون هذا العمل خالصاً لله تعالى، وتطبيقاً وامتنالاً لأمره جل وعلا بالإنفاق في وجوه البر المختلفة، وهذه الخطوة الأولى في صحة الإنفاق وقبوله، لقوله تعالى: {أَبْذُرْ بِذِرْبٍ بِذِرْبٍ يَذْرُؤُا ذُرًّا تُرْكِيكُمُهَا تَعْلَى} (٦٧٨)، وقوله تعالى: {يَذَرُونَ ذُرًّا زُرَّةً كَكَاكَ

٦٧٤ () أخرجه مسلم (ص ١١٧٢، رقم ٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الإجماع على قراءة القرآن.

675 () المصدر السابق.

676 } سبق تخريجه.

677) سورة البقرة، الآية 265.

678) سورة البقرة، الآية 272.

گ گ گ گ گ گ گ { (679) .

بخلاف الذين يفعلون ذلك لمآرب أخرى من أجل الرياء أو الشهرة أو تحقيق مصالح وأهداف ذاتية وغيرها، فإن عملهم لا وزن له عند الله، بل ينقل عليهم عبئا ووزرا، يقول الله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَدِينُونَ دِينًا لَهُمْ ثُمَّ يُؤْمِنُوا بِالْأَفْئِثَةِ ثُمَّ لَا يَكُونُ أَمْراً عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِّنْهُم بِمَا هُمْ فَاكِهُنَّ} (٦٨٠).

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة ثلاثة» ومنهم: «رجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد، فقد قيل، فسحب على وجهه، ثم ألقى في النار»⁽⁶⁸¹⁾.

2- أن يكون المال المنفق حلالاً، فلا يكون مكتسباً حراماً، كالربا والغش والسرقة وغيرها، بل يجب أن يكون طيباً وبالطرق المباحة التي أباحها الشرع، وهي كثيرة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله طيب لا يحب إلا طيباً»⁽⁶⁸²⁾.

3- الإسرار في عملية الإنفاق، حفاظًا على كرامة الفقير والمحتاج، ودرءًا للرياء، وتربية للنفس، امتثالًا لقوله تعالى: {تَتَذَكَّرُ أَلَّا تُكُونَ مِنَ الْوَاسِقِينَ} (683).

كما يقول النبي ﷺ عن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تدرك شماله ما تنفق يمينه».

[illegible]

⁶⁷⁹() سورة البقرة، الآية 264.

⁶⁸⁰ أخرجه مسلم (ص852، رقم 1905) كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة.

⁶⁸¹) أخرجه مسلم (ص409، رقم 1015) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب.

682) سورة البقرة، الآية 271.

683 ﴿سورة آل عمران، الآية 92.﴾

684) سورة البقرة، الآية 267.

685) سورة آل عمران، الآية 2

عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: {أَبْ بَ بَ بَ بَ بَ بَ بَ} (686)، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك: {أَبْ بَ بَ بَ بَ بَ بَ} وإن أحب مالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه (687).

5- تجنب المنّ والأذى في الإنفاق، لأن التصديق مع المنّ والأذى دلالة على الامتناع من أمر الله، لأنه ينفق باستعلاء واستكبار دون أن يرجع فضل النعمة إلى الله تعالى الذي أمره بالسخاء في العطاء، كما أن في المنّ إذلال وإهانة للمسكين، وقد نهى تعالى عن ذلك فقال: {لَا تَكُونُوا مِّنْ الْمُؤْمِنِينَ} (688)، وقال أيضاً: {وَلَا تَكُونُوا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (689).

6- الاعتدال في الإنفاق: إن من أهم مبادئ هذا الدين هو الاعتدال في الأمور كلها، فلا إفراط ولا تفريط، وكذلك الحال بالنسبة إلى الإنفاق، فإن الاعتدال فيه يجعل الحياة متوازنة، ويصل الخير والمنفعة إلى الجميع، بخلاف إذا كان هناك إفراط في النفقة أو التقثير فيها، فإن الحاليتين لا تخلوان من السلبيات المختلفة على المنفق والمنفق عليه، بحيث لا يصبح هذا الإنفاق إسرافاً، ولا يمسك عنه حتى يصبح بخلًا وشحاً، وقد أمر الله بالإنفاق المعتدل وأثنى على أصحابه فقال: {مَنْ يُؤْتِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} (690).

* * *

(686) أخرجه البخاري (ص236، رقم 1461) كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب. ومسلم (ص404، رقم 998) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوجة والأولاد ولو كانوا مشركين.

(687) سورة البقرة، الآية 263.

(688) سورة البقرة، الآية 264.

(689) سورة الفرقان، الآية 67.

(690) سورة الليل، الآيات 5-7.

آثار الإنفاق على النفس والمجتمع:

أولاً- الإنفاق سبب لدخول الجنة والنجاة من النار:

إن المنفق والمتصدق حين يعطف على إخوانه ويمد إليهم يد العون بالمال، فيشتري لهم، ويطعمهم، ويكسوهم، ويداوي مرضاهم، ويسدد ديونهم، إنما هي أعمال صالحة ثابتة تسجل له، وتصبح سبباً لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عَمَّا صَفَوْا ۖ وَهُمْ فِي الْجَنَّةِ حَدِّقِينَ فِي الْأشْجَارِ عِندَ مَوْجِئِ الْمَعَارِجِ ۖ وَهُمْ فِيهَا مُقَدَّمُونَ﴾ (691).

والإنفاق الخالص لله تعالى حجاب لصاحبه من النار، فَرُبَّ صدقة صغيرة في الدنيا تكون سبباً لدفع العذاب، كما يقول عليه الصلاة والسلام: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»⁽⁶⁹²⁾.

لذا حرص النبي ﷺ على هذا العمل الصالح وحث الأمة عليه، ولم يحدد له حجماً أو نصاباً، وإنما جعل الأمر مفتوحاً ليشارك فيه معظم الناس، حتى وإن كان شق ثمرة، قال عليه الصلاة والسلام: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (693).

ثانيًا – الإنفاق يضاعف الأجر ويزيد الحسنات:

يضاعف الله للمنق في سبيله جل وعلا الأجر ويزيد من حسناته ما يشاء، لقوله تعالى: {چ چ چ چ د د ذ ذ ژ ژ ر ر ک ک گ گ} (694).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» (695).

ثالثاً- الإنفاق يطهر النفس:

كما أن الإنفاق يطهر المال ويزكيه، فإنه في الوقت نفسه يطهر النفس وتغسلها من الأمراض الكثيرة، كالحسد والشح والأنانية وغيرها، فحين يخرج المنفق من ماله حق المساكين والمحتاجين فإنه يتحرر بهذا العمل من حب المال وسطوته في النفس، وبذلك تتطهر النفس وتعلو فوق المال

691) أخرجه البخاري (ص232، رقم 1435) كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة.

692) سبق تخريجه.

693 سورة البقرة، الآية 261.

694 } أخرجه البخاري (ص 227، رقم 1410) كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب. ومسلم

(ص 408، رقم 1014) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب.

695) سورة التوبة، الآية 103.

والدنيا، يقول الله تعالى: {كَيْفَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ مَوْلَاهُمْ وَنَسُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَيْفَ يَكْفُرُونَ} (696).
كما تتطهر في الطرف الآخر نفس المنفق عليه، ويتحرر من أغلال الحقد والضغينة حين يرى أخاه المنفق يمدّه بالعون والمساعدة، ويحل مشكلاته المادية وأزماته الاقتصادية، لأن القلوب مجبولة على حب من تحسن إليها.

رابعاً: الزكاة والإنفاق شكر الله عز وجل:

إذا أغدق الله تعالى على عبده بالنعمة، ويسر عليه مسؤوليات الحياة، وساق إليه الأرزاق من كل جانب، فإن من الواجب شكر هذه النعمة، وذلك بالحفاظ على المال وعدم الإسراف فيه وإنفاقه في وجوه الخير المختلفة، بالزكاة أو الصدقة أو التبرع لجهات خيرية أو الوقف على مصالح المسلمين، وهذا جزء من شكر النعمة التي خصه الله بها، وقد توعّد الله على ذلك بالزيادة والبركة، كما توعّد على كفر النعمة وابتذالها وحرمان الناس منها بالعذاب والعقاب فقال: {قَدْ قَدْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ} (697).

فالمال عزيز على النفس، فإذا أخرجته صاحبه طاعة لله كان ذلك شكراً لله له جلّ وعلا، وقد كان عليه الصلاة والسلام قدوة في العطاء والإنفاق، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها (698).

وقد ضرب الله أمثلة وأورد قصصاً على المنفق الذي يشكره جلّ وعلا على نعمه وآلائه، والممسك الذي يكفر نعمة الله عليه ويرجع الأمر إلى نفسه.

فالمثال الأول: قصة نبي الله سليمان عليه السلام، حيث أنعم الله عليه بالمال والملك، وسخر له الريح والجنان، ومخاطبة الطيور والدواب، فقابل ذلك بشكر الله تعالى والثناء عليه وطاعته والإنفاق في سبيله، قال تعالى: {لَقَدْ نَعَّمْنَا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ} (699).

(696) سورة إبراهيم، الآية 7.
(697) أخرجه مسلم (ص1021، رقم 2312) كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ عليه وسلم شيئاً

قط فقال: لا.
(698) سورة سبأ، الآيتان 12-13.

وَيُيَـٰدِدُ ذَا النُّنُورِ نُوْرُوْهُ نُوْرُوْهُ نُوْرُوْهُ }⁽⁶⁹⁹⁾.

المثال الثاني: قصة قارون، الذي آتاه الله من المال والذهب ما لم يأتيه أحدًا في عصره، فقابل هذه النعمة بالتجبر والتكبر على الله وعلى عباده، وقال إنما جمعت هذا المال بعلمي وعملي، فأخزاه الله تعالى وخسف به وبداره الأرض جزاء لهذا التصور والسلوك، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ لَهُنَّ مَالٌ وَلَا خَالٌ لَهُ وَلَا جَارٌ لَهُ فَيُتَخَذَ مَثَلًا لَّكَ أَفْهَمُ يَبْدُؤُا بِاللَّهِ الْمَتَكِبِ إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ أَعْيُنَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَإِنَّمَا فِي أَعْيُنِهِمْ هَجْرًا شَدِيدًا لَّئِيْلَ مَا يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة القصص: 26-28)

خامسًا: الإنفاق ينمي المال، ويزيده:

كما يضاعف الإنفاق من الحسنات ويزيد من الأجر والثواب فإنه في الوقت نفسه ينمي المال ويزيده، لقوله تبارك وتعالى: {ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ} (701).

وأخبر الله تعالى أن ما ينفق في سبيله من مال أو متاع أو أعيان، فإنه يعوّضه ويزيده أضعافا دون أن يتقص ذلك من ملكه شيء، قال تعالى: {ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ ثُمَّ ثَوُّوا ثَمْرَهُمْ} (702).

بل إن الملائكة الكرام تدعو للمنقذ كل صباح وأن يبارك له في رزقه ويخلفه أفضل مما أنفق، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا» (703).

⁶⁹⁹() سورة القصص، الآيات 76-84.

700 } سورة فاطر، الآيتان 29-30.

701 ﴿سورة سبأ، الآية 39﴾

702 (أخرجه البخاري (ص233، رقم 1442) كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (هههه). ومسلم (ص408، رقم 1010) كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

⁷⁰³ (أخرجه مسلم (ص1131، رقم2588) كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع.

فلا يخش أحد على ماله إذا أخرج منه زكاته، أو تصدق ببعضه على إخوانه الضعفاء، ولا يخش الفقر أو الحاجة أبداً، لأن الرسول ﷺ بشره بنماء هذا المال وزيادته، يقول عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال، بل تزد به بل تزد»⁽⁷⁰⁴⁾. وربما تكون هذه الزيادة أحياناً بوضع البركة في المال، بحيث يكفي المال القليل لقضاء حوائج كثيرة، وهي حقيقة يلمسها الجميع في واقع الناس.

كما جاء في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «بيننا رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان. ففتح ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فنتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته. فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبدالله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك. فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأصدق بثلثه، وأكل أنا وعتالي ثلثاً، وأردّ فيها ثلثه» (705).

وكما توعدّ الله تعالى بزيادة المال وتنميته لصاحبه إذا أنفق في وجوه الخير، فإنه تعالى توعدّ الذين يتعاملون مع هذا المال بالحرام في الكسب والإنفاق بالمحق والزوال، فقال: {تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ تَذُدُّ} (706).

سادسًا: الإنفاق يجلب محبة الله ومحبة رسوله ﷺ :

لأن المنفق استخلف على مال الله في الأرض فقام بواجب الإنفاق بالصورة التي يريدّها الله وفي الأوجه التي ذكرها الله، فكان ذلك من أسباب محبته جل وعلا له، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُ ثُ ثُ ثُ ثُ ثُ ثُ﴾ {707}.

⁷⁰⁴ () أخرجه مسلم (ص1291، رقم 2984) كتاب الزهد، باب فضل الإنفاق على المساكين وابن السبيل.

⁷⁰⁵() سورة البقرة، الآية 276.

706 ﴿سورة آل عمران، الآية 134.﴾

707) أخرجه البخاري (ص402، رقم 2486) كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض. ومسلم (ص1100، رقم 2500) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الأشعريين.

وقد بيّن عليه الصلاة والسلام هذا الأمر حين تكلم عن الأشعريين في الحديث الذي رواه أبو موسى رضي الله عنه فقال: «إن الأشعريين إذا أرمّلوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»⁽⁷⁰⁸⁾.

وهي عبارة صريحة وواضحة على محبة النبي ﷺ لهم، ومن شدة حبه عليه الصلاة والسلام لفعلهم وإعجابه بهم، جعلهم من أتباعه وأهل سنته، كما جعل نفسه واحدًا منهم.

سابعًا: الإنفاق مداواة للمرضى:

وإن من أسرار الإنفاق في سبيل الله أيضًا أنه دواء لكثير من الأمراض وسبب للشفاء والمعافة منها، وقد ذكر عليه الصلاة والسلام ذلك وحث الأمة عليه فقال: «حصّنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة»⁽⁷⁰⁹⁾.

ووجود هذه الوصفة في الإنفاق يدفع الناس إلى الإكثار من النفقات والإقبال على الصدقات والتبرعات، فتتحقق بذلك مصلحتان، الأولى سد حاجات الناس والإقلال من مظاهر الفقر والعوز، والأخرى قلة الأمراض والأوبئة في المجتمع وسلامته من البلاء والكوارث.

وتأتي علة الشفاء في الإنفاق والصدقة أحيانًا من دعاء الضعفاء والمساكين للمحسن إليهم، بأن يقضي الله حاجتهم ويشفي مريضهم ويفرج كربهم وغيره من الدعاء، فيستجيب الله لهم فيشفى المرضى وتدفع البلاء والنقم.

والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة، فكم من المرضى وأصحاب البلاء تعافوا من ابتلائهم بفضل الإنفاق والصدقة، بعد أن عجز الأطباء عن فعل شيء لهم، أو التخفيف من وطأة المرض عليهم، فلجأوا إلى الصدقة والنفقة بإخلاص، فشفاهم الله وأذهب ما بهم من البلاء.

ثامنًا: الإنفاق يحدّ من الجريمة:

إن من أهم أسباب الجريمة في أي مجتمع هو العوز المالي والفقر والحاجة التي تؤدي في النهاية إلى تراكم الأحقاد والضغائن في نفوس الفقراء على أصحاب الأموال، الأمر الذي يدفعهم إلى الجرائم المختلفة

⁽⁷⁰⁸⁾ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (3/382، رقم 6832). وهو حسن لغيره.
⁽⁷⁰⁹⁾ سورة البقرة، الآية 274.

كالقتل أو السرقة أو السطو، وبالتالي يفقد المجتمع أمنه واستقراره.

وبما أن هذه الأسباب تنتفي في المجتمع المنفق، فإن عوامل حدوث الجرائم وظهورها تكون غير موجودة أو نادرة، فینعم الناس بالأمن والاستقرار داخل هذا المجتمع، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم من الجرائم والسرقات، يقول الله تعالى: {وَوُثِّقُوا وُثْقًا ثَمِينًا} (٧١٠).

هذا وتظهر أحياناً الجرائم الأخلاقية نتيجة العوز المالي والفاقة، كما هي الحال في جريمة الزنا، لأن كثيراً من الشباب لا يجدون نفقات الزواج وتكاليفه، ولا يجدون من يعينهم عليها فيلجأون إلى الزنا ويقعون في الجرائم الأخلاقية.

أما المجتمع المنفق الذي يقوم على أساس التكافل الاجتماعي يقل فيه مثل هذه الجرائم لانتهاء أسبابه، لأن الناس في ظل الزكاة والصدقات والإعانات الأخرى يتمكنون من الزواج الشرعي الذي يحصّنهم من الانحراف والفساد.

تاسعًا: المجتمع المنفق خال من الحسد والبغضاء:

كما تنزكي نفس المنفق في سبيل الله، وتنتهر أمواله بذلك، فإن نفوس سائر أبناء المجتمع تصفى وتنتهر من الحسد والضغائن في ظل عملية الإنفاق التي يعم خيرها الجميع، لأن القوي يرحم الضعيف، والغني يعطف على المسكين والفقير، والميسر ينفق على المعسر ويسد حوائجه، فلا يبقى سبب لظهور الحسد أو البغضاء بين أفراد المجتمع، بل إن هذا الجو التكافلي يولد فيهم الحسد المحمود الذي استثناه الرسول ﷺ وميَّزه عن الحسد المذموم فقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أعطاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»⁽⁷¹¹⁾

فكل واحد من أبناء هذا المجتمع يريد أن يكون لديه من الأموال والأموال لينفقها في وجوه الخير وقضاء حوائج الناس، ولا شك أن هذا

⁷¹⁰ () أخرجه البخاري (ص17، رقم 73) كتاب العلم، باب الاغتراب في العلم والحكمة. ومسلم (ص328، رقم 815) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

⁷¹¹ () سورة البقرة، الآية 268.

التصور الإيجابي يدل على سلامة النفس من الكراهية والحقْد نحو الآخرين.

عاشراً: الإنفاق يحدّ من الفقر:

إذا كان الناس قائمين على أمر الله تعالى في إخراج حب المال من النفوس والقيام بأداء فريضة الزكاة، والإكثار من الصدقات وتفريج الكربات المالية عن إخوانهم، لكانت حال المجتمع المسلم على أفضل حال، لأن ذلك يقضي على أهم أسباب المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.

وحين يقصّر المؤمن في هذا الجانب ويهمل هذه الفريضة، ويتهرب منها عن طريق التحايل والخداع، فإن وباء الفقر يستشري في المجتمع ويأكل منه كل جانب، وهذه حال معظم المجتمعات المسلمة اليوم، فحين يُنظر إلى تلك الأرصدّة الضخمة والأرقام الخيالية لبعض الأفراد، يطرح السؤال نفسه، أين تذهب زكواتها؟!، التي يمكن أن تساهم في بناء الأمة وتقوية أركانها وحلّ جميع المشكلات الناجمة عن العوز المالي، من بناء المؤسسات العلمية، ودعم التعليم وطلبة العلم، وتشغيل أبناء الأمة وإيجاد الوظائف والأعمال المناسبة لهم، وتزويج الشباب، وتأمين السكنى لمن لا يملكونها، وغيرها من الأعمال الخيرية التي تساهم في إغناء الناس ومنعهم من السؤال واتباع طرق الضلال والفساد.

وهذا التقصير والإهمال واللامبالاة يرجع لضعف الإيمان أحياناً، ثم لبعض الوسوس الشيطانية التي تتحكم في النفس وتمنعها من الخير، كالخوف من المستقبل المجهول، أو الخوف من الوقوع في دوامة الفقر، أو التنافس الخبيث بين أصحاب رؤوس الأموال واستعلاء بعضهم على بعض، وكلها مما يزيّن الشيطان في النفس، مع العلم أن الله تعالى تكفل لعباده بالرزق، ووعد المنفق بالزيادة والبركة، يقول تبارك وتعالى: ﴿كَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ وَكَؤُوفٌ﴾ (712).

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول لبلال رضي الله عنه: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا» (713).

فكيف يخاف الفقر من ينفق في سبيل الله، والمال وصاحبه والكون كله ملك لله تعالى؟

(712) أخرجه الطبراني في الكبير (1/440، رقم 1013)، وفي الأوسط (6/127، رقم 2671). وهو حديث صحيح.

(713) تاريخ الخلفاء، ص 188.

إن التصور الصحيح عن حقيقة المال ودوره في الحياة، والقيام بواجب الإنفاق في الوجوه الخيرية وبالسبل المشروعة، كفيل بأن يقضي على الفقر وإفرازاته السلبية، ويشهد التاريخ لهذه الحقيقة في العصور الإسلامية الزاهية، وأجلى هذه الصور تحققت في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، حيث يقول عمر بن أسيد رحمه الله: «والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح بماله كله، قد أغنى عمر الناس»⁽⁷¹⁴⁾.

حادي عشر: الإنفاق سبب لتطور المجتمع وتقدمه ونمائه:

لا يمكن لأي مجتمع يعاني من الفقر والفاقة أن يخطو إلى الأمام خطوات جادة، أو يواكب الحضارة وينافس الآخرين في ميادين الحياة المختلفة، لأن اهتمام الناس وتوجههم ينحصر دائماً في السعي وراء الرزق وتأمين حوائج الحياة الضرورية، بخلاف المجتمع المتكافل اجتماعياً واقتصادياً، الذي يكثر فيه الإنفاق ويتنافس أبناؤه على الصدقات والتبرعات، فهذا المجتمع لديه مقومات النمو والتطور، لأنه يستند إلى أسس متينة وأركان شديدة من التعاون والرحمة والإيثار، كما أن الجانب المالي والسعي وراء الرزق لا يأخذ من وقته الكثير، وحينها يستطيع أفراد استغلال أوقاتهم في معالي الأمور، كالتحصيل العلمي والمعرفي، وتنمية المهارات، والإبداع في عمله وتخصصه، وغيرها من الأمور التي من شأنها دفع عجلة الحياة إلى الأمام.

وقد ضرب المجتمع الإسلامي الأول أروع الأمثلة في الإنفاق والعطاء وبذل الأموال في سبيل الله، وتحقق التكافل الاجتماعي في أسمى صورته في ذلك الجيل الخير، وأنزل الله فيهم آيات، فقال عنهم جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُم بُيُوتَكُمْ وَمَا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفَرْقَ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْوَسْطَىٰ وَالْأَعْيُنَ وَمَا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفَرْقَ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ أَلَّا تُؤْكُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِن جَعَلْنَا لَكُمُ الْفَرْقَ فِي الْأَنْفُسِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽⁷¹⁵⁾.

فهذه التربية الربانية لهذا الجيل جعلتهم خير الناس، وجعلت عصرهم خير العصور، لأنهم ترجموا كلام الله تعالى وأمره إلى واقع وعمل، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني مجهود. فأرسل إلي بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل

⁽⁷¹⁴⁾ سورة الحشر، الآية 9.

⁽⁷¹⁵⁾ أخرجه مسلم (ص 917، رقم 2054) كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف.

ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي ﷺ: «من يضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. وفي رواية قال لامرأته هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: عليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنومهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل. ففعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة» (716).

لقد أخرج الله من قلوب الصحابة حب المال والانهماك بجمعه وكنزه، فعرفوا أن الأصل في المال هو الانتفاع به فحسب، لذا كان يرى الكثيرون منهم رضي الله عنهم أن زيادة المال وفضله عبء ووبال عليهم، يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً. فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له». فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل (717).

* * *

وفي الختام:

فإن المال مال الله، وهو وسيلة من الوسائل الكثيرة في الحياة التي تنظم شؤون الناس ومعاملاتهم وعلاقاتهم، وإن الإنسان مستخلف عن المال ومحاسب عليه يوم القيامة، حيث يُسأل عن مصدره وطرق كسبه، ثم يُسأل عن مصارفه ومواضعه التي صُرف فيها، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه» (718).

ومن هنا لا بد أن يراجع كل إنسان نفسه، وينظر فيما عنده من المال والمتاع، هل يقوم بالواجب المنوط به، أم أنه يجمع ويكنز ويبخل، فإن لكلا الحالتين عاقبة سيئول الجميع إليها، إما الأجر والثواب وإما العذاب والعقاب، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَأْوَاهُمْ فِيهَا يَرْتَمُونُ﴾ (719).

(716) أخرجه مسلم (ص767، رقم 1728) كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال.

(717) سبق تخريجه.

(718) سورة الليل، الآيات 5-10.

وَوُؤُؤُؤُ{⁽⁷¹⁹⁾ .

ويقول عليه الصلاة والسلام: «واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»⁽⁷²⁰⁾ .

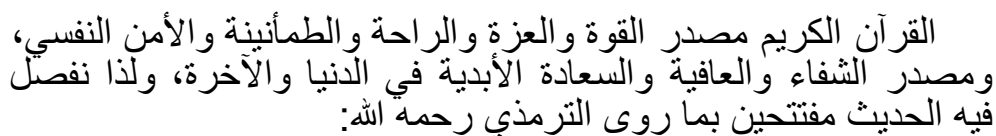
* * *

كما أن الإنفاق وقاية من الآفات النفسية كالحسد والحقد والضعينة، فحين ينفق العبد ويخرج من ماله الزكاة والصدقة، تنزل عليه السكينة والطمأنينة، وتتعافى من حب الدنيا والحسد فيها والحقد على الناس.



⁽⁷¹⁹⁾ أخرجه مسلم (ص1129، رقم 2578) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

⁽⁷²⁰⁾ أخرجه مسلم (ص1173، رقم 2699) كتاب العلم، باب الاجتماع على تلاوة القرآن.



عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ونكروهم الله فيمن عنده» (721).

تعريف القرآن الكريم:

في اللغة:

القرآن: في الأصل للفعل قَرَأَ يُقَالُ قَرَأْتُ الكتابَ قراءةً ومنه قرآنًا، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وسُمِّي القرآن لأنه جَمَعَ الْقَصَصَ والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وقد يطلق القرآن على الصلاة من باب تسمية الكل بالبعض⁽⁷²²⁾.

في الاصطلاح:

«القرآن العظيم هو كتاب الله المبين وحبله المتين وصراطه المستقيم وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود»⁽⁷²³⁾.

موضوعات القرآن الكريم:

إن الأصل في موضوعات القرآن الكريم أنه كتاب هداية، وهو النبراس الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور لقوله تعالى: ﴿تَتَذَرُكَ تَذَرُكَ تَذَرُكَ﴾ (724).

ويمكن إجمال موضوعاته في النقاط الآتية:

1- العقيدة:

حيث يتناول القرآن الكريم التصور الصحيح عن الله تعالى، ويؤكد واحداً من الألوهية والربوبية وفي الأسماء والصفات، وأنه تعالى منزّه عما لا يليق بجلاله من أنواع الشرك المختلفة، وقد عالج القرآن الكريم هذه القضية ثلاث عشرة سنة في مكة

⁷²¹() لسان العرب، مادة «قَرَأَ»، 79 / 11.

722} لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي مع شرح الشيخ ابن عثيمين ص 77.

723 سورة إبراهيم، الآية 1.

724 سورة البقرة، الآية 163.

ولا نبالغ إذا قلنا أن جميع آيات القرآن الكريم تدل على توضيح العقيدة الصحيحة، إما مباشرة أو بالتضمن.

ووردت آيات كثيرة أخرى حول العبادات المفروضة، مثل قوله تعالى في الصلاة: ﴿وَوُضِئَ يُبْدِ بِدِ﴾ (730).

وقوله تعالى في الصيام: {تَذَاتُّ طُطُّفُ فُفُّفُ قُ} ⁽⁷³²⁾.

3- المعاملات:

⁷²⁵() سورة النساء، الآية 36.

726 سورة الإخلاص.

727) سورة البقرة، الآية 21.

728 ﴿سورة الذاريات، الآيتان 56-57.﴾

729) سورة العنكبوت، الآية 45.

730 سورة التوبة، الآية 103.

731) سورة البقرة، الآية 183.

732() سورة البقرة، الآية 197.

733() سورة البقرة، الآية 282.

734() سورة البقرة، الاية 179.

وَوَلَوْ {735}، وقوله جل ثناؤه: {يُؤَيِّدُ بَعْضُهُمْ أَمْرًا بِبَعْضٍ} {736}.

4- الأخلاق:

وهي الخصال النفسية التي تتوافق مع الفطرة الإنسانية السليمة، حيث تضبط حركة الإنسان وتقومها في أفعاله وأقواله، فقد حرّم القرآن الكريم كل ما يتنافى مع الفطرة البشرية وتنبذها القيم الإنسانية الرفيعة كالزنا مثلاً، حيث يقول تبارك وتعالى: {زُرُّوا كَذِبًا} {737}، لما لها من آثار اجتماعية وخيمة على حياة الناس.

وسورة الحجرات من السور الكريمة التي تشتمل على مجموعة كبيرة من الآداب المهمة مع الله ورسوله ﷺ ومع المؤمنين، مثل احترام المؤمن لأخيه المؤمن في التخاطب والتعامل وعدم الإساءة إليه بأي شكل أو صورة تجرح مشاعره وكرامته، يقول تبارك وتعالى: {لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَآلَهُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ فِي بِلْدَانٍ مَنُورَةٍ} {738}.

5- القصص:

ويدخل فيه أخبار الأمم السابقة وأحوالهم والدروس والعبر المستقاة منها، لا سيما أخبار الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والأحداث التي كانت تحل بهم أثناء الدعوة إلى الله، وموقف المعاندين والمتكبرين منها، يقول تبارك وتعالى: {جَاءَ جَدُّوهُمْ أَهْلَ الْكَهْفِ وَذِي الْقُرْنَيْنِ وَالْخَضِرَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِتَأْخُذَ مِنْهَا الْأُمَّةُ دُرُوسًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ عَلَى مَخَاطَرِهَا وَخُطُوبِهَا، كَمَا كَانَتْ حَالُ سُلُفِهِمُ الصَّالِحِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

6- الوعد والوعيد:

لقد اشتمل القرآن الكريم على تحديد الجزاء والمثوبة للمؤمنين الصادقين الذين يؤدون حقوق الله تعالى وحقوق عباده، ويسعون في الأرض لعمارتها ونشر الخير فيها، كما حدد في المقابل عقوبة المعرضين عن دين الله ويسعون في الأرض فساداً، يقول تبارك وتعالى: {ذُرُّوا كَذِبًا} {740}.

* * *

{735} سورة الأنفال، الآية 61.
 {736} سورة الإسراء، الآية 32.
 {737} سورة الحجرات، الآية 11.
 {738} سورة التوبة، الآية 70.
 {739} سورة الزلزلة، الأيتان 7-8.
 {740} أخرجه الترمذي (ص 654، رقم 2910) كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى.

فضائل القرآن الكريم:

يمكن بيان فضائل القرآن الكريم من خلال المعالم الآتية:

1- الأجر العظيم المترتب على تلاوته، لقول النبي ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»⁽⁷⁴¹⁾.

2- فضل قارئه ومتعلمه ومعلمه: لقول النبي ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽⁷⁴²⁾.

3- لأنه يستحق الغبطة، لقول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»⁽⁷⁴³⁾.

4- إن أهل القرآن هم أهل الله لقول النبي ﷺ: «إن لله أهلين من الناس قالوا يا رسول الله من هم قال هم أهل القرآن أهل الله وخاصته»⁽⁷⁴⁴⁾.

5- أنه يشفع لأصحابه، لقول النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»⁽⁷⁴⁵⁾.

6- أن قارئه صاحب رفعة، لقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»⁽⁷⁴⁶⁾.

7- حافظه وقارئه مع السفارة الكرام البررة، لقول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»⁽⁷⁴⁷⁾.

8- أن الله تعالى أقسم به فقال: {أب ب ب} ⁽⁷⁴⁸⁾.

9- فضلاً عن الآثار الإيجابية على شخصية القارئ ونفسيته، لقوله ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب والذي لا يقرأ القرآن كالتمرّة طعمها طيب ولا ریح لها ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلّة طعمها مر

⁽⁷⁴¹⁾ أخرجه البخاري (ص901، رقم 5027) كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

⁽⁷⁴²⁾ سبق تخريجه.

⁽⁷⁴³⁾ أخرجه ابن ماجه (ص32، رقم 215) كتاب الإيمان، باب فضل من تعلم القرآن. ورواه الحاكم في المستدرک (1/556، رقم 2046).

⁽⁷⁴⁴⁾ أخرجه مسلم (ص325، رقم 804) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن.

⁽⁷⁴⁵⁾ أخرجه الترمذي (ص655، رقم 2914).

⁽⁷⁴⁶⁾ أخرجه مسلم (ص323، رقم 1862) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن.

⁽⁷⁴⁷⁾ سورة ق، الآية: 1.

⁽⁷⁴⁸⁾ أخرجه البخاري (ص900، رقم 5020) كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام.

ولا ربح لها»⁽⁷⁴⁹⁾.

* * *

آداب التلاوة:

إن الغاية الأولى والأخيرة من تلاوة كتاب الله تعالى هو التدبر والتفكير في آياته لقوله تعالى: {ك ك ك ك ك ك ك ك} ⁽⁷⁵⁰⁾، ويلحق بهذا التدبر معرفة التشريع والعمل به، حتى يتم القبول والرضى من الله تعالى ويحصل الأجر والمثوبة.

وبما أن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي يخاطب به عباده ينبغي على قارئه ومرتلته أن يتحلى ببعض الآداب والأخلاق أثناء تلاوة آية الكريم، ومن أهم تلك الآداب:

1- الاستشعار بأنه كلام الله تعالى، الذي خلق الأكوان والكائنات، وأنه يخاطب بجلاله وكبريائه عباده ليتخذوه لهم منهجاً ودستوراً في الحياة، وهذه نعمة من الله ورحمة عليهم من الرحمن الرحيم، لأنه جل شأنه لم يتركهم بعد خلقهم، وإنما بيّن لهم النور والهداية من خلال هذا الكتاب المبين.

2- يستحب لمن يقرأ القرآن أن يكون حاضر القلب والفكر أثناء التلاوة، حتى يتلقاه عن دراية وعلم، فيعلم الحلال والحرام، والمأمور به والمنهي عنه، ليتمكن بعدها من تطبيق ذلك وترجمته على الواقع.

3- إخلاص النية عند تلاوة القرآن، فلا يتلو حتى يقال أنه صاحب صوت حسن أو مؤثر، وإنما يقرؤه للتعبد والعمل به، وقد اتخذ كثير من الناس قراءة القرآن حرفة أو مهنة فلا يتلونه إلا في الموالد والمآتم مقابل أجر أو منفعة، والرسول صلّى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات»⁽⁷⁵¹⁾.

4- أن يكون قارئه على طهارة، فلا يمسه ولا يقرؤه إلا وهو طاهر، لقوله تعالى: {يٰۤاَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عَظِيمًا} ⁽⁷⁵²⁾.

5- استقبال القبلة أثناء تلاوة القرآن الكريم.

6- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند البدء في القراءة ثم بالبسملة، لقوله تعالى: {بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِیْمِ} ⁽⁷⁵³⁾.

7- ترتيل القرآن بصوت حسن وتجویده، لقوله تعالى: {تِلْكَ ءَايٰتُ ٱلْكِتٰبِ ٱلْحَكِیْمِ} ⁽⁷⁵⁴⁾، وقوله

⁽⁷⁴⁹⁾ سورة محمد، الآية 24.
⁽⁷⁵⁰⁾ أخرجه البخاري (ص1، رقم 1) كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.
⁽⁷⁵¹⁾ سورة الواقعة، الآية 79.
⁽⁷⁵²⁾ سورة النحل، الآية 98.
⁽⁷⁵³⁾ سورة المزمل، الآية 4.
⁽⁷⁵⁴⁾ أخرجه البخاري (ص903، رقم 5048) كتاب الفضائل، باب الترجيع. ومسلم (ص321،

صلى الله عليه وسلم لأبي موسى رضي الله عنه: «لقد أوتيتَ زمزماً من مزامير آل داود» (755).
 أحسن صوته وترتيله للقرآن الكريم.
 8- التدبر في آيات القرآن والتوقف عند بعضها والتفاعل معها، ومحاولة إخراج الأحكام والعبير والفوائد منها إن أمكن، لأن هذا الكتاب فيه من الإعجاز والعلوم والمعارف التي لا تنتهي ولا تنقضي، يقول تبارك وتعالى: {ك ك ك ك ك ك ك} (756).

9- الخشوع والتأثر أثناء تلاوة القرآن، لأن ذلك يزيد من رقة القلب وحب العبادة والزهد في الدنيا، وقد كان هذا شأن الرسول صلی الله علیه وسلم، فعن عبدالله رضي الله عنه قال لي رسول الله صلی الله علیه وسلم: «اقرأ عليّ القرآن، قال: فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل! قال: إني أشتي أن أسمعه من غيري، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: {ثُمَّ لِيُذْكَّرْ فَذَرْهُمْ عَلَىٰ أَن يَأْتِيَوكَ يَتَخَفَتُونَ لَكَ فِي الْبُلُوكِ مَخَفَتِينَ} (757) رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل» (758).

الإعجاز في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم كلام **معجز** بلفظه وبلاغته، ومعجز بأحكامه وتشريعاته، ومعجز بعلومه ومعارفه، ومعجز بغيبياته وحقائقه المستقبلية، بل هو معجز بكل حرف وكل كلمة، والمقام يطول بالحديث عن جميع صور الإعجاز في هذا المصدر الرباني، ولكن هناك بعض الصور التي يتجلى فيها الإعجاز جلياً لكل الناس، والتي تدل على أن هذا المصدر هو من عند الله تعالى، وليس لأحد أن يأتي بشيء من مثله أبداً، ومن بعض هذه الصور ما يلي:

1- فصاحة القرآن وبلاغته وتأثيرها على النفس: حيث تميَّزَ هذا المصدر ببلاغة قوية في العبارات وفصاحة في الألفاظ وتناسق في المعاني، من غير ركافة في اللغة أو ضعف في الجمل، رغم كثرة آياته التي تزيد على ستة آلاف وستمئة آية، ورغم الامتداد الزمني الذي نزلت فيه هذه الآيات وهي ثلاثة وعشرون عاماً، وقد تحدَّى البشر جميعاً على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، يقول الله تعالى: {يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ جَمِيعًا طَرَفًا مِّنْهُ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (759).

ثم تحدّاهم على أن يأتوا بعشر سور مثله، يقول الله تعالى: {أب ب ب ب ب ب ب ب ب ب}

رقم 793) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن.

755 (سورة محمد، الآية 24).

756} سورة النساء، الآية 41.

757) أخرجه البخاري (ص5

(أ) أخرجه البخاري (ص905، رقم 4582) كتاب الفضائل، باب البكاء عند قراءة القرآن.

ومسلم (ص323، رقم 800) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة

من حافظ للاستماع.

38 سورة الإسراء، الآية 758

759() سورة هود، الايتان 13-14.

بل تحدّاهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، يقول تبارك شأنه: {ءَ كُ لْكَ دُو وَ
و} (761). ويقول في آية أخرى: {وَوَيْيَ بَدَنًا مَاءً مِ} (762).

وقد قال الوليد بن المغيرة في القرآن الكريم بعد أن رجع إلى كفار قريش من عند رسول الله ﷺ قولاً بليغاً فقال: «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته» (763).

وذلك مثل دخول المسلمين مكة بعد أن رجعوا منها، يقول الله تعالى: {يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَالْذِمَّةَ وَالْمَسْجِدَ وَالْذِمَّةَ} (765). وغيرها من الآيات.

3- الحديث عن أحوال الأمم السابقة، والإخبار عن كثير من أنبياء الله ورسله عليهم السلام وذكر أسمائهم، وأحداث دعواتهم مع أقوامهم والحوارات التي كانت تدور بينهم، وما آلت إليه حال تلك الأقوام حينما أعرضت عن رسل الله ورسالاته، كقوله تعالى عن نوح عليه السلام:

{رَبِّنا نُؤْمِنُ بِكَ نُؤْمِنُ بِكَ نُؤْمِنُ بِكَ نُؤْمِنُ بِكَ نُؤْمِنُ بِكَ نُؤْمِنُ بِكَ} {766}.

وقوله عن أصحاب الكهف:

{يَذْكُرُونَ مَا أَنتَ لَمْ تَذْكُرْ ذُرِّيَّتُكُمْ لَا شَرِكٌ لَهُمْ يُحْيِي بَنَاهُمْ فَاذْكُرُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ} {767}.

⁷⁶⁰() سورة يونس، الآية 38.

761 } سورة البقرة، الآية 23.

(762) أخرجه الحاكم وصححه (2/506، رقم 3872). والبيهقي في الدلائل (2/198).

763) سورة الروم، الآيات 1-5.

764 سورة الفتح، الآية 27.

765 } سورة العنكبوت، الآية 4

766 سورة الكهف، الأيتان 9-10

767 سورة المؤمنون، الآيات 4-12

(۱) سورہ، حصوں، آیہ ۱۲-۱۴۔

4- الحقائق العلمية الموجودة في كتاب الله، وهي كثيرة، ومن بينها مراحل خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها الجنين، حيث جاء تفصيلها في هذه الآيات {كَلَّمَكَ} (768).

وآيات أخرى تتحدث عن الفلك والأحياء في قوله تعالى: {كَلَّمَكَ} (769). وأخرى تتحدث عن علم البصمات كما قوله تعالى: {كَلَّمَكَ} (770). والآيات في هذا الباب كثيرة يطول المقام لذكرها.

5- أن القرآن الكريم شامل لجميع مناحي الحياة، وواف بكل مطالب الإنسان وحاجاته الضرورية، من الأحكام والتشريعات المتعلقة بذلك، يقول الله تعالى: {يُحْيِي الْمَيِّتَ} (771). ويقول أيضاً: {يُحْيِي الْمَيِّتَ} (772).

6- من أعظم إعجازات كتاب الله أنه كتاب هداية ورشد، يقرؤه الكافر ويسلم، ويقرؤه الفاسق ويهتدي، قال تعالى: {يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (773)، وقال جل وعلا: {يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (774).

* * *

حفظ القرآن الكريم:

تكفل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم بألفاظه ومعانيه إلى قيام الساعة، لقوله تعالى: {يَحْفَظُكَ اللَّهُ وَحَفِظَ كُلَّ كَلِمَةٍ فَتُحْفَظَ} (775)، وقد حاول الكثيرون عبر التاريخ الإسلامي الطويل أن يثيروا الشبهات والشكوك حول القرآن، ابتداء من عصر النبوة وظهور مسليمة الكذاب وادعائه النبوة ونزول الوحي عليه، وانتهاء بحملات المستشرقين في العصور المتأخرة والتي لا تزال قائمة إلى هذا العصر، ولكن بفضل الله تعالى ورعايته، ثم بجهود أهل العلم والدعاة والمخلصين لهذا المصدر الرباني، باءت تلك المحاولات والجهود بالفشل وماتت كل شبهة أو طعن في القرآن الكريم بأرضها، لأن الله تعالى تكفل بحمايته ورعايته.

وبين الفينة والأخرى تظهر حملات جديدة للنيل من كتاب الله بصور وأشكال تختلف عن سابقتها، ومن أهم المداخل التي يحاولون تمرير شبهاتهم وأباطيلهم:

(768) سورة الأنبياء، الآية 30.

(769) سورة القيامة، الآية 4.

(770) سورة الشورى، الآية 13.

(771) سورة الأنبياء، الآية 107.

(772) سورة البقرة، الآية 2.

(773) سورة البقرة، الآية 185.

(774) سورة الحجر، الآية 9.

(775) سورة النساء، الآية 136.

- قضية المرأة والحجاب وحقوقها ومساواتها مع الرجل، مع العلم أن من أهم مبادئ التي جاء بها القرآن هو إقرار حقوق المرأة في الجوانب المختلفة، فقد نزلت آيات كثيرة تتحدث عن حقوق المرأة وأحكامها وواجباتها ومشاركتها مع الرجل في بناء الأسرة والمجتمع، في وقت كانت الجاهلية لا تعترف بحق إنسانيتها، وقد سميت سورة من أطول سور القرآن بسورة النساء، فضلاً عن الأسباب الكثيرة الأخرى التي كانت المرأة سبباً لنزول الآيات وتتابع الوحي على رسول الله ﷺ.

- كما شملت حملات المتربصين بالقرآن الكريم التشكيك في الوحي وصدق الرسالة، مرددة ما كانت تقوله اليهود والمنافقون في صدر الإسلام، من أن هذا الكتاب مستقاة من الكتب السماوية الأخرى، كالإنجيل والتوراة وغيرها، وأنه عليه الصلاة والسلام تلقى ذلك كله من الراهب بحيرة حين التقى به في طريقه إلى الشام، وهذا افتراء قديم وجديد، تصدى له أهل العلم ودحضوه من كل جانب.

- ومن الموضوعات التي أثاروها أيضاً، نقد التشريع في مجال الحدود وغيرها من قتل النفس بالنفس وقطع يد السارق ورجم الزاني والزانية أو جلدهما، وكلها كانت بمثابة نفخ في الهواء، لأن الله تعالى أخرج لهم من هذه الأمة من يبطل هذه الافتراءات من خلال البراهين والشواهد العقلية والمنطقية، ومن خلال الدراسة النفسية للإنسان والأحوال التي تمر بها هذه النفس، والضوابط التي ينبغي أن تلتزم بها حتى لا تخرج عن إطارها البشري الذي ميزه الله تعالى عن بقية الكائنات والدواب.

والحديث يطول عن حملات التشويه والتشويش على كتاب الله تعالى، وقد صُنِّفَت مؤلفات كثيرة حول هذا الموضوع منذ القديم وحتى الآن لتبقى رصيذاً حياً للأمة وتحدياً قوياً أمام هذه الحملات إلى يوم القيامة.

عوامل حفظ القرآن الكريم:

من أجل أن يكون المؤمن أداة حقيقية لحفظ كتاب الله تعالى ومدافعاً عملياً عن المصدر الأول من مصادر التشريع، وينال شرف هذه المشاركة، عليه أن يلتزم بمجموعة من الواجبات التي تكفل حفظ القرآن الكريم ودلائله، ومن أهم هذه الواجبات:

1. الإيمان والتصديق بأنه الكتاب الخاتم، الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق الوحي، ولا يأتيه الباطل من تبديل أو تحريف إلى يوم القيامة، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (776).

2. العلم به في مجال التفسير وأسباب النزول، والأحكام والتشريع، والأخبار والقصص، ومعرفة المحكم منه من المتشابه، والناسخ من المنسوخ، وكذلك معرفة وجوه الإعجاز فيه ودراستها، والاطلاع على القراءات وأحكام

(776) سبق تخريجه.

التلاوة والتجويد وأدائها، وتصنيف ما كتب عنه من المؤلفات والمصنفات، ومعرفة طرق العلماء وجهودهم في استنباط الأحكام من الآيات وغيرها من العلوم المتعلقة بهذا الكتاب العظيم، وقد أثنى رسول الله ﷺ على من يعطي العناية بالقرآن الكريم في تعلمه وتعليمه، فقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽⁷⁷⁷⁾، وقال ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»⁽⁷⁷⁸⁾.

3. العمل بما في القرآن من أمر ونهي، والوقوف عند حدوده وتشريعاته، وترجمة آياته إلى واقع عملي، لأن الله تعالى وبَّخ الذين لا يصل القرآن إلا إلى حناجرهم، وهدد بالوعيد من يقرأه ولا يأتي أحكامه، فقال: ﴿كُذِّبَتْ هَذِهِ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَاعْتَصِمُوا بِالْأُولَىٰ﴾ (779)، وقال أيضاً: ﴿يُحَذِّثُهُمْ عَلَيْهَا﴾ (780).

4. تلاوته بصورة دائمة وتدبر آياته لقوله تعالى: {ث ث ذ} (781)، وقوله: {چ چ ی د ت ذ ڈ ڈ ژ ژ ر ر ک} (782).

وقد جاء الثناء الإلهي على الذين يحافظون على تلاوة القرآن في الليل والنهار، وأنهم أفضل من غيرهم، يقول تبارك وتعالى: {هَمَّ عَءْءُ لَكَ} (783).

[illegible]

ولا شك أن هذا التواصل مع كتاب الله تعالى يعين في حفظه وحمايته من الزيادة والتدليس والتحريف.

5. **التحاكم إليه وتحكيمه في شؤون الحياة كلها**، فهو الحَكَم العدل، المنزل من الحاكم العادل، وقد أمر الله تعالى عباده بذلك في قوله: ﴿وَوُضِّعُوا لَكَ حَكَمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٧٨٥)، وبالمقابل فإن رفض حكمه والتحاكم إلى غيره بأنه أفضل منه يعدّ كفراً

777) سبق تخريجه.
778) سورة الصف، الأيتان 2-3.
779) سورة البقرة، الآية 85.
780) سورة المزمل، الآية 4.
781) سورة النمل، الآية 92.
782) سورة آل عمران، الآية 113.
783) سورة المزمل، الآية 20.
784) سورة المائدة، الآية 49.
785) سورة النساء، الآية 65.

صريحاً، لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَوُضِعَ الْوِزْنُ﴾ (786).

ومن العبث العلمي، والانحراف الفكري، أن ينظر فئات من الناس إلى القرآن الكريم على أنه كتاب مقدس يقرؤه الإنسان في المآتم والمناسبات الدينية وليس له علاقة بواقع الناس ومشكلاتهم ومعاملاتهم، ومن ثم الدعوة إلى إدارة شؤون الحياة وفق أنظمة وضعية وبشرية، وهي دعوة أسلافهم في الماضي حين قالوا بفصل الدين عن الحياة، وكان هذا الكتاب لا يصلح لهذا العصر!

إن كتاب الله تعالى فيه أخبار الأولين والآخرين، وهو المنهج الذي يتوافق مع الفطرة الإنسانية السليمة ويتلائم مع تطورات الإنسان وأشواقه وحاجاته في الحياة، لأنه منزل من خالق هذا الإنسان وخالق هذه الأشواق والرغبات، ومهما حاول المتربصون للنيل من القرآن والإسلام فإنهم لا يستطيعون أن يطفئوا نور الله الذي أشرقت به الظلمات في الشرق والغرب، حتى لم تبق رقعة على الأرض إلا وصلها القرآن ودخلها الإسلام، بعد أن عرف العقلاء والعلماء حال البشرية والتخبط الذي تعيش فيه جرّاء تلك القوانين والأنظمة الجائرة.

بل إن كثيراً من شعوب العالم دخلوا الإسلام حين تحلّى به أهله وترجموه في واقع حياتهم، في المعاملات والسياسة والأخلاق والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

6. حفظ القرآن الكريم، والعناية بدور التحفيظ ومدارسها ومعاهدها،
وتسهيل سبل التحفيظ للراغبين في ذلك، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب محفوظاً في الصدور مع السطور، وأما غير القادرين على حفظه فيكفيهم حفظ بعض سورته وتلاوته ومعرفة أحكامه، حتى لا يبقى صدره خاوياً من ذكر الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» (787).

ومن أهم أسباب دوام حفظ القرآن في الصدور وعدم نسيانه هو المواظبة الدائمة على قراءته ومراجعته، لأن الانقطاع الطويل عنه ينسي صاحبه ما حفظ من آياته، يقول عليه الصلاة والسلام: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلّناً من الإبل في عقلها» (788).

وينبغي أن يخصص المؤمن وقتاً محدداً في اليوم لتلاوة القرآن وحفظه، حسب قدرته وإمكاناته ووقته، والرجوع إلى التفسير للآيات التي تشكل عليه معانيها.

كما تجدر الإشارة هنا أنه جاء التحذير الشديد للانقطاع الطويل عن كتاب الله

(786) أخرجه الترمذي (ص655، رقم 2914) كتاب فضائل القرآن، باب الذي ليس في جوفه قرآن. قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (1/554، رقم 2037) وصححه.

(787) أخرجه البخاري (ص902، رقم 5033) كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعهده. ومسلم (ص320، رقم 1844) كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول (نسيت) آية كذا وجواز قول أنسيتها.

(788) سورة الفرقان، الآية 30.

وجاء الوعيد الشديد المترتب على هجر القرآن والإعراض عنه، بعقابين شديدين في الدنيا والآخرة، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَوْ نُوْثِقُ الْبَشَرَ سَبْعًا مِّنْ يَّوْمٍ أَجَلُهُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَضَاهُمْ وَأَنَّا لَا تَدْرِيْنَ أَيُّ يَوْمِكُمَا أَتٰكُمْ السَّاعَةُ﴾ (٧٩٠).

حال السلف وأثر القرآن الكريم عليهم:

فإن لهذا القرآن أثرًا عجيبيًا على النفس بصورة عامة ونفس المؤمن بصورة خاصة، لا سيما أولئك الذين تذوقوا بلاغة اللغة وجمال المعاني وجذالة الأسلوب وقوة العبارات، مع الإيمان به وتدبره، لذلك كان للقرآن الكريم أثر قوي على السلف الصالح، لشدة إيمانهم ومعرفتهم باللغة وأساليبها، وفيما يلي نماذج لحال بعض السلف حين كانوا يستمعون إلى كتاب الله تعالى:

- وتقول عائشة رضي الله عنها عن أبيها: «كان أبو بكر رجلاً بگاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن»⁽⁷⁹³⁾.

- قدم جبير بن مطعم على النبي ﷺ فسمعه يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ الآية: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ طَبْعًا مِمَّا قَفَّيْنَا عَلَى الْمُرْثَلِينَ بِهَيْبَةٍ وَفُجْرَةٍ شَدِيدَةٍ قَالُوا هَذَا الَّذِي قَالُوا إِنَّهُ الْغَايِبُ} (795) يقول جبير: كاد قلبي أن يطير، وقال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي.

⁷⁸⁹() سورة طه، الآية 124.

790 ﴿سورة الحشر، الآية 21﴾

791) أخرجه النسائي (ص168، رقم 1214) كتاب السهو، باب التتحنح في الصلاة. وأحمد

(4/25، رقم 16355).

⁷⁹² () أخرجه البخاري (ص 657، رقم 3905) كتاب الصلاة، باب المسجد يكون في الطريق.

793} سورة الجاثية، الآية 21.

794) سورة الطور، الآيات 35

795) سورة الجن، الآيتان: 1-2.

$$1.15 \times 10^{-5} \text{ g} \cdot \text{cm}^{-3} \times 9.9 \times 10^6 \text{ cm}^3 = 114.5 \text{ g}$$

- وعن تأثر الجن بالقرآن: يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا {پ پ پ ث ذ ذ ت ت} وإنما أوحى إليه قول الجن»(797).

- «وكان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو: {عِائِثٌ كُنْتُ كَذَّابًا وَوَلَوْ وَوَوُوْهُ يَدِي بِدَنَاءِ مَا نَسْتُ} (798)، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد أن فرجع، فإواه الليل إلى خربة فإذا فيها سائلة فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام» (799).

- ويروى أن بعض فقهاء مصر دخلوا على الشافعي وهو في المسجد وبين يديه المصحف فقال لهم الشافعي: «شغلكم الفقه عن القرآن إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي، فما أطبقه حتى الصباح»⁽⁸⁰⁰⁾.

* * *

آثار القرآن الكريم على النفس والمجتمع:

لا يمكن حصر الآثار الإيجابية والثمرات اليانعة التي يكتسبها الإنسان من خلال التواصل مع كتاب الله تعالى بالقول والعمل، لأن الجهد البشري يبقى قاصراً وناقصاً أمام هذا المعين الذي لا ينضب، ففيه من الفوائد والمنافع ما لا يعد ولا يحصى، هذا بالنسبة للمعلوم منها، وما يجهلها الإنسان ربما تكون أكثر وأكبر، لذا نشير إلى بعض من الآثار التي تعود بالخير والفائدة على الإنسان في الجوانب المختلفة لا سيما

⁷⁹⁶ () أخرجه البخاري (ص125، رقم 773) كتاب الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر.

797) سورة الحديد، الآية 16.

798) سبر أعلام النبلاء للذهبي 8/ 423، تحقيق محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة الرسالة بيروت: لبنان، ط2، 1402هـ/ 1982م.

799 () البرهان في علوم القرآن 1/ 462.

800 (سورة البقرة، الآية 2.

أولاً: أن القرآن الكريم كتاب هداية:

فالقرآن الكريم قبل كل شيء هو كتاب هداية أنزله الله تعالى إلى رسوله ليهديهم إلى سواء السبيل، لقوله تعالى: {بِذِكْرِ رَبِّهِ يَسْتَخِيرُ} (801)، وقوله تعالى: {هُدًى وَبُحْرَانٌ} (802)، وقوله جل وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ} (803)، والآيات كثيرة في هذا الباب.

والهداية في القرآن تشمل جميع مناحي الحياة، فهو كتاب هداية إلى معرفة الله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبودية، وهداية إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهداية إلى العلم الشرعي والتجريبي، وهداية إلى العمل الصالح والإيجابي، وهداية في التشريع والأحكام التي تنظم علاقات الناس ضمن الأسرة والمجتمع، وتحدد لهم الحقوق والواجبات، كما هو كتاب هداية إلى التعامل الصحيح مع الكون وما فيه من كائنات وجمادات، وغير ذلك من أنواع الهداية، والتي تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى رضوان الله تعالى وجناته.

* * *

ثانيًا: القرآن الكريم شفاء ورحمة:

إن القرآن الكريم هو شفاء للنفس من كل ما تعزيبها من الأمراض والآفات، كالقلق واليأس والكآبة والخوف وغيرها، لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوْا دُعَاۤءَ دُخْرٍ رُّحُوْا﴾ (٨٠٤)، كما أنه شفاء للأمراض العضوية التي يُبتلى بها الإنسان في جسده، لعموم الشفاء في قوله تعالى: ﴿هَٰهُنَا مَآءٌ حَمِيْمٌ﴾ (٨٠٥)، حيث جاء (شفاء) نكرة التي تدل على عموم الشفاء في النفس والبدن معاً. كما أنه تعالى لم يقل: (دواء)، لأن الدواء قد ينجع أو يفشل، أما الشفاء فهو تأكيد على المعافاة والتخلص من المرض بشكل نهائي.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي» (806).

والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة، فهناك جموع من الناس تعافوا من الأمراض

⁸⁰¹() سورة آل عمران، الآية 138.

802) سورة البقرة، الآية 185.

803) سورة بونس، الآية 57.

804 } سورة الإسراء، الآية 82.

805) أخرجه مسلم (ص 973، ر

⁸⁰⁵) أخرجه مسلم (ص 973، رقم 5714) كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث.

806) سورة فصلت، الآية 44.

المزمنة بفضل قراءة القرآن بعد أن استعصى فيها الطب والعقاقير والتحاليل وغيرها. والرقى الشرعية الصحيحة لا تخلو من قراءة سور من القرآن أو آيات منه لأنه العلاج الأقوى للتغلب على الأمراض المختلفة كما وصفه الله تعالى بقوله: {وَوَيْ ي ب بر} (807).

* * *

ثالثاً: القرآن يورث السكينة:

وذلك تصديق لقوله ﷺ في الحديث السابق ذكره: «وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»⁽⁸⁰⁸⁾.

- فحين يقرأ المريض والضعيف قوله تعالى: {وَوَدَّ} ⁽⁸⁰⁹⁾، وقوله تعالى: {وَوَدَّ} ⁽⁸¹⁰⁾، يشعر بالراحة والطمأنينة، لأن رحمة الله قريبة منه، وهو جل وعلا أرحم به من نفسه.

- وحين يقرأ الغني قوله تعالى: {كَمْ مِّن مَّن مَّنَّ} (٨١١)، ويفعل ما يأمره به الله، تدخل الطمأنينة إلى نفسه لأنه قد أدّى حق الله تعالى عليه وأدخل السرور إلى قلوب الفقراء والمساكين.

- وحين يقرأ العاصي قوله تعالى: ﴿هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ هَاهُنَا دَارُ الْقَائِمِينَ﴾ {٨١٢}، فإن ذلك يبعث في نفسه الإنابة إلى الله تعالى الذي لا يغلق باب التوبة لديه، فبدأ حياة جديدة مليئة بالخير والعمل الصالح.

- وحين يقرأ اليانس قوله تعالى: {يٰٓهَيٰ يَحْيٰى ثُؤْثُؤْثُؤْ} (813)، فإنه يجد أمامه نوراً يدلّه إلى الأمل والتفاؤل، وأن الله تعالى قوي فوق كل قوة، وكبير فوق كل كبير، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبذلك تطمئن نفسه ويخرج منها اليأس والقنوط.

- وحين يقرأ المتكبر قوله تعالى: {عَٰلَمُ الْغُيُوبِ} (814)، وقوله تعالى: {ذُو

807) سبق تخريجه.

808) سورة يوسف، الآية 92.

809) سورة الأعراف، الآية 56.

810) سورة التوبة، الآية 103.

811) سورة الزمر، الآية 53.

812) سورة يوسف، الآية 87.

813) سورة النحل، الآية 4.

814) سورة النساء، الآية 28.

ث} (815)، يشعر بمدى ضعفه وفقره إلى الله تعالى، لا سيما وأنه مخلوق من هذه النطفة، فيدفعه ذلك إلى التواضع مع الله ومع الناس.

[illegible]

- وحين يقرأ المشغول قول الله تعالى: ﴿رَبِّ انَّا نَسُوهُ نُنَاسِيهِ﴾، يهز هذا القول كيانه ليجد أن أصل العمل يجب أن يكون لله تعالى وللآخرة، وأن العمل في الدنيا إنما هو وسيلة للمعاش والقيام بواجب العبادة على الأرض.

- وحين يقرأ المعرض قول الله تعالى: {ثُمَّ نُؤْتُوْنِيْ مِنْ ثَمَرِيْ ثُمَّ نَدِيْ ي} (819)، يهوله هذا المشهد المرعب، فقر وحرمان وضمنك في العيش وابتلاء في الحياة الدنيا، وأشد من ذلك العمى والحرمان يوم القيامة، فيدفعه هذا الشعور للرجوع إلى الله تعالى وتقديم الأعمال الصالحة بين يديه، وترك ما يبغضه الله من المعاصي والمفاسد والمنكرات.

وهكذا يكون تأثير القرآن الكريم على نفس قارئه المتأمل في آياته وأوامره ونواهيهِ.

* * *

رابعًا: القرآن الكريم حصن وحرز من الشرور والآثام:

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { ه ه ه ع ع ع ل ث ل ث ك }⁽⁸²⁰⁾، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ فِي لَيْلَةِ كِفَاةٍ»⁽⁸²¹⁾.

فالقرآن الكريم يحمي قارئه من الشرور المختلفة للنفس والبدن والمال والأولاد، سواء كانت هذه الشرور من الجن بالهمز والوسوسة والخوف أو كان من الإنسان بالحسد والظلم والحق الأذى، فإن قراءة القرآن وحفظه وتطبيقه تحفظ صاحبه من

⁸¹⁵() سورة الحج، الآية 74.

816 سورة الزمر، الآية 67.

817} سورة القصص، الآية 77.

818 سورة طه، الآية 124.

819) سورة الإسراء، الآية 45.

⁸²⁰ أخرجه البخاري (ص 677، رقم 4008) كتاب المغازي، باب (12). ومسلم (ص 326، رقم 1880) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

⁸²¹() أخرجه مسلم (ص317، رقم 780) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد.

كل هذه الآفات.

لذا وصّى الرسول ﷺ الأمة بأن تكون على تواصل دائم مع القرآن لأن الشيطان ينفر من كلام الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»⁽⁸²²⁾.

ومعروف قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان حين قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقراء آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله، فقال له النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»⁽⁸²³⁾.

كما أن القرآن الكريم يعصم صاحبه من فتنة الدجال: لقوله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»⁽⁸²⁴⁾.

* * *

خامساً: القرآن الكريم مصدر بناء وتنمية وعز ورفعة:

إن قراءة القرآن والتدبر في آياته وتطبيق أحكامه على النفس والواقع من أهم عوامل البناء والتنمية للأمة، بل إنه يكسب الأمة الرفعة والكرامة والتمكين في الأرض، وكيف لا يكون ذلك وهو الكتاب المنزل من العزيز الجبار القائل عن نفسه: {يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّبِعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ هَٰذَا كِتَابٌ أُخْرِجَ بِحَقِّهِ الْفُتُورُ وَهُوَ يُبَيِّنُ لَكُمْ أَلْوَمَ الْبَرِّ وَالْأَحْسَنَ لِلْإِسْلَامِ} (يونس: 1-2) ويقول جل وعلا: {بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ يَحْسَبُهُ الْغَيْبُ مِنْ دُونِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ فِي غَوْيٍ} (الأنعام: 113) {يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّبِعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ هَٰذَا كِتَابٌ أُخْرِجَ بِحَقِّهِ الْفُتُورُ وَهُوَ يُبَيِّنُ لَكُمْ أَلْوَمَ الْبَرِّ وَالْأَحْسَنَ لِلْإِسْلَامِ} (يونس: 1-2).

إن الحفاظ على الكرامة وتحقيق النصر والتقدم العلمي والتقني، وتحقيق التوازن العسكري والاقتصادي، والمستوى الفكري والثقافي، مرهون كل ذلك بمدى قرب الأمة من القرآن وبعدها عنه، لقوله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»⁽⁸²⁷⁾.

كما يقول عليه الصلاة والسلام: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حلّه فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زدّه، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب أرضه».

⁽⁸²²⁾ أخرجه البخاري (ص898، رقم 5010) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
⁽⁸²³⁾ أخرجه مسلم (ص326، رقم 1883) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.
⁽⁸²⁴⁾ سورة الصافات، الآية 180.
⁽⁸²⁵⁾ سورة المجادلة، الآية 11.
⁽⁸²⁶⁾ أخرجه مسلم (ص329، رقم 1897) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.
⁽⁸²⁷⁾ أخرجه الترمذي (ص655، رقم 2915). وأحمد (2/192، رقم 6799). وقال: حديث حسن صحيح.

والشاهد على هذه الحقيقة على مستوى الأمة، حين كان القرآن دستوراً ومرجعاً، كانت ذا رفعة وكرامة وقوة وتمكين، حتى دانت لها أكبر الإمبراطوريتين في العالم، وأما حين هجرت هذا الكتاب وأخذت ببعض آياته وتركت جلّه، تحوّلت إلى أمة ضعيفة تسير في مؤخرة الركب، وتتسول العلم والمعرفة على أبواب الأمم الأخرى.

أما على مستوى الأفراد، فكم من وضع قرأ القرآن ارتفع ووصل إلى المعالي، وكم من فقير قرأ القرآن اغتنى، وكم من مريض قرأ القرآن شفي وتعافى، وكم من فاشل قرأ القرآن نجح وارتقى، وهكذا.

فتشريع القرآن وحكمه، وأمره ونهيه، والعلوم التي يشملها والأخبار التي يسردها، والغيب الذي يكشفه، تعدّ مصدراً حيويّاً وحقيقياً للأمة في ميادين الحياة المختلفة، في حين أن هذه المقومات لا تتوفر عند عقائد الأمم الأخرى ومذاهبها.

لقد تميّز القرآن الكريم في معالجة مشكلات الحياة وتحديد علاقات الناس في
المناحي المختلفة بالتوازن والاعتدال، بصورة تتلائم وتتوافق مع الفطرة الإنسانية
السليمة، ومن الأمثلة على ذلك:

- تنظيم الجانب الاقتصادي من خلال الحث على القرض الحسن والصدقة وتحريم الربا بجميع أشكالها، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ شِئَ جَعَلْ جَمْعُ حِمِّ خَجٍّ خَمْسًا سِتًّا} (829)، ويقول جل وعلا: {تَدَّ ذُنُورُهُ رُوحِي} (830)، ويقول أيضاً: {هَهُ هَاهُ عَلَى عَنَقٍ مُّسْتَكِيمٌ كَذُوُّوْهُ وَوَوُوْهُ وَاَوْوَىٰ} (831).

كل ذلك من أجل تحقيق العدالة الاقتصادية وعدم تكديس الأموال والأموال في أيدي فئات محددة ومحتكرة.

- **تنظيم الجانب الاجتماعي:** من خلال الحث على الزواج الشرعي وتكوين الأسرة وإرساء دعائم الحب والوئام بين أفراد الأسرة لا سيما الزوجين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ذُرِّيَّتُكَ كَكُفٍّ كَكُفٍّ كَكُفٍّ كَكُفٍّ كَكُفٍّ كَكُفٍّ﴾ (832)، ثم حدد المهمة الملقاة على كاهل أفراد هذه الأسرة، يقول جل ثناؤه: ﴿وَأَوْفُوا وَوَفُوا

828() سورة الحديد، الآية 11.

276 سورة البقرة، الآية 276

830 } سورة البقرة، الآيات 278-279.

831) سورة الروم، الآية 21.

832) سورة التحريم، الآية 6.

كما حثَّ القرآن الكريم الأبناء للقيام بواجب البر والعناية بالوالدين والإحسان إليهما لقوله تعالى: {بِأَبِئَابِكُمْ إِذَا حُلُّوا} (834).

كما أن القرآن الكريم تناول العلاقات السياسية مع الدول غير المسلمة وفق القاعدة القرآنية المعروفة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكُفْرَاءَ أَوْلِيَاءَ مِمَّنْ هُمْ أَكْثَرُ بِغَضَبٍ عَلَيْنَا} (٨٣٨)، فالأصل في العلاقات الخارجية مع غير المسلمين هو السلام، ومن ثم دعوتهم عبر الوسائل المشروعة والمتاحة.

* * *

ويمكن توضيح هذا الأمر من خلال النقاط الآتية:

- أن القرآن الكريم أمر الإنسان بالسعي في الأرض والعمل من أجل الرزق والمعيشة حتى لا يكون عبئاً على الآخرين، فقال تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتٌ﴾ (ج⁸³⁹)، كما قال جل وعلا: ﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمُ الْكَادِبِينَ﴾ (ن⁸⁴⁰).

833 سورة الإسراء، الآية 23.
834 سورة النساء، الآية 59.
835 سورة النساء، الآية 59.
836 سورة النحل، الآية 125.
837 سورة الأنفال، الآية 61.
838 سورة الملك، الآية 15.
839 سورة القصص، الآية 77.
840 سورة البقرة، الآية 43.

- أمر القرآن الكريم بدفع الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، لأنها تغطي جزءاً كبيراً من الفراغ المالي لدى بعض الناس، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِكُمْ لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (841)، ويقول أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (842).

- حث القرآن الكريم على الصدقة والإنفاق في سبيل الله من غير مال الزكاة، وأثنى على الفعل وأهله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (843)، كما ذمَّ بالمقابل من يبخل عن الإنفاق في سبيل الله وأثر البخل والأنانية، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (844).

* * *

ثامناً: القرآن الكريم يعالج الأمراض النفسية:

بما أن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين فإنه بهذا المعنى يعالج جميع الآفات النفسية التي تعود بالمفاسد والأضرار على صاحبها وعلى المجتمع، ومن أهم الآفات التي عالجها القرآن وحذر الناس منها:

- آفة الكبر، وهي الاستعلاء على الناس والنظر إليهم نظرة دونية، فحرّم القرآن هذا المرض النفسي وجعله من الكبائر التي يعاقب عليها صاحبها، لأن الكبرياء لله وحده فلا ينازعه فيها أحد، يقول تبارك وتعالى على لسان لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّكَ إِنْ يَدْرَيْ كِبَارُكَ بَخْخٍ﴾ (845).

- آفة الحسد، وذلك من خلال إرساء دعائم الإخوة بين المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَبِإِذْنِهِ يَكُفِّرْ بَدَنَهُ﴾ (846)، فالأخ لا يجوز له أن يحمل نحو أخيه حسداً أو حقداً أو كرهاً، لأن هذه الصفات خاصة بالمنافقين دون المؤمنين الذين يتميزون بصفاء القلب وطهارة النفس نحو إخوانهم في العقيدة، حيث قال عنهم الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (847).

- آفة الرياء، الذي هو عكس الإخلاص، وهي العمل من أجل الشهرة أو المال أو الجاه أو أية منفعة دنيوية أخرى، ولها آثار خطيرة على الإنسان، لأنها القاعدة التي ينطلق منها في رحلة الحياة، وقد عالجها القرآن الكريم من خلال التحذير الشديد منها والعاقبة الوخيمة لصاحبها، وجعلها من صفات المنافقين، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةً لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَعْرِضِينَ﴾ (848).

(841) سورة البقرة، الآية 110.
(842) سورة الليل، الآيات 5-7.
(843) سورة الليل، الآيات 8-10.
(844) سورة لقمان، الآية 18.
(845) سورة الحجرات، الآية 10.
(846) سورة الحشر، الآية 10.
(847) سورة النساء، الآية 142.
(848) سورة الإسراء، الآية 32.

والخلاصة: أن القرآن الكريم يطهر النفس من جميع الشوائب فيخلصها من هذه الأدواء، ويصفىها، فتبقى مطمئنة مرتاحة تعيش في كنف آياته بعيدة عن القلق والاضطراب والشكوك والوساوس والأوهام.

تاسعًا: القرآن الكريم يعالج المشكلات الأخلاقية:

كما شرع القرآن الكريم الزواج الشرعي بدل الوقوع في الفاحشة، وحث عليه، وجعله آية من آيات الله تعالى، حيث يتنامى معه الحب والرحمة بين الزوجين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ رُثِيَ لَهُمْ زُكْرٌ كَرِيمٌ﴾ (٨٥٢).

الخاتمة:

2- الثقة بالقرآن الكريم: وأنه كتاب هداية لمعرفة الله تعالى، وكتاب تشريع

852) سبق تخريجه.

3- حفظ القرآن أو حفظ سور منه، لقوله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»⁽⁸⁵³⁾.

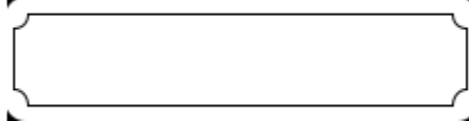
5- العمل به وتطبيق أوامره والانتهاء عن زواجه، لأنه إنما نُزِّلَ من أجل أن يكون منهجاً يطبَّق على الأرض ويُتَّبَع، وليس للقراءة فحسب، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَوُودُوا وَوَدَّيْهِ دَنَانِمْنَهُ نُو﴾ (854)، ويقول أيضاً: ﴿دَنَانِمْنَهُ نُونُو﴾ (855).

7- تخصيص أوقات لقراءة التفسير لفهم معاني الآيات، ومعرفة المحكمات والمشتبهات، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول وغيرها.

8- التأمل والتدبر في آياته وما فيها من الأحكام والتشريعات والأخبار والدروس والعبر، يقول الله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ فِي مَا تَخْتَارُ﴾ (857).



857) أخرجه البخاري (ص1112، رقم 6407) كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل. ومسلم (ص317، رقم 779) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد.



من أهم عناصر الحياة السوية ذكر الله تعالى الذي نتناول الحديث عنه في هذا المبحث مفتتحين بما رواه البخاري رحمه الله:

حدثنا أبو أسامة عن بُريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»⁽⁸⁵⁸⁾.

مفهوم الذكر:

في اللغة:

الذكر - بالكسر - الحفظ للشيء كالذكر والشئ يجري على اللسان، والصيت كالذكرة - بالضم - والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء⁽⁸⁵⁹⁾.

في الاصطلاح:

هو ذكر الله تعالى، اعتقاداً، أو قولاً، أو عملاً.

- **فأما الاعتقاد:** كأن يتدبر الإنسان أسماء الله تعالى وصفاته، ويتأمل في ملكوته ومخلوقاته، ويستشعر عظمته وإبداعه للكون والحياة.

- **وأما القول:** وهو الذكر باللسان، وهو كثير ومتنوع، يدخل فيه التسبيح والاستغفار والدعاء وقراءة القرآن، والشكر والثناء، وغير ذلك من أصناف الذكر الكثيرة.

- **وأما العمل:** فمثل الصلاة والصيام والحج والزكاة، والإحسان إلى الناس، وجميع الأعمال الصالحة التي يبتغي بها الإنسان وجه ربه.

وبهذا فإن دائرة الذكر واسعة تشمل حركة الإنسان في الحياة، القولية والفعلية.

* * *

فضل الذكر:

إن شمولية ذكر الله تعالى لقلب الإنسان وقوله وفعله تجعل له مكانة رفيعة وأهمية كبيرة في الحياة، لأنه بهذا المفهوم الشامل يجعل الإنسان في حالة

⁽⁸⁵⁸⁾ قاموس المحيط 2/ 36 (مادة: ذَكَرَ)، دار الجيل: بيروت.
⁽⁸⁵⁹⁾ سورة المزمل، الآية 8.

تواصل دائم مع الله تعالى، فإذا غفل أو نسي ذكرَ الله، وإذا أذنب استغفره جلّ علا، وإذا غضب تعوّد بالله من شرّ الشياطين، وإذا ظلم عدلَ عن ظلمه ليرجع الحق لصاحبه، وإذا أصابه يأس أو قنوط توكلَ على الله، وإذا أصابه مكروه دعا الله وتضرّع إليه، وهكذا.

لذا جاء النداء الإلهي للعباد في كثير من الآيات بلزوم الذكر دون تحديد أو قيد كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁸⁶⁰⁾، وجعله صفة ملازمة لصدق الإسلام والإيمان، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُؤْتِيهِم مِّنْهُ حَقَّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ إِذَا رَأَوْهُ كَذِبًا﴾⁽⁸⁶¹⁾، ويقول جلّ وعلا: ﴿يَمْ يَبِىْ تَجْ تَخْتَمُ تِى تِى تَجْ تَمُ شِى﴾⁽⁸⁶²⁾.

والذكر من أفضل الطاعات وأهمها، لأن معظم العبادات والطاعات تدخل تحت مسمى الذكر، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى قال ذكر الله تعالى»⁽⁸⁶³⁾، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»⁽⁸⁶⁴⁾.

فذكر الله تعالى يمنح الإنسان المعنى الحقيقي للحياة، حيث يبعث فيه روح الحركة والاجتهاد في المسار الصحيح لأن صاحبه في حالة مراقبة ومحاسبة للذات نحو نفسه والآخرين من حوله. وبالمقابل إذا فقد الإنسان نعمة الذكر أو تغافل عنها فإنه يخطف من الحياة معالم الخير والبناء، لأنه يتحرك حينها من غير تفكير نحو أهداف مجهولة وغامضة، وهذا تأكيد لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربّه مثل الحيّ والميت»⁽⁸⁶⁵⁾.

ومن هنا جاءت أهمية ذكر الله تعالى والمداومة عليه في الحل والترحال وفي جميع الشؤون والأحوال.

* * *

⁽⁸⁶⁰⁾ سورة الأحزاب، الآية 35.

⁽⁸⁶¹⁾ سورة الرعد، الآية 28.

⁽⁸⁶²⁾ أخرجه الترمذي (ص771، رقم 3377) كتاب الدعوات، باب منه [في أن ذاكر الله كثيراً أفضل من الغازي في سبيل الله]. وأحمد (5/195، رقم 21750).

⁽⁸⁶³⁾ سبق تخريجه.

⁽⁸⁶⁴⁾ رواه البخاري، برقم 6407، ص1112.

⁽⁸⁶⁵⁾ سورة الأحزاب، الآية 41.

أنواع الذكر القولي من حيث الإطلاق والتقييد:

يمكن تقسيم الذكر إلى قسمين، الذكر المطلق، والذكر المقيّد:

أولاً: الذكر المطلق:

وهو ما يقوله المؤمن أو يقوم به، بغض النظر عن التوقيت والمكان، فلا يقيده زمان ولا يمنعه مكان، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُؤَيِّنُكَ وَيُؤَيِّنُكَ﴾⁽⁸⁶⁶⁾، لم يتحدد الأمر بالذكر بقيد أو شرط، بل جاء عاماً في الحالات المختلفة كما في قوله تعالى حين وصف عباده المؤمنين: ﴿كَانُوا يَرْجُونَ أَجْرَ اللَّهِ﴾⁽⁸⁶⁷⁾.

كما أشار عليه الصلاة والسلام إلى هذا النوع من الذكر الذي لا يقيده شيء بقوله: «ولا يزال لسانك رطباً بذكر الله»⁽⁸⁶⁸⁾.

ثانياً: الذكر المقيّد:

كما جاء الأمر بالذكر في أمكنة وأزمنة محددة وفي حالات معينة يمر بها الإنسان في يومه وليلته، منها:

أ- ذكر المكان:

وهو الذكر الذي أمر به الشارع في أمكنة محددة مثل عرفات والمشعر الحرام كما جاء في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ هَٰذَا مِن دُونِ الْمَذْهَبِ﴾⁽⁸⁶⁹⁾.

ب- ذكر الزمان:

وهو المطلوب في أزمنة معينة:

- كالذكر في أيام الحج لقوله تعالى: ﴿بِأَيِّ حَالٍ خُشِعْتُمْ وَإِيَّ أَيِّ مَقَامٍ أَقْبَلْتُمْ﴾⁽⁸⁷⁰⁾.

- والذكر عقب كل صلاة، لقوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ أَفْوَاقاً﴾⁽⁸⁷¹⁾. وقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر

⁽⁸⁶⁶⁾ سورة آل عمران، الآية 191.

⁽⁸⁶⁷⁾ أخرجه الترمذي (ص771، رقم 3375) كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر. وابن ماجه (ص541، رقم 3793) كتاب الأدب، باب فضل الذكر.

⁽⁸⁶⁸⁾ سورة البقرة، الآية 198.

⁽⁸⁶⁹⁾ سورة البقرة، الآية 203.

⁽⁸⁷⁰⁾ سورة الجمعة، الآية 10.

⁽⁸⁷¹⁾ سبق تخريجه.

- والذكر في يوم الجمعة، لقوله تعالى: ﴿أَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ يٰٓأَبْ﴾⁽⁸⁷³⁾.

- والذكر عند مطلع كل يوم وعند انتهائه، لقوله تعالى: {جم حج حم خج خح} ⁽⁸⁷⁴⁾، وقوله تعالى: {وؤي ي ب پ ر د ن ا ئ ه نه نوئو ثوئو} ⁽⁸⁷⁵⁾.

ثالثاً: الذكر في الأحوال والهيئات الأخرى:

- الذكر عند الذبح: لقوله تعالى: {چ چ ی د ذذذثثر ژژ ک ک گگ گ }⁽⁸⁷⁶⁾.

- عند تناول الطعام: لقول النبي ﷺ لعمر بن أبي سَلَمَةَ رضي الله عنه: «يا غلام سَمِّ الله وْكُلْ بيمينك وكل مما يليك» (877).

- عند النوم والاستيقاظ: يقول حذيفة رضي الله عنه: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول اللهم باسمك أموت وأحيا وإذا استيقظ قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»⁽⁸⁷⁸⁾.

- عند دخول المنزل والخروج منه: يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا ولج الرجل بيته فليقل اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج بسم الله ولجنا وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا ثم ليسلم على أهله»⁽⁸⁷⁹⁾. وعند الخروج من البيت يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال: يقال حينئذ هديت وكفيت ووقيت فتننحي له الشياطين فيقول له شيطان آخر كيف لك برجل قد هدى وكفى

⁸⁷²() سورة الجمعة، الآية 9.

873) سورة الإنسان، الآية 25.

874 ﴿سورة الأعراف، الآية 205﴾

875) سورة الأنعام، الآية 121.

(876) أخرجه البخاري (ص960، رقم 5376) كتاب الأطعمة، باب الأكل مما يليه. ومسلم (ص902، رقم 2022).

877 () أخرجه البخاري (ص1100، رقم 6325) كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب. ومسلم (ص1177، رقم 2711) كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم.

٨٧ (٨) أخرجه أبو داود (ص ٧١٧، رقم ٥٠٩٦) كتاب الأداب، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته. وابن ماجه (ص ٥٥٦، رقم ٣٨٨٦) كتاب الدعاء، باب ما يقول الرجل إلى خرج من بيته.

879) سبق تخريجه.

ووقی» (880).

- عند لقاء العدو: لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ كُلَّ مَكَانٍ يُدْعَىٰ إِلَى الْمَلْحَمَةِ} (٨٨١).
- عند الغفلة: لقوله تعالى: {لَا تَقْصُرْ بِنَفْسِكَ فِي سُبْحَانَكَ وَلَا يَوْمَ الْعَشِيِّ إِذَا تُقَامُ السُّجُودُ} (٨٨٢).

وغيرها من الحالات والهيئات التي يكون فيها الإنسان والتي تتطلب ذكر الله تعالى بقراءة القرآن أو بالاستغفار أو الدعاء أو التوكل على الله تعالى، حيث تجعل هذه الأذكار صاحبها في حالة عبودية دائمة لله تعالى.

* * *

علاقة الذكر بقوة الإيمان وضعفه:

إن المتأمل في كتاب الله وآياته يجد أن هناك علاقة وطيدة بين القلب النابض بالذكر واللسان الناطق بالذكر والجوارح العاملة بالذكر وبين قوة إيمان صاحبه وأثر ذلك على عبوديته لله تعالى وحسن أدائه لفرائضه وتقديم الطاعة بين يديه، والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة في كتاب الله تعالى، منها:

- [illegible]

كما أخبر كتاب الله أن تلك العلاقة تضعف وتفتقر إذا كان قلب العبد ولسانه وجوارحه غافلة عن ذكر الله تعالى وبعيدة عن طاعته وعبادته، بل إن الله تعالى جعل ذلك من صفات المنافقين وخصائصهم، ومن الشواهد على ذلك:

⁸⁸⁰() سورة الأنفال، الآية 45.

881 ﴿سورة الكهف، الآية 24﴾

882) سورة الأنفال، الآية 2.

883) سورة الرعد، الآية 28.

884) سورة النور، الآية 37.

885} سورة الأحزاب، الآية 21

886) سورة الزمر، الآية 23.

887) سورة النساء، الآية 142.

- * * *

الذكر والشكر: إن ذكر الله تعالى صورة من صور الشكر لله تعالى، سواء كان بالقلب أو اللسان أو الجوارح، كما جاء في قصة زكريا عليه السلام، يقول الله تعالى على لسانه: ﴿رُؤُوسَ كُتُبٍ مَّكِّنَّا لَهُ كَلِمَاتٍ ذُكِّرَ بِهِنَّ فِي الْأُولَىٰ ۖ ثُمَّ كُنَّا زَكَرِيَّا﴾ (894)، حيث جاء الأمر بذكر الله تعالى وتسبيحه بعد أن بشره وأنعم عليه بيحيى عليه السلام.

[illegible]

889) سورة الإسراء، الآية 41.

891 ﴿سورة الزخرف، الآية 36﴾

893) سورة آل عمران، الآية 41

895 ﴿سورة المائدة، الآية 7.﴾

896) سورة المائدة، الآية 20.

897) سورة آل عمران، الآية 03

[illegible]

* * *

صراع الذاكرين مع الشياطين:

إن عدوَّ الإنسان الأول هو الشيطان، الذي يوسوس في نفسه ويزين له الخبائث والمعاصي، ويعينه على ترك العبادات والواجبات، ويأمره بالأمانى الكاذبة والآمال المزيفة، حتى إذا وقع في شرِّ أعماله تبرأ منه وبَيَّن ضعفه أمام جبروت الله وقوته، يقول الله تعالى: {رُّكَّا كُكَّا كُكَّا كُكَّا كُكَّا كُكَّا كُكَّا كُكَّا} .

فكل ما يوحى الشيطان إلى أوليائه بالهمز والنزغ هو من قبيل الوهم والخذاع، يقول تبارك وتعالى: {رَدْنَا مَا نَعْنَاهُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (900).

والإنسان الذي يغفل عن ذكر الله تعالى وأداء الفروض، ويبتعد عن قراءة القرآن والأدعية والأوراد الصباحية والمسائية يكون أكثر عرضة للوساوس والوقوع في شرك الشياطين، لأنه هياً لهم الطريق بغفلته عن ذكر الله وانغماسه في المعاصي والشهوات، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ نَبْئِي بُرُودًا ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ رِجَالًا بِهِ أَعْيُنٌ مَأْثُورَةٌ يُرِيهِمُ آيَاتِنَا فَالْمَأْثُورُونَ} (الأنعام: 901).

أما المؤمن الصالح، فلا يجد مارد أو شيطان إلى نفسه سبيلاً، لأنه تقرب إلى الله تعالى بالطاعات وأداء الفرائض والدعاء والذكر، فكان الله قريباً منه، يحميه ويحفظه من الشرور جميعاً، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى للشيطان: ﴿كُفَّ يَدَاكَ عَنْ نَارِ اللَّهِ﴾ (902).

فالصراع قائم بين الذاكرين والشياطين، حيث لا يكلّ الشيطان وأوليأؤه ولا يتعبون من إغواء المؤمنين وتزيين المنكرات لهم، وإبعادهم عن كل ما يميت إلى الله من طاعة أو ذكر، فربما يزيّن لهم منكراً واحداً ومن ثم تترتب عليه مفسد ومنكرات أكبر وأعظم، كما هي الحال في شرب الخمر وما يليه من

⁸⁹⁸() سورة إبراهيم، الآية 22.

899) سورة النساء، الآية 120.

900 ﴿ سورة المجادلة، الآية 19.﴾

901) سورة الحجر، الآية 42.

902) سورة المائدة، الآية 91.

101 3- 55 ()

[illegible]

فهؤلاء القوم من البشر صاروا في صف شياطين الجن، وتنتعّوا بنعوتهم وصفاتهم، وأصبحوا يقدمون لهم الطاعة والولاء، ويتأذون من الأذكار كما يتأذى الشيطان منها، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا تُلَاقُوا السَّامِرِينَ وَلَا كُنَّا فِيكُمْ شُرَكَاءَ خَلَقْتُمْ ذُلْفَةً وَهُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠٦).

إلا أن نهاية المعركة وفصل الصراع يكون لصالح المؤمن كما وعد الله تعالى: {چ چ چ چ د ی ت ت ت ت} (907)، لأن هذا المؤمن قد تزود من العبادة والذكر والقرآن والاستعاذة ما يستطيع أن يرد بها كيد شياطين الجن والإنس ومفاسدهم وشرورهم، يقول تبارك وتعالى: {چ چ چ چ د ی ت ت ت ت} (908)، أي إذا أصابك من الشيطان شيء بفعل معصية أو شر فالحجأ إلى الله تعالى واستعذ به من الشيطان، فإنه تعالى لن يخيب ظن عبده ما دام العبد مؤمناً به قائماً بين يديه بالطاعات ومقرباً إليه بالذكر والتضرع والنوافل وفعل الصالحات.

* * *

آثار الذكر على النفس والمجتمع:

أولاً: آثاره على النفس:

⁹⁰³() سورة الزخرف، الآية 36.

904 سورة البقرة، الآية 114.

905 سورة الزمر ، الآية 45

906 ﴿سورة الأنبياء، الآية 105.

907 (سورة الأعراف، الآية 200)

908 (سورة الأحزاب، الآية 35).

إن ذكر الله تعالى بمفهومه الشامل من أداء الفرائض والطاعات، وتقديم الأعمال الصالحة، وقراءة القرآن والاستغفار والاستعاذة والتسبيح والتكبير والتهليل، يقرب صاحبه من الله تعالى، ويرفع قدره ودرجته يوم القيامة، ويكفر عنه سيئاته وخطاياهم، للأدلة الآتية:

- قوله ^{صلى الله عليه وسلم}: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياهُ ولو كانت مثل زبد البحر» (910).

- قوله ^{صلى الله عليه وسلم}: «لَقِيتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأْ أَمْتَكَ مِنْي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التُّرْبَةُ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ وَأَنَّ غُرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»⁽⁹¹²⁾.

⁹⁰⁹ (أ) أخرجه البخاري (ص1112، رقم 6405) كتاب الدعوات، باب فضل التسييح. ومسلم (ص242، رقم 597) كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

⁹¹⁰ (أ) أخرجه البخاري (ص1108، رقم 6384) كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة. ومسلم (ص1174، رقم 2704) كتاب الذكر والدعاء، باب الإكثار من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

٩١١) أخرجه الترمذي (ص79، رقم 3462) كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتهلل.

912 (١) أخرجه البخاري (ص1113، رقم 6408) كتاب الدعاء، باب فضل ذكر الله عز وجل. ومسلم (ص1171، رقم 2689) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر.

لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، قال فيقول: قد غفرتُ لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطأ إنما مرّ فجلس معهم، قال فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»⁽⁹¹³⁾.

- قوله صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحانه الله العظيم»⁽⁹¹⁴⁾.

- قوله صلى الله عليه وسلم: في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»⁽⁹¹⁵⁾.

2- الذكر حياة للقلوب والأبدان:

إن ذكر الله تعالى يحيي القلوب ويعمرّها بالإيمان واليقين، الأمر الذي يدفع صاحبه إلى التفاؤل والاجتهاد في الحياة، فلا تمنعه العوائق من متابعة السير والقدّم إلى الأمام، يقول عليه الصلاة والسلام: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت»⁽⁹¹⁶⁾.

ويقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل»⁽⁹¹⁷⁾.

كما أن الذكر يقوي البدن وينشط الخلايا والدماء في الجسم، ويقضي على العجز والكسل والخمول، لا سيما في الأذكار البدنية، كالصلاة والحج وسائر الأعمال الصالحة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغذّ الغداء سقطت قوتي»⁽⁹¹⁸⁾.

فأثر الذكر على القلب والبدن كأثر الماء على الزرع وأثره على السمك وسائر أشكال الحياة.

3 - الذكر يطمئن النفوس وينزل السكينة:

حين يذكر الإنسان ربه بأداء فرض أو تقديم طاعة أو تسبيح أو استغفار، فإن الله تعالى ينزل عليه السكينة والطمأنينة، ويجعله يواجه الحياة بهدوء وحلم، فلا يغضب ولا يتعصب مهما كان الموقف ثقيلاً ومؤثراً، وهي رحمة من الله

⁽⁹¹³⁾ أخرجه البخاري (ص1305، رقم 7563) كتاب التوحيد، باب ونضع الموازين القسط ليوم القيامة.

⁽⁹¹⁴⁾ سبق تخريجه.

⁽⁹¹⁵⁾ سبق تخريجه.

⁽⁹¹⁶⁾ الوابل الصيب ص 81.

⁽⁹¹⁷⁾ الوابل الصيب ص 84.

⁽⁹¹⁸⁾ سورة الرعد، الآية 28.

تعالى للذاكرين ونعمة كبيرة يحرم منها الغافلون، يقول تبارك وتعالى: {بِمِ بِي بِي تَج تَح تَخ تَم تِي تَب تَج تَم ثِي} (919). ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا يفعد قوم في مجلس يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» (920).

4- الذكر يطرد الشيطان ويدفع الشرور:

بما أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإن معظم الأمراض النفسية التي تصيبه وتلاحقه هي من فعله ووساوسه، ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بالجوء إليه وذكره من قراءة القرآن أو الاستعاذة به من هذا الشيطان، ليتجنب شروره ومفاسده، يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٩٢١). ويقول جل ثناؤه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَوَايَ أَكْثَرُهَا إِنَّهَا تَدْفِعُكُمْ عَنِ الذِّكْرِ وَلَئِنَّكُمْ إِن تَكُنْ إِلَّا يَاسِقِينَ} (٩٢٢).

ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق ذكره: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي» (923).

من أجل ذلك كان لزاماً على المؤمن أن يحافظ على ذكر الله في الصباح والمساء، وحين ينام وعند الاستيقاظ، وعند الدخول إلى البيت والخروج منه، وعند الأكل والشرب، وعند النوم، وعند دخول الخلاء، لأن الشيطان يترصده في هذه المواطن جميعها ويتحين الفرصة للتأثير عليه بالسواوس والهمزات.

5- الذكر يهون المصائب ويذهب الهموم والأحزان:

بما أن الحياة دار ابتلاء واختبار، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لَئِيذِكُمُ يَاجْتَنِبُوا يُنْفِذُ مَطَاسِغَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِئَلَّا يَمَسُّوا فِي أَهْوَانِهِمْ بِأَكْثَارٍ مِّنْهُمْ لَا يَأْمُرُ بِالْعُدْوَانِ أَلَدًا ۚ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} (٩٢٤)، فإن المؤمن معرض فيها للمصائب والابتلاءات، وزأده في هذه الرحلة الشاقة ومواجهة صعابها هو ذكر الله تعالى واللجوء إليه بالدعاء والقرآن والأعمال الصالحة، لأن ذلك يخفف عنه وطأة الخطب وقوة المصيبة، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ نَفِثْنَا فِي أَعْيُنِنَا دُخَانًا فَلَمْ يَذُوقُوا إِلَّا أَلَمًا لَّيِّنًا} (٩٢٥).

⁹¹⁹ () سبق تخريجه.

920 ﴿سورة الناس﴾

⁹²¹() سورة الأعراف، الآية 200.

⁹²²) أخرجه البخاري (ص548، رقم 3293) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم

(ص 1171، رقم 2691) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح.

923 () سورة الملك، الآية 2.

924) سورة التغابن، الآية 11.

925 ﴿سورة البقرة، الآيتان 155-156﴾.

- وحين يغضب يستعيز بالله من الشيطان الرجيم.

- وحين يبتلى بفقد عزيز أو قريب يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهكذا تكون حال الذاكر، فلا يتأفف ولا يتعجب، بل يثبت ويصبر حتى يجعل الله من أمره يسراً، يقول تبارك وتعالى: ﴿ذُنُوبُهُ تَذَاتُهَا﴾ (926).

ولا يمنح هذه المنحة العظيمة والنعمة الكبيرة إلا للذاكرين الشاكرين الذين يتقربون إلى الله تعالى في كل أحوالهم، في السراء والضراء، والرخاء والشدة، يقول عليه الصلاة والسلام في وصيته لأبن عباس رضي الله عنه: «احفظ الله يحفظك تعرّف عليه في الرخاء يعرفك في الشدة» (927).

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أتى رحمتي، فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة» (928).

* * *

ثانيًا: آثاره على المجتمع:

1- الذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر:

إن الذاكر في حالة مراقبة دائمة لنفسه، يحاسبها ويؤنبها، فإذا أخطأ وأذنب أناب إلى الله تعالى وتاب إليه، وإذا ظلم أو اعتدى أعاد المظلمة لأهلها وردّ حقوق أصحابها، لأنه يخاف الله الذي لا تخفى عليه خافية، ثم إن الذاكر في حالة تواصل وتقرب من الله تعالى وتعهّد معه على الصراط السوي، فلا يمكن من تكون هذه حاله أن يرتكب الفواحش والمنكرات، يقول تبارك وتعالى: {وَأُوْزُوْا زَوْجُوْكُمْ وَيَسْلَمُوْا عَلَيْكُمْ ذٰلِكَ اَمْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ} (٩٢٩) .

فلا يلتقي سبيل الاستقامة والهداية الذي يدعو إليه الله مع سبيل الانحراف والغواية الذي يدعو إليه الشيطان، يقول تعالى: {ثُمَّ يَأْتِي بَعْضُ بَعْضٍ

⁹²⁶() أخرجه أحمد (1/307، رقم 2804). والحاكم (3/623، رقم 6303).

927} الوابل الصيب لابن القيم ص 93.

928) سورة العنكبوت، الآية 45.

929 ﴿سورة يونس، الآية 25﴾

وهذا يعني أن مع الذكر تنتشر الفضيلة في المجتمع، وتسود القيم والأخلاق بين أبنائه، وتزول الرذيلة وأسبابها، بخلاف المجتمع الذي يغفل أبناؤه عن ذكر الله، فنتمكن الشياطين منهم وتزين لهم الفواحش والمنكرات، حتى يتحول هذا المجتمع إلى غابة مليئة بالعقد الاجتماعية والمشكلات الأخلاقية، والحرمان الاقتصادي وغيره، يقول تعالى: {ثُمَّ نُؤْتُوهُ نِسَاءً بِئْسَ مِثْقَالُهُ يَتَذَكَّرُ فِي يَوْمٍ ذُو نَقْمٍ} (92).

إن ذكر الله تعالى يغذي روح المحبة والتعاون بين أبناء المجتمع، لأنه يطرد الشياطين من بينهم، فتصفي قلوبهم وتتمازج مشاعرهم، وتتوحد قضاياهم المصيرية، وبالتالي لا يبقى في المجتمع مكان لأسباب الفرقة والتمزق من الحقد والكراهية والشحناء.

3- الذكر يجلب الخيرات:

930) سورة فاطر، الآية 6.
931) سورة طه، الآية 124.
932) أخرجه مسلم (ص44، رقم 54) كتاب الإيمان، باب لا يدخل الجنة إلا مؤمن وأن محبة المؤمنين من الجنة، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها.
933) سورة نوح، الآيتان 10-11.
934) سورة هود، الآية 52.
935) سورة إبراهيم، الآية 7.

كما أشار الله تعالى في كتابه المبين إلى أن شكر النعمة - الذي هو نوع من الذكر - هي أيضاً من أسباب السعة في الرزق والبركة فيه، وإن كفر النعمة والجود بها يعدّ من أسباب النقمة وزوال النعم والبركات، حيث قال: ﴿وَقَدْ قَفَّ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ﴾⁽⁹³⁶⁾، وقال أيضاً: ﴿تُتُّ تُتُّ تُّ تُتُّ فُفُّ فُفُّ فُفُّ فُفُّ﴾⁽⁹³⁷⁾.

4 - الذكر عامل للنصر و التمكين:

يعدّ ذكر الله تعالى من الأسباب المهمة للقوة والتمكين في الأرض والنصر على الأعداء، كما جاء في دعوة هود عليه السلام لقومه بالاستغفار {يُؤْتُوا نُورًا} (٩٣٨). فكان من نتيجة ذكر الله تعالى بالاستغفار نزول الأمطار وحلول البركات، إضافة إلى زيادة في القوة التي جاءت نكرة، والتي تدل على عموم القوة سواء في المجال العسكري أو الاقتصادي أو العلمي أو الثقافي وغيرها.

كما أمر الله تعالى عباده المؤمنين عند لقاء عدوهم في المعارك والحروب أن يبادروا بالجوء إليه بالذكر من صلاة وقيام ودعاء وقراءة للقرآن وغيرها، فقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتَ فِي الْقُرْبَىٰ عَدُوًّا فَجَاءَ نَصْرُكَ وَالْعُظَمَىٰ﴾ (939).

* * *

وأخيرًا:

فإن ذكر الله من أفضل الطاعات، وأهم القربات إلى الله تعالى، لأنها تشمل معظم العبادات القولية والفعلية، والذكر بأنواعه المختلفة هو زاد المؤمن في الحياة لمواجهة شرور الشياطين من الإنس والجان، الذين يعملون لإغواء النفس وإفسادها، وإخضاع الجسد وأسرته للشهوات والأهواء، وهذا يفرض على المسلم المحافظة على الذكر والدوام عليه في معظم أوقاته، حتى يقطع طريق الشر عن نفسه وأهله وأبنائه، وحتى يركن إلى هدوء النفس وراحة البال التي من خلالها يمكن أن ينطلق نحو الحياة بجد وإخلاص، وتكفل جهوده بالنجاح والإبداع، ويصل إلى تحقيق أهدافه المنشودة بأسرع وقت وأفضل النتائج.

⁹³⁶() سورة النحل، الآية 112.

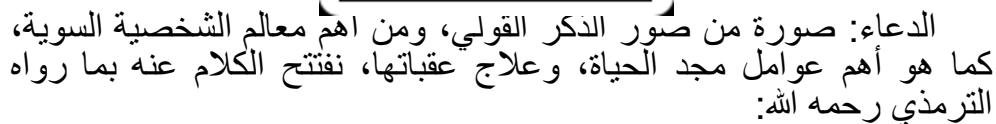
937 سورة هود، الآية 52.

938 ﴿سورة الأنفال، الآية 45﴾

939 } أخرجه الترمذي (ص 08

(أخرجه الترمذي (ص808-809، رقم 3548) كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم .
وأحمد (5/234، رقم 22097). والحاكم (1/669، رقم 1813). قال الحاكم: صحيح الإسناد.





حدثنا الحسن بن عرفة: حدثنا يزيد بن هارون عن عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً يعني أحب إليه من أن يُسأل العافية» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء» (940).

في اللغة: دَعَا بالشيء دَعْوًا، ودَعْوَةً، ودُعَاءً، ودَعْوَى: طلب إحضاره. ويقال: دعا بالكتاب. والشيء إلى كذا: احتاج إليه. ويقال دعا: الله رجاً منه الخير، ولفلان: طلب الخير له. ودعا على فلان: طلب له الشر. فالدعاء: ما يُدعى به الله من القول (ج) أدعية⁽⁹⁴¹⁾.

في الاصطلاح: يعني الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه ومنااداته لجلب النفع والخير، ودفع الشر والأذى.

المعاني الواردة للدعاء في كتاب الله:

1- العبادۃ، كما في قوله تعالى: {وَوُؤِيْ يٰۤاٰمَنُۢم} (942).
وقوله تعالى: {يٰۤاٰمَنُۢم تَذٰتُّ تَذٰتُّ} (943).

2- الاستغاثه، كما في قوله تعالى: {تَوَوَّنُوْا نُوْثُوْا نُوْثُوْا} (944).

3- التنزيه والتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ﴾ {٩٤٥}.

4- النداء، كما في قوله تعالى: {بج بح بخ بم بی بی تج} ⁽⁹⁴⁶⁾.

⁹⁴⁰() المعجم الوسيط، مادة (دَعَا)، 1 / 286-287.

⁹⁴¹(سورة الأعراف، الآية 194).

942) سورة غافر، الآية 60.

943 سورة البقرة، الآية 23.

944 } سورة يونس، الآية 10.

945 سورة الأعراف، الآية 15

946 سورة الحج، الآية 13.

(۷) ۵۵-۵۶: ۱۱۰

- 5- القول، كما في قوله تعالى: {يٰٓاَيُّهَا مَنۡ مَّ نُو} (947) .
- 6- التمني، كما في قوله تعالى: {ثُمَّ تَدُفُّهُ فَوْقَ قَفْحٍ فَجَّ} (948) .
- فضل الدعاء:

يتبين فضل الدعاء وأهميته من خلال حثّ الشارع عليه من الكتاب والسنة، يقول تبارك وتعالى: {يٰٓاَيُّهَا مَنۡ مَّ نُو} (949) .

فهو التوجه المباشر إلى الله تعالى وحده، دون وسيلة أو وساطة، حيث يبتدئ العبد شكواه إلى خالقه، ويعلن بين يديه ضعفه وقلة حيلته، ثم يطلب سؤله وما يرجوه من الخير والمنفعة، فأن الله قريب من عباده، ورحمته واسعة عليهم، مهما اقترفوا السيئات، يقول تعالى: {يٰٓاَيُّهَا مَنۡ مَّ نُو} (950) .

كما يشير إلى فضل الدعاء ومكانته عند الله تعالى قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء» (951) .

وهذا يعني أن الله تعالى يحب أن يكون عبده على صلة دائمة معه عبر حبلى الدعاء ليستمتع إليه ويجيبه بقضاء حاجته وتفريج همه، لكنه بالمقابل يبغض من لا يتضرع إليه بالدعاء، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه» (952) .

فلا غنى للمؤمن عن الدعاء لأنه تجسيد عملي لمعنى العبودية لله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة» (953) .

وقد كان الدعاء سنة الأنبياء والرسل من قبل، والوسيلة التي يلجؤون بها إلى الله تعالى ليرحمهم ويغفر لهم، ويرزقهم الذراري الصالحة، ويعينهم على المعاندين من بني قومهم، يقول تبارك وتعالى على لسان نوح عليه السلام: {يٰٓاَيُّهَا مَنۡ مَّ نُو} (954) .

(947) سورة فصلت، الآية 31.

(948) سورة غافر، الآية 60.

(949) سورة البقرة، الآية 186.

(950) أخرجه الترمذي (ص770، رقم 3370) كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء. وابن ماجه (ص546، رقم 3829) كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء. وأحمد (2/362، رقم 8733).

وهو حديث حسن.

(951) أخرجه الترمذي (ص770، رقم 3373) كتاب الدعوات، باب من لم يسأل الله يغضب عليه. والحديث حسن.

(952) أخرجه أبو داود (ص220، رقم 1479) كتاب الوتر، باب الدعاء. والترمذي (ص668، رقم 2969) كتاب التفسير، باب سورة البقرة. وابن ماجه (ص546، رقم 3828) كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء. وهو حديث صحيح.

(953) سورة نوح، الآيات 26-28.

[illegible][illegible]

أنواع الدعاء:

يمكن تقسيم الدعا إلى قسمين وفق مضمونه والحالة التي تدفع صاحبه إليه:

1- دعاء المسألة: وهو ما يسأله العبد من ربه لجلب الخير والمنفعة له، وكشف الضر والأذى عنه ودفعه. كمن يقول: اللهم ارحمني واغفر لي وعافيني واعف عني، أو يقول: ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واكشف الضر عني، وهكذا.

فمن دعاء المسألة ما وصى به النبي عليه الصلاة والسلام ابن مسعود بقوله: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽⁹⁵⁸⁾.

2- دعاء العبادة: فهو شامل لجميع القربات من الطاعات والعبادات القولية والفعلية، كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد والإحسان إلى الناس والدعوة إلى الله وقراءة القرآن والأذكار، وجميع ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى. والشاهد على ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٩٥٩). ويقول عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة» (٩٦٠).

وبهذا ؛ فإن مفهوم دعاء العبادة أشمل من دعاء المسألة، بل إن دعاء المسألة يدخل في دعاء العبادة، لأنه لون من ألوان العبودية لله تعالى حين يقف العبد بين يدي

⁹⁵⁴() سورة إبراهيم، الآيتان 35-36.

955 ﴿سورة آل عمران، الآية 38.﴾

956) سورة الأنبياء، الآية 87.

957) أخرجه الترمذي (ص572، رقم 2516) كتاب صفة الجنة، باب حديث حفظة. وأحمد (1/293، رقم 2669). قال الترمذي: حسن صحيح.

958 () سورة غافر، الآية 60.

959) سبق تخريجه.

960 سورة الزمر، الآية 3.

ربه ويدعوه بإسباغ النعم عليه وكشف الضر عنه.

شر و ط الدعاء:

حتى يكون الدعاء مقبولاً عند الله تعالى لا بد من توافر بعض الشروط والضوابط التي تدخله في إطاره الشرعي، ليتحقق معنى العبودية ويحصل مطلب الاستجابة، ومن أهم هذه الشروط:

أولاً: إخلاص الدعاء لله وحده:

بأن يتوجه العبد بدعائه إلى الله تعالى وحده دون غير سواء، فلا يسأل إلا الله، ولا يطلب إلا من الله، ولا يتعرض إلا لله، ولا يقدم الثناء والتعظيم إلا لله، فلا يتخذ للتواصل مع الله تعالى وسائط ووسائل ليقربهم إليه من تماثيل أو أحجار أو أشخاص كما كانت تفعله العرب في الجاهلية، فإنها شرك بالله تعالى كما قال: ﴿ذُذْ ذُرُّهُ رُبٌّ كَرِيهٌ مُّبِينٌ﴾ (٩٦).

ذلك لأن الله تعالى أمر عباده اللجوء إليه مباشرة من غير وسيط، فإنه قريب منهم، يسمع دعاءهم وشكواهم فلا حاجة لمثل تلك الآلهة والمعبودات للوصول إلى الله تعالى أو إيصال الدعاء إليه، يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ دِينَهُ وَاعْبُدُوهُ هَدًى قَبْلَ الْبَاطِلِ الْبَاطِلُ مَكْرُوهٌ كَثِيرٌ ۚ يَأْتِيكُمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَغْشَاكُمُ الْبَاطِلُ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (٩٦٢).

وأما الدعاء لغير الله تعالى والتوسل بالأشخاص والأحجار والأشجار فإنها لا تزيد صاحبه إلا ضللاً وانحرافاً عن هدي الله تعالى، لأن تلك المعبودات من خلق الله وصنعه، ولا تستطيع دفع الضر عن نفسها، فكيف تدفعه عن غيرها؟! يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ وَوُفِّى بِرَدَائِي﴾ (963).

وفي وصيته عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت الله وإذا استعنت فاستعن بالله» (964).

ثانيًا: اليقين بقدرة الله تعالى على إجابة الدعاء:

ويدخل هذا في باب حسن الظن بالله تعالى في استجابته لدعاء عبده، وقدرته على تحقيق ما يسأله هذا العبد من الرحمة والمغفرة، ومن كشف الضر وتخفيف المصيبة، وبسط الرزق، وإغداق النعم، وغيرها، لأن الله تعالى تعهد بذلك لعباده فقال: ﴿هَذَا مَا أَنَا بِهِ نَبِيٌّ نَبِيُّ نُبُوَّةٍ نُبُوَّةِ نَبِيِّ نُبُوَّةٍ﴾.

961) سورة البقرة، الآية 186.
962) سورة الأعراف، الآية 194.
963) سبق تخريجه.
964) سورة البقرة، الآية 186.

ند}{⁹⁶⁵، وقال أيضًا: {پ ن ن ن ن ت ت ت ت ت ط ط ط ط ط} {⁹⁶⁶.

فلا ينبغي للعبد أن يدعو وهو يشك في الاستجابة أو غير مطمئن لنتيجة دعائه، لأن رحمة الله أوسع مما يتصوره العبد، وعفوه غير محدود للمنيين إليه، واستجابة الدعاء ليس بعزيز عليه جلّ وعلا، لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأٍ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولاً» (967).

فإنه تعالى يستجيب لعبده الداع لا محال، عاجلاً أم آجلاً، فربما يتحقق الدعاء ويستجاب له بشكل عاجل، وقد يتأخر حيناً من الزمن، يطول أو يقصر، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفراً خائبين»⁽⁹⁶⁸⁾.

والمهم في ذلك كله ألا يستعجل العبد ويقول أن الله تعالى لم يستجب لي، لقوله صلى الله عليه وسلم: «يَسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولْ دَعَوْتَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي» (969).

وإذا لم يتحقق الدعاء في الحياة الدنيا، فإنما يؤخرها الله له في الآخرة، ليكون له نجاة وحجاباً من النار، أو يدفع به ضرراً لقوله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذا نكث؟ قال: الله أكثر» ⁽⁹⁷⁰⁾.

ثالثاً: حضور القلب أثناء الدعاء:

ينبغي أن يكون العبد الداعي، حاضر القلب أثناء الدعاء، يعلم ما يقول، بحيث يتوافق قلبه ويتفاعل مع ما يتضرع به إلى الله تعالى، من ثناء وتعظيم ومن سؤال وشكوى، فلا يكون بلغة غامضة وكلمات مبهمه، كما لا تكون حاله وفكره وقلبه

(965) سورة غافر، الآية 60.
(966) أخرجه البخاري (ص1273، رقم 7405) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ثُمَّ نُؤْتُوهُم مِّمَّا كَفَرُوا مِنْهُنَّ وَمَسْلَمَ (ص1166، رقم 6805) كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.
(967) أخرجه أبو داود (ص221، رقم 1488) كتاب الوتر، باب الدعاء. والترمذي (ص811، رقم 3556) كتاب الدعوات، باب 105. وهو حديث حسن.
(968) أخرجه البخاري (ص1102، رقم 6340) كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل. ومسلم (ص1186، رقم 2735) كتاب الذكر والدعاء، باب أنه يستجاب للعبد ما لم يعجل.
(969) أخرجه الترمذي (ص814، رقم 3573) كتاب الدعوات، باب في انتظار الفجر. وابن ماجه (ص576، رقم 4003) كتاب الفتن، باب فتنة النساء. وأحمد (3/18، رقم 11149).
والحديث حسن صحيح.
(970) أخرجه الترمذي (ص794، رقم 3479) كتاب الدعوات، باب في إيجاب الدعاء بتقديم الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ. والحاكم (1/670، رقم 1817). قال الحاكم: صحيح الإسناد.

غافلاً عما يقوله ويدعو به، يقول عليه الصلاة والسلام: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»⁽⁹⁷¹⁾.

رابعًا: إطابة المال والمطعم والمشرب:

يقول تبارك وتعالى: ﴿ذُذْ ذُذْ ثُثْ رُزْ كِ كِ كِ كِ كِ كِ كِ﴾ {گ گ گ} (972)، فمن أهم شروط قبول الأعمال ودلالاته عند الله تعالى، توفر تقوى الله تعالى وخشيته في النفس، ومن أهم مقتضيات ذلك هو البعد عن محارم الله تعالى ونواهيہ.

وقد ذكر رسول الله ﷺ إحدى هذه المحظورات التي تعيق الدعاء ويمنع القبول وهي تناول المال الحرام عن طريق الربا أو الرشوة أو السرقة أو الغصب وغيرها، ثم استخدام هذا المال في الملبس والمطعم والمشرب وسائر شؤون الحياة، قال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {لَنْ تَدْعُوهُ سُبُوحًا مُتَنَزِّهًا}»⁽⁹⁷³⁾. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَأْكُلْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُتَعَدَّةً}»⁽⁹⁷⁴⁾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذّي بالحرام فأتى يستجاب لذلك»⁽⁹⁷⁵⁾.

خامسًا: الدعاء بالمشروع والبعد عن المحظور:

الدعاء المشروع: ما دعا به النبي ﷺ، والصحاباء رضوان الله عليهم، وكل ما هو مباح من السؤال، من جلب خير ومنفعة، ودفع ضرر أو مفسدة، مثل طلب الرحمة والمغفرة والنجاة من النار، وتفريج الهموم والغموم والمصائب، وكذلك طلب حلول النعم والسعة في الحياة الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَوُوْهُ وُوْهُ وُوْهُ وُوْهُ وُوْهُ وُوْهُ﴾، فلا يكون الدعاء إلا بالخير العام، سواء لصاحبه أو لغيره من المسلمين.

وكان عليه الصلاة والسلام يدعو بمثل هذا الدعاء الخير والشامل، كما جاء في الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» (977).

⁹⁷¹() سورة المائدة، الآية 27.

972) سورة المؤمنون، الآية 51.

973) سورة البقرة، الآية 172.

974) أخرجه مسلم (ص409، رقم 1015) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب.

975 ﴿سورة البقرة، الآية 201.﴾

976) أخرجه مسلم (ص 1181، رقم 2722) كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل.

977) أخرجه مسلم (ص1186، رقم 2735) كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للعبد ما

أما الدعاء المحظور: وهو الدعاء بإثم، أو قطيعة رحم، أو تعجل، وقد نهى عليه الصلاة والسلام بهذا الدعاء بقوله: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»⁽⁹⁷⁸⁾.

كما أن الدعاء بتمني الموت يدخل في هذا الباب وقد نهى النبي ﷺ عنه بقوله: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً للموت فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي» (979).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»⁽⁹⁸⁰⁾.

سادسًا: عدم الاعتداء في الدعاء:

والاعتداء أن يتجاوز الداعي في الدعاء حدود المعقول أو السؤال عن أشياء تعهد الله تعالى بحجبها أو تأجيلها إلى أجل آخرى، وقد نهى الله تعالى عن الاعتداء في الدعاء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ جَمِيعًا حَتَّى تَسْأَلَ الْخَبَرَ﴾ (981).

[illegible]

* * *

فإذا اختلف شرط من هذه الشروط، أو دعا العبد بخلافها؛ فإن ذلك كفيلاً برّد الدعاء وعدم استجابته، بل إن هذه العبادة تنقلب معصية ويترتب عليها الوعيد الشديد من الله تعالى.

إضافة إلى ذلك فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن من أسباب ردّ الدعاء وعدم إجابته ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»⁽⁹⁸³⁾.

لم يعجل.⁹⁷⁸ () أخرجه البخاري (ص1004، رقم 5671) كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت. ومسلم (ص1167، رقم 2680) كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمنى الموت لضرر نزل

٢٣٣^{٩٧٩} () أخرجہ مسلم في المِرجع السابق. ^{٩٧٩} به.

980) سورة الأعراف، الآية 55.

981) سورة النساء، الآية 153.

982} أخرجه الترمذي (ص498، رقم 2169) كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

⁹⁸³() سورة الأعراف، الآية 180.

1- الثناء على الله:

[illegible]

2- استقبال القبلة:

وقد كان عليه الصلاة والسلام يرفع يديه ويستقبل القبلة ويدعو بعد رمي الجمرات في منى، «عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة ثم يتقدم حتى يسهل، فيقوم مستقبل

986 (سورة آل عمران، الآيات 190-193).
987 (أخرجه البخاري (ص282، رقم 1752) كتاب الحج، باب إذا رمى الجمرتين يقول مستقبلاً القبله

صلى الله
عليه وسلم

3- الإقرار بالذنب:

بالعفو

گ گ

بِالْإِصْلَاحِ

4- الخضوع والخشوع أثناء الدعاء:

⁹⁸⁸() سورة الأعراف، الآية 23.

989 ﴿سورة النمل، الآية 44.﴾

⁹⁹⁰() سورة القصص، الآية 16.

⁹⁹²() سورة الأعراف، الآية 55.

993) سورة السجدة، الآية 16.

(4). وهو

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة إلا أعطاه إياه إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له»⁽⁹⁹⁵⁾.

5- الإلحاح بالدعاء:

وهو تكراره والإكثار منه في جلّ الأوقات، فإن الله تعالى لا يملّ من دعاء عبده إذا دعاه، بل إنه يحب ذلك منه، وربما يكون سبباً للإجابة المباشرة، وكان عليه الصلاة والسلام يكرر الدعاء ثلاثاً، لحديث ابن مسعود رضي الله عنه الطويل والذي قال فيه: «... فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، الله عليك بقريش»⁽⁹⁹⁶⁾.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: - وهو في قبة له يوم بدر - أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»⁽⁹⁹⁷⁾.

وقد حث عليه الصلاة والسلام في الإلحاح على الله بالدعاء وعدم إظهار الاستغناء عنه بحجة أن ذلك مستكره له، فقال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له»⁽⁹⁹⁸⁾.

6- رفع اليدين:

ويسن رفع اليدين إلى السماء أثناء الدعاء، وبخاصة في المواضع التي رفع فيها النبي ﷺ يديه، لما في ذلك من تعظيم لله تعالى، ومدى حاجة العبد إليه وقلة حيلته نحوه، يقول أنس رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه»⁽⁹⁹⁹⁾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكراع وهلك الشاء فادع الله أن يسقينا، فمد يديه

حسن لغيره.

⁹⁹⁵ (أخرجه البخاري (ص44، رقم 240) كتاب الوضوء، باب إذا لقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته. ومسلم (ص799، رقم 1794) كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين.

⁹⁹⁶ (أخرجه البخاري (ص482، رقم 2915) كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ.

⁹⁹⁷ (أخرجه البخاري (ص1102، رقم 6338) كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له. ومسلم (ص1167، رقم 2678) كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء.

⁹⁹⁸ (أخرجه البخاري (ص165، رقم 1031) كتاب الاستسقاء، باب رفع الإمام يده في الاستسقاء. ومسلم (ص958، رقم 895) كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء.

⁹⁹⁹ (أخرجه البخاري (ص149-150، رقم 932) كتاب الجمعة، باب رفع اليدين في الخطبة.

ودعاء»⁽¹⁰⁰⁰⁾ .

7- التأمين بعد الدعاء:

ويستحب للعبد التأمين على الدعاء، وهو قوله: «آمين» أي: أجب يا ربنا، لأن الملائكة تؤمن لدعائه، وهو سبب لإجابة الدعاء وحصول المغفرة والرحمة، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا قال أحدكم آمين وقالت الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽¹⁰⁰¹⁾.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل»⁽¹⁰⁰²⁾ .

8- الدعاء بين الجهر والخفاء:

بما أن الدعاء هو التخاطب باللسان مع الله تعالى بحضور القلب، فلا بد أن يتأدب العبد مع ربه حين يخاطبه، وذلك بعدم رفع الصوت أو الصراخ، كما لا يجوز الدعاء بههمة غير مفهومة، بل يكون الأمر وسطاً بين الحالتين.

فقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن رفع الصوت أثناء الدعاء أو التكبير أو التهليل، يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرقنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه معكم إنه سميع قريب مبارك اسمه وتعالى جده»⁽¹⁰⁰³⁾ .

وقالت عائشة رضي الله عنها: «{كَيْفَ كَيْفَ كَيْفَ}»⁽¹⁰⁰⁴⁾ أنزلت في الدعاء»⁽¹⁰⁰⁵⁾ .

9- الدعاء بجوامع الكلم:

كما جاء في الهدى النبوي الدعاء بجوامع الكلم، وعدم الدخول في التفاصيل كثيراً، عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا أصلي وله

¹⁰⁰⁰ () أخرجه البخاري (ص127، رقم 781) كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى. ومسلم (ص174، رقم 410) كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين.

¹⁰⁰¹ () أخرجه مسلم (ص1185، رقم 2732) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمساكين بظهر الغيب.

¹⁰⁰² () أخرجه البخاري (ص494، رقم 2992) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ثم نبي يبعث) . ومسلم (ص1175، رقم 2704) كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالدعاء.

¹⁰⁰³ () سورة الإسراء، الآية 110.

¹⁰⁰⁴ () أخرجه البخاري (ص817، رقم 4722) كتاب التفسير، باب (كَيْفَ كَيْفَ كَيْفَ) . ومسلم (ص188، رقم 446) كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية.

¹⁰⁰⁵ () أخرجه أحمد (6/146، رقم 25180). والحاكم (1/702، رقم 1914) وقال: صحيح الإسناد.

حاجة، فأبطأت عليه، فقال: «يا عائشة عليك بجمال الدعاء وجوامعه» فلما انصرفت من صلاتي قلت: يا رسول الله ما جمل الدعاء وجوامعه؟ قال: «قولي: اللهم إني أسألك الخير كله عاجله وأجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وأجله، ما علمت منه وما لم أعلم، أسألك الجنة ما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، وأسألك مما سألك منه محمد صلّى الله عليه وسلّم وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد، صلّى الله عليه وسلّم وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشداً» (1006).

وكان هذا شأنه عليه الصلاة والسلام في الدعاء، ويعلمها من يدخل الإسلام حديثاً، فعن طارق بن أشيم قال: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يُعلم من أسلم: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني ثم قال: هؤلاء جمع من خير الدنيا والآخرة» (1007).

وعن أنس رضي الله عنه قال: أكثر ما سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يدعو: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» (1008).

10- تحري الأوقات والأزمان:

الأفضل في الدعاء أن يتحرى العبد الأوقات والأماكن المفضلة للدعاء، والتي جاء ذكرها في كتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم، ونذكر بعضاً منها:

- **جوف الليل**، لقوله تعالى: ﴿بِذِئْبٍ بٍ﴾ (1009)، ثم يذكر الله تعالى فضل آخر الليل من حيث أثر العبادة والدعاء والقرآن على النفس فيقول: ﴿قَدْ قَفَّ قَفَّ جِجِ﴾ (1010)، حيث يعم الهدوء والسكينة الأجواء، فتصفي النفس ويرق القلب، ويبدأ العبد بمناجاة ربه ويضع بين يديه حاله من ضعف وخطيئة ومصيبة.

وأثناء هذا الصفاء الكوني والإنساني ينزل الله تبارك وتعالى نزولاً بليق بجلاله وعظمته، ليجيب دعوة عباده وينزل عليهم عفوه ورحمته، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل يعطى هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له حتى ينفجر الصبح» (1011).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «في الليل ساعة لا يسأل الله فيها عبد مسلم شيئاً

(1006) أخرجه مسلم (ص267، رقم 660) كتاب المساجد، باب جواز الجماعة في النافلة.
(1007) أخرجه البخاري (ص768، رقم 4522) كتاب الدعوات، باب قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة. ومسلم (ص1170، رقم 2688) كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة.

(1008) سورة المزمل، الآية 2.

(1009) سورة المزمل، الآية 6.

(1010) أخرجه مسلم (ص307، رقم 758) كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء.

(1011) أخرجه مسلم في المرجع السابق (رقم 757).

إلا أعطاه الله وذلك كل ليلة»⁽¹⁰¹²⁾.

وقد سئل النبي ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات»⁽¹⁰¹³⁾.

- **بين الأذان والإقامة:** وهي فترة زمنية مباركة حين يلبي العباد دعوة الله تعالى للصلاة والفلاح، إلى أن يحين وقت إقامة الصلاة، فقد جعل الله تعالى هذا الوقت مباركاً لأنه بداية الدخول عليه والوقوف بين يديه، حيث تكون الإجابة أقرب من غيره من الأوقات، يقول عليه الصلاة والسلام: «الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة، فادعوا»⁽¹⁰¹⁴⁾.

- **أثناء الصلاة وبعدها:** فقد ثبت عن النبي ﷺ الدعاء أثناء الصلاة بعد تكبير الإحرام وقبل الفاتحة وفي الركوع وعند الاعتدال من الركوع وفي السجود وبعد التشهد الأخير، وكلها مواطن يستحب فيها الدعاء، فضلاً عن دعاء القنوت عند البلاء والنوازل، فمن دعائه صلى الله عليه بعد الاعتدال من الركوع: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم طهرني بالتلج والماء والبرد. اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما تُنقى الثوب الأبيض من الوسخ»⁽¹⁰¹⁵⁾.

كما ثبت عنه صلى الله عليه الدعاء في السجود أثناء الصلاة فقال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»⁽¹⁰¹⁶⁾.

وأما بعد الصلاة وآخر الصلاة بعد التشهد الأخير، فلحديث السابق ذكره عن أسمع الدعاء: «جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات»⁽¹⁰¹⁷⁾.

ويقول معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إنني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»⁽¹⁰¹⁸⁾.

- **في يوم الجمعة:** لقوله صلى الله عليه: «في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم

¹⁰¹² () أخرجه الترمذي (ص798، رقم 3499) كتاب الدعوات، باب ينزل ربنا كل ليلة. وهو حديث صحيح.

¹⁰¹³ () أخرجه الترمذي (ص59، رقم 212) كتاب الصلاة، باب أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة. وأحمد (3/155، رقم 12606). وابن حبان (4/94، رقم 1696). وهو حديث صحيح.

¹⁰¹⁴ () أخرجه مسلم (ص198، رقم 476) كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه في الركوع. ¹⁰¹⁵ () أخرجه مسلم (ص199، رقم 482) كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع.

¹⁰¹⁶ () سبق تخريجه. ¹⁰¹⁷ () أخرجه أبو داود (ص225، رقم 1522) كتاب الوتر، باب في الاستغفار. والترمذي (ص777، رقم 3407) كتاب الدعوات، باب منه (دعاء: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر).

¹⁰¹⁸ () أخرجه البخاري (ص150، رقم 935) كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة. ومسلم (ص342، رقم 852) كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة.

وهو قائم يصلي يسأل الله خيراً إلا أعطاه»⁽¹⁰¹⁹⁾.

- **أثناء الوقوف بعرفة:** ولعرفة فضل زماني ليوميه، ومكاني لموقعه، وهو محل استجابة الدعاء لهذين الفضلين، يقول عليه الصلاة والسلام: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»⁽¹⁰²⁰⁾.

- **الدعاء عند النداء وعند نزول المطر:** لقوله صلى الله عليه وسلم: «ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر»⁽¹⁰²¹⁾.

دعوات مستجابة:

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوات المستجابة في بعض الأحوال حسب حال العبد وزمانه، ومن هذه الدعوات:

1- دعوة المظلوم: وقد كثرت الأحاديث في هذه الدعوة المستجابة وأنه ليس بينها وبين الله حجاب، أي أن الله تعالى يستجيب لها مباشرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»⁽¹⁰²²⁾.

2- دعوة الوالد والمسافر: لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»⁽¹⁰²³⁾.

3- دعوة المسلم لأخيه المسلم في ظهر الغيب: لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل»⁽¹⁰²⁴⁾.

4- دعوة الغازي والحاج والمعتمر: لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم»⁽¹⁰²⁵⁾.

* * *

أخطاء في الدعاء:

وأما عن الأخطاء التي يرتكبها بعض الناس في الدعاء فكثيرة ولا يمكن

¹⁰¹⁹ () أخرجه الترمذي (ص 817، رقم 3585) كتاب الدعوات، باب دعاء يوم عرفة
¹⁰²⁰ () أخرجه أبو داود (ص 368، رقم 2542) كتاب الجهاد، باب الدعاء عند اللقاء. والحاكم (2/124، رقم 2534)، ولفظ أبي داود: «عند النداء وعند البأس».

¹⁰²¹ () أخرجه البخاري (ص 395، رقم 2448) كتاب المظالم، باب الالتقاء والحذر من دعوة المظلوم. ومسلم (ص 31، رقم 19) كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين.

¹⁰²² () أخرجه الترمذي (ص 445، رقم 1905) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين. وابن ماجه (ص 552، رقم 3862) كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم. وأحمد (2/258، رقم 751). وهو حديث حسن.

¹⁰²³ () سبق تخريجه.

¹⁰²⁴ () أخرجه النسائي (ص 364، رقم 2625) كتاب المناسك، باب فضل الحج. وابن ماجه (ص 418، رقم 2893) كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج. وهو حديث صحيح.

¹⁰²⁵ () أخرجه مسلم (ص 117، رقم 2688) كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة.

حصرها، ولكن يمكن الإشارة إلى أهمها:

1- التوسلات الشريكية: وهي الدعاء إلى غير الله تعالى، من الأحجار والأشجار والأموات والأشخاص والصالحين والجن والشياطين وغيرهم، فإنه شرك بجميع هذه الأشكال، لأن الرسول ﷺ بين أن الدعاء هو العبادة، ففعل هؤلاء يعني توجه العبادة لغير الله، وهو الشرك بحقيقته.

2- طلب التعجيل بالعقوبة في الدنيا للنجاة منها يوم القيامة، وهذا خطأ كبير يقع فيه كثير من الناس، فيقول: يا رب إن كنت ستعاقبني أو تعذبني، فاجعلها لي في الدنيا حتى أسلم يوم القيامة وأدخل الجنة، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن هذا الدعاء.
«عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فاجعله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟ قال: فدعا الله له فشفاه» (1026).

3- الدعاء بما هو مستحيل أو ما هو مخالف للعقل أو بما تعهد الله تعالى بإخفائه في الدنيا: كأن يطلب أحدهم الخلود في الدنيا، أو أن يعمر ألف سنة، أو يتحول إلى كائن آخر أقوى من البشر، أو يسأل رؤية الله تعالى في الدنيا، وغيرها من الأدعية الممتنعة شرعاً أو عقلاً، فإن ذلك كله خطأ وحرام في بعض الأحيان، لا يجوز الدعاء بها.

4- الدعاء بقطيعة الرحم: لأن الدعاء في الأصل عبادة لله تعالى، ومسألة لتحقيق منفعة ودرء مفسدة، وقطع الأرحام من المفاصد الكبيرة التي نهى عنها الشارع في الكتاب والسنة، فلا يمكن أن يجتمع هذا الدعاء مع حقيقة الدعاء، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» (1027).

5- الدعاء على الأولاد: وهو من الأخطاء التي تتكرر بين الناس ولا يباليون بها، في لحظات الغضب والانفعال، لا سيما وأن دعاء الوالدين مستجابة، لقوله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده» (1028). فاستجابة الدعوة متوقعة في أية لحظة، وبعدها لا ينفع الندم.

6- الدعاء الغامض وغير المفهوم: قد يرافق الدعاء غفلة القلب وتشتت الفكر، فلا يعلم صاحبه ماذا يريد ومن يسأل، وقد يسهو ويقول في حق الله تعالى ما لا يليق به، لذا أمر الله تعالى بحضور القلب ووضوح الكلام أثناء الدعاء فقال: {وَيْ يٰ يٰ يٰ يٰ يٰ رُدِّئَا نَا نَهْ نَهْ نُوْنُوْ نُوْنُوْ} (1029).

(1026) أخرجه مسلم (ص1186، رقم 2735) كتاب الذكر، باب أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل.

(1027) سبق تخريجه.

(1028) سورة الأعراف، الآية 205.

(1029) سورة الأعراف، الآية 156.

7- تحجير الدعاء: يعني الأنانية في الدعاء، وهي من الأخطاء المنهى عنها في الدعاء، كأن يقول أحدهم: اللهم اهدني وحدي، أو اسقني وحدي. وهذا غير جائز لأن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء فلا يمكن تحجيرها على شخص دون آخر، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا فِتْنَةً﴾ (1030).

وجاء في الصحيح أن أعرابياً قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لقد حَجَرْتَ واسِعاً»⁽¹⁰³¹⁾.

* * *

آثار الدعاء على النفس والمجتمع:

وللدعاء آثار على النفس والمجتمع كما لسائر العبادات والأذكار، ومن أهم هذه الآثار ما يلي:

أولاً: الدعاء سبب لانشرّاح الصدر:

إن العبد حين يبيت لخالقه شكواه ونجواه، فيقف بين يديه ويفضي إليه بكل ما يعانیه ويشكو منه، ويسأله الصبر والثبات، والفرج عن الكربات، فإن هذا الإفضاء يريح النفس ويشرح الصدر، ثم لأن هذه الشكوى لا تكون لمخلوقات مثله وإنما هي لخالق المخلوقات ومدير الأكوان والكائنات، ومسير الأحوال والأزمان، الأمر الذي يسدل على النفس ستار السكينة والطمأنينة.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول عند الكرب وضيق النفس: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»⁽¹⁰³²⁾.

وكان من دعاء موسى عليه السلام طلب انشراح الصدر {ؤؤؤؤؤؤؤؤ} (1033).

ثانيًا: الدعاء يعافي النفس من داء الكبر:

الكبر داء نفسي خطير ناجم عن ضعف العلاقة مع الله تعالى والبعد عنه، وإن اللجوء إلى الله والوقوف بين يديه بالدعاء والعبادات يقوي هذه العلاقة ويقرب العبد منه جلّ وعلا، فلا يمكن أن يجتمع في نفس العبد الكبر على العباد، والتذلل أمام رب العباد، فكان الدعاء الوسيلة الفاعلة والمؤثر لدفع هذا الداء عن نفس صاحبه، وقد أشار الله إلى هذه العلاقة بين الدعاء والكبر فقال: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَكْبُرُوْا عَلٰى سَعٰدَتِكُمْ فَاَنْتُم مِّنْ رَّسُوْلِهِۦ تُخَلَّدُ

¹⁰³⁰ () أخرجه البخاري (ص1051، رقم 6010) كتاب الآداب، باب رحمة الناس والبهائم.

¹⁰³¹ () أخرجه البخاري (ص1103، رقم 6345) كتاب التوحيد، باب قول الله: {ي ي ي}.
ومسلم (ص1184، رقم 2739) كتاب الذكر والدعاء، باب دعاء الكرب.

ومسلم (ص1184، رقم 2739) كتاب الذكر والدعاء، باب دعاء الكرب.

1032 () سورة طه، الآيتان 25-26.

1033 (سورة غافر، الآية 60).

ق} (1034).

ثالثاً: الدعاء يدفع عن صاحبه البلاء:

لقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة يسأل الله فيها العافية والمعافة في الدنيا والآخرة، وهذا يعني أن الدعاء يدفع عن الإنسان كثيراً من البلاءات والمصائب، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل» (1035). كما قال أيضاً: «لا يرد القدر إلا الدعاء» (1036).

كما أوصى عليه الصلاة والسلام الأمة أن يتعوذوا بالله من البلاء والشقاء والمصائب، فقال: «تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» (1037).

ومن أكثر أنواع البلاءات، بلاء المرض، سواء كان نفسياً أو عضوياً، فإنه يعتري جميع الناس، بشكل متفاوت من إنسان إلى آخر، فربما يكون قوياً ومزمناً علي بعضهم ويبقى معهم حتى آخر العمر، وقد يكون ضعيفاً وسهلاً ولا يدوم طويلاً، ومنه ما بين هذا وذاك، وهو في جميع الأحوال بلاء يصيب الإنسان.

وبما أن المرض والشفاء من عند الله تعالى، وهو القادر على إبقاء أحدهما وزوال الآخر، فإن الله جعل الدعاء وسيلة من الوسائل الكثيرة لردّ المرض أو التخفيف من وطأته إذا وقع، وكذلك حفظ الإنسان من سائر الشرور والمصائب، يقول عليه الصلاة والسلام: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (1038).

كما وصّى عليه الصلاة والسلام بطلب العافية العامة في الدين والبدن وذلك من خلال الدعاء واللجوء إلى الله تعالى، فقال: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئاً يعطى أحبّ إليه من أن يسأل العافية، إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء» (1039).

وقد علّم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ ما يقوله من الدعاء عند

(1034) سبق تخريجه.

(1035) أخرجه الترمذي (ص491، رقم 2139) كتاب القدر، باب لا يرد القدر إلا الدعاء. وابن ماجه (ص15، رقم 90) المقدمة.

(1036) أخرجه البخاري (ص1103، رقم 6347) كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء.

(1037) أخرجه مسلم (ص1177، رقم 2708) كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من سوء القضاء.

(1038) سبق تخريجه.

(1039) أخرجه الترمذي (ص972، ص236-237) كتاب الجنائز، باب التعوذ للمريض.

المرض، فعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟» قال: «نعم». قال: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين حاسد بسم الله أرقك والله يشفيك» (1040).

كما ورد أن عثمان بن أبي العاص جاء إلى النبي ﷺ يشتكى من وجع فقال له: «أمسك بيمينك سبع مرات وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد». قال عثمان: ففعلت ذلك، فأذهب الله - عز وجل - ما كان بي. فلم أزل أمر به أهلي وغيرهم⁽¹⁰⁴¹⁾.

رابعًا: الدعاء سبب للثبات عند اللقاء:

كما إن الدعاء من أهم أسباب الثبات والنصر في المعارك، فإن الله تعالى يثبت عباده عند لقاء الأعداء إذا دعوه، وينصرهم عليهم، وقد ضرب الله لذلك مثلاً في قصة طالوت ومن معه حين واجهوا قوة جالوت وجنوده، قال الله تعالى: {كَمْ كَ كْ كِ كُ كٌ كًا} (١٠٤٢)، فقد لجأ هؤلاء القوم الصالحون إلى الله تعالى بالدعاء ليثبتهم وينصرهم على جيش جالوت، فاستجاب الله دعوتهم فكانت النتيجة التي أفرحت المؤمنين: {لَهُ هَاهُنَا وَهَاهُنَا خِيَارَيْنِ} (١٠٤٣).

وكان هذا شأن النبي ﷺ في المعارك والحروب، فقد دعا كثيرًا يوم بدر وألح على الله تعالى في دعائه، يقول ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: - وهو في قبة له يوم بدر - أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» (1044).

خامسًا: الدعاء يساعد في تلاحم المجتمع:

إن الدعاء له أثر كبير في إيجاد روح التلاحم والتآلف بين أبناء المجتمع، لأنه يزيل من قلوبهم درن الحقد وسواد الكراهية، فحين يدعو أحدهم لأخيه المسلم بالعفو والغفران، أو بدوام العافية والنعمة أو كشف الضرر والأذى، فإنما يكسب بذلك قلبه ومحبة، وهذا شأن المؤمن نحو المؤمن في كل الأحوال، يقول تبارك وتعالى: {أَبْ

¹⁰⁴⁰() أخرجه أبو داود (ص552، رقم 3893) كتاب الطب، باب كيف الرقى. والترمذي (ص817، رقم 3588) كتاب الدعوات، باب في الرقية إذا اشتكى. والحديث صحيح.

1041 () سورة البقرة، الآية 250

1042 } سورة البقرة، الآية 251.

1043) سبق تخريجه.

1044 ﴿سورة الحشر، الآية 10﴾

وقد حثَّ الإسلام المؤمنين على الدعاء لإخوانهم، كما في قوله: {يَبِي تَج تَح
تَخ تَم تَي تِي تَج تَم ثِي ثِي جَح جَم حَج حَم} (1046)، وقوله صلى الله
عليه وسلم: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة؛ عند رأسه ملك موكل كلما دعا
لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل» (1047).

كما يقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: «من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء» (1048).

الدعاء هو البوابة التي يقبل منها العبد إلى الله تعالى دون وسيط، وهو الملاذ الذي يلجأ إليه الضعفاء والمظلومون، الذين لا يملكون من الأمر شيئاً أمام جبروت الظالمين والمعتدين، فحين يقع الإنسان تحت وطأة الظلم وثقل أغلاله، فلا يجد بداً بالدعاء إلى من هو أقوى منهم وأقدر عليهم.

وقد ذكر القرآن الكريم الأنبياء والرسل عليهم السلام ومعاناتهم مع أقوامهم، والظلم الذي كان يلحق بهم أثناء دعوتهم إلى الله، فكانوا لا يستسلمون لليأس والفشل وإنما يلجؤون إلى الله تعالى بالدعاء وطلب النصرة.

فقد دعا نوح ربه حين كذّبه قومه واتهموه بالجنون قال تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَا نُوحًا فَكَذَّبَهُ فَأَمَرَ صَاحِبُ الْمَاءِ أَنْ يَكْفِئَهُ فَاثْبَثَتْ عَلَيْهِ فَأَتَيْنَاهُ فَاذْنَبْنَاهُ وَفَجَّعْنَاهُ مَا نُفَعُ} (1049).

ودعا موسى عليه السلام حين توجه إلى مدين هاربًا من بطش فرعون، قال تعالى: {أَبْ يَٰيُثْرِبَ يَٰيُثْرِبَ يَٰيُثْرِبَ} (١٠٥٠).

کما دعا یوسف علیہ السلام حین ظلم وزُجَّ به فی غیاب السجن، قال تعالیٰ
علی لسانه: {ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ کی کک گ گی گگ گب بگ بگ} (1051)۔

واستجاب الله تعالى تلك الدعوات، لأنها خرجت من نفوس مظلومة لا حول لها ولا قوة، ولأن الله عدل لا يحب الظلم لنفسه ولا يحبها بين عباده، وقد حذر عليه الصلاة والسلام أمته من اقتراف هذا الذنب العظيم، وأخبر أن دعوة المظلوم مستجابة

1045 () سورة محمد، الآية 19.

1046 } سبق تخريجه.

1047) أخرجه الترمذي (ص468، رقم 2035) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الثناء

بالمعروف. وهو حديث حسن.

1048 () سورة القمر، الأيتان 9-10.

1049 } سورة القصص، الآية 22.

1050 ﴿سورة يوسف، الآية 33﴾

1051) سبق تخريجه.

عند الله، فقد وصّى معاذًا حين بعثه إلى اليمن قائلاً: «أتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»⁽¹⁰⁵²⁾.

وهنا أوجه رسالتين للظالم والمظلوم:

- **فأما رسالة الظالم:** فأذكره بالعاقبة الوخيمة التي تترتب على ظلمه لنفسه في التقصير بالعبادات وأداء الفرائض واقتراف المعاصي وغيرها، وعلى ظلمه للناس في التعدي عليهم وعلى حقوقهم وأموالهم وأنفسهم، فأذكره بما تؤول إليه حاله حين يقابل ربه في يوم لا مفر منه، يقول الحق جل جلاله: {ثُمَّ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ} ⁽¹⁰⁵³⁾.

فقد حرّم الله تعالى الظلم على نفسه كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»⁽¹⁰⁵⁴⁾. كما قال عليه الصلاة والسلام: «الظلم ظلمات يوم القيامة»⁽¹⁰⁵⁵⁾.

وأقول كما قال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ولا ينفع الندم بعد أن تقع العقوبة، فربما تكون عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُونَ} ⁽¹⁰⁵⁶⁾.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن من أعان على ظلم فهو شريك معه، ومن حابى الظالمين وأقرهم على ظلمهم فإنهم يعرضون أنفسهم للعذاب والعقاب، يقول تبارك وتعالى: {كَيْفَ يَكْفُرُ الْكَافِرُ} ⁽¹⁰⁵⁷⁾.

وهذا المشهد كاف للقيام بمراجعة صريحة للنفس وإنابة صادقة إلى الله تعالى، قبل أن يحلّ الأجل وينتهي العمل، وباب التوبة مفتوح لا يغلق لقوله صلّى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل

⁽¹⁰⁵²⁾ سورة طه، الآية 111.

⁽¹⁰⁵³⁾ أخرجه مسلم (ص1128، رقم 2577) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

⁽¹⁰⁵⁴⁾ أخرجه البخاري (ص395، رقم 2447) كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة.

ومسلم (ص1129، رقم 2578) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

⁽¹⁰⁵⁵⁾ سورة الأنفال، الآية 25.

⁽¹⁰⁵⁶⁾ سورة هود، الآية 113.

⁽¹⁰⁵⁷⁾ سبق تخريجه.

حتى تطلع الشمس من مغربها» (1058).

- وأما رسالة المظلوم: فأذكّره بقول السحرة لفرعون حين تمكّن اليقين من قلوبهم وآمنوا بنبوة موسى عليه السلام، وعرفوا حقيقة الحياة: {وَوُؤِئِيْ

{(1059).

فالدنيا دار عمل والآخرة دار حساب، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، وإن أكبر فوز ونجاة حين يودّع الإنسان هذه الحياة ولا يحمل في صحيفته حقوق الناس ومظالمهم، فينال عند ربه الأمن والسلامة في جناته، يقول تبارك وتعالى: {أَبْ بَ بَ بَ بَ بَ بَ بَ} (١٠٦٠).

ولا يأخذ المظلوم شطط في التفكير أو يستسلم لليأس من ضيق حاله وشدة مظلومته، فإن الله تعالى يسمع ويرى، وهو ليس بغافل عما يعمل الظالمون في أرضه، وإنما يؤخرهم لحكمة من عنده جلّ وعلا، يقول تبارك وتعالى: {ثُمَّ نُنِىءُ بِهِ ثُمَّ نُبَدِّلْهُ نَارًا يَدْعُو يَدْعُو بِصَاحِبِهِ وَيَحْنُ {1061}.

وخير زاد يتزود به المظلوم تقوى الله تعالى والصبر والثبات، لأن الله سبحانه سيجازيه خيراً في الدنيا بالفرج وقسم الظالم وحلول النعم، وثواباً جزاء في الآخرة التي هي أوفى وأبقى، يقول تبارك وتعالى: {ثِيَابُ الْحَبَشَةِ حُمْرٌ مُّسْتَبَرَّاتٌ} (1062)، ويقول: {يَوْمَ يُؤْمَرُ الْوُفُوْدُ أَنْ يُؤْمِرُوا نَارَ يُسِيبُ أَلْفَيْ مِائَةٍ يَوْمَئِذٍ يُرْمَىٰ بِهِ ثِيَابُ نَارٍ يُصَفَّىٰ بِهَا فِرْعَوْنُ وَمِيَثْقَلُ السَّالِكِينَ} (1063).

وفى الختام:

فإن الدعاء عبادة عظيمة، وسنة من سنن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أوجبها الله تعالى على عباده وأحبها لنفسه، فإنه تعالى يحب أن يسمع دعاء عبده وتضرعه إليه، يقول عليه الصلاة والسلام: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل» (1064).

فلا يجوز إهمال الدعاء وفصله عن الحياة والحركة اليومية للإنسان سواء داخل بيته مع أفراد أسرته، أو خارجها مع أبناء مجتمعه في المؤسسة أو المدرسة أو المستشفى أو المتجر والمصنع أو في الشارع، حتى يؤدي رسالته في الحياة بنجاح وتفوق وينشر الخير والسعادة على ظهر الأرض.

1058 () سورة طه، الآية 72.

1059 } سورة الأنعام، الآية 82.

1060 () سورة إبراهيم، الآية 42.

1061) سورة الزمر، الآية 10.

1062) سورة النحل، الآية 41.

1063} أخرجه الترمذي (ص3571، رقم 813) كتاب الدعوات، باب انتظار الفرج وغيره. والحديث إسناده ضعيف، لكن معناه صحيح.

1064 (سورة البقرة، الآية 186).

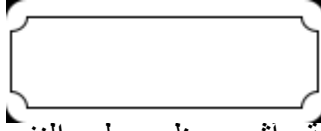
كما لا يجوز الاستهانة بدعاء أحد واستصغار أمره، مهما كانت حاله، فقيرًا كان أو غنيًا، أبيض أو أسود، صغيرًا أو كبيرًا، فالله تعالى قريب من الجميع ويسمع الجميع، وهو القائل: ﴿لَا تَأْتِيهِ سُمْ وَلَا نَجَسٌ ۚ ذُنُوبُ الَّذِينَ أَتَوْنَهُمْ فِي غَرَبِ ثُوْبِهِمْ ذُنُوبُهُمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَدِلِينَ﴾ (1065).

وصدق الشافعي حين قال:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن له أمد وللأمد انقضاء



¹⁰⁶⁵ () أخرجه أبو داود (ص224، رقم 1518) كتاب الوتر، باب في الاستغفار. وابن ماجه (ص545، رقم 3819) كتاب الأدب، باب في الاستغفار. والحديث ضعيف لكن معناه صحيح موافق للقرآن.



الاستغفار عبادة عظيمة، أثره عظيم على النفس في حاضرها ومستقبلها، وفي حال قوتها وضعفها، وصحتها ومرضاها، وفي الدنيا والآخرة، نعرض له في هذا المبحث مفتحين بما رواه أبو داود رحمه الله قال:

حدثنا هشام بن عمار: حدثنا الوليد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه أنه حدثه: عن ابن عباس؛ أنه حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**»⁽¹⁰⁶⁶⁾.

مفهوم الاستغفار:

غَفَرَ الشيء: ستره. ويقال غفر الشيب بالخضاب: غطاه، وغفر المتاع في الوعاء: أدخله فيه وستره، والله له ذنبه: غَفَرًا، وَغُفْرَانًا، ومغفرة: ستره وعفا عنه. واستغفر الله ذنبه، ومن ذنبه، ولذنبه: طلب منه أن يغفره⁽¹⁰⁶⁷⁾.

فالاستغفار: هو طلب المغفرة من الله تعالى، وذلك بستر الذنوب والعفو عنها.

* * *

¹⁰⁶⁶ (المعجم الوسيط 2/ 656 مادة (غَفَرَ)).
¹⁰⁶⁷ (سورة المزمل، الآية 20).

ويمكن تقسيم الحكم الشرعي للاستغفار حسب الحالة التي يكون فيها الإنسان، إلى أربعة أحكام:

1- الواجب: كاستغفار الإنسان من المعاصي والذنوب التي وقع فيها وندم على فعلها، فهو واجب في هذه الحال.

2- المندوب: ويكون مندوباً في الحالات الاعتيادية التي يعيشها الإنسان من غير المعاصي فيستغفر نفسه ولوالديه ولأهله وللمؤمنين.

3- المحرم: وهو الاستغفار للكفار والمشركين، لقوله تعالى: {تَذْذُثْ تَذْذُفْ فَذُوقْ قُوقْ جَجْ جَجْ جَجْ} (١٠٧٢).

هناك علاقة متلازمة بين الاستغفار والتوبة، بل إن بعض أهل العلم لم يفرقوا بينهما لأقربهما من بعض في المعنى، وقد أوضح ابن القيم رحمه الله هذه العلاقة بقوله:

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام: {يٰٓيٰٓجُ نَحْ} ⁽¹⁰⁷³⁾، وقول صالح عليه السلام: {ثُثُثُفْ} ⁽¹⁰⁷⁴⁾.

والمقرون: كقول هود عليه السلام: {نُو نُؤُ نُو نُؤُ نِي نِي بُ نِي نِي
نُدِ يَ يَدِ جُ نَحْ} (١٠٧٥)، وقول شعيب عليه السلام: {دُفْ فُ فَتْفُ قُ قُ قُ

١٥٧٥ () سورة هود، الآية 90.

ج} (1076) « (1077) .

وقال: فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره لا كما ظنه بعض الناس: إنها الستر. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له.

وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب كما في قوله تعالى: {ثَوْنُو ثَوْنُو} نى: نى} (1078)، فإن الله لا يعذب مستغفراً.

وأما من أصر على الذنب وطلب من الله المغفرة فهذا ليس باستغفار مطلق ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وقال رحمه الله: «وأما عند اقتران اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: هي الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين، فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة. وعند أفراد أحدهما يتناول الأمرين كما في قوله: {ه ه ع ع} (1079) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل. قال والاستغفار إزالة الضرر، والتوبة جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية مع ما يحبه» (1080).

* * *

أهمية الاستغفار وحاجة الناس إليه:

الاستغفار هو القناة التي يتواصل المؤمن من خلالها مع ربه، ليتخلص من زلاته أخطائه بطلب العفو والمغفرة منه جلّ وعلا، وهو حريص على هذه القناة حتى لا تنقطع به السبل أو تحجبه الكبائر عن الوصول إلى الله تعالى.

وبحكم طبيعة الإنسان البشرية التي تتأثر أحياناً بالأهواء والشهوات والانقياد معها، فيصيبها غفلة حيناً، ونزوة حيناً آخر، وتقصيراً في عبادة أو تهاوناً في طاعة، فليجأ هذا العبد إلى ربه لتجديد العهد معه والاستغفار والندم على الحالة العارضة عليه، فيبدأ بالاستغفار والإنابة إلى الله تعالى الذي هو أرحم بهذا العبد من نفسه، فيغفر له ويقبل رجوعه إليه، يقول تبارك وتعالى: {ك

1076 (مدارج السالكين 1/ 333).

1077 (سورة الأنفال، الآية 33).

1078 (سورة هود، الآية 3).

1079 (مدارج السالكين 1/ 333).

1080 (سورة النساء، الآية 110).

گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ { ٹ } (۱۰۸۱) .

ويقول له: «يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، وثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»⁽¹⁰⁸²⁾.

لذا كان الإنسان بحاجة إلى الاستغفار بشكل دائم، لأنه معرض بشكل دائم للعثرات، فيتغبر بالذنوب ثم ينتقض منها بالاستغفار، يقول عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»⁽¹⁰⁸³⁾.

ثم إن هناك مجموعة من المعالم التي تعطي هذه العبادة مكانة عظيمة في دائرة الذكر بصورة عامة، ومن أهم هذه المعالم:

1- أنه سنة الأنبياء جميعاً: كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: {ثُمَّ ثَوَّرْتُ لَهُمْ كَيْدَهُمْ} (1084).

وقوله تعالى على لسان نوح حين ينصح قومه ويعظهم: {يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرًا لَّكُمْ وَلَٰكِنْ كُنْتُمْ أَصْرَافًا} (١٠٨٥).

وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: {ئُوْثُوْا ثُوْثُوْا نِيْ: نِيْ: ثِيْ
نِيْ نِيْ يٰ يٰ يٰ نَحْ} (1086).

وكذلك قوله تعالى على لسان آدم وزوجته عليهما السلام بعد أن أكلا من الشجرة فاستغفرا الله تعالى: {أَبْ بَ بَدِبْ پ پ پ پ پ پ پ پ} (١٠٨٧) .

2- أنه كان شأن النبي ﷺ ووصيته لأصحابه وأمنه من بعدهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (1088).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل

¹⁰⁸¹ () أخرجه الترمذي (ص807، رقم 3540) كتاب الدعوات، باب الحديث القدسي: يا ابن آدم.

وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

¹⁰⁸² (أخرج مسلم (ص 1191، رقم 2749) كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار.

1083 ﴿سورة القصص، الآية 16﴾

1084 (سورة نوح، الآية 10).

1085) سورة هود، الآية 52.

1086 سورة الأعراف، الآية 23.

1087 أخرجه البخاري (ص 1097، رقم 6307) كتاب الدعوات، باب الاستغفار.

¹⁰⁸⁸ () أخرجه أبو داود (ص224، رقم 1517) كتاب الوتر، باب في الاستغفار. وأحمد (2/45، رقم 9806).

4- أنه سنة الملائكة بصورة دائمة وشأنهم، كما هي دعاء خيارهم وأفاضلهم وهم حملة العرش حين يستغفرون للمؤمنين، يقول تبارك وتعالى: {يَعْلَمُ كَيْفَ تَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تُؤْتَوْنَ} (1091).

أوقات الاستغفار:

1- بعد الفراغ من بعض العبادات كالحج والصلاة مثلاً، يقول تبارك وتعالى: {كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ} (1092).

2- بعد الانتهاء من الكلام والقيام من المجلس، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى كفارة المجلس بقوله: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر ما كان في مجلسه ذلك»⁽¹⁰⁹⁴⁾.

3- يُكْثِرُ مِنَ الْاِسْتِغْفَارِ عِنْدَ حَبْسِ الْأَمْطَارِ وَالْجَفَافِ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
لِسَانِ هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {نُؤُوءُوا نُونُوءِي. مَي. نُئِي مَي. ئِي ي. ي. ئِي ج

¹⁰⁸⁹() سورة الذاريات، الآيات 15-18.

1090 ﴿سورة غافر، الآية 7﴾

1091) سورة البقرة، الآية 199.

¹⁰⁹² أخرجه مسلم (ص239، رقم 591) كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

1093 أخرجه الترمذي (ص785، رقم 3433) كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه.

وقال: حسن غريب صحيح.

1094 () سورة هود، الآية 52.

4- يستحب الاستغفار عند الشعور بالضعف وقلة الحيلة لأنه يجلب العون والقوة لصاحبه، لقول تعالى في الآية السابقة: {ثُمَّ تَوَلَّوْا تُؤْمِنُوا} (1097) .

5- وجوب الاستغفار من الشرك والكفر والنفاق، لقوله تعالى: ﴿لَطُفْتُ لَهُ﴾⁽¹⁰⁹⁸⁾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»⁽¹⁰⁹⁹⁾.

6- يكثر الاستغفار للميت بعد دفنه، لقول عثمان رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل» (1100).

7- يستحب الاستغفار عند النصر والتمكين وتوالي النعم من الله تعالى،
أقوله جل ذكره: { ق ج ح ه ز ط ي ك ل م ن هـ و ز ح ط ي ك ل م ن هـ و ز ح ط ي ك ل م ن }⁽¹¹⁰¹⁾.

[illegible]

8- يكثر من الاستغفار عند كسوف الشمس وخسوف القمر، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم ذلك فصلوا، وادعوا حتى يكشف ما

1095 () سورة نوح، الآية 10-11.

1096 ﴿سورة هود، الآية 52﴾

1097 سورة هود الأيتان 3-2.

¹⁰⁹⁸) أخرجه أبو يعلى (1/62، رقم 61). والبخاري في الأدب المفرد (ص250، رقم 716).

وہو حدیث صحیح.

¹⁰⁹⁹ () أخرجه أبو داود (ص470، رقم 3221) كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت.

وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (ص 1/526، رقم 1372). وَالْبَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (4/56، رقم

(7315). والحديث صحيح.

1100 () سورة النصر.

1101) سورة هود، الآية 61.

¹¹⁰² أخرجه البخاري (ص172، رقم 1063) كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة.

بكم»⁽¹¹⁰³⁾.

9- يستحب الاستغفار ويكثر منه في آخر الليل عند السحر، حيث أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين يستغفرون في هذا الوقت بقوله: ﴿يُثَبِّتُ لَهُمْ زُجْرَتَهُمْ﴾⁽¹¹⁰⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿كَرَّ كَرَّ﴾⁽¹¹⁰⁵⁾.

10- يستغفر العبد عند الخروج من الخلاء، لقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»⁽¹¹⁰⁶⁾.

11- يكثر من الاستغفار بعد المعصية والخطيئة، لقوله تعالى: ﴿كَرَّ كَرَّ﴾⁽¹¹⁰⁷⁾، ولقوله ﷺ في سيد الاستغفار: «وأبوء بذنبي إليك فاعفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»⁽¹¹⁰⁸⁾.

وغير هذه الأوقات والحالات كثيرة، حيث يوجب على الإنسان أو يشرع له الاستغفار فيها، وجميعها مواطن تذكر الإنسان بقرب الله منه.

* * *

آثار الاستغفار وثمراته:

لكل عبادة وذكر ثمراته واليافعة وآثاره الإيجابية على صاحبه في الدنيا والآخرة، وللاستغفار من تلك الثمرات والآثار الشيء الكثير، من أهمها:

1- الاستغفار سبب لتكفير الذنوب والخطايا، لقوله تعالى: ﴿كَرَّ كَرَّ﴾⁽¹¹⁰⁹⁾ وقوله تعالى: ﴿قَفَّ قَفَّ﴾⁽¹¹¹⁰⁾ سبب لتكفير الذنوب والخطايا، لقوله تعالى: ﴿كَرَّ كَرَّ﴾⁽¹¹¹⁰⁾.

وجاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»⁽¹¹¹¹⁾.

⁽¹¹⁰³⁾ سورة آل عمران، الآية 17.

⁽¹¹⁰⁴⁾ سورة الذاريات، الآية 18.

⁽¹¹⁰⁵⁾ أخرجه الترمذي (ص3، رقم7) كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء. وابن ماجه (ص46، رقم300) كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء.

⁽¹¹⁰⁶⁾ سورة النساء، الآية 110.

⁽¹¹⁰⁷⁾ أخرجه البخاري (ص1076، رقم6306) كتاب الدعوات، باب فضل الاستغفار.

⁽¹¹⁰⁸⁾ سورة النساء، الآية 110.

⁽¹¹⁰⁹⁾ سورة آل عمران، الآية 135.

⁽¹¹¹⁰⁾ أخرجه مسلم (ص1128، رقم2577) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

⁽¹¹¹¹⁾ أخرجه الترمذي (ص807، رقم3540) كتاب الدعوات، باب مغفرة الله لخطايا العبد. وأحمد (5/172، رقم21544). قال الترمذي: حسن صحيح.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك» (1113).

3- الاستغفار يحفظ المستغفر من الخزي والعذاب في الدنيا: لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (116).

[illegible]

6- الاستغفار سبب في نزول الأمطار وزوال القحط والجفاف، وإخراج

¹¹¹² () أخرجه مسلم (ص1195، رقم 2758) كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب.

1113 { سبق تخريجه.

1114) أخرجه ابن ماجه (ص545، رقم 3818). والنسائي في السنن الكبرى (6/118، رقم

(10289). وهو حديث صحيح.

1115 () سورة الأنفال، الآية 33.

1116 } سبق تخريجہ

1117 سورة هود، الآية 3

1118) سورة نوح، الآيتان 10-11.

الخير والبركات من الأرض، مما يأكل منه الإنسان والأنعام، لقوله تعالى على لسان نوح: {يٰٓيٰٓرَبِّ اِنِّىْ اَسْتَغْفِرُكَ} (1119).

7- الاستغفار يزيد النفس بياضاً ونقاءً، لأنه يمحو ما فيها من الذنوب والخطايا التي تسود صفحاتها، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه وذاك الران الذي ذكر الله عز وجل في القرآن: {جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ} (1120)» (1121).

8- الاستغفار يفرج الهموم ويزيل الكربات، ويدخل في النفس السكينة والاستقرار، ويجعلها مطمئنة وراضية بأمر الله تعالى وقضائه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» (1122).

9- الاستغفار يزيد في الرزق ويوسع فيه، ويبارك في الأولاد والبنين، لقوله تعالى: {يٰٓيٰٓرَبِّ اِنِّىْ اَسْتَغْفِرُكَ} (1123).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» (1124).

10- الاستغفار يمنح العبد محبة الله تعالى ويزيد من الحب والود بين المؤمنين لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله تعالى واستغفرا غفر الله عز وجل لهما» (1125).

11- الاستغفار يمنع صاحبه من الانشغال بعيوب الناس، ويصرفه إلى عيوب نفسه وآثامها وزلاتها، فيستغفر لها ويتوب عنها، لأنه يعرف أنه مقبل على يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

12- الاستغفار سبب لمنح القوة والتمكين في الأرض، والتغلب على الأعداء وعدم الرضوخ للمجرمين، لقوله تعالى: {ثُمَّ ثَوُّوا ثَوْنًا} (1126).

(1119) سورة المطففين، الآية 14.
(1120) أخرجه ابن ماجه (ص618، رقم 4244) كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب. والترمذي (ص761، رقم 3334) كتاب التفسير، باب ومن سورة المطففين ولفظه «إن العبد إذا أخطأ خطيئة». وهو حديث حسن.

(1121) سبق تخريجه.
(1122) سورة نوح، الآيات 10-12.
(1123) رواه أبو داود، برقم 1518، ص 224. ورواه أحمد والحاكم.
(1124) أخرجه أبو داود (ص731، رقم 5213) كتاب الأدب، باب المصافحة.
(1125) سورة هود، الآية 52.

* * *

وأخيرًا:

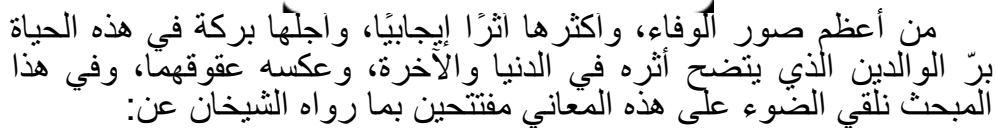
فإن الاستغفار من الأذكار التي حثَّ عليها الله تعالى في آيات كثيرة، كما حفلت السنة النبوية بكثير من الأحاديث الواردة في وجوب الاستغفار وأثاره الإيجابية على حياة الإنسان وبعد مماته، وهو من سنة الرسل والأنبياء عليهم السلام، بل كان من الأمور المهمة التي كانوا يدعون أقوامهم إليها، ويدل ذلك على عظم شأن هذا الذكر وأهميته للإنسان.

ومن هنا وفي زحمة الأهواء والشهوات، وفي خضم أمواج الفساد القادمة من كل مكان، وفي ظل الضغوطات النفسية والاجتماعية والاقتصادية، كان لزماً على المؤمن الإكثار من الاستغفار، وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى على ما يصيبه من المعاصي أو الزلات، أو الغفلة عن بعض العبادات، وفي الوقت نفسه يسأله الثبات أمام ما يحيط به من ألوان المغريات والمفسدات.

هذا ؛ وإن الاستغفار لا يخص أناساً دون آخرين، بل كلهم بحاجة إلى هذا الذكر العظيم للخروج من أزمتهم واستقامة أحوالهم، ابتداءً من الحاكم والوزير ومروراً بالموظف والطبيب والتاجر والمزارع والعامل وانتهاءً بالأسرة وما فيها من زوج وزوجة وبنات وبنين، ينبغي على الجميع ملازمة الاستغفار والإكثار منه، لأن رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يستغفر في اليوم مئة مرة، فكيف ونحن البشر المنغمسون في بحور الخطايا والذنوب، وفي أحوال الغفلة والتقصير عن الطاعات وأسباب القرب من الله تعالى!!



¹¹²⁶ () أخرجه البخاري (ص1045، رقم 5970) كتاب الآداب، باب قول الله تعالى: (ث ث ذ). ومسلم (ص52، رقم 85) كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على تارك الصلاة.



ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الصلاة على وقتها، قال ثم أي؟ قال: ثم برّ الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله⁽¹¹²⁷⁾.

برّ الوالدين يعني طاعتهما والقيام بشؤونهما، ويندرج تحته جميع صور الرعاية والعناية بهما، قولياً وعملياً ومالياً، لقوله تعالى: ﴿كَبَّ كَيْدُكُمْ أَنْ تَصَدَّقُوا حَتَّىٰ يُؤْخَذَ مِنْكُمْ أَرْبَابٌ مُّقْرَّبُونَ﴾ {١٢٨}، وقوله تعالى: ﴿ثَنَّنَا ثُنَائِهِ لَوْلَا هُوَ رَبُّنَا الَّذِي أَلَمَّ بِهِ كُلٌّ فَهَكَذَا بَرِّ الْوَالِدَيْنِ﴾ {١٢٩}.

فضل برّ الوالدين:

إن بر الوالدين من الواجبات الشرعية الكبرى التي ينبغي القيام بها، حيث أعدّ الله تعالى للبارّين بالوالدين الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة، كما أعدّ للعاقين بهما خلاف ذلك من العقاب في الآخرة والعقوبة العاجلة في الدنيا.

ويمكن بيان فضل برّ الوالدين من خلال المعالم الآتية:

[illegible]

2- أمر الله تعالى الإنسان ووصّاه أن يقوم بواجب البر نحو أبيه على

¹¹²⁷() سورة الإسراء، الآية 23.

1128) سورة العنكبوت، الآية 8.

1129) سورة الإسراء، الآية 23.

1130) سورة البقرة، الآية 83.

1131 } سورة النساء، الآية 36.

1132 (سورة الإسراء، الآية 23).

1133) سورة لقمان، الآية 14.

* * *

1139) سورة نوح، الآية 28.

برّ الوالدين في قصص الأنبياء:

ذكر القرآن الكريم نماذج وأمثلة عن الأنبياء السابقين عليهم السلام في برِّ
الوالدين، من التوصية بهم والدعاء والاستغفار لهم، وغير ذلك من ضروب البرِّ
والإحسان الكثيرة، ومن تلك النماذج:

[illegible]

- كلام عيسى عليه السلام الذي يشير إلى برّ الوالدين بقوله: {نُحْنُ طُ طُ دُ} (1141).

- أخبر الله تعالى عن برّ يحيى عليه السلام بوالديه، فقال: {ت ت ت ت ت} (1142).

[illegible]

- أما حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في البرّ بوالديه، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يدركما في بلوغه وإنما كانت فترة الطفولة القصيرة مع أمه فحسب، لكنه عليه الصلاة كان يزور قبرهما، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال صلى الله عليه وسلم: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» (1144).

وقد ظهر برّه عليه السلام بأمه من الرضاعة، فعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: رأيت النبي ^{صلى الله عليه وسلم} يقسم لحمًا بالجعرانة، قال أبو الطفيل وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي ^{صلى الله عليه وسلم} فبسط لها رداءه فجلست عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أمه التي أرضعته⁽¹¹⁴⁵⁾.

¹¹⁴⁰() سورة مريم، الآية 32.

1141 () سورة مريم، الآية 14.

1142 (سورة مريم، الآيات 41-45).

1143) أخرجه مسلم (ص392، رقم 2259) كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم زيارة قبر أمه

¹¹⁴⁴() أخرجه أبو داود (ص723، رقم 5144) كتاب الأدب، باب في بر الوالدین.

¹¹⁴⁵ أخرجه أبو داود (ص723، رقم 5145) كتاب الأدب، باب في بر الوالدين.

كما كان عليه الصلاة والسلام يصل أباه وأخاه من الرضاعة، يقول عمر بن السائب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعده عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه⁽¹¹⁴⁶⁾.

* * *

من صور البرّ بالو الدين:

لا يمكن حصر صور البرّ بالوالدين وتحديدّها ضمن إطار ثابت، لأن البرّ يشمل جميع صور الكلام والتعامل والمشاعر نحوهما، ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الصور على سبيل المثال لا الحصر:

1- خفض الجناح لهما وإكramهما، وتقبيل رأسهما، وحسن ضيافتهما، لقلوبه تعالى: {كُلُّكُمُ رُّؤُوسٌ} (1147).

2- الدعاء لهما في الحياة وبعد الممات، لقوله تعالى: {وَوَوِّدُ وَوَوِّدُ} (1148)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له».

3- عدم التأفف لهما، أو العبوس بوجههما أو انتهارهما، أو إيدائهما بكلام أو فعل، لقوله تعالى: {ثُمَّ لَئِنْ دُعِيتُمْ إِلَى صُلْحٍ فَلَا تُصَلِّحُوا بَيْنَهُمَا} (1149).

4- إدخال السرور والفرحة إلى قلوبهما بجميع الوسائل المتاحة، إما بالهدايا أو العطايا أو النفقات، أو بالكلام اللطيف والمعاملة الحسنة، وزيارتهما بين الفترة والأخرى، ومتابعة أحوالهما النفسية والصحية والمادية وغيرها.

5- إكرام أصحابهما من الرجال والنساء، وكذلك أقربائهما من الأعمام والعمات والأخوال والخالات، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن من أبر البر صلة المرء أهل ود أبيه بعد أو يولي»⁽¹¹⁵⁰⁾.

كما أمر عليه الصلاة والسلام بحسن الصلة بالعم فقال: «العم صنو أبيه»⁽¹¹⁵¹⁾ وكذلك حسن الصلة بالخالة حيث قال: «الخالة بمنزلة الأم»⁽¹¹⁵²⁾.

¹¹⁴⁶() سورة الاسراء، الآية 24.

1147) سورة الإسراء، الآية 24.

1148) سورة الإسراء، الآية 23.

1149) أخرجه مسلم (ص52، رقم 85) كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله من أفضل الأعمال.

1150) أخرجه مسلم (ص395، رقم 993) كتاب الزكاة، باب تقديم الزكاة ومنعها.

¹¹⁵¹(١) أخرجه البخاري (ص440، رقم 2699) كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين.

1152 () سورة مريم، الايات 42-45.

[illegible]

كما أمر الله تعالى بصحبة الوالدين بالمعروف والتواصل معهما وبرّهما، وإن كانا غير مسلمين، ما دام هذا البر في المباح وليس في معصية الله، يقول تبارك وتعالى: ﴿ذُرِّيَّتُكَ ذَرِّهَا لِلَّهِ يَتَّبِعْهُ مَن يَشَاءُ لِيَفْعَلَ بِإِذَا هُم مُّتَحَدِّثُونَ﴾ {١١٥٤} .

7- مقابلتهما بالابتسامة والبشاشة، لأنهما بالأمس القريب سهرتا لأوجاع أبنائهما، وتحملًا كثيرًا من الآلام والعذاب من أجل سعادتهما وراحتهم، بل إنهما أمضيا العمر كله وأفنيا قوتهما وشبابهما من أجل أن يكبر أبناءهما ويتفوقوا في الحياة ويبلغوا المعالي، وقد أبدع أحد الشعراء في تصوير هذا المشهد بهذه الأبيات:

زر والديك وقِفْ على قَبْرِهِمَا
لو كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا
مَا كَانَ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ لَطَالَمَا
كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عَلَّةً
كَانَا إِذَا سَمِعَا أُنَيْنَكَ أَسْبَلَا
فَغَدَرْتَ حَقَّهُمَا عَشِيَّةً أَسْكَنَا
فَلْتَلْحَقْنَهُمَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ
وَلْتَنْدَمْنَ عَلَيَّ فَعَالِكَ مِثْلَمَا
بِشْرَاكَ لَوْ قَدَّمْتَ فِعْلًا صَالِحًا
فَاحْفَظْ - حَفِظْتَ - وَصِيَّتِي
وَأَعْمَلْ بِهَا

* * *

برّ الوالدين بعد الزواج:

إن كثيراً من الناس إذا أقبلوا على الزواج، واستقلوا عن والديهم، وصار عندهم الأولاد والمسؤوليات، أهملوا واجب البرّ بالوالدين، وقلّ اهتمامهم وعنايتهم بهما، وربما يقدم بعضهم طاعة الزوجة على طاعتها، ومجالسة

1153 () سورة لقمان، الآية 15.
1154 () أخرجه البخاري (ص1053، رقم 6024) كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله. ومسلم (ص1133، رقم 2594) كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام.

الصديق على مجالستهما، ومعاشرة الأبناء عن معاشرتهما، والتفكير بالعمل عن التفكير بهما، وكل هذه الأحوال من المحظورات التي ينبغي للإنسان تداركها وعدم الانغماس فيها أو نسيان الواجب الأهم من ذلك كله في برهما والتواصل معهما، وبناء على ذلك ينبغي أن يكون على مستوى كاف من المسؤولية أمام هذه التداعيات الجديدة، حسب الآتي:

- 1- الاستعانة بالله تعالى والدعاء إليه، حتى يثبه الله ويجعله قادراً على تحمل المسؤوليات الاجتماعية الجديدة في حياته بعد الزواج.
- 2- زيادة البرّ بهما، من حيث الزيارات وشراء الهدايا لهما ودعوتهما بين الفترة والأخرى للمنزل، وغيرها، حتى لا يشعر بأن ابنهما تغير بعد الزواج، لا سيما الوالدة، لأن هذا الإحساس يكون عندها أقوى من الوالد.
- 3- الاستقلال بسكن منفرد إذا كانت الأمور ميسورة، ولم تكن هناك حاجة من الوالدين إلى خدمتهم، حتى لا تنشأ الخلافات أو تتنافر النفوس.
- 4- إبعاد الوالدين عن مشكلاته مع زوجته وعدم إفشاء أسرار الأسرة لهما، وحلّ المشكلات بهدوء ورفق داخل البيت وليس خارجه.
- 5- الحرص على التوفيق بين الزوجة والوالدين، من خلال الخطوات الآتية:

- تذكير الزوجة بتقوى الله تعالى، وأن ما يقدمه لوالديه من خير ومنفعة يكون لها الأجر فيه.
- تذكير الزوجة بحقوق الوالدين الشرعية والثواب المترتب عليها، وكذلك تذكيرها بعقوبة عقوقهما والإساءة لهما.
- تذكير الزوجة وتحذيرها من الابتلاء في الدنيا قبل الآخرة إذا وقفت حاجزاً لبرّ والديه، فربما تبتلى بأبناء عاقين في المستقبل، لأن الجزاء كثيراً ما يكون من جنس العمل.
- تذكير الوالدين بضرورة التعامل الحسن مع الزوجة ما دامت لم تخرج عن ضوابط الشرع والعرف العام.
- الإنصاف مع الزوجة أيضاً، بحيث لا يتعدى على حقوقها من أجل والديه، فكما أن للوالدين حقوقاً فإن للزوجة أيضاً حقوقاً، وإذا أمر الوالدان بالاعتداء على هذه الحقوق فلا طاعة لهما.
- إفهام الزوجة والوالدين بأن المشاكسة والتنازع لن يزيد الأمر إلا سوءاً وتعقيداً، وأن الرفق والتسامح سبيل الخروج من جميع المشكلات، لقول النبي عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «مهلاً يا عائشة، فإن الله يحب

الرفق في الأمر كله»⁽¹¹⁵⁵⁾.

* * *

آثار برّ الوالدين:

إن لبرّ الوالدين والإحسان إليهما، آثارًا إيجابية كثيرة تعود بالنفع العام على النفس والمجتمع والأمة، ومن أهم هذه الآثار:

1- حصول رضا الله تعالى للبارّ بوالديه، لقول النبي ﷺ: «رضى الربّ في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد»⁽¹¹⁵⁶⁾.

2- إن برّ الوالدين من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقد سئل النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله: قال الصلاة على وقتها قال ثم أي قال ثم برّ الوالدين قال ثم أي قال الجهاد في سبيل الله⁽¹¹⁵⁷⁾.

3- إن برّ الوالدين سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضيع ذلك الباب أو احفظه»⁽¹¹⁵⁸⁾.

4- سبب لقبول الدعوات وتفريج الكربات، كما ورد ذلك في حديث الرهط الثلاثة الذين أووا إلى الغار ثم سدت عليهم بصخرة، حيث قال أحدهم: «...اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي في طلب شيء يوماً فلم أرخ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقبح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً»⁽¹¹⁵⁹⁾.

5- من برّ والديه يجازى بمثله في الدنيا، فيهب الله له أولاداً صالحين يبرّون به كما كان يبرّ بوالديه، وقد جاء حديث يتضمن هذا المعنى: «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قَبِضَ الله له من يكرمه عند سنه»⁽¹¹⁶⁰⁾.

¹¹⁵⁵ () أخرجه الترمذي (ص444، رقم 1899) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في عقوق الوالدين.

¹¹⁵⁶ () أخرجه البخاري (ص89-90، رقم 527) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها.

¹¹⁵⁷ () أخرجه الترمذي (ص444، رقم 1900) كتاب البر والصلة، باب من الفضل في رضا الوالدين. وابن ماجه (ص300، رقم 2089) كتاب الكفارات، باب في الرجل أمره أبوه بطلاق زوجته.

¹¹⁵⁸ () أخرجه البخاري (ص362، رقم 2272) كتاب الشفعة، باب من استأجر أجيراً فترك أجرته. ومسلم (ص1188، رقم 6949) كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أهل الغار.

¹¹⁵⁹ () أخرجه الترمذي (ص466، رقم 2022) كتاب البر والصلة، باب إجلال الكبير.

¹¹⁶⁰ () أخرجه البخاري (ص1048، رقم 5985) كتاب الأدب، باب إثم القاطع. ومسلم

6- برُّ الوالدين يمنح الإنسان طول العمر، وسعة في الرزق، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سرّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽¹¹⁶¹⁾. ولا ريب أن الوالدين من أقرب الأرحام إلى الإنسان.

7- ينال الإنسان ببرّ الوالدين رضاها، فإذا رضى عنه دُعياً له بالخير والفلاح في الدنيا والآخرة، ودعاؤهما مستجاب كما قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر»⁽¹¹⁶²⁾.

8- إن برّ الوالدين يمنح النفس راحة وسكينة، ويذهب عنها آلام القلق وعتاب النفس إذا قصّر معهما، أو تهاون في خدمتهما.

9- من آثار البرّ بهما ثناء الناس على البارّ بوالديه والذكر الحسن له، لحديث أويس بن عامر القرني الآتي:

«عن أسير بن جابر قال كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى علي أويس؟ فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال نعم، قال لك والدّة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدّة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبرّه فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي، فاستغفر له فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال أكون في غبراء الناس أحب إليّ قال: فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرفهم فوافق عمر فسأله عن أويس قال: تركته رث البيت قليل المتاع. قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدّة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فأتى أويساً فقال: استغفر لي، قال أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لي، قال: استغفر لي، قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لي، قال: لقيت عمر قال: نعم، فاستغفر له ففطن له الناس فانطلق على وجهه. قال أسير وكسوته بردة فكان كلما رآه إنسان قال من أين لأويس هذه البردة»⁽¹¹⁶³⁾.

* * *

(ص1121، رقم 6523) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.
⁽¹¹⁶¹⁾ سبق تخريجه.

⁽¹¹⁶²⁾ أخرجه مسلم (ص1114، رقم 2542) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أويس القرني.

⁽¹¹⁶³⁾ أخرجه مسلم (ص883، رقم 5124) كتاب الأشربة، باب تحريم الذبح لغير الله.

آثار عقوق الوالدين وقطع الأرحام:

وردت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ تحذر من النتائج الوخيمة المترتبة على عقوق الوالدين وقطع صلة الأرحام، ما بين خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة، ومن أهم هذه النتائج والآثار:

1- إن عقوق الوالدين وقطع الأرحام سبب في نزول اللعنة على العبد، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لعن الله من لعن والديه»⁽¹¹⁶⁴⁾.

2- إن عقوق الوالدين تعدّ من كبائر الإثم، لقول النبي ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبّ أباً الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمه فيسبّ أمه»⁽¹¹⁶⁵⁾.

وقال ﷺ أيضاً: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشرak بالله وعقوق الوالدين»⁽¹¹⁶⁶⁾.

3- إن عقوق الوالدين سبب لسخط الله تعالى وغضبه وعذابه، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «رضا الربّ في رضا الوالد وسخط الربّ في سخط الوالد»⁽¹¹⁶⁷⁾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»⁽¹¹⁶⁸⁾.

4- تأتي عقوبة عقوق الوالدين وقطع الأرحام - أحياناً - معجلة لصاحبه في الدنيا، لقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»⁽¹¹⁶⁹⁾.

5- لا ينظر الله تعالى يوم القيامة إلى من عقوق والديه، لقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة المترجلة والديوث وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه والمدمن على الخمر والمنان بما

¹¹⁶⁴ () أخرجه البخاري (ص1046، رقم 2973) كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه. ومسلم (ص54، رقم 90) كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها.

¹¹⁶⁵ () أخرجه البخاري (ص430، رقم 2653) كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور وأكبرها. ومسلم (ص53، رقم 87) كتاب الإيمان، باب الكبائر.

¹¹⁶⁶ () سبق تخريجه. ¹¹⁶⁷ () أخرجه مسلم (ص54، رقم 94) كتاب الإيمان، باب رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر فلم يدخل الجنة.

¹¹⁶⁸ () أخرجه أبو داود (ص691، رقم 4902) كتاب الأدب، باب في الحسد. والترمذي (ص571، رقم 2511) كتاب صفة القيامة، باب في عظيم الوعيد على البغي وقطيعة الرحم. وهو حديث صحيح.

¹¹⁶⁹ () أخرجه النسائي (ص354، رقم 2563) كتاب الزكاة، باب المنان بما أعطى. وأحمد (3/226، رقم 3384).

أعطى» (1170).

6- إن العقوق قد يدفع الوالدين بالدعاء على أبنائهما، ودعائهما مستجاب، وهذا نوع من العقوبة، سواء في الدنيا أو الآخرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «ثلاث دعوات مستجابات، لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده» (1171).

7- إن عقوق الوالدين تجلب في كثير من الأحيان على العبد الابتلاء نفسه من أبنائه، وكما يقول المثل: «كما تدين تدان»، وهذه من العقوبات المستعجلة في الدنيا، والواقع حافل بهذه الحقيقة، حيث يُبتلى بعض الآباء بأبناء عاقين يفسدون عليهم معيشتهم وراحتهم، كما كانوا يفعلون ذلك بأبنائهم في الأمس القريب.

* * *

برّ الوالدين والطمأنينة والسكينة:

إن برّ الوالدين أعظم ما يجلب للعبد الراحة والسكينة والأمن النفسي، والهدوء والطمأنينة، ويبعده عن القلق والاكتئاب والضيق والاضطراب والشكوك والوقوع في المصائب الكبرى.

فكما سبق من تلك الآثار العظيمة، فهذه من أجلها في الدنيا التي تظهر على النفس في تفريج الهموم وتنقيس الكروب. كما ورد حديث الرهط الثلاثة، وحديث: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه» (1172).

فمهما جلب من العقاقير وغيرها لا يستفيد منها إذا كان عاقًا للوالدين،
ويكفي أن أولاده سيعقونه فيشغلونه في هذه الدنيا. والوالدان من أبواب الجنة،
فحافظ على هذه الأبواب.

وفي الختام:

أقول للأبناء: يقول الله تعالى: {وَوَوِّدُ} ⁽¹⁷³⁾. فإنه من الوفاء أن يحسن الإنسان إلى من برّ إليه، وسهر على آلامه وأوجاعه، وقَدِّمَ زهرة عمره وقوة شبابه ليعيش في سرور وحبور، وأمن وأمان، وهي فرصة له أن ينال رضى الله تعالى والقرب منه ويدخل جنته.

1170 () سبق تخريجه.

1171 } سبق تخريجه.

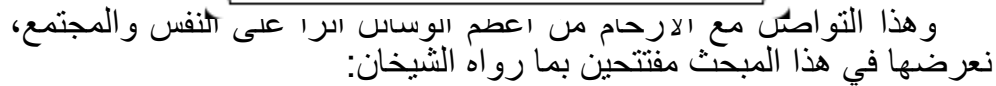
1172 ﴿سورة الرحمن، الآية 60.﴾

1173) سبق تخريجه.



ثم أقول للوالدين: عليهما أن يتَّقوا الله تعالى في أبنائهما منذ النشأة الأولى، ويتابعا أحوالهم وشؤونهم، ويربيهم على حب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب العبادة والطاعة، ويشجعهم على الأعمال الصالحة منذ الصغر، حتى يخرجوا في المستقبل أبناء بارين، يسعد بهم والديهم وإخوانهم ومجتمعهم وقرابتهم، ويصبحوا كالغيث أينما وضعوا أنبتوا نباتًا حسنًا.





عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه» (1174).

من هم الأرحام:

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الرحم هي الأقارب المحرمين، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على بنت أخيها وأختها، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»⁽¹¹⁷⁵⁾.

وذهب الإمام النووي رحمه الله إلى القول: «اختلفوا في حد الرحم التي يجب وصلها فقيل: كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما أنثى والآخر ذكر حرمت مناكحتهما، وقيل: هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث - يستوي فيه المحرم وغيره - وهذا هو الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن من أبر البر صلة المرء أهل ود أبيه» (1176) (1177).

فصلة الرحم: هي التواصل مع الأقارب، وإظهار المحبة معهم، وتقديم العون والخدمة لهم، ضمن الضوابط الشرعية.

فضل صلة الرحم:

لمعرفة فضل هذا الخلق الاجتماعي العظيم ينبغي معرفة ذكره والأمر به في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فقد فاضت النصوص الشرعية حول الأمر بصلة الرحم والتحذير من قطعها وجفائها، لعلو مكانة الأرحام وعظيم شأنها:

1- أن الأمر بصلة الرحم والإحسان إليهم جاء مقترناً بتوحيد الله تعالى وعبادته وحده، كما في برِّ الوالدين، يقول تبارك وتعالى: {وُؤُورٌ وَوُؤُورٌ وَوُؤُورٌ}

¹¹⁷⁴ () أخرجه البخاري (ص914، رقم 5109) كتاب النكاح، باب لا تتكح المرأة على عمتها. ومسلم (ص591، رقم 140) كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها.

1175 () سبق تخريجه.

1176) شرح مسلم للنووي.

1177) سورة البقرة، الآية 83.

{و و} (1178)، ويقول: {ب ب ج ج گ گ گ گ گ گ س س} (1179)

وهذا يدل على عظيم فضل التواصل مع الأرحام وزيارتهم والسؤال عنهم وتقديم ما يحتاجون إليه حسب الإمكانيات المتوافرة، وضمن الضوابط الشرعية.

2- أن الله تعالى أمر عباده بالعدل والإنصاف في حقوقه من التوحيد وعدم الإشراك به والقيام بأداء الفرائض على الوجه المطلوب، كما أمر بالعدل والإنصاف في إعطاء حقوق الناس وعدم الاعتداء عليهم، ومن بينهم الأرحام الذين ذكرهم الله قبل الأصناف الأخرى، فقال جلّ شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَرْحَامَكُمْ} [النساء: ٣٤] وقال: ﴿وَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَحْرَمَ الْفُسْقَى﴾ [البقرة: ١٧٦].

3- كما يأتي فضل صلة الرحم كونها تذكّر بأصل الإنسان وحقيقة خلقته التي هي من نفس واحدة، فقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة، ثم أمر بالتقوى ووصل الأرحام، فقال: {أَبْ بَ بَدِبْ پ پِپْ پِ دِنْتْ ثُ دُنْتُ} وهذا يدل على عظيم هذا الخلق وفضله، كما يدل على شناعة قطع الرحم وخطره على مآل الإنسان في الآخرة.

4- إن صلة الرحم شعب من شعب الإيمان، ودلالة على تمكّن الإيمان في القلب، لقول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»⁽¹¹⁸³⁾.

5- إن صلة الرحم كسائر العبادات، فقد جاء الأمر بها مع الأمر بعبودية الله وحده وأداء الصلاة والزكاة، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ماله، ماله، فقال رسول الله ﷺ: أرب ماله، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم» (1184).

6- إن الله تعالى أشار إلى مكانة الرحم وفضلها حين خلقها لأول مرة، وإلى المفسدة المترتبة على قطعها، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟»

¹¹⁷⁸() سورة النساء، الآية 36.

1179) سورة النحل، الآية 90.

1180 ﴿سورة الإسراء، الآية 26﴾

1181) سورة النساء، الآية 1.

¹¹⁸² أخرجه البخاري (ص1069، رقم 6138) كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته.

ومسلم (ص 1121، رقم 2558) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعها.

¹¹⁸³ (أخرج البخاري (ص 1047-1048، رقم 5983) كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله.

ومسلم (ص 27، رقم 13) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة.

1184 () سورة محمد، الآية 22.

قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك. قالت: بلى يا رب. قال: فهو لك. قال رسول الله ﷺ: فافروا إن شئتم: {يُجِجُ جِدِيدٌ ذُو ذُو} (1185) (1186).

7- لفضل صلة الرحم أنها تقرب العبد من الله تعالى، وقطيعتها تبعده عنه، يقول عليه الصلاة والسلام: «الرحم شجرة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته» (1187).

وفي حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: «أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بئته» (1188).

* * *

صور من صلة الرحم:

لا يمكن تحديد صور التواصل مع الأرحام لأنها تأتي بصور وأشكال مختلفة، حسب أحوال الناس وظروفهم، فبعضهم يستطيع القيام بواجب بينما لا يقدر الآخر عليه، وهكذا، ولكن يمكن الإشارة إلى أهم هذه الصور من خلال الخطوات الآتية:

1- التواصل معهم من خلال زيارتهم واللقاء بهم بين الفترة والأخرى، والسؤال عن أحوالهم وشؤونهم، ولتكن هذه الزيارة عائلية أحياناً إذا كانوا من المحرمين، حتى يتعرف النساء والأبناء على بعضهم أيضاً.

2- دعوتهم إلى التوحيد والإسلام إذا كانوا غير مسلمين، لأنهم - بحكم القرابة - معروفين أكثر من غيرهم، من حيث التفاهم وطريقة التعامل، وقابلية الاستجابة وغيرها، فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ في بداية الدعوة أن يبدأ بأقرب الناس إليه من الأرحام والعشيرة، يقول تبارك وتعالى: {يُجِجُ جِدِيدٌ ذُو ذُو} (1189).

وقد امتثل النبي عليه الصلاة والسلام الأمر وبدأ بدعوة المقربين إليه حين جمعهم وخطب فيهم قائلاً: «يا بني عبد شمس، يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا

(1185) أخرجه البخاري (ص1048، رقم 5987) كتاب التفسير، باب: وتقطعوا أرحامكم. ومسلم (ص1121، رقم 2554) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

(1186) أخرجه البخاري (ص1048، رقم 5988) كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله.

(1187) أخرجه أبو داود (ص250، رقم 694) كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم. والترمذي (ص446-445، رقم 1907) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم.

(1188) سورة الشعراء، الآية 214.

(1189) أخرجه مسلم (ص108، رقم 204).

أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»⁽¹¹⁹⁰⁾.

3- أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتشجيعهم على العبادات والطاعات والأعمال الصالحة، لقوله تعالى: ﴿وَوُضِّعُوا لَكُمْ سَبِيلٌ مِّنْهُ نَأْتِيكُم مِّنْهُ نِعْمَةٌ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ لَمَّا نُتَبِّهْ﴾⁽¹¹⁹¹⁾.

4- الإنفاق عليهم بالمال، ودفع الزكاة والصدقات لهم إذا كانوا بحاجة إلى ذلك، لأنهم أولى بغيرهم، يقول تبارك وتعالى: ﴿يُؤْتِيكُم مِّنْهُ نِعْمَةٌ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ لَمَّا نُتَبِّهْ﴾⁽¹¹⁹²⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»⁽¹¹⁹³⁾.

وحين تصدق أبو طلحة رضي الله عنه ببستان نخل له وقّده بين يدي رسول الله ﷺ ليتصدق بها على المساكين، قال عليه الصلاة والسلام: «بخ بخ، ذاك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه⁽¹¹⁹⁴⁾.

5- الصبر عليهم وتحمل أخطائهم والعفو عن زلاتهم، وإن كان في ذلك إيذاء مادي أو معنوي، فكل ذلك مطلوب مع المسلمين جميعاً ولكنها مع ذوي الرحم منهم أولى، حتى تصفى القلوب وتتلاشى ما في النفوس من الغل والكراهية.

وكما قال الشاعر:

وبين بني عمي لمختلف جدا
قدمت لهم في كل مكرمة زندا
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن الذي بيني وبين بني أبي
إذا قتموا لي نار حرب يد
وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

⁽¹¹⁹⁰⁾ سورة التحريم، الآية 6.
⁽¹¹⁹¹⁾ سورة الإسراء، الآية 26.
⁽¹¹⁹²⁾ أخرجه الترمذي (ص168، رقم 658) كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة. والنسائي (ص357، رقم 2582) كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتيم. وقال الترمذي: حديث حسن.
⁽¹¹⁹³⁾ سبق تخريجه.
⁽¹¹⁹⁴⁾ أخرجه البخاري (ص5، رقم 13) كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام. ومسلم (ص41، رقم 54) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

وليس رئيس القوم من يحمل
الحقدا
وإن قلّ مالي لم أكلفهم رفدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وأعطيهم مالي إذا كنت واجداً

6- الدعاء لهم بالخير والتوفيق وسعة الرزق، والبركة في الأولاد والأعمال، والفوز بالجنة يوم القيامة، والنجاة من النار، لقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹¹⁹⁵⁾.

7- مشاركتهم في المناسبات والأفراح، كالأعياد والزواج والولادة، أو قدوم أحدهم من سفر بعيد، أو حصول بعضهم على منصب أو وظيفة، أو توفيقهم في تجارة وكسب مال، وغير ذلك من وجوه الفرح والسعادة، وكذلك مشاركتهم في أحزانهم ومصائبهم، كمصيبة الموت أو المرض أو الفقر أو خسارة مالية، وتقديم المساعدة والعون لهم في جميع هذه الحالات.

8- إصلاح ذات البين بينهم، بالعقل والحكمة، واستخدام كل الوسائل المتاحة لذلك، لما فيه من الأجر الكبير في الآخرة، والثمار اليانعة في الدنيا، من التعاون والمحبة والوئام.

* * *

9- ينبغي الإشارة هنا إلى خطأ في التصور حول مفهوم صلة الأرحام، حيث لا يصل كثير من الناس أرحامهم إلا إذا وصلوه، وهذا الفعل لا يمت بشيء إلى مفهوم وصل الأرحام المطلوب شرعاً، وإنما هو فعل المكافئ كما بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها»⁽¹¹⁹⁶⁾.

ومن أجل ذلك أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على من يبادر إلى وصل رحمه وإن قاطعوه، «فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»⁽¹¹⁹⁷⁾.

* * *

10- إن كثيراً من الناس قد لا يستطيعون صلة أرحامهم بين الفينة

¹¹⁹⁵ () أخرجه البخاري (ص1048، رقم 5191) كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ.

¹¹⁹⁶ () أخرجه مسلم (ص1122، رقم 6525) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

¹¹⁹⁷ () أخرجه البخاري (ص1060، رقم 6077) كتاب الأدب، باب الهجر. ومسلم (ص1122، رقم 2558) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم.

والأخرى وتطول زياراتهم عن أقاربهم، ولا يجدون فرصة الالتقاء بهم إلا في الأعياد أو المناسبات الأخرى، لكثرة مسؤولياتهم وبعد ديارهم، وما قد تترتب على ذلك أحياناً من المشقة، فأضعف شيء يقوم به هؤلاء التواصل عبر وسائل الاتصال الحديثة عبر الهاتف أو الانترنت أو غيرها.

كما ينبغي للطرف الآخر الذي يعلم ظروف إخوانه من الأقارب والأرحام الذين يصعب عليهم التواصل في فترات متقاربة، أن يتبادر هو إلى وصلهم ما دام عنده وقت لذلك، لقلّة مسؤولياته وأعماله، وقدرته على التواصل بسهولة، حتى تتقارب الأسر وتتآلف، ويتلاشى التنافر والتمزق بينها.

* * *

صور من قطع الأرحام:

كما أن لصلة الرحم والتودد إليها صوراً، فإن لقطعها أيضاً صوراً وأشكالاً، ومن أهمها:

1- عدم دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وإلى الإسلام، إذا كانوا غير مسلمين، وهو تقصير شرعي مركّب، لأن الدعوة واجبة على كل مسلم، ثم لأن هؤلاء المدعويين من الأقارب الذين لهم الأولوية لهذه الدعوة.

2- مقاطعتهم بالكلام والزيارات، فلا يسلم عليهم ولا ينظر إليهم، ولا يسأل عن أحوالهم، وهو إثم مع عامة المسلمين فكيف إذا كانوا من المقربين من ذوي الرحم؟! يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»⁽¹¹⁹⁸⁾.

3- عدم إعانتهم مالياً، إذا كانوا بحاجة إلى ذلك، فإن الإنفاق على الفقير القريب أولى من الإنفاق على الفقير البعيد.

4- عدم مشاركتهم في الأفراح، كالزواج أو الأعياد أو مكاسب تجارية أو غيرها من وجوه الفرح، وكذلك عدم مشاركتهم وعزائهم في مصائبهم، كالموت أو المرض أو الخسارة وغيرها.

5- إيذاؤهم معنوياً، كالغيبة والنميمة، أو الكذب عليهم، أو إيذاؤهم مادياً من خلال الربا أو الغش أو السرقة وغيرها.

* * *

¹¹⁹⁸() أخرجه البخاري (ص1047-1048، رقم 5983) كتاب الأدب، باب إثم القاطع.

آثار صلة الأرحام:

لصلة الرحم آثار إيجابية على النفس والمجتمع، من أهمها:

1- صلة الرحم سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ماله، ماله، فقال رسول الله ﷺ: أرب ماله، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»⁽¹¹⁹⁹⁾.

2- البركة في الرزق وطول العمر، لقول عليه الصلاة والسلام: «من سرّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽¹²⁰⁰⁾.

في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأثر»⁽¹²⁰¹⁾.

3- سبب للقرب من الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته»⁽¹²⁰²⁾.

4- التصديق على ذوي الأرحام يزيد من الثواب والأجر، لقول النبي ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»⁽¹²⁰³⁾.

5- صلة الرحم سبب في تأييد الملائكة، للحديث السابق ذكره: «ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»⁽¹²⁰⁴⁾.

6- إن صلة الرحم تمنح النفس راحة وسكينة، وتزيل عنها أدران الآفات وآثارها، من الحسد والغل والقلق وغيرها، كما أن كثيراً من المشكلات تأتي بين الأقارب، تزول بصلة الرحم والتواصل مع الأهل والأقرباء.

7- إن صلة الرحم من أسباب التوفيق والنجاح في الدنيا، ومن أسباب حب الطاعة وكره المعصية، يقول ابن حجر رحمه الله: «إن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية، فيبقى بعده الذكر الجميل، فكانه لم

¹¹⁹⁹ () أخرجه البخاري (ص1048، رقم 5985) كتاب الإيمان، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم. ومسلم (ص1121، رقم 6523) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة.

¹²⁰⁰ () سبق تخريجه.

¹²⁰¹ () سبق تخريجه.

¹²⁰² () سبق تخريجه.

¹²⁰³ () سبق تخريجه.

¹²⁰⁴ () فتح الباري لابن حجر 416 / 10.

يُمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح»⁽¹²⁰⁵⁾.

8- إن صلة الرحم تصنع مبدأ التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع، حيث تشتد عرى التعاون والتكاتف على حب الخير ونشر المعروف بين الناس لا سيما في الشدائد والنوازل، فيصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (1206).

9- صلاة الرحم تمنح العبد الثناء والذكر الحسن بين الناس، الأمر الذي يدفعهم للدعاء له والاستغفار والترحم عليه بعد الموت.

* * *

آثار قطع الأرحام:

وردت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ في النتائج
الوخيمة المترتبة على عقوق الوالدين وقطع صلة الأرحام، ما بين خزي في
الدنيا وعذاب في الآخرة:

1- إن قطع الرحم سبب لنزول اللعنة على العبد لقوله تعالى: {يٰۤاَيُّهَا الَّذِيۤنَ اٰمَنُوۡا لَا تَقْرُبُوۡا اٰۤمَٰلَۤىۤىٔ بَعۡضُہُمۡ عَلٰیۤہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ} (207). وقوله تعالى: {يٰۤاَيُّهَا الَّذِيۤنَ اٰمَنُوۡا لَا تَقْرُبُوۡا اٰۤمَٰلَۤىۤىٔ بَعۡضُہُمۡ عَلٰیۤہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ اَوۡفَیۡہُمۡ} (208).

2- إن قطع الرحم يعجل بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، لقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» (1209).

3- إن قطع الأرحام سبب لدخول النار والحرمان من الجنة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قاطع» (1210).

4- قطع الأرحام، يؤدي إلى الأنانية وحب الذات، والذي يسبب في تنامي آفات أخرى في النفس، كالكآبة والقلق، والخوف، وغيرها، لأن النفس حين

¹²⁰⁵ () أخرجه البخاري (ص1051، رقم 6011) كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم. ومسلم (ص1131، رقم 2586) كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

1206 (سورة محمد، الآيتان 22-23).

1207 سورة الرعد، الآية 25.

1208) سبق تخريجه.

1209 (ص8121، رقم 2556) كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها. ومسلم

¹²¹⁰ () أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12/453) والصغير (2/106، رقم 861). وحسنه الألباني.

تتقطع عن مؤاخاة النفوس الأخرى والتآلف معها، تبقى منحسرة في ذاتها، لا تتطلع إلا إلى ما يخدم لذاتها وشهواتها.

5- كما إن قطع الأرحام من العوامل التي تمزق المجتمعات وتشتتها، لأن كل أسرة تتأى بنفسها عن الأخرى، فلا يعرف الأبناء أعمامهم ولا أخوالهم، ولا يعرف الأزواج أصهارهم ولا أهل زوجاتهم، وهكذا، يتفكك المجتمع، وبالتالي تذوب جميع روابط التآلف والتكاتف بين أبنائه.

* * *

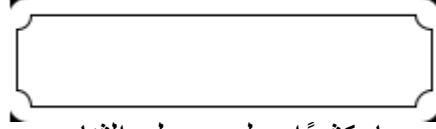
وفي الختام:

فإن صلة الرحم من الأخلاق الإسلامية العظيمة التي حثَّ عليها الإسلام وجعلها من أولوياته، فقد أمر بها الله تعالى في كتابه ووصى بها رسوله صلّى الله عليه وسلم في سنته، لما في هذا الخلق الكريم من آثار إيجابية على النفس الإنسانية أولاً ثم على المجتمع الذين ينتمي إليه الإنسان ثانياً، من الاستقرار والأمان والتقدم والتفوق في مجالات الحياة المختلفة.

كما حرّم الإسلام قطيعة الأرحام وجفاءها، ورتّب عليها عقوبات مختلفة في الدنيا والآخرة، لأنها مدخل واسع للآفات النفسية الكثيرة، وخطر على كيان المجتمع والأمة بأسرها.

فما أجمل أن يبدأ كل إنسان بتحديد نقطة انطلاق جديدة في حياته، وليبدأ بالتواصل مع أرحامه، إما بزيارتهم أو دعوتهم إلى البيت أو مكالمتهم هاتفياً، متوجّاً ذلك كله بأجمل الكلمات وأحسن الألفاظ، حتى تتمكن المحبة في القلوب وتخرج الضغائن منها، ويتحول المجتمع إلى بنيان قوي ومرصوص.





الإيجابية كلمة نسمعها كثيراً على سبيل الثناء وبخاصة في عالم ثقافتنا اليوم، ويعنى بها أن الإنسان يسعى لأن يكون نافعا لنفسه ولغيره، متجردا من الأنانية وحب الذات التي تمليه حياة المادة، وهي - أي الإيجابية - ذات أثر عظيم على صاحبها في الدنيا والآخرة، وفي هذا المبحث نفضل فيها مفتحين بما:

روي عن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام»⁽¹²¹¹⁾.

* * *

تعريف الإيجابية:

هي كل ما يصدر من العبد من قول أو عمل، ويبتغي به وجه الله تعالى، يحقق منفعة أو يدفع مفسدة.

وبذلك فإن الامتثال بكل ما أمر به الشارع والانتفاء عما نهى عنه من الإيجابية في الحياة، لأن ذلك يحقق المصالح والمنافع للناس، ويدرك عنهم المفاسد والشرور.

* * *

حقيقة الأعمال الإيجابية:

تنقسم أعمال الإنسان من حيث نفعها إلى قسمين:

أ - النفع القاصر على النفس:

وهي الأعمال التي يقوم بها الإنسان لمنفعته الذاتية قبل كل شيء وإن تعدى بعض آثارها إلى الآخرين في الجوانب المختلفة، لأن الإنسان إنما يقوم بها من

¹²¹¹(سورة الأنفال، الآية 3-4.

أجل منفعة ذاته في الأصل وليس من أجل الآخرين. كالصلاة والصيام والحج وقراءة القرآن والأذكار وغيرها.

- فالصلاة التي هي عبادة مفروضة على كل إنسان، وهو يقوم بأدائها استجابة لأمر الله تعالى الذي يخاطبه بنفسه جلّ وعلا، والمنفعة الذاتية المترتبة على هذا الفرض هي الأجر والثواب والرضى من الله، فضلاً عن أنها تكسب المصلي السكينة والطمأنينة النفسية، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَذُكِّرُكُمُ اللَّهُ نِعَمَهُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (1212).

إضافة إلى بعض المنافع التي تتحقق تبعاً للمجتمع نتيجة هذه العبادات، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتقلل من حدوث الجريمة، وهي وسيلة للتعارف والتآلف والتزاور حين يؤدي في المساجد جماعة، وهي آثار إيجابية على الآخرين.

- وكذلك الصيام، فإن الصائم ينال الأجر العظيم والثواب الكبير الذي لا حدود له لقول النبي ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ» (1213). وهذا النفع العظيم بالأصل ذاتي يعود على الصائم فقط، ولكنه يعطي بعض الثمرات الإيجابية خارج الدائرة الذاتية لينتفع بها المجتمع، فالصيام يحث على الرحمة بالفقراء والمساكين ومدد يد العون إليهم لأن الصائم يشعر بجوع المسكين وعطش الظمآن وحاجة الفقير، فيتحرك للإحسان إليهم بصورة عملية.

- والحال نفسه بالنسبة للزكاة الذي يترتب عليه جزاء عظيم من الله تعالى حين يخرج الغني جزءاً من ماله ليعطيه أخاه الفقير والمحتاج تمثيلاً لأمر الله تعالى، فيكسب بذلك نفعاً ذاتياً أولاً من الأجر والثواب، كما يدفع عن نفسه العذاب والعقاب في الآخرة، ولكنه بذلك يحقق مصلحة أخرى لغيره أيضاً، حيث يخفف عن إخوته المساكين والفقراء شقة الحاجة ويفرج عنهم كربات كثيرة، الأمر الذي يبعث على الحب والتآلف والتعاون بين الجميع ويزيل بينهم الحقد والكراهية والحسد.

وهكذا فإن جميع الأعمال الإيجابية الأخرى من العبادات والأذكار التي تعود بالنفع على الإنسان في الأصل هي أعمال قاصرة عليه من حيث المبدأ

¹²¹² () أخرجه البخاري (ص304، رقم 1894) كتاب الصوم، باب فضل الصوم. ومسلم (ص469، رقم 1151) كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

¹²¹³ () سورة المائدة، الآية 2.

لأنه يقوم بها امتثالاً لأمر الله لينال رضاه وأجره ويتفادى غضبه وعذابه، ولكن هذا النفع لا يتوقف في هذه الدائرة الذاتية؛ بل يتعدها ليصل إلى جميع الناس.

ب - النفع المتعدي للآخر:

وهي الأعمال التي تعمل لنفع الآخرين، مثل الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقضاء حوائج الناس، وقضاء الدين عن المدين، وبناء المدارس والمستشفيات وإقامة الجمعيات الخيرية، وغيرها من الأعمال النافعة.

فحين يقوم المؤمن بقضاء حاجة أخيه المؤمن سواء في الجانب المادي أو المعنوي فإنه يقوم بعمل إيجابي يستفيد منه هذا الفقير والمحتاج، ألا وهو إخراجهم من الضيق الذي كان فيه، وقد حث الإسلام على ذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُؤَدُّونَ الْفَلَاحِي وَتُعِصُونَ الْوَعْدَ بَيْنَكُمْ ذَلِكَ لَكُمْ أَنْ يُدْرِكَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ تَبَدَّلَ مَوْضِعًا فَهُوَ فِي سُلْطَانٍ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْمَوَارِيثِ وَالنَّوَاصِبِ أَطْرَافَ الْمَسْكِينِ لَمْ يَأْمُرْ بِالْغَيْرِ الْمَعْرُوفِ فَقَدْ عَصَى وَعْداً لَهُ فَإِنْ كَانَتَا وَاحِدَةً رَأَى فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ الْقُرْآنِ وَالْغُلَامَ الَّذِي شَاءَ لَهُ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ هُوَ يُدْرِكُ الْغُيُوبَ﴾ (١٢١٤). وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مَعْسَرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» (١٢١٥).

وما تحقق من خير في هذا الباب فإنه يؤدي إلى تحقيق آثار إيجابية عظيمة داخل المجتمع، إضافة إلى ما يؤخره الله تعالى للقاتم بهذا العمل من أجر وثواب يوم القيامة.

* * *

آثار العمل الإيجابي على النفس والمجتمع

للعمل الإيجابي آثار وثمرات على حياة الإنسان بصورة عامة، وعلى النفس والمجتمع بصورة خاصة، ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الآثار الناتجة عن حركة الإنسان الإيجابية على الأرض من خلال المعالم الآتية:

أولاً: العمل الإيجابي يدل على سلامة الصدر:

خلق الله تعالى النفس الإنسانية وفيها العنصر الإيجابي المتمثل بالطاعة والخير، والعنصر السلبي المتمثل بالمعصية والشر، قال الله تعالى: {ذُف ف ذُف ف ذُف ف ذُف ف ذُف ج ذُف ج ذُف ج ذُف ج} (١٢١٦).

والصراع قائم بين هذين العنصرين حسب المقومات التي يمتلكها كل عنصر، إلا أن من رحمة الله تعالى أن هياً للعنصر الإيجابي الأسباب الكفيلة

¹²¹⁴() أخرجه مسلم (ص1173، رقم 2699) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

1215) (سورة الشمس، الآيات 7-10).

1216) سورة النازعات، الآيتان 40-41.

بالتغلب على العنصر السلبي من خلال الوحي والقرآن والسنة النبوية المباركة، حيث بيّن الله سبيل الهداية وما يؤول إليه من الخير والسعادة في الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة، فقال تبارك وتعالى: {ثُمَّ نَأْتِيهِمْ قَوْمًا مِّنْ دُونِهِمْ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا مِثْلَ ثِيَابِهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُّسَوِّغَاتٌ لِّمَن لَّبَسَ ثِيَابَهُ فَهُمْ يُوعَظُونَ} (١٢١٧).

فالنفس السلبية تحب التملك لذاتها ولا تريده لغيرها، فجاء الهدي الرباني ليشجع النفس الإيجابية ويدفعها إلى عكس ذلك من القيام بالعمل الإيجابي النافع لها ولغيرها، ليحلّ حب الآخرين والقيام على خدمتهم وقضاء حوائجهم محل الأنانية الضيقة التي لا تريد الخير لأحد، وقد كان هذا التغير في السلوك خطوة نوعية لحياة الأمة في فجرها الأول، قال تعالى: {بِذَلِكَ نُمِيتُ الْبَشَرَ لِنُقِيمَ فِيهِمُ الْآيَاتِ} (١٢١٨).

فإن تلك النفس الأمارة بالسوء التي كانت مقيدة بحب ذاتها في التملك والسيطرة والجاه تحولت إلى نفس متواضعة خيرة، تتحمل المشاق من أجل راحة الآخرين وسعادتهم، بفضل الهدي الرباني والقرآن الذي كان ينزل عليهم، وهو تصوير لما فعلته الأنصار مع المهاجرين رضي الله عنهم جميعاً.

فكل عمل إيجابي يصدر من الإنسان ويصل نفعه إلى الآخرين دليل على صفاء نفس صاحبه وسلامتها من الأنانية المقيّنة وحب الذات.

فحين يتصدق أحدهم على الفقراء من ماله فهذا دليل على أن نفسه متحررة من حب المال.

وحين يمشي أحدهم مع أخيه ليقضي له حاجته، رغم مسؤولياته ومشاغله، دليل على محبته وحب الخير له.

وحين يسعى المؤمن من أهل العلم في تعليم الآخرين، أو يعطي المتفوق والمتخصص خبرته إلى إخوانه، ولا يكتف أحد منهم علماً على الناس، فهذا يعني أن نفسه تحررت من الأنانية وحب الذات.

وهكذا في جميع الأعمال الإيجابية.

حذر الإسلام الإنسان من النفس السلبية التي لا تحب الخير للآخرين وتقف مانعاً في طريقه إلى الناس حتى لا يصل أحد إلى ما وصل إليه، لأنها من الآفات النفسية الخطيرة التي تهدد استقرار النفس والمجتمع، يقول عليه الصلاة

¹²¹⁷ (سورة الحشر، الآية 9).
¹²¹⁸ أخرجه البخاري (ص5، رقم 13) كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ومسلم (ص41، رقم 170) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹²¹⁹⁾.

وكمال قال الشاعر:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ
على وخالف النفس والشيطان
واغصِيهما

حبّ الرضاع وإن تطفمه ينطم
وإن هما محضاك النصح فاتهم

* * *

ثانيًا: العمل الإيجابي يؤدي إلى الراحة النفسية:

حين يقوم المؤمن بأي عمل إيجابي فإنه يحقق بذلك أمرين:

- طاعة الله تعالى من خلال الامتثال لأوامره والانتهاض عن نواهيه.

- جلب المنفعة الذاتية لنفسه، والمنفعة العامة لغيره.

[illegible][illegible]

يقول عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (1222).

¹²¹⁹() سورة البقرة، الآية 277.

1220 سورة النساء، الآية 114.

1221) أخرجه البخاري (ص394، رقم 2442) كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه. ومسلم (ص1129، رقم 6578) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

¹²²² () أخرجه النسائي (7/61، رقم 3939) كتاب عشرة النساء، باب حب النساء. وأحمد (1/197، رقم 1702).

كما أشار عليه الصلاة والسلام إلى الأثر النفسي الكبير الذي تتركه إقامة الصلاة على الإنسان، من الراحة والهدوء والسكينة، فقال صلى الله عليه وسلم: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»⁽¹²²³⁾.

* * *

ثالثاً: العمل الإيجابي يحدّ من الجريمة:

إن من أهم ثمرات الإيمان وآثاره هو العمل الإيجابي الذي يعكس التشريع وما فيه من أمر ونهي، فكل ما أمر الشارع بفعله أو ما نهى عن فعله يكون عملاً صالحاً إيجابياً، وإن اختفت العلة والحكمة منه أو تأخرت، لكنها في النهاية تصبح في مصلحة الإنسان.

وهذا يعني أن العمل الإيجابي الذي هو دين المؤمن في كل أحواله من العوامل القوية في استقرار حال الإنسان في النفس والمال والأولاد وجميع مصالحه، وكذلك فإنه يمنع دخول الجريمة والرذيلة والفساد إلى المجتمع.

وفيما يلي بعض الأمثلة:

أ- فاداء الصلاة بإخلاص وإقامتها وفق شرع الله يزيد من إيمان المصلي وقربه من الله تعالى، فيمنعه من الفساد والاعتداء على الحقوق والأعراض، يقول تبارك وتعالى: {وَوُؤْيِي بِدِنَا نَسْنُو نُوؤُوؤُو} (1224).

ب- والصيام يلجم اللسان عن أسباب التناحر والتنازع من السباب والغيبة، ويمنع الجوارح عن الاعتداء والظلم، حتى إذا صدر من أحدهم شيء من هذه المفسدات، فإن الصائم يمتنع عن الردّ عليه ويمكّ نفسه، ويحتسب عند الله تعالى بقوله: اللهم إني صائم، امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين» (1225). ولقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (1226).

وهذا يعني أن الصائم بجوعه وعطشه يطفئ نار الفتنة والشر والتنازع في المجتمع.

ج- كذلك الحال فإن الغني والمقتدر إذا أحسّ بآلام إخوانه المحتاجين

⁽¹²²³⁾ سورة العنكبوت، الآية 45.

⁽¹²²⁴⁾ سبق تخريجه.

⁽¹²²⁵⁾ أخرجه البخاري (ص306، رقم 1903) كتاب الصيام، باب من لم يدع قول الزور والعمل

⁽¹²²⁶⁾ به. سورة الروم، الآية: 21.

وأغدق عليهم من نِعَم الله تعالى وقضى بعض حوائجهم، أو ساهم في تسديد ديونهم، فإنه يقضي بهذا العمل الإيجابي على أسباب الحقد والكرهية من النفوس المقابلة، لأن النفوس مجبولة على حب من تحسن إليها. وهذا يساعد بشكل فاعل في إحلال الأمن بين الناس وعدم الخوف على مصالحهم من الاعتداء أو السرقة أو النهب.

د- من الأعمال الإيجابية التي حث عليها الإسلام الزواج الشرعي، فإنه وإن كان مطلباً فطرياً إلا أنه في الوقت نفسه عمل إيجابي يحافظ على بقاء النسل الإنساني، ويؤدي إلى إيجاد الرحمة والحنان بين الزوجين، لقوله تعالى: {ذُرِّزَتْ رِزْقُكَ كَذَكِّكَ كَكَبَّكَ كَبَكَّكَ كَبَكَّكَ كَبَكَّكَ} (1227).

والزواج بهذا المفهوم يساعد إلى درجة كبيرة في نشر الفضيلة بين الناس والمحافظة على الأعراض والأنساب، كما يمنع الجرائم الأخلاقية والوقوع في شرك الرذيلة، وقد أخبر النبي ﷺ عن الأثر الإيجابي الكبير من الزواج بقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (1228).

هـ- إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأعمال الإيجابية التي حثَّ عليها الإسلام وجعله من الواجبات الشرعية المهمة، لقوله تعالى: {كَبَّكَ كَبَكَّكَ كَبَكَّكَ كَبَكَّكَ كَبَكَّكَ} (1229).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل إيجابي من جانبين:

- الأمر بالمعروف ويشمل كل أنواع الخير والمنفعة للقائم به والمجتمع من حوله.

- النهي عن المنكر يعني النهي عن كل أنواع الشر والفساد بالنسبة للقائم به والمجتمع من حوله.

وبهذا فإن هذا العمل الإيجابي يسهم إلى حدٍّ كبير في الاستقرار الأمني والتقليل من ارتكاب الجريمة أو حدوث الجناية في المجتمع.

وقد بيّن النبي ﷺ أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على حياة الناس بالمثال الآتي: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في

¹²²⁷ () أخرجه البخاري (ص307، رقم 1904) كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العنت. ومسلم (ص585، رقم 1400) كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه ووجد مؤنة.

¹²²⁸ () سورة آل عمران، الآية 104.

¹²²⁹ () أخرجه البخاري (ص338، رقم 2686) كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات.

أسفلها يرمون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»⁽¹²³⁰⁾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه فتدعون فلا يستجيب لكم»⁽¹²³¹⁾.

وهكذا فإن المجتمع الذي يتنافس فيه أبنائه على العمل الإيجابي يتحول إلى كيان متلاحم ومتآلف، لا يمكن تمزيقه أو النيل منه، بل يصبح كالجسد الواحد كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»⁽¹²³²⁾.

* * *

رابعًا: العمل الإيجابي يعالج الفقر ويقلل منه:

لقد حرص الإسلام على إقامة بعض الأعمال الإيجابية في حياة الناس من أجل تقادي الفقر والحد منه ومعالجته وفق الآتي:

1- أمر الله تعالى عباده بالعمل المشروع والسعي في الأرض طلبًا للرزق، قال تعالى: {تَدْتُّ تْ دُتْف فْ فُتْف قُتْق جْ}⁽¹²³³⁾.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». رواه البخاري، وقال: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه»⁽¹²³⁴⁾.

فالعامل المشروع والسعي في الأرض من أجل الحصول على الرزق، سلوك إيجابي وحضاري، وإن كان هذا العمل مجهدًا ومتعبًا في كثير من الأحيان، إلا أنه أفضل عند الله تعالى من الركون إلى الكسل والنظر إلى ما في أيدي الناس.

¹²³⁰ أخرجه أبو داود (ص175، رقم 1175) كتاب الاستسقاء، باب رفع اليدين في الاستسقاء.

¹²³¹ سبق تخريجه.

¹²³² سورة الملك، الآية 15.

¹²³³ أخرجه البخاري (ص381، رقم 2374) كتاب المساقاة، باب الحطب والكلأ.

¹²³⁴ سورة البقرة، الآية 110.

2- فرض الله تعالى على عباده الزكاة، فقال: ﴿لَا تَكُونُوا مِنَ الْبَخِيلِينَ﴾ (1235)، كما حثهم على الصدقة والإحسان إلى المحتاجين، ونهى عن الشح والبخل، فقال: ﴿لَا تَكُونُوا مِنَ الْبَخِيلِينَ﴾ (1236). وقال عليه الصلاة والسلام: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» (1237).

وهذه خطوات أخرى تساند الخطوة الأولى من أجل تفادي الفقر أو الحد منه، لأن الإنسان قد يعمل ويجهد ولكنه لم يستطع إيفاء حاجات الحياة الضرورية لنفسه ولأسرته، ففرض الله الزكاة وحث على الإنفاق والصدقة ليخفف عن إخوته ثقل المسؤولية المالية.

3- نهى الشرع عن المسألة واتخاذها حرفة لحاجة أو لغير حاجة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم» (1238). وقال أيضاً: «اليد العليا خير من اليد السفلى. واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة» (1239).

والانتهاء عن هذا السلوك السلبي - حسب مفهوم المخالفة - يعدّ عملاً إيجابياً، لأنه عزّة للنفس وحصانة لها، إضافة إلى إعطاء صورة راقية للمجتمع والأمة.

فهذه الوسائل الثلاث كفيلة للحدّ من امتداد الفقر إلى المجتمع والتقليل منه، أو معالجته إذا ظهر بين بعض الفئات بصورة سريعة وعاجلة.

* * *

خامساً: العمل الإيجابي سبب لمحبة الله ومحبة الناس:

إن العمل الصالح يثمر للعبد محبتين: محبة الله تعالى، ومحبة عباده الصالحين:

- فأما محبة الله تعالى، فيقول جل وعلا: ﴿ثُمَّ ثَبِّتْ لِي وَجْهَكَ﴾ (1240).

(1235) سورة الليل، الآيات 5-10
 (1236) أخرجه مسلم (ص767، رقم 1728) كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال.
 (1237) أخرجه البخاري (ص239، رقم 1474) كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا. ومسلم (ص418، رقم 1040) كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس.
 (1238) أخرجه البخاري (ص231، رقم 1429) كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.
 (1239) ومسلم (ص413، رقم 1033) كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من السفلى.
 (1240) سورة المائدة، الآية 93.

فجاءت محبة الله تعالى بعد تحقق الإيمان والعمل الصالح، وتحقيق خشية الله والإحسان إلى الناس لتكون بمثابة مكافأة جزاء لهم على هذه الأعمال الإيجابية.

وهنا أيضًا إشارة إلى عمل إيجابي يحصل به العبد على محبة الله تعالى، ألا وهو الإنفاق في سبيل الله بإخلاص وسخاء، وعدم التأخر عن اللحاق بقافلة الجهاد وبذل الأموال في سبيلها.

وإذا أحب الله تعالى عبداً أحبه أهل السماء جميعاً من الملائكة وغيرهم، لقول النبي ﷺ: «إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» (1242).

أي إن المؤمنين الذين يتحركون وفق منهج الله تعالى ويسعون ويعملون من أجل تحقيق المنافع المختلفة على الأرض، فإن الله سيجعل في قلوب عباده محبتهم ومودتهم.

فالقلوب مجبولة لحب من يحسن إليها، ووجوه الإحسان كثيرة ومتنوعة، فمنها إدخال السرور إلى قلب المؤمن، أو دفع الجوع عنه، أو قضاء دينه، أو المشي معه حتى يحصل على حقه، أو ستر عورته وعيوبه، كل ذلك وغيرها من الأعمال الإيجابية تكون سبباً لكسب حب الناس وقربهم وتوددهم.

وصدق الشاعر حين قال:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحصان

1240 () سورة البقرة، الآية 195.
1241 () أخرجه البخاري (ص536، رقم 3209) كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. ومسلم (ص1148، رقم 2637) كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا أمر جبريل فأحبه وأحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

1242 () سورة مريم، الآية 96.

1243 (سورة التوبة، الآية 105).

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

* * *

سادسًا: العمل الإيجابي سبب للتوفيق في الحياة:

لقد أمر الله تعالى عباده بالعمل الإيجابي، وأخبرهم أن أثر العمل يظهر على الواقع، يشاهده الله والناس، فمن عمل خيراً فلنفسه ومن أساء فعليها، فقال: ﴿وَوُودُوا لِيُذَكَّرُوا﴾ (١٢٤٤).

[illegible]

فهذا وعد من الله تعالى لعموم العمل الإيجابي بتحقيق الغلبة والنصر والتمكين، وحصول الأمن النفسي وراحة البال.

كما يخصص الوعد الإلهي أحياناً بعض الأعمال الصالحة وبما يترتب عليها من جزاء دنيوي قبل الآخروي، حيث ذكرَ الله المهاجرين في سبيله الذين تركوا الأوطان والأهل والديار، فببذلهم بتلك المشقة العيش الرغيد والسعة في الرزق ف الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة، يقول تعالى: {وَوُؤْثِرُوهُ وَوُؤْثِرُوهُ وَيَرْحَمْنَاهُم لِّئَلَّا يُبْذِرَ مَا جَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (١٢٧)

وذلك لأن العمل الإيجابي بصورة عامة يتعدى نفعه لجميع ميادين الحياة، على الإنسان والدواب والزراعة والصناعة والتجارة وكل ما له شأن بالكون، وصدق الله إذ قال: ﴿تَوَنُّوْا تَوْثُوْا ثِيْبًا يَّئِيْ تَدِيْ يَدِيْعُ ثَحَابٌ﴾ (١٢٤٨).

¹²⁴⁴() سورة النور، الآية 55.

1245 (سورة الأنبياء، الآية 105).

1246 } سورة النساء، الآية 100.

1247 سورة إبراهيم، الآيتان 24-25.

¹²⁴⁸ أخرجه مسلم (ص1631، ص716) كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام قصة المزارع الصالح الذي كان يخرج الصدقة من حديقته، فكافأه الله تعالى بمزيد من الخير والبركة، وعناية خاصة لأرضه وزراعته، يقول عليه الصلاة والسلام: «بيننا رجل بفاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة اسق حديقة فلان، ففتح ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شجرة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتنبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له يا عبد الله: ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا؟ فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وأكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه» (1250).

فمن يعمل صالحًا ويقدم خيرًا للعباد فإن الله تعالى يعوضه بذلك خيرًا كثيرًا، وتوفيقًا في الحياة وبركة في المال والبنون، يقول عليه الصلاة والسلام: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» (1252) . ويقول أيضًا: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا» (1253) .

* * *

إن من سنن الله تعالى في عباده أنه جعل لبعض أعمالهم الإيجابية التي يبتغون بها وجهه جل وعلا سبباً لتفادي الأمراض أو علاجاً لها، سواء النفسية أو

وفاته.

1249 () سبق تخريجه.

1250 () سورة الأعراف، الآية 58.

1251 () أخرجه البخاري (ص227، رقم 1410) كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب.

ومسلم (ص409، رقم 1014) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

1252 () أخرجه البخاري (ص233، رقم 1442) كتاب الزكاة، باب قول الله: (فأما من أعطى واتقى). ومسلم (ص408، رقم 1010) كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

1253 () سورة الإسراء، الآية 82.

العضوية، فمن تلك الأعمال قراءة القرآن الكريم وحفظه وتدارسه وتعليمه والاستماع عليه، يقول تبارك وتعالى: {هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ هُم مِّنَ الصَّابِرِينَ} (١٢٥٤)، وهذا الشفاء مطلق وعام لجميع الأمراض، تقول عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي» (١٢٥٥).

وأخبر النبي ﷺ أن الإنفاق في وجوه الخير المختلفة علاج ودواء للأمراض حيث يقول: «داووا مرضاكم بالصدقة» (١٢٥٦).

كما علم النبي عليه الصلاة والسلام الأمة مجموعة من الأعمال الإيجابية الصالحة لتفادي كثير من الشرور والأمراض، فقال: «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يُكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (١٢٥٧).

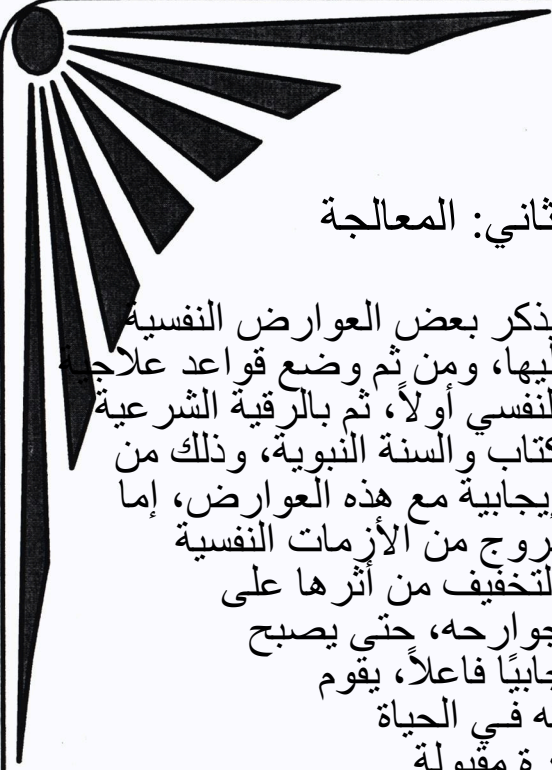
ويقول عليه الصلاة والسلام: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر» (١٢٥٨).



¹²⁵⁴ () أخرجه مسلم (ص973، رقم 2192) كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات.
¹²⁵⁵ () أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (3/382، رقم 6832). والطبراني في المعجم الكبير (8/464، رقم 10044). وفي الأوسط (2/274، رقم 1963). والطبراني في الدعاء (1/32، رقم 34). وهو حديث ضعيف لإرساله، ولكن معناه صحيح.

¹²⁵⁶ () أخرجه البخاري (ص89، رقم 525) كتاب الصلاة، باب الصلاة كفارة. ومسلم (ص74، رقم 145) كتاب الإسلام، باب الإسلام بدأ غريباً وسعود غريباً كما بدأ.
¹²⁵⁷ () أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (7/200، رقم 7939). والحاكم (1/124، رقم 429) نحوه عن أنس بلفظ: «المعروف إلى الناس يقي صاحبها مصارع السوء والآفات، والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة».
¹²⁵⁸ () سورة الأنبياء، الآيتان 83-84.





القسم الثاني: المعالجة

والمراد بهذا القسم: أن يذكر بعض العوارض النفسية وأسبابها، والآثار المترتبة عليها، ومن ثم وضع قواعد علاجية لها من خلال أسس البناء النفسي أولاً، ثم بالرقية الشرعية الصحيحة المستقاة من الكتاب والسنة النبوية، وذلك من أجل الوصول إلى نتائج إيجابية مع هذه العوارض، إما بالشفاء والعافية والخروج من الأزمات النفسية بشكل كامل، أو بالتخفيف من أثرها على نفس الإنسان وجوارحه، حتي يصبح عنصراً إيجابياً فاعلاً، يقوم بواجباته في الحياة بصورة مقبولة.

وفيما يلي بعض هذه العوارض النفسية، والوصفات العلاجية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.



وكذلك فإن النبي ﷺ مرض في حياته وقبل وفاته، وتسمم بالطعام، كما أصابه السحر عليه الصلاة والسلام.

* * *

أنواع المرض:

يصيب المرض الإنسان في جانبيه النفسي والجسدي، ولكل جانب حالاته وآثاره على المريض، وبذلك يمكن تصنيف المرض إلى نوعين:

النوع الأول: المرض العضوي:

وهو ما يصيب عضوًا أو جزءًا من بدن الإنسان وجسمه، فيتألم منه ويؤثر في حركة جوارحه من غير أن يؤثر على الجانب السلوكي أو المعنوي في حياته، وأنواعها كثيرة ما بين خفيف ووسط وثقيل.

والوسيلة المتبعة في علاج مثل هذه الأمراض بعد التوكل على الله تعالى واللجوء إليه مباشرة الأسباب الحسية من العقاقير والأدوية التي تتناسب مع طبيعة الجراثيم والميكروبات المسببة للمرض، ولم تصل هذه العلاجات إلى حلول نهائية في التعامل مع الأمراض العضوية، لأن كثيراً من هذه الأمراض لا تزال تتحدى الإنسان وتستعصي على العقاقير، ليستمر الإنسان ببحثه

1259 () سورة ص، الآية 44.
1260 () سورة الشعراء، الآية 80.
1261 () سورة الإسراء، الآية 85.

ويكتشف عجزه حتى يوفقه الله تعالى ويهديه إلى ما يناسبها من الأدوية.

النوع الثاني: المرض النفسي:

وهو الذي يصيب الجانب النفسي في الإنسان، حيث يؤثر على أشواقه ومشاعره وتطلعاته الداخلية، فيفقد المصاب نفسيًا في هذه الحالة كثيرًا من نشاطه وتوازنه مما يؤثر ذلك على سلوكه وتعامله مع المحيط الخارجي، ومن أهم هذه الأمراض: **الهمم والاكتئاب والحزن والقلق والخوف واليأس والشك** وغيرها، وهو الذي يعيننا في هذا المقام.

وخطر المرض النفسي يفوق كثيرًا المرض العضوي، لأنه يؤثر بصورة مباشرة على سلوك الإنسان، فيفقد الإنسان السيطرة على كثير تصرفاته، الأمر الذي بالمرضى أحيانًا الإقبال على أفعال غير سوية أو يؤدي به أحيانًا أخرى إلى إيذاء الآخرين أو إيذاء نفسه بالقتل أو الانتحار.

وأما طبيعة النفس ومعرفة كنهها وما تحتويه من الرغبات الإيجابية والسلبية، فإن العلم لم يصل إلى الآن إلا إلى نزر يسير منها، من خلال بعض التجارب الجزئية هنا وهناك، وصدق الله القائل: {ثُمَّ ثَوَّىٰ ثُمَّ ثَوَّىٰ ثُمَّ ثَوَّىٰ}.

وبالتالي فإن عدم المعرفة الكاملة لحقيقة النفس من قبل المختصين فإنه إشارة إلى أن التعاطي معها والتعامل مع ما يعتريها من الأمراض سيكون غير متكامل، وإن نسب القشل تفوق نسب النجاح في كثير من الأحيان.

فكان لا بد - والأمر هكذا - أن يتوجه الناس إلى المعين الأصيل الذي ينبع منه التصور الصحيح عن حقيقة النفس وما يؤثر فيها ويضطربها، أو ما تهدئها وتطمئنّها، ألا وهو الله تعالى الذي خلق النفس ويعلم حوائجها، ويعلم ما يسعدّها وما يحزنّها، يقول تبارك وتعالى: {أَبْ بَ بُبْ پِ پِبْ پِ پِثْ ثُ} ^(١٢٦٣). فلا يجوز أن يتجاوز أحد من المختصين وعلماء النفس هذه الحقيقة، فكل تشخيص أو علاج بعيد عن التفسير الرباني للنفس ومشكلاتها لن يجدي ولن يحقق الشفاء الكامل، لأنه يعتمد على الدلائل المادية فحسب، والأمر ليس هكذا، بل إنه أكبر وأعمق من هذا التصور الساذج عن النفس الإنسانية وأشواقها.

أما حقيقة النفس وما هيتها فلا يمكن معرفتها إذا قلنا أن النفس هي الروح،
ولكننا نرى آثارها ماثلة أمام أعيننا وفي حياتنا وواقعنا البشري، من أشواق
ورغبات وتطلعات، أما معرفة كنهها ستبقى معجزة تتحدى الإنسان إلى يوم
الدين، ليدرك عجزه وضعفه أمام خلق الله تعالى وشأنه، يقول تعالى: {ثُمَّ يُوَفَّى

1262 () سورة ق، الآية 16.
1263 () سورة الإسراء، الآية 85.

تَوْبُوْ تَوْبُوْ تَوْبُوْ نِي .نِي .بِئْسَ مٰى لِّمَنۡ يُّدۡيُ{^(١٢٦).

وقد أشار الله تعالى في كتابه المبين إلى بعض أنواع النفس وحالاتها، وهي ثلاثة:

1- النفس الأمارة بالسوء: وهي النفس العدوانية التي استولى عليها الشيطان من كل جانب حتى أصبحت أسيرة لوساوسه ونفثاته كما في قوله تعالى: ﴿بَبِبِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ﴾ (١٢٦).

2- النفس اللوامة: وهي التي تقع في الأخطاء وترتكب المعاصي ثم تعود إلى رشدها وتنبو إلى بارئها بالاستغفار والندم، كما في قوله تعالى: ﴿زُرْ زُرْ زُرْ﴾ ك ك ك ك (1266).

3- النفس مطمئنة: وهي النفس التي ملئت بالإيمان واليقين، وخلت من وساوس الشياطين وهمزاتهم، فأصبحت طائعة وخاشعة لأمر ربها قال الله تعالى: {ذٰلِكَ تَذَكُّرٌ فَرَقْ بَيْنَهُمَا} (١٢٦٧).

* * *

أسباب الأمراض النفسية:

لا يمكن حصر الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى ظهور المرض النفسي، لأنها في كثير من الأحيان تكون مجهولة، إلا أنه يمكن الإشارة إلى أهم هذه الأسباب والتي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الأسباب اللاإرادية:

وهي الأسباب التي تكون خارجة عن إرادة الإنسان، كبعض الأسباب الخلقية التي تظهر مع الولادة مثل الشلل الذي يصيب بعض خلايا الرأس أو بعض الأعصاب التي من شأنها السيطرة على سلوك الإنسان وحركته، أو ظهور المرض نتيجة حادث سيارة أو سقوط على الأرض أو ضربة قوية على الرأس وغيرها. وهي جميعاً من الأسباب اللاإرادية التي تسبب أحياناً المرض النفسي أو تؤدي إلى ظهور ملامحه على الإنسان.

القسم الثاني: الأسباب الإرادية:

1264 () سورة يوسف، الآية 53.

1265 () سورة القيامة، الأيتان 2-1.

1266) سورة الفجر، الآيات 27-30.

1267) أخرجه الترمذي (ص504، رقم 2191) كتاب الفتن، باب ما جاء في خبر النبي عليه وسلم. وأحمد (3/19، رقم 11195). والحاكم (4/551، رقم 8543). والحديث حسنه الذهبي في تعليقه على المستدرک.

وهي العوامل التي تكون بفعل الإنسان وإرادته، أي أنه كان باستطاعته أن يتفادها ويمنع حدوثها، ولكنه استسلم لوساوس الشياطين وهمزاتهم حتى وقع في المحذور الشرعي، لذا؛ فإنه محاسب عليها عند الله تعالى. وهي التي تعيننا في هذه الدراسة. ونذكر منها جملة ظاهرة على سبيل المثال مفصلين فيها بعض الشيء.

أولاً: الغضب:

الغضب: هو غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وعند الغضب تتغير حالة الإنسان وتظهر آثار متعددة عليه، مثل تسرع ضربات القلب وانتفاخ الأوداج واحمرار العين واتساعها، وارتعاد الأطراف وتلجم اللسان وتداخل الكلمات، وفقدان السيطرة على الجوارح أحياناً، وغيرها من الأمور التي تدل بشكل مباشر أو غير مباشر على حدوث انفعال داخلي عند الإنسان أثناء الغضب.

يقول عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء فليلصق بالأرض»⁽¹²⁶⁸⁾.

وينشأ الغضب في النفس بفعل الشيطان ووسوته للإنسان، لأنه قريب منه ويجري من ابن مجرى الدم، كما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»⁽¹²⁶⁹⁾.

وأما التفاعلات الكيميائية التي تحدث عند الغضب من ازدياد نسبة «الأدرينالين» التي تفرزها الغدة الكظرية في الدم، والتي تؤدي إلى زيادة نبضات القلب، ما ذلك إلا أثر من آثار الغضب الذي ينشئه الشيطان في نفس الإنسان من خلال الوسوسة إليه عند أي حدث أو موقف مزعج، ليقوم بأعمال غير مألوفة ومخالفة لحالته الطبيعية.

ويؤيد هذه الحقيقة أحاديث أخرى مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»⁽¹²⁷⁰⁾.

¹²⁶⁸ () أخرجه البخاري (ص327، رقم 2038) كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في الاعتكاف.

¹²⁶⁹ () أخرجه أبوداود (ص678، رقم 4784) كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب. وأحمد (4/226، رقم 1814). والحديث ضعيف لكن معناه صحيح.

¹²⁷⁰ () أخرجه البخاري (ص1066، رقم 6116) كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب. ومسلم (ص1076، رقم 2449) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة. ومالك في الموطأ (ص569) كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الغضب.

ولعل التفسير الخاطئ عند بعض المختصين لحالة الغضب، أو الرؤية المادية التي يبنون عليها مثل هذه الانفعالات هي السبب في الوصول إلى نتائج غير مرضية في عملية العلاج، لا سيما أنهم يركزون على تناول الأدوية والمهدئات، الأمر الذي يزيد في كثير من الأحيان من المرض وتفاقم آثاره على المريض، فالتشخيص الصحيح هو مقدمة لنجاح العلاج وتحقيق الشفاء.

أضرار الغضب الغضب:

يقول أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدو العقل أعدى من الغضب

من شدة ما له من آثار سيئة ونتائج وخيمة على نفس الإنسان وأسرته ومجتمعه، ومن أهم هذه الأضرار والنتائج:

1- الغضب يولد العداوة والبغضاء بين الناس، لأن الغاضب عند الانفعال لا يتحكم في أقواله وأفعاله التي تخرج غالباً عن الآداب العامة، فيثير الطرف الآخر ويقابله بالمثل، مما يؤدي في النهاية إلى حقد دائم ونزاع مستمر بين الناس، فضلاً عن قطع الأرحام الذي يفكك الأسر ويمزقها. بالإضافة إلى كثرة حالات الطلاق وتشتت الأولاد بعدها وضياعهم.

2- يتسبب الغضب في حدوث الجلطات والذبحات الصدرية، والإصابة بمرض السكر، واضطرابات في عمل الكلى، والقولون العصبي وغيرها من الأمراض التي ترهق الإنسان لفترات طويلة من عمره.

3- يحدث الغضب في النفس القلق والتوتر بصورة مستمرة في حالة اليقظة، أما في حالة النوم فتكثر عليه الكوابيس والأحلام المزعجة التي تؤدي إلى الأرق والتعب النفسي.

4- عدم القدرة على إنجاز الأعمال لعدم القدرة على التركيز، والشعور بالتعب بسرعة، وكذا الشعور بالملل دائماً.

5- عدم إدراك الأشياء على حقيقتها، فتختلط معه الحقيقة بالخيال، والواقع بالأحلام، فربما يتخيل شيئاً ويظنه حقيقة يسعى إليها.

6- قصور في التفكير الصحيح، فالغاضب قد ينصاع لأتفه فكرة، أو يقتنع بأسوأ عقيدة.

7- انشغال الفكر بأشياء تافهة أو غير مهمة والبعد عن الأشياء المهمة فينشغل مثلاً بأن فلان عمل معي كذا وكذا، وفلان وقف مني كذا.. وكلها أوهام لا حقيقة لها.

8- يرتب الغضبان على الأشياء التافهة مواقف ضخمة قد تؤدي به إلى نتائج خطيرة فيصوّر له الشيطان أن هذه الصغائر كبائر فيتعامل معها كذلك.

علاج الغضب:

لتفادي الغضب أو تفادي أخطاره حين وقوعه لا بد من اتباع بعض الخطوات التي تعدّ وقاية وعلاجاً في آن واحد، ومن أهم هذه الخطوات:

1- أن يتجنب الإنسان أسباب الغضب ودواعيه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم للذي سأله قائلاً: يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن ولا تكثر علي فأنسى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب»⁽¹²⁷¹⁾. وقد فسر علماء الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «لا تغضب» بالابتعاد عن أسباب الغضب ودوافعه.

2- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وشروره وهمزاته، لقوله تبارك وتعالى: {چ چ چ چ ی ی د د ت ت} (1272). وقوله تعالى: {ذ ذ ذ ذ ر ر ر ر ك ك ك ك} (1273).

وفي الصحيح أنه «استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل وهل ترى بي من جنون»⁽¹²⁷⁴⁾.

3- الوضوء: وهي وصفة نبوية تخفف من وطأة الغضب على الإنسان وتحد من ثورته، وتهدي نفس الغاضب، وتخفف من حرارة جسمه المتوهجة نتيجة الانفعال، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»⁽¹²⁷⁵⁾.

وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة له: «ألا إن الغضب جمرة تنوقد في قلب ابن آدم»⁽¹²⁷⁶⁾. ومثل الوضوء؛ بل قد يكون أعظم وأجدى الغسل.

4- الالتصاق بالأرض: أي أن يبقى الإنسان الغاضب في مكانه، فإن كان جالساً فلا يقوم، لأن الحركة قد تنثيره أكثر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن

⁽¹²⁷¹⁾ سورة الأعراف، الآية 159.

⁽¹²⁷²⁾ سورة الأعراف، الآية 201.

⁽¹²⁷³⁾ أخرجه البخاري (ص1066، رقم 6113) كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب. ومسلم (ص1139، رقم 2610) كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.

⁽¹²⁷⁴⁾ سبق تخريجه.

⁽¹²⁷⁵⁾ سبق تخريجه.

⁽¹²⁷⁶⁾ سبق تخريجه.

أحس بشيء فليصق بالأرض» (1277).

5- تغيير وضعية الغاضب أثناء غضبه، إن كان واقفاً يجلس أو يضطجع، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» (1278).**

وهو علاج لتهدئة النفس وإخماد نار غضبها، لأن الإنسان في حالة الوقوف يكون مهيناً للانتقام أكثر منها في حالة الجلوس، وفي حالة الجلوس منها في حالة الاضطجاع.

6- كظم الغيظ أثناء الغضب بالعفو وعدم الانتقام، لأن ذلك يقضي على بذور الفتنة، ويفتح أبواب المحبة والتسامح بين الناس، ويسد أبواب الشيطان التي يمكن من خلالها أن يدخل بين المسلمين فيثير الفتنة بينهم، يقول الله تعالى: **{ تَذُنْ تَذُنْ تَذُنْ تَذُنْ تَذُنْ تَذُنْ } (1279).**

ويقول عليه الصلاة والسلام: **«من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره أي الحور شاء» (1280).**

7- السكوت وضبط اللسان عن الكلام أثناء الغضب، لقوله عليه الصلاة والسلام: **«علموا ويسرّوا ولا تعسرّوا وإذا غضب أحدكم فليسكت»** قالها ثلاثاً (1281). لأن إطلاق اللسان أثناء الغضب قد يجعل الإنسان يتلفظ بكلمات سيئة وبذيئة، تكون لها آثار ضارة عليه وعلى الآخرين.

8- الإحسان إلى المسيء وهو أعلى درجات الإحسان، وهو امتثال حقيقي لأخلاق النبي ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: **«كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه برداءه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: «يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء» (1282).**

ويقول عليه السلام في حديث آخر: **«أتق الله حيثما ما كنت وأتبع السيئة الحسنة**

(1277) سبق تخريجه.

(1278) سورة آل عمران، الآية 134.

(1279) أخرجه أبوداود (ص677، رقم4777) كتاب الأدب، باب كظم الغيظ. والترمذي (ص416، رقم2021) كتاب البر والصلّة، باب كظم الغيظ. وابن ماجه (ص610، رقم4186) كتاب البر والصلّة، باب في كظم الغيظ. والحديث حسن.

(1280) أخرجه أحمد (1/239، رقم2136) مسند بني هاشم، باب بداية مسند عبدالله بن العباس. والحديث حسن لغيره.

(1281) أخرجه البخاري (ص523-524، رقم3149) كتاب الأدب، باب التّبسم والضحك. ومسلم (ص424، رقم2429) كتاب الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة.

(1282) أخرجه الترمذي (ص460، رقم1987) كتاب البر والصلّة، باب ما جاء في المعاشرة.



تمحها وخالق الناس بخلق حسن»⁽¹²⁸³⁾.

9- الحلم والتحلي بكل مكارم الأخلاق عند الغضب، وعدم الحكم على شيء إلا بعد التحقق منه، درءاً للمفاسد التي قد تترتب على الاندفاع والانتقام، والحلم من صفات المؤمنين، وهو سبب لعلاج كثير من المشكلات النفسية ومنها الغضب، لقول النبي ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»⁽¹²⁸⁴⁾.

10- أن يمتلك الغاضب نفسه أثناء الغضب، ويتحكم بها ولا يطلقها للانتقام أو الكلام، لقوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»⁽¹²⁸⁵⁾.

* * *

ثانيًا: الحسد:

هو تمنى زوال النعمة من الغير.
والفرق بين الحسد والغبطة، أن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير، أما الغبطة فهي تمنى بقاء النعمة عند الغير وتمنى أن يكون عنده مثلها.
والحسد من الشيطان، ليورث العداوة بين الناس ويرفع بينهم أسباب الألفة والتعاون والصلاح.
والحسد في حقيقته اعتراض على حكم الله تعالى في قسمه وعطاياه بين الناس، وصدق الشاعر القائل:

ألا قل لمن ظل لي حاسداً
أسأت على الله في حكمه
فأخزأك ربي بأن زادني
أسأت على من أسأت الأدب
لأنك لم ترض لي ما وهب
وسد عليك وجوه الطلب

أضرار الحسد:

للحسد أضرار وسلبات كثيرة، فمن أهمها:

1- أنه يحرق قلب الحاسد حسرة على ما عند الناس، فيراقب الناس ويتحسس ما عندهم من النعم والآلاء، ليست النعم المادية فحسب، بل يتعدى ذلك إلى الصحة والعافية التي يتمتع بها الناس، والقوة والشباب،

¹²⁸³ () أخرجه مسلم (ص1133، قم 6602) كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق.

¹²⁸⁴ () أخرجه البخاري (ص1066، رقم 6114) كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب. ومسلم (ص1138، رقم 26089) كتاب البر والصلة، باب من يملك نفسه عند الغضب.

¹²⁸⁵ () أخرجه أبو داود (ص691، رقم 4903) كتاب الأدب، باب الحسد. وابن ماجه (ص613، رقم 4210) كتاب الزهد، باب الحسد. والحديث ضعيف لكن معناه صحيح.

والعقل والذكاء، والعلم والمعرفة، فلا يزيده ذلك إلا احتراقاً وغيظاً في نفسه.

2- أن الحسد سبب لتراكم الذنوب والخطايا، وانتقاص الحسنات والأجور، لقوله ﷺ: «إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»⁽¹²⁸⁶⁾.

3- فيه هدر للطاقات والقدرات والأوقات والأعمار، حين يسخر الحاسد جلّ قدراته وأوقاته في مراقبة الناس وشؤونهم، وما يرد إليهم وما يخرج من عندهم.

4- الحسد يورث العداوة والبغضاء بين الناس، ويمزق الصف الواحد، ويفكك الأسر ويفرق الإخوة والأحباب، لأنه وليد الكراهية والحقد، والمجتمع الذي يسوده الحسد تندر فيه معالم المحبة والوئام التي هي أساس التعامل بين الناس.

5- الحسد سبب لجهل المجتمع وتخلفه وفقره، لأنه مبني في الأصل على زوال النعم من المجتمع، سواء كانت مادية كالأموال والممتلكات أو معنوية كالصحة والقوة، وإذا فقدت هذه المقومات من أي مجتمع فإنه سيبقى غارقاً في ظلمات الجهل والفقر والتخلف.

6- الحسد يورث في النفس الأرق والحسرة، لأن الحاسد دائم التفكير في غيره بصورة سلبية، فلا يقر له قرار ولا يهدأ له بال، ومثل هذه الحالات تؤدي بالشخص إلى اكتئاب وسواس، لا سيما إذا عرف أن الذين من حوله عرفوا حسده وحقدّه عليهم، فإن ينحسر على نفسه ويتوقع فيها الأمر الذي يؤدي الإصابة بالأمراض النفسية المتنوعة.

علاج الحسد:

إن مثل هذه الصفات المذمومة تحتاج دائماً إلى مجموعة من الخطوات والإجراءات بمثابة وقاية من الوقوع فيها أو العلاج منها بعد الإصابة بها، ومن أهمها:

1- معرفة أن الله تعالى نهى عن هذا الخلق الذميمة، وهذه الجبلة المنحرفة، وأمر عباده الاستعاذة منها، فقال: ﴿تَتَذَكَّرُ أَمْ تَكْفُرُ﴾⁽¹²⁸⁷⁾.

⁽¹²⁸⁶⁾ سورة الفلق.

⁽¹²⁸⁷⁾ أخرجه البخاري (ص1059، رقم 6066) كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد. ومسلم (ص1122، رقم 2558) كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تتناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»⁽¹²⁸⁸⁾.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يتبئ ذلك لكم، أفشوا السلام بينكم»⁽¹²⁸⁹⁾.

2- تدريب النفس على محبة الآخرين وحب الخير لهم، وتدريبها على العمل والسعي من أجل قضاء حوائج الناس واحتساب الأجر والثواب من عند الله تعالى، لما في ذلك من أثر كبير في دفع الكراهية والحسد عن النفس وإحلال المودة والمحبة فيها، امتثالاً لقوله تعالى: {لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكُمْ سُبُلًا كَثِيرًا وَلَيُخْذِلَنَّ اللَّهُ الْفَاسِقِينَ} (١٢٩٠).

3- العلم الشرعي، الذي يبين حقيقة الحسد، وأنه من الشيطان، وأن فيه آثار وأضرار على النفس وعلى المجتمع، فضلاً عن العقاب والعذاب المترتب عليه.

4- العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، حيث يفيد ذلك أن الكون كله بيد الله تعالى ويسير وفق إرادته، وأن النعم والأرزاق بيده سبحانه وتعالى وهو الذي جعل هذه القسمة بين الناس، لأن في الحسد اعتراض على قسمة الله وحكمه وقدره.

5- الاعتقاد بأن الحياة دار ابتلاء واختبار، والناس جميعاً محاسبون على ما هم فيه، فيبتلى الغني في ماله، هل يشكر الله تعالى ويخرج حق الله منه، أم أنه يجحد هذه النعمة ويهدرها في المعاصي والمنكرات؟ وكذلك يبتلى الفقير بحرمانه، هل يصبر ويحتسب، أم أنه يتضجر ويعترض؟ وهكذا جميع أصناف البشر.

6- الدعاء إلى الله تعالى واللجوء إليه أن يعافيه من الحسد والحقد ويزرع في نفسه حب الآخرين وتمني الخير لهم، وكذلك الدعاء للمحسود أن يزيده الله من النعم ويبارك له فيها.

¹²⁸⁸ (أ) أخرجه مسلم (ص44، رقم 54) كتاب الإيمان، باب لا يدخل الجنة إلا مؤمن.

¹²⁸⁹ (ب) سورة المائدة، الآية 2.

¹²⁹⁰ (ج) أخرجه مسلم (ص54، رقم 265) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان.

1291) سورة النساء، الآية 65.
1292) سورة القصص، الآية 78.
1293) سورة العلق، الآيتان 6-7.
1294) سورة النحل، الآية 23.

- القبيلة والنسب: ومن الناس من يتكبر على الناس لأنه ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك، ويتعالى على خلق الله تعالى بأنه من عرق يختلف عن أعراقهم، ومن نسب أفضل من أنسابهم، ويبعد به التصور إلى أن يفضل نفسه وقبيلته على الآخرين بما فيها من المفاصد العظيمة والمعاصي والمنكرات، وكأنه يردد قول الشاعر الجاهلي:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

بل ربما ظن البعض أن النسب والقبيلة قد تغنياه في الآخرة وتنجياه من العذاب.

- الجمال: ومنهم من يتكبر ويصيبه الغرور إذا أعطاه الله شيئاً من حُسْن وجمال، فيرى نفسه فوق الجميع لأنه يملك ما لا يملكون، ويتميز بطول فارع وشعر جميل ووجه حسن وصوت عذب وغيرها من الصفات الخَلقية الحسنة، التي قد يفتقدها بعض الناس، وينسى شكر هذه النعمة في خضم الغرور والتكبر الذي يبثه الشيطان في نفسه، بل يمضي في غيّه حتى يظهر ازدراءه لما عليه الناس من صور وأشكال وألوان وصفات، ويظن أن ما عنده هو من كسب يده وعلمه.

- الوظيفة والمنصب: والتي صار لها شأن كبير في هذا العصر، حيث يتباهى الناس ويفتخرون حين يصلون إلى منصب رفيع، ويستلمون زمام وزارة أو وكالتها، أو رئاسة جامعة أو إدارة شركة أو يصبح مسؤولاً كبيراً في الحكومة وغير ذلك من الوظائف العليا التي يطمح إليها الناس، حتى تصيب بعض هؤلاء العزلة عن الناس والبعد عن مشكلاتهم وحوائجهم، بل الاستعلاء عليهم، لأنه صار ذو مكانة عالية وله علاقات على مستويات رفيعة. وهي من علامات استيلاء الشيطان على النفس وإمساكه بزمام القيادة عليها.

- قوة البدن والسلطة: كما يتكبر البعض بما أوتي من قوة في الجسم أو سطوة ومنعة في السلطة، فيتعالى على الضعفاء، ويزدري ضعفهم، بل إنه يفرض عليهم قناعاته وقوانينه، ويمنع عنهم مجادلته ونقاشه، ويظلم الناس ويعتدي على حقوقهم دون حاجة أو اعتراض، لأنه صاحب القوة والمنعة في هذا المقام.

إن هذه جميع هذه الصفات والمشاعر تعدّ نقاط ضعف في النفس، ومن خلالها يدخلها الشيطان ويسيطر عليها، ولا يتركها على حالها، وإنما ينفث فيها من خبثه حتى تضطرب من جميع الجوانب، ويصيبها الاكتئاب والقلق

والحزن، بل قد يجتمع فيها المتناقضات المختلفة التي تؤدي في النهاية إلى مرض نفسي يفقد صاحبه بعد ذلك السيطرة على المواقف والقرارات.

علاج الكبر:

ومن أجل ألا يقع الإنسان في الكبر، أو يتعافى منه بعد الوقوع فيه ينبغي معرفة بعض الحقائق واتباع الخطوات اللازمة لذلك، وهي كالآتي:

1- استشعار عظم ذنب الكبر وما يترتب عليه من بغض الله للمتكبر، وعقاب منه وعذاب، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَنْ تَرْضَاهُ وَلَا يَرْضَاهُ اللَّهُ بِهَا وَلَا يَرْضَاهُ الْمُتَكَبِّرُونَ﴾ (1295).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوي ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (1296).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل الناس طينة الخبال» (1297).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (1298).

كما جاء في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» (1299).

والأحاديث عن ذم الكبر والنهي عنه كثيرة، ويطول المقام لذكرها جميعاً.

2- تأمل قوة الله تعالى واستشعار عظمتة في الكون، وأنه بيده ملكوت

¹²⁹⁵ () أخرجه مسلم (ص1124، رقم 6541) كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذلانه

¹²⁹⁶ () أخرجه مسلم (ص895، رقم 2002) كتاب الأشربة، باب بيان إن كل مسكر حرام .

¹²⁹⁷ () أخرجه مسلم (ص54، رقم 265) كتاب الإيمان، تحريم الكبر .

¹²⁹⁸ () أخرجه أبوداود (ص577، 4090) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر. وابن ماجه (ص609، رقم 4174) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر. وهو حديث حسن.

¹²⁹⁹ () سورة فصلت، الآيتان 15-16.

[illegible]

ويقول عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل يمشي في حلة تعجب نفسه،
مرجل جمته، إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»⁽¹³⁰¹⁾.

3- أن يتأمل الإنسان في ذاته ونفسه، ومعرفة أصل خلقته، لقوله تعالى: {كَلِمَاتٍ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ أَنْ تُذَكَّرُوا بِهِ} (١٣٠٢)، وكذلك التأمل فيما يحمل في جوفه من أقدار وخبائث، فإن التفكير الصحيح في مثل هذه الحقائق يمنع صاحبه من التكبر والاستعلاء على الناس.

4- التأمل والتفكر في الشدائد التي تمر على الإنسان كالمريض والحوادث والكوارث التي تجلب الآلام وتذهب الأرواح، وتنتلف الأموال والأموال، في حين يبقى الإنسان عاجزاً عن منع حدوثها أو رد شيء منها.

5- التفكير والتأمل في حاله بعد موته، وحال بدنه وجسمه التي كان ينتهاى به في الدنيا، فإنها تتحول إلى قطعة هامة يابسة، وتصبح غذاء للديدان والحشرات، وصدق الشاعر حين قال:

يابن التراب ومأكول التراب غداً **أقصر فإنك مأكول ومشروب**

6- معرفة أن الناس جميعًا يرجعون إلى أصل واحد وهو آدم عليه السلام، وهو من التراب، فلا يتفاضل أحد على أحد بالنسب أو اللون أو الجمال أو العرق، لأنهم جميعاً عباد الله تعالى وأقربهم إلى الله وأفضلهم عنده أكثرهم تقوى بالقول والعمل، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَنَسَاءً وَعَمِلْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَفْعَالًا مَذْمُومَةً﴾ (١٣٠)

7- معرفة أن الله تعالى خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسن تقويم،

¹³⁰⁰ () أخرجه البخاري (ص1021، رقم 5789) كتاب اللباس، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء. ومسلم (ص934، رقم 2088) كتاب اللباس، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بشيائه.

1301 (سورة عبس، الآيات 17-21).

1302 (سورة الحجرات، الآية 13).

1303 سورة التين، الآية 4.

مهما كان لونه وطوله وحجمه، لقوله تعالى: ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا يَسْخَرُوْنَ مِنْ بَعْضِ الْاَشْيَاءِ الَّتِيْ سَخَّرَ اللّٰهُ لَهَا وَلِاِنَّهَا لَافْتَرَافٌ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ (1304)، فلا ينبغي لأحد أن يتعالى على خلق الله تعالى وعلى صورته وشكله، لأنه بذلك يسخر من خلق الله للإنسان.

كما أن جل وعلا أكرم الإنسان وأعلى شأنه وأسجد الملائكة له، فلا ينبغي لأحد أن يتكبر على هذا المخلوق الذي رفع الله مكانته وفضله على سائر الخلائق، يقول الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُوْنَ مِنْ بَعْضِ الْاَشْيَاءِ الَّتِيْ سَخَّرَ اللّٰهُ لَهَا وَلِاِنَّهَا لَافْتَرَافٌ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ (1305).

8- معرفة أن الكبر خلق مذموم من الناس، وترفضه الفطرة السليمة، وأن الذين يتكبر على الناس يصغر في أعينهم، والذي يتواضع مع الناس يكبر عندهم، وقد قيل: مثل المتكبر كمثل رجل في أعلى الجبل يرى الناس من حوله صغاراً والناس يرونه صغيراً.

* * *

رابعاً: الرياء:

وهو أن يقوم العبد بعمل من أجل الدنيا، إما لشهرة، أو جاه، أو مال، أو مصلحة شخصية. وهو عكس الإخلاص.

أما في العبادة، فيعبد الله تعالى لا لطلب الأجر والثواب من الله والطمع في جنته، ولا خشية من عقابه وعذابه، ولا استجابة لندائه وأمره، وإنما من أجل أن يمدحوه الناس ويثنوا عليه، كالذي يصلي ويصوم من أجل أن يقال عنه عابد وتقي، أو الذي ينفق ويזكي من أجل يقال عنه كريم وسخي، أو يجاهد من أجل أن يقال له شجاع، وهكذا.

وقد جاء النهي عن الرياء بصورة عامة، في العبادة وغيرها، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء» (1306).

أضرار الرياء:

للرياء أضرار كثيرة، من أهمها:

(1304) سورة الإسراء، الآية 70.
(1305) أخرجه أحمد (5/429، رقم 23686). والحاكم (4/365، رقم 7937). وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(1306) أخرجه مسلم (ص 1292، رقم 7475) كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله.

1- عدم قبول العبادة، لأن المرائي لم يقصد من عبادته تلبية أمر الله والطمع في الأجر والثواب، وإنما قام لأغراض دنيوية، وحينها يوكله الله تعالى إلى من يرائي من أجله، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»⁽¹³⁰⁷⁾.

2- أن في الرياء تعلقاً بالمخلوقين، وهذا الأمر تترتب عليه أضرار عظيمة، لأنه ينافي أصل التوحيد وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو رأس المفاصد كلها، ومن أشد أنواع الظلم للنفس، كما قال تعالى على لسان لقمان في وصيته لابنه: {ثُمَّ تَذُفُّ فَقْفَقْ جِجْ جِجْ} ⁽¹³⁰⁸⁾.

ثم إن المرائي يدخل في دوامة نفسية خطيرة، حين يعلق أعماله بالناس، لأن قلبه يتشتت بين إرضاء البعض وسخط الآخرين، والتوفيق صعب في مثل هذه الأحوال، فتتعدد عليه الغايات وتتناقض، الأمر الذي يجعله يعيش في قلق وأرق وخوف.

3- الرياء صورة من النفاق، وهو إظهار ما يخالف الباطن، وهذا يؤدي إلى فقدان الثقة بين الناس مع مرور الوقت، فيحل الكذب والخيانة والغش مكان الصدق والأمانة والاستقامة، وهذا كفيل بتمزيق المجتمع وانهياره.

4- بما أن الرياء هو عكس الإخلاص، فإنه بذلك يقضي على مقومات التقدم والبناء في المجتمع، ومن أهمها الإتقان في العمل والإبداع فيه، لأن الشكل والصورة عند المرائي أهم من الحقيقة، فلا يهتم إن كان العمل متقناً أم لا، كما لا يهتم الجودة في الإنتاج، بل يهتم أن يظهر أمام الناس بصورة إيجابية، وهو خلاف ما حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»⁽¹³⁰⁹⁾.

5- الرياء تصنع الأنانية في النفس وتقضي على روح التعاون ومحبة الآخرين وحب الخير لهم، لأن المرائي يعمل دائماً من أجل نفسه، وشهرته وثناء الناس عليه، أو تحقيق مكاسب مالية خاصة، أو الوصول إلى مكانة اجتماعية أو وظيفية عليا وإن كان على حساب الآخرين.

¹³⁰⁷ (سورة لقمان، الآية 13).
¹³⁰⁸ (أخرجه مسلم (ص1124، رقم 6543) كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذلانه).
¹³⁰⁹ (سورة النساء، الآية 146).

علاج الرياء:

1- تدريب النفس على إخلاص النية لله تعالى في العبادات وسائر الأعمال، ورجاء الأجر والثواب من الله وحده دون سواه، وهو السبيل إلى تحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ثَوْبٌ وَوُؤِي ي ب د ن ا ث ه ثو نو ئ﴾⁽¹³¹⁰⁾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى»⁽¹³¹¹⁾.

2- معرفة أن ما في الدنيا من مال، وجاه، وسلطان، وشهرة، تؤول إلى الزوال لا محال، وأن ما عند الله تعالى أكثر وأعظم وأبقى، لقوله تعالى:

ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج د د د ت ت {^(١٣١٢). فمن استطاع أن يصل إلى هذا

اليقين ويتفاعل معه، فلن تستطيع الشياطين أن تفتح عليه أبواب الرياء أو تمهد له أسبابه.

3- مصاحبة الأخيار والمخلصين لأنها تساعد على الإخلاص في العبادات والأعمال، لقوله صلى الله عليه وسلم: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»⁽¹³¹³⁾. وبالمقابل تجنب مخالطة المرئيين، لأنها تؤثر على سلوك الإنسان من حيث لا يشعر، لأنه يكتسب منهم النفاق والمجاملات الكاذبة من أجل تمرير الباطل والوصول إلى أهداف دنيوية من خلال هذا الأسلوب.

4- معرفة أن الرياء آفة نفسية خطيرة، وقد نهى الله ورسوله ﷺ عنه، ورُتّب عليه العذاب والعقاب، لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأُتِيَ به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيها حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: هو جريءٌ»، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت

¹³¹⁰() أخرجه البخاري (ص1، رقم1) كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي.

1311 ﴿سورة النحل، الآية 96﴾

¹³¹² (أخرجه أحمد (ص683، رقم 4833) كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس. والترمذي (ص542، رقم 2378) كتاب الزهد. وهو حديث حسن.

¹³¹³ () أخرجه مسلم (ص852، رقم 1905) كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء.

* * *

1320 سورة هود، الآية 102.

آثار الظلم وتبعاته:

1- للظلم أثر كبير في حدوث الأمراض النفسية لدى المظلوم الذي يعتدى على حقه وكرامته وإنسانيته وماله ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، فيعيش في حالة نفسية صعبة، وربما تراكمت لديه الأزمات نتيجة الظلم فلا يجد سبيلاً إلا الانتقام والثأر وقد يكون شديداً أحياناً كالقتل مثلاً، أو أنه يلجأ إلى الانتحار للخروج من معاناته النفسية نتيجة القهر والظلم الواقع عليه.

2- عقوبة الله تعالى لاحقة بالظالم لا محال، عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ:**{ ر ك د ن ك ه ح ط ز س ع ف ق آ إ ي أ ب ج د ه و ز ح ط ي ر ك ل م ن هـ }^(١٣٢١)»^(١٣٢٢). فهذه العقوبة ربما تكون في الدنيا قبل الآخرة.

3- إن الظلم من الأسباب المباشرة لتفشي النفاق بين الناس، فتكثر المجاملات الكاذبة والمظاهر الخداعة، والكلمات المنمقة، من أجل إرضاء الظالم وتفادي شره وظلمه.

4- إن الظلم يحدث الأحقاد والضغائن بين الناس، ويزيد من الفتن والتقاتل بينهم، لأن المظلوم يفكر دائماً في الانتقام والثأر لظلمه، ومتى وجد الفرصة لذلك فإنه لن يتوانى عن فعل أية مخالفة أو جريمة من أجل إشفاء غليله وردّ الاعتبار لنفسه.

5- إن من تبعات الظلم أنه يجلب لصاحبه المصائب والأمراض والنوازل في الدنيا، لا سيما إذا كان لجأ المظلوم إلى الله تعالى وقَدَّم بين يديه مظلمته وطلب منه نصره وتأبيده، لقوله عليه الصلاة والسلام: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»⁽¹³²³⁾.

ألا فليرجع كل ظالم إلى ربه، ويندم على ظلمه للناس، ويرد إليهم حقوقهم، ويتوب إلى الله تعالى ويتوعد بين يديه بالإقلاع عن الظلم وتجنب أسبابه، قبل أن يعجله الأجل ثم يندم يوم لا ينفع فيه الندم، يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰبِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (1324).

¹³²¹ () أخرجه مسلم (ص1130، رقم 2583) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

1322 } أخرجه مسلم (ص31، رقم 19) كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين.

1323 سورة النساء، الآية 110.

1324 () سورة البقرة، الآية 268.

سادسًا: البخل:

وهو الإمساك عن الواجب والمستحب.

ومصدره من الشيطان ومكانه النفس الأمارة بالسوء، يقول تبارك وتعالى: (اِنَّكَ كَؤُودٌ وَّوَّوٌّ وَّوَّوٌّ وَّوَّوٌّ) (1325).

وهو من خلال الذميمة التي نهى الشرع عنها، وقد كثرت الآيات القرآنية في ذم الشح والبخل، والحث على الإنفاق والصدقات، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ نُؤْتُوهُم مِّنْهُ نَجْمًا مِّنْ ثَمَرِهِ فَلاَ يَحْتَكِرَ﴾ (1326).

أضرار البخل:

1- إن عاقبة البخل وخيمة عند الله تعالى، لقوله جل شأنه: {وَأُوۡثُوۡاْ

2- البخل يقلل الخوف من الله تعالى، لأن البخيل يتكلم في حياته وعمله على ذكائه وحوله وقوته، وينسى التوكل على الله تعالى، لأنه يظن أن كسب المال إنما يكون إنما بالعمل وحده، أو بالذكاء والعلم، بعيداً عن مشيئة الله وتوقيفه، وهو التصور الذي كان عند قارون الذي ملأ الخزائن بالأموال والذهب، وحين قال له قومه أحسن كما أحسن الله إليك ردّ عليهم قائلاً: { ب ب ب ب ب پ پ }⁽¹³²⁸⁾. فكانت نتيجة ذلك أن خسف الله الأرض به وبأمواله، قال تعالى: { ك ك ك ك ك گ گ س ن ط ن ظ ظ ه ه ه }⁽¹³²⁹⁾.

3- البخل يجلب على صاحبه الأزمات والمصائب المختلفة، فحين ييخل الإنسان ويمسك عن الإنفاق والزكاة، فإن الله تعالى يبتليه بمصائب وخسائر مضاعفة من جهات أخرى، بل إن الأمور تتعسر من كل جانب، يقول الله تعالى: {كَذَّوُّوْاْ وَوَدُّوْاْ وَوَدُّوْاْ وَوَدُّوْاْ وَوَدُّوْاْ} (130).

4- يخشى على البخيل من النفاق، لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع غبار في

¹³²⁵() سورة آل عمران، الآية 180.

1326 () سورة النساء، الآية 37.

1327 ﴿سورة القصص، الآية 78﴾

1328 ﴿سورة القصص، الآية 81﴾

1329 } سورة الليل، الآيات 8-11

1330 () أخرجه النسائي في الصغرى

1330 () أخرجه النسائي في الصغرى (ص427، رقم 3110) كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه. وأحمد (2/441، رقم 9691).

سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»⁽¹³³¹⁾.

5- البخل يقضي على العلاقات الاجتماعية بين الناس، ويبث القطيعة فيهم، لأن البخيل يمتنع عن التواصل مع أقاربه وأصحابه خشية إنفاق المال عليهم أو مساعدتهم أو شراء الهدايا لهم وغيرها من الواجبات التي تستوجب الإنفاق وبذل المال.

6- يحلّ على البخيل بغض من الله تعالى وبغض عند الناس، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني، والبخل المنان، والمعيل المختال»⁽¹³³²⁾.

7- البخل يؤدي إلى كثير من الأمراض النفسية، لا سيما على من هم تحت ولاية البخيل من الأبناء والزوجة وغيرهم، بسبب الحرمان المفروض عليهم ومنعهم من التمتع بأبسط الأشياء في الحياة، بينما يرى هؤلاء أمثالهم يستمتعون ويصرفون ويشترون، الأمر الذي يسبب في حدوث أزمات نفسية، والتي تترتب عليها أضرار أخرى كالفسل في الحياة بصورة عامة.

8- إن حرمان من له حق الإنفاق عليه من ضروريات الحياة، قد يدفع إلى اقتراف طرق ملتوية للحصول على المال، وتأمين حوائجهم، كالسرقة أو النهب، أو العمل غير المشروع.

9- البخل والشح من أسباب هلاك الناس وانتشار وانتشار المحرمات والجريمة بينهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»⁽¹³³³⁾.

علاج البخل:

1- ترويض النفس على الإنفاق، واعتبار أن المال وسيلة في الحياة وليست غاية، واعتبار مكان المال في اليد وليس في القلب، فقد كان يربي النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على ذلك، لقوله عليه الصلاة والسلام لبلال: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرض إقلالاً»⁽¹³³⁴⁾.

¹³³¹ () أخرجه الترمذي (ص584، رقم 2568) كتاب صفة الجنة. والنسائي (ص356، رقم 2570) كتاب الزكاة، باب ثواب من يعطي. صححه الترمذي.

¹³³² () أخرجه مسلم (ص1129، رقم 6576) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

¹³³³ () أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (1/101)، وأبو نعيم في الحلية (2/280، رقم 2661). وأبو يعلى في مسنده (6/160، رقم 2661) وهو حديث صحيح.

¹³³⁴ () سبق تخريجه.

2- استشعار أجر الإنفاق في سبيل الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»⁽¹³³⁵⁾.

3- الدعاء واللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به من البخل والشح، فقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك ويقول: يستعذ بالله من البخل، حيث قال: «اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر، وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات»⁽¹³³⁶⁾.

* * *

سابعاً: الخلافات الزوجية:

إن الخلافات الزوجية بين الأبوين بصورة دائمة من الأسباب الكبيرة لانتشار الأمراض النفسية في المجتمعات، لا سيما عند أفراد الأسر التي تكثر فيها هذه المشكلات والخلافات.

فمن أهم الآثار المترتبة على الأسرة نتيجة المشكلات الزوجية:

1- اضطراب شخصية الطفل وعدم استقرارها في ظل الخلافات بين الأبوين، لأنه يعيش بين المتناقضات مع أبويه، فالأب يسير في اتجاه معاكس لاتجاه الأم، والجدال والشجار يبدن الطرفين، الأمر الذي يدخل الطفل في تيه نفسي وضياح في السلوك والتعامل.

2- إن المشكلات الزوجية سبب لهروب أفرادها من البيت وقضاء الأوقات الطويلة خارج البيت والذي يعرضهم للوقوع في شرك أصدقاء السوء والمخدرات وغيرها.

3- إن الخلافات الزوجية المستمرة تؤدي إلى تشويه صورة الأبوين عند الأبناء وتجنب الاقتداء بهما، الأمر الذي يعكس بعد ذلك على سلوكهم في اختيار قدوات أخرى عبر الفضائيات والانترنت، أو التعلق بالمغريات والفواحش التي تؤدي في معظم الحالات إلى الجريمة والسجون.

4- إن المشكلات الزوجية تكوّن لدى الأبناء الانطوائية والانعزالية، وهي من الأبواب الواسعة التي يلج منها الشيطان إلى النفس ويعرضها إلى

¹³³⁵ () أخرجه مسلم (ص1176، رقم 6876) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره.

¹³³⁶ () أخرجه البخاري (ص143-144، رقم 893) كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن. ومسلم (ص820، رقم 1820) كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.

الأمراض المختلفة.

علاج المشكلات الزوجية:

يتم علاج هذه المشكلات من خلال الوقاية من أسبابها، والعمل على إزالة أثارها حين وقوعها عبر الخطوات الآتية:

1- قيام كل من الزوجين بمهمته الواجبة داخل البيت قدر الإمكان، والسعي نحو الأفضل عند وجود تقصير أو إهمال.

2- معرفة كل من الزوجين حقوق الآخر وأدائها بمحبة وطيب نفس.

3- مناقشة الأمور المختلف فيها بمعزل عن الأطفال، حتى لا تضطرب حالتهم النفسية.

4- عدم إفشاء الأسرار خارج البيت، لأنه يفتح الباب لمداخلات الناس بينهم بصورة سلبية كتحريض طرف على آخر، مما يزيد من الأزمة والمشكلة داخل البيت.

5- التعاون فيما بينهما من أجل بناء الأسرة وتربية الأبناء على أسس سليمة، لأن كل من الزوجين مسؤول عن الأسرة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلهم مسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته»⁽¹³³⁷⁾.

6- التشاور والتناصح فيما بينهما في الأمور التي تهم الأسرة في الجوانب المختلفة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹³³⁸⁾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «أمرؤ النساء في بناتهن»⁽¹³³⁹⁾ أي شاورهن في زواج بناتهن.

7- أن يعذر كل منهما الآخر على تقصيره، ويتذكر كل منهما محاسن الآخر، لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»⁽¹³⁴⁰⁾.

⁽¹³³⁷⁾ سورة الشورى، الآية 38.

⁽¹³³⁸⁾ أخرجه أبوداود (ص303، رقم 297) كتاب النكاح، باب في الاستئثار. وأحمد (2/34)، رقم 4905. ورجاله ثقات غير رجل مبهم حدث عنه إسماعيل بن أمية ووثقه فقال: حدثني الثقة عن ابن عمر.

⁽¹³³⁹⁾ أخرجه مسلم (ص626، رقم 3645) كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

⁽¹³⁴⁰⁾ سبق تخريجه.

8- عمل كل شيء من شأنه أن يعمّق المودة والمحبة بينهما، كالتحبيب بالكلام اللطيف والدعاء وتقديم الهدايا وغيرها.

9- تجنب الغضب والانفعال عند حدوث خلاف أو ظهور مشكلة، لأنه من مداخل الشيطان عليهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»⁽¹³⁴¹⁾.

10- الصبر على الظروف الصعبة التي تمر بها بعض الأسر، والتي تكون سبباً الخلافات الزوجية، كالفقر وضيق الحال، وقد أمر الله تعالى بالصبر في الأمور كلها ورتب عليه أجراً عظيماً فقال: {ثِيَابُ الْجَنَّةِ خُضْرَاءُ جَمْدُهَا} ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها»⁽¹³⁴³⁾.

11- البعد عن الغيرة المذمومة من الطرفين، وإبدالها بحسن الظن بينهما، حتى تدوم الألفة وتزداد عرى المحبة بينهما، لأن الشك والغيرة الزائدة يسبب المشكلات الكثيرة بين الطرفين.

* * *

ثامناً: المخدرات:

هي كل مادة مخدرة للعقل، ومفترية للجسم، تعطى على شكل شراب، أو إبر، أو حبوب، أو مسحوق، وهي أخطر من الخمر من حيث الأثر على نفسية الإنسان وجسمه وماله وأسرته.

ويبدأ تأثير المخدرات على المتعاطي بصورة تدريجية، حتى يصل إلى الإدمان، فإنه بعد ذلك يصعب التخلص منها، ويقع أحوال من الشرور والمصائب والمآسي.

أضرار المخدرات:

1- إن المخدرات من كبائر الذنوب، وقد نهى الشرع عنها ورتب عليها عقوبات في الدنيا والآخرة، وعدّها الله تعالى من الرّجس لشناعتها

¹³⁴¹ (سورة الزمر، الآية 10).

¹³⁴² (أخرجه مسلم (ص369، رقم 2126) كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة).

¹³⁴³ (سورة المائدة، الآية 90).

وَأَضْرَارَهَا، فَقَالَ تَعَالَى: (أَب ب بُ دِ يَ پِ یِ پِ یِ پِ یِ نْ) (۱۳۴۴).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث»⁽¹³⁴⁵⁾.

2- إن المخدرات تفسد العقول وتخلّ بها، مما يسبب مشكلات متواصلة داخل الأسرة مع الزوجة والأولاد، وقد يتسبب أحياناً في الطلاق وتشتت أفراد الأسرة وضياعهم.

3- إن المخدرات تحرف السلوك وتفسد الأخلاق، حيث تزيد من الفواحش والزنا في المجتمع، لأن المدمن حين يفقد عقله وصوابه لا يميز بين الحلال والحرام، ولا تردعه العقوبات والقوانين، فتراه يفعل كل الخبائث دون أن يحسب حساباً لأحد.

4- إن المخدرات تسبب للمدمن الضعف والوهن والهزال، لأنها تفقد شهية الطعام لديه، مما يسبب له بعد ذلك ضعفاً في المناعة وخمولاً في الحركة والنشاط، فضلاً عن فقدان التوازن واحمرار العينين وغير ذلك من الأعراض.

5- يحدث تعاطي المخدرات أضرار صحية جسيمة، كالاضطراب في الجهاز الهضمي، وارتفاع ضغط الدم، والذبحة الصدرية، والتهابات في المعدة، وتليف الكبد أو تضخمه، كما أنه يعطل عمل الخلايا العصبية في المخ الذي يسبب أحياناً فقداناً في الذاكرة. كما أنها تحدث في بعض الحالات عيوباً خلقية في الأطفال عند الولادة، نتيجة تعاطي الأم للمخدرات.

6- إن المخدرات تسبب للمدمن النوبات الصرعية لا سيما إذا انقطع عن التعاطي أو لم يتمكن من الحصول عليه.

7- يحدث تعاطي المخدرات اختلالاً في التفكير والتصور، فقد يرى الأحجام الصغيرة كبيرة، أو يرى الأشياء من حوله مقلوبة، بل إنه يؤدي في كثير من الأحيان إلى التخريف المبكر، أو الجنون.

8- يحدث تعاطي المخدرات عند المدمن الفتور والخمور الذي يصاحبه القلق والانقباض أحياناً، والتوتر والعصبية أحياناً أخرى.

¹³⁴⁴ () أخرجه النسائي (ص767، رقم 5669) كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر من ترك الصلوات...

1345 () سورة المائدة، الآية 90.

كما أنها تضرب اقتصاد الأفراد والمجتمع، وتجعلهم في حالة فقر دائم، لأنها تباع بأسعار باهظة لا تتناسب مع دخل الأفراد والطبقات المتوسطة.

علاج المخدرات:

1- معرفة نعمة العقل، الذي جعله الشرع من المقاصد الشرعية الخمسة الضرورية، وأمر بالمحافظة عليها وحمايتها من خلال شكر الله تعالى، وتسخيرها في الطاعة والعبادة، وإبعادها عما يخامرها أو يخل بها، لقوله تعالى: {أَبْ بَ بِبِ بٍ بِبِثْ} (١٣٤).

3- مصاحبة الأخيار ومجالستهم، وتجنب أصدقاء السوء، وعدم مرافقتهم، لأنهم لا يجلبون للإنسان سوى الضرر والفساد في أخلاقه وسلوكه، والفشل والخيبة في دراسته وعمله وسائر شؤونه، وقد يبدأ الإنسان في مراحله الأولى بالصحبة الفاسدة والتي لا تخلو في كثير من الأحيان من تعاطي الدخان إلى أن ينتهي بهم الأمر إلى المخدرات، والشواهد على هذه الحقيقة من الواقع كثيرة، وصدق النبي عليه الصلاة والسلام: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل بائع المسك ونافخ

¹³⁴⁶) أخرجه مسلم (ص1146، رقم 2628) كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين.

الكبير»⁽¹³⁴⁷⁾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»⁽¹³⁴⁸⁾.

4- معرفة أضرار المخدرات والاطلاع على قصص المدمنين والنتائج التي وصلوا إليها، وأخذ الدروس والعبر منها.

5- تنمية الإرادة الذاتية، لا سيما للمدمنين الذين يتعالجون ويحاولون التخلص من الإدمان، لأن التهيئة النفسية مطلب ضروري للشفاء من هذه الآفة، وبعدها تبدأ الخطوات الأخرى من العلاجات.

وأخيراً فأختم الكلام ببعض الوصايا لأولئك الذين ابتلاهم الله تعالى بالمرض سواء كان نفسياً أو عضوياً:

1- تجديد الشعور مع الله تعالى في التقرب إليه بالطاعات والدعاء والذكر، وقراءة القرآن وغيرها من العبادات، حتى يستقر الإنسان نفسياً، وينطلق في الحياة بصورة إيجابية.

2- الاعتقاد أن الخير فيما قدره الله وإن كان ظاهره غير ذلك، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

3- التداوي بالمشروع وعدم التداوي بالمحرم لقوله صلى الله عليه وسلم: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹³⁴⁹⁾.

ويلحق بهذا الأمر تجنب الوقوف على أبواب المشعوذين والسحرة، وإبدال ذلك باللجوء إلى الله تعالى والوقوف على بابه، فهو أرحم بعباده من أنفسهم وذويهم وجميع الخلق، ولا يرد دعوة عبده المنيب إليه بصدق وإخلاص.

4- تقوية الإرادة وإخراجها من دائرة العجز والكسل إلى ميدان الحركة والتفائل، وإن كلف ذلك تعباً ونصباً في بعض المراحل.



¹³⁴⁷ سبق تخريجه.
¹³⁴⁸ أخرجه الترمذي (ص 469-470، رقم 2038) كتاب الطب، باب الدواء والحد عليه. وأحمد (4/315، رقم 18851). وهو حديث صحيح.
¹³⁴⁹ أخرجه النسائي (ص 569-570، رقم 4084) كتاب تخريج الدم، باب الحكم في السحرة. والترمذي (ص 476، رقم 2072) كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق.



قال رسول الله ﷺ «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ»⁽¹³⁵⁰⁾.
أشرك، ومن تعلّق شيئاً وكُلَّ إليه»⁽¹³⁵⁰⁾.

حقيقة السحر:

في اللغة:

قال الرازي: السِّحْرُ: الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر. والفعل: سَحَرَهُ، يَسْحَرُهُ سِحْرًا، والساحر: العالم، وسحره أيضًا خدعه⁽¹³⁵¹⁾.

والسِّحْرُ: الفساد، وطعام مسحور: إذا أفسد عمله، وأرض مسحورة: أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها، وغيث ذو سحر: إذا كان ماؤه أكثر مما ينبغي وسحر المطر الطين والتراب: أفسده فلم يصلح للعمل⁽¹³⁵²⁾.

والسَّحَر: كل أمر يخفي سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التّمويه والخداع. وكل ما لطف مأخذه ودقّ. جمعه: أسحار، وسحور⁽¹³⁵³⁾.

في الاصطلاح:

تعددت أقوال العلماء في تعريف السحر ومن أوضحها:

«هو عبارة عن رقى وعزائم وأدوية وأبخرة يستعملها المشعوذون والدجالون مع استعانتهم بالشياطين»⁽¹³⁵⁴⁾ وتؤثر على المسحور.

وهذا يعني أن السحر يؤثر عن طريق أوراق مكتوبة وغالبًا تكون كلمات كفرية، أو ربما آيات قرآنية مكتوبة بصورة سيئة لا تليق بكلام الله، أو من خلال الأدوية والأبخرة، وكل ذلك لا يتفعل ولا يؤثر إلا إذا استعان الساحر بالشياطين الذين يفرضون عليه الكفر والشرك لتحقيق مطالبهم من الإضرار بالناس أو غيرها.

* * *

⁽¹³⁵⁰⁾ مختار الصحاح للرازي، ص288.

⁽¹³⁵¹⁾ لسان العرب لابن منظور 6/13.

⁽¹³⁵²⁾ المعجم الوسيط، 1/419 مادة (سَحَر).

⁽¹³⁵³⁾ محاضرات في العقيدة والدعوة، للشيخ صالح الفوزان 3/ 178.

⁽¹³⁵⁴⁾ أخرجه أبوداود (ص555، رقم 3907) كتاب الطب، باب في تعلم النجوم. وهو حديث حسن.

أنواع السحر:

للسحر أنواع متعددة ومختلفة، وكلها تتوجه نحو الإفساد العقدي والاجتماعي، ومن أهم هذه الأنواع:

أولاً: سحر التنجيم:

وهو الاستدلال بالنجوم والأفلاك للإخبار عن بعض الوقائع والحوادث التي ستقع للإنسان أو للأرض، كمن يقول إذا طلع النجم الفلاني سيحدث كارثة أو دمار، وإذا النجم الفلاني فإن فلانا من الناس سيموت أو سيمرض، وإذا طلع الكوكب الفلاني فإن فلانا من الناس سيصبح غنياً وفلاناً سيخسر ويصبح فقيراً، وهكذا.

وهذا النوع من السحر فيه ادعاء للغيب الذي هو من شأن الله تعالى وحده، ويسمى سحر التنجيم، وقد نهى عنه الرسول ﷺ بقوله: «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر» (1355).

* * *

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علم الفلك يختلف عن التنجيم كلياً، لأنه علم يعتمد على الحسابات والسنن الكونية التي خلقها الله تعالى لمعرفة الأيام والشهور والسنين، ومعرفة أوقات العبادات من الصلاة والصيام والحج وغيرها، وقد أشار الله تعالى إلى جواز ذلك والاعتماد على بعض الكواكب والنجوم لمعرفة الحسابات الزمنية بقوله: { ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج ج }⁽¹³⁵⁶⁾.

* * *

وقد ذكر الله تعالى إضافة إلى ذلك أسباباً أخرى من خلق النجوم والكواكب، وهي الزينة التي تتألق بها السماء، وكذلك حفظا لهذه السموات من الشياطين التي تسترق علوم الأرض ورجمهم بشهبيها ونارها، قال تعالى: ﴿بِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ سُورَةُ الْكَاذِبِينَ﴾ {١٣٥٧}. وقال جل جلاله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ الْمَاءَ فَجَعَلَ مِنْهُ سَمَكًا وَجَعَلَ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِدَاتٍ مَتَرًا يَسْفِكُ بِهِ السُّيُوفَ لَيْلٍ وَالْيَوْمِ فِي الْعَذَابِ﴾ {١٣٥٨}.

ثانيًا: سحر النفط في العقد:

حيث يعمل السحر عن طريق العقد في الخيوط وقراءة أسماء الشياطين

1355 (سورة الأنعام، الآية 97.
1356 (سورة الحجر، الآيات 16-18.
1357 (سورة الصافات، الآيتان 6-7.
1358 (سورة الفلق، الآيات 1-4.

عليها والنفث فيها، هذا النوع كفر صريح، وجاء ذكر هذا النوع في القرآن حيث أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعاذة بالله منه لعظم ذنبه وخطره، فقال في سورة الفلق: {ثُمَّ لِيُبْرِئْكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ فَأَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَذِلَّةٌ} (139).

ثالثاً: سحر التخيلات:

وهو خداع أعين الناس وتوهمها بحركات سريعة فيرون الأشياء على غير حقيقتها، وكثيراً ما تكون أفعالهم خارقة للعادة، فيتولد لدى الناظر إحساس بأن هذا الساحر عنده قدرات عظيمة يستطيع أن يتحكم بها على الأشياء ويغير من الثوابت والمألوفات، وبالتالي يترهب منه الناس ويخشون أن يصيبهم ببعض الأذى أو الضرر من خلال هذه القدرات الخارقة، وكان هذا شأن سحرة فرعون الذين تحدّث عنهم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَوُيَـدِّي بَدَلُ﴾⁽¹³⁶⁰⁾، وقال جل وعلا في موضع آخر: ﴿يَذُذْ ذِّذْ ذِّذْ ذِّذْ﴾⁽¹³⁶¹⁾، فلم تكن هناك شعبان تسعى وتسير على الأرض، وإنما كانت حبالاً وعصياً، ولكنهم بخداعهم لأعين الناس وما كانت لديهم من خبرة وقوة في التحكم بالسرعة والحركة، تخيل للناس أنها شعبان تسعى.

رابعًا: سحر الأبراج:

وهو أخذ اسم الإنسان وتاريخ ميلاده وتطبيقها على بعض القواعد المتعلقة بالأبراج السماوية والتي تستخرج من خلال العمليات الرياضية بين الأرقام الحسابية والحروف الأبجدية، وتم الحكم على حال هذا الإنسان بالسعادة أو الشقاء، بالتوفيق أو الفشل، بالصحة أو المرض، بالتآلف مع زوجته أو التنافر والاختلاف، وهكذا.

وَيَصْدَقُهُمْ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّغَارِ وَكِبَارِ السِّنِّ، فَيَتَعَلَّقُونَ بِهَا تَعَلُّقًا شَدِيدًا، وَرَبْمَا يُؤَدِّي الْأَمْرُ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ يَغَيِّرَ اسْمَهُ خَوْفًا مِنَ الشَّقَاءِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ وَفَقْ هَذِهِ الْأَبْرَاجُ.

وهذا ضرب من الشرك بالله تعالى، لأنه ادّعاء لعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، يقول جلّ وعلا: {ثُمَّ نَبْئِي بُنَىٰ عَلَىٰ ثُبُلٍ شِيدَ وَبَنَىٰ يُدِيعُهُ لِيَفْجَأَهُ مِنَ النَّعْيِ} (١٣٦٢).

خامساً: النميمة:

وهي نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد، كأن يذهب إلى أحدهم فيقول إن فلانا تحدث عنك كذا وقال فيك كذا وكذا من الصفات السيئة، ثم يرجع إلى

1359 () سورة الأعراف، الآية 116.

1360 } سورة طه، الآية 66.

1361 (سورة الجن، الآيتان 26-27).

1362 (سورة البقرة، الآية 102).

الآخر ويقول له الكلام نفسه، حتى يفتن بينهما ويوقع في قلوبهما البغضاء نحو بعض، وربما يفعل ذلك بين الزوجين فيرقهما عن بعض بنميتها، وهكذا.

وأثر هذا الفعل الشنيع كبير في حياة الناس، لأنه يفكك الأسر ويمزق المجتمع، ويسبب في ظهور القطيعة والحقد بين المسلمين، وهو ما يفعله السحرة والشیاطین بالسحر، لقوله تعالى: (ج ج ج ج ج ج ج) ^(١٣٦).

ومن ذلك قال بعض أهل العلم من السلف: «إن النمام يفسد في ساعة ما يفسده الساحر في سنة».

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم مالعضة؟ هو النميمة القالة بين الناس»⁽¹³⁶⁴⁾. وهو نوع من السحر.

ورغم أن النميمة ليست كفرًا والنمّام لا يعدّ كافرًا، إلا أن أثرها الضار كبير على الناس وإثمها عظيم عند الله تعالى، فهي من كبائر الذنوب وبذلك يكون النمّام فاسقًا.

* * *

كما يطلق السحر أحياناً على البيان والفصاحة والبلاغة لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً»⁽¹³⁶⁵⁾.

وهناك أنواع أخرى من السحر، لا يسع المقام لذكرها جميعاً، كالسحر بالطلاسم، وسحر المحبة، وسحر العقاقير، وسحر الخمول، وسحر الجنون، وسحر المرض، وغيرها كثير ومتفاوت الأثر على المسحور، أعاذنا الله والمسلمين منها جميعاً.

* * *

حكم السحر:

[illegible]

قال القرطبي: فأثبت كفرهم بتعليم السحر⁽¹³⁶⁷⁾.

1363 () أخرجه مسلم (ص1138، رقم6636) كتاب البر والصلة، باب تحريم النميمة.
1364 () أخرجه أبوداود (ص705، رقم5011) كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر. وأحمد (1/269، رقم2424). وهو حديث صحيح.

(١٣٦٥) سورة البقرة، الآية ١٠٢. وهو حديث صحيح.

(١٣٦٦) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، (٢/٤٣).

(١٣٦٧) أخرجه البخاري (ص ٤٥٨، رقم ٢٧٦٦) كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فالأية تدل بوضوح وصراحة على كفر السحر وطرفيه القائمين به من الشياطين والسحرة، ولا يحتاج الأمر إلى تأويلات أخرى بالنسبة إلى هذا الحكم.

إلا أن بعض العلماء فرّقوا بين سحر وآخر، أو بين ساحر وآخر، فمن ثبت عليه السحر الذي يُفرق به بين المرء وزوجه أو التقرب إلى الكواكب والجن والإساءة إلى كتاب الله تعالى وغيرها، فإن ذلك كفر بحكم هذه الآية.

وأما إذا خلا الأمر من هذه الأفعال والتصورات فإن حكم السحر يكون كبيرة من الكبائر وإثماً عظيماً ولكنه لا يصل درجة الكفر، لقوله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات» (1368).

ب - أما بالنسبة لمن يأتي الساحر فهو على حالين:

- لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أتى عَرَفًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (1369).

وهذا الحديث الأول يخصّ أولئك الناس الذين يذهبون إلى السحرة والكهنة ليروا أعمالهم وما يفعلون أو كيف يخاطبون الجن وغيرهم، ولكنهم لا يصدقونهم، وهذا الفعل منهم يبطل صلاتهم أربعين يوماً.

- الكفر الخارج عن الملة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أتى عَرَّافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم».

وهذا الحديث يدل على كفر من يذهب إلى السحرة والكهنة والعرافين، لقضاء حوائجهم وطلب العون والنصرة منهم، وإخراجهم مما هم فيه من المرض أو الفقر أو فقدان غائب أو سرقة مال، أو ماذا سيحدث لهم في المستقبل من زواج أو ولادة أو سفر، أو الأحوال التي سيمرون بها من عسر أو يسر. ذلك لأنهم يرجون الغيب من غير عند الله، أو أن يعملوا أعمالاً كفرية بتوجيه من الساحر، يقول الله تعالى: ﴿لَهُ نَبَا نُؤْتُوهُ نُؤْتُوهُ نَبَا﴾. تح (1370).

* * *

[النساء:10]. ومسلم (ص53، رقم89) كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها.

¹³⁶⁸ () أخرجه مسلم (ص 990، رقم 5821) كتاب السلام، باب تحريم الكهانة.

1369 سورة الأنعام، الآية 59.

¹³⁷⁰) أخرجه الترمذي (ص355، رقم1460) كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر، وهو ضعيف، لكن عليه العمل عن الصحابة وغيرهم، فقد أخرج مالك في الموطأ (2/871، رقم1562) أن حفصة رضي الله عنها قتلت مسحرتها.

عقوبة الساحر:
لعظم إثم السحر وخطورته على العقيدة وحياة الناس فقد وضع الشرع للساحر عقوبة القتل إذا ثبت عليه السحر والتعامل مع الشياطين وتقديم الأمور الكفرية والشركية لهم، أو ثبت عليهم التفريق بين الناس وزرع الفتن والنزاعات في المجتمع، يقول عليه الصلاة والسلام: «حدّ الساحر ضربة بالسيف»⁽¹³⁷¹⁾.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» قال الراوي: فقتلنا ثلاث سواحر⁽¹³⁷²⁾.

وقد روي عن حفصة رضي الله عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها⁽¹³⁷³⁾.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «صحّ قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم»⁽¹³⁷⁴⁾. يعني: عمر بن الخطاب وابنته حفصة وجندب رضي الله عنهم.

* * *

إشكالية حدوث السحر على النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد وقع السحر حقيقة على النبي صلى الله عليه وسلم وتأثر به كما يتأثر به جميع البشر، وقد جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي؟ أتاني رجلان ففقد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوع قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا؟ قال في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: نخلها كانه رءوس الشياطين فقلت: استخرجته فقال: لا، أما أنا فقد شفاني الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًا ثم دفنت البئر»⁽¹³⁷⁵⁾.

وقد أشكل هذا الحديث على بعضهم، فظنوا أنه لا يجوز ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه قدح في النبوة، ولذلك أنكروا الحديث من أصله، وقد ردّ هذا الكلام جمهور العلماء، وأثبتوا صحة الحديث، ومن أجمل هذه الردود وأوجزها كلام القاضي عياض رحمه الله، حيث يقول:

«والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه صلى الله عليه وسلم،

¹³⁷¹ () أخرجه أبويعلى في مسنده (2/167، رقم 861). وابن أبي شيبة (10/136، رقم 29585). وعبدالرزاق (6/49، رقم 9972).

¹³⁷² () سبق تخريجه.

¹³⁷³ () المسائل والرسائل عن الإمام أحمد 2/105.

¹³⁷⁴ () أخرجه البخاري (ص 544، رقم 3267) كتاب بدء الخلق، باب صفة النار.

¹³⁷⁵ () نقلاً عن: زاد المعاد لابن القيم 4/124.

* * *

1380 () سورة آل عمران، الآية 175.

يجعل الشياطين والسحرة يستولون على عقولهم وقلوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ تَدَّتْ دَدُفٌ فَـ} (1381)، وقال أيضاً: {يَدِيدَةٌ} (1382).

[illegible]

5- السحر سبب لعدم قبول الأعمال التعبدية كالصلاة وغيرها، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»⁽¹³⁸⁵⁾.

6- إن المجتمع الذي ينتشر فيه السحر، يقل إنتاجه وعمله، لأنه يصبح أسيراً للسحرة والدجالين وما يوحى إليهم الشياطين، بل إن هذا المجتمع يتحول إلى مرتع للأمراض النفسية والبدنية الناجمة عن السحر الذين هو إيذاء بالأصل، وبالتالي تقف هذه المشكلات والأمراض عائقاً كبيراً أمام حركة الإنسان في حياته اليومية في عمله وإنتاجه، وفي التحصيل العلمي والمعرفي، وفي سائر الميادين الأخرى.

7- المجتمع الذي يكثر فيه السحر، يكثر فيه الكذب والاحتيال وأكل أموال الناس بالباطل بحجة معرفة السحرة علم الغيب أو القدرة على ردّ الحقوق وإشفاء المرضى، وتأمين الوظائف العليا لبعضهم، وهكذا. وكل ذلك وسائل خداعية تهدف إلى استنزاف أموال الناس والاستيلاء عليها عبر هذه الأكاذيب والأباطيل، وصدق الله القائل: { دَنَا نَا نَهْ نَهْ نُوْنُو }⁽¹³⁸⁶⁾.

* * *

الوقاية من السحر:

لقد حدد الإسلام للمؤمنين بعض المعالم الإيمانية من الأقوال والأفعال للاحتراز من السحر والوقاية منه، ومن أهم هذه المعالم:

1- الإيمان بالله تعالى وقوة الاعتقاد بعظمته وقدرته على الخلق، وأن الخير والشر بيده سبحانه تعالى، فلا يُخاف من أحد غيره، وهو المستعان في جميع الأمور والشؤون، وكذلك الإيمان المطلق بضعف الشياطين وأوليائهم من

1381() سورة النساء، الآية 76.

1382) سورة طه، الآية 69.

1383 (سورة يونس، الآية 77).

1384 } سبق تخريجه.

1385 سورة النساء، الآية 120.

1386 سورة النساء، الآية 76.

السحرة والمشعوذين، يقول تبارك وتعالى: {يَذَرُونَهُمْ} (1387)، ويقول أيضاً: {يَذَرُونَهُمْ} (1388).

2- الإخلاص لله تعالى في الطاعات والعبادات، لأن النية الصادقة تقرب العبد من ربه وتجعله في مأمن من المكائد الشيطانية وأفعال السحرة والمشعوذين، يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (البقرة: 197) أي: اتقوا الله تعالى بتمام ما ينبغي من التقوى، لكي تكون أعمالكم مقبولة، وتكونوا من الفائزين. (1389)

3- الاستعاذة بالله تعالى من شر الشياطين والسحرة وجميع الأشرار، وقد أمر الله تعالى بهذه الاستعاذة فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: { تَتَذَكَّرُ فِى كُلِّ مَسْجِدٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ } وقال أيضاً: { هـ هـ هـ عـ عـ عـ كـ لك }(1390).
 {كـ}(1391).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» (1392).

4- التوكل الصحيح الصادق على الله يجعل صاحبه في ذمة الله تعالى وفي حمايته، فلا يتمكن الشياطين والسحرة من التأثير عليه أو إلحاق الأذى به في نفسه أو ماله أو أي شيء من خواصه، يقول تبارك وتعالى: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطَوَّلُ الْقُلُوبُ ۚ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسَوَّى السُّجُودُ ۚ وَبِذِكْرِ اللَّهِ يَخْلَقُ أَفْعَالُ بَرٍّ عَابِدٍ ۚ﴾ (١٣٩).

5- المحافظة على الطاعات والعبادات، كأداء الصلوات في أوقاتها ومع جماعة المسلمين، يقول تعالى: { تَذَكُّرُهُمْ يَهَيِّجُهُمْ }⁽¹³⁹⁴⁾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله»⁽¹³⁹⁵⁾.

6- قراءة القرآن، لأنه حرز من الشياطين وشرورهم، يقول تبارك وتعالى:

1387) سورة طه، الآية 69.
1388) سورة البقرة، الآية 112.
1389) سورة الفلق، الآيات 1-4.
1390) سورة فصلت، الآية 36.
1391) أخرجه البخاري (ص565، رقم3371) كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي.
1392) سورة الطلاق، الآية 3.
1393) سورة النساء، الآية 103.
1394) أخرجه مسلم (ص265، رقم1493) كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح جماعة.
1395) سورة الإسراء، الآية 45.

[illegible]

7- المحافظة على الأذكار بصورة عامة، فإنها جميعاً تجلب الخير والأمان للإنسان وتجعله في حرز من كيد الشياطين والسحرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي» (1397).

8- التسمية عند البدء بأي عمل، تجعل البركة فيه وتطرد الشيطان عنه، لقوله ﷺ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتَر أو قال أقطع» (1398).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي» (1399).

9- أكل سبع تمرات عجوة أو من أي تمر كل صباح، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سمّ ولا سحر»⁽¹⁴⁰⁰⁾.

10- الاعتناء بنظافة البدن من الأدران والأوساخ والشعر الزائد، وكذلك الاهتمام بنظافة اللسان وحفظه من الغيبة والنميمة وهناك أعراض الناس، فإن ذلك من الوسائل التي تحضر الملائكة وتطرد الشياطين.

11- تطهير المنزل من الموبقات ومن كل أسباب المعاصي من الصور والتمائيل والأغاني، يقول عليه الصلاة والسلام: « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة»⁽¹⁴⁰¹⁾. فإذا خلا البيت من الملائكة صار مرتعا للشياطين وشرورهم.

12- الابتعاد عن المعاصي التي هي بوابة الشياطين إلى النفس، حيث

1396 () أخرجه مسلم (ص1171، رقم6842) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح.
 1397 () أخرجه ابن ماجه (ص272، رقم1894) كتاب النكاح، باب خطبة النكاح. وأحمد
 (2/359، رقم8697). وابن حبان (1/173، رقم2). والحديث ضعيف، لكن معناه صحيح.
 1398 () أخرجه أبوداود (ص716، رقم5088) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح. والترمذي
 (ص773، رقم3388) كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح.
 1399 () أخرجه البخاري (ص1019، رقم5769) كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة.
 1400 () سبق تخريجه.
 1401 () سبق تخريجه.

يستدرج الإنسان من الصغائر إلى الكبائر حتى يقع في كيدهم، وإذا حدث هذا فإنه يفقد السيطرة على نفسه وتضطرب قوته وتضعف قدراته، لذا وجب من البداية اجتناب المعاصي وتقادي أسبابه والطرق المؤدية إليه حتى يتقادي الإنسان السحر والوقوع في شركه.

12- الدعاء إلى الله تعالى بالحفظ والرعاية وطلب العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئاً يعطى أحبَّ إليه من أن يسأل العافية إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»⁽¹⁴⁰²⁾.

13- الإكثار من النفقات والصدقات في سبيل الله لأنها تجعل صاحبها في ذمة الله تعالى وفي حفظه ورحمته، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْثِرْهُ وَوَدِّعْهُ يَدِيدًا نَافِلًا﴾ (1403).

* * *

العلاج من السحر:

إضافة إلى أعمال الوقاية وأقوالها فإن هناك مجموعة من الأمور الواجب اتباعها أثناء الإصابة بالسحرة، منها:

1- كشف السحر ومعرفة موضعه في أرض أو جبل أو ماء، وبعد ذلك فكه وإبطاله، كما فعل النبي ﷺ حين أخرج السحر من البئر وكان في مشط ومشاطة، وجُفَّ طُلْعَة تَكَرَّ، زال ما به من أذى السحر وأثره، حتى كأنما أُنشِطَ من عَقَالٍ.

2- الرقية الشرعية: ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضاً أو أتى به قال: «أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً» (1404).

وقد رقى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «بسم الله أرقبك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقبك» (1405).

3- أخذ سبع ورقات من السدر الأخضر في إناء من الماء ومن ثم يقرأ فيها

1402() سورة البقرة، الآية 274

1403 (أخرجه البخاري (ص1005، رقم5675) كتاب الطب، باب مسح الراقي الوجه بيده اليمنى. ومسلم (ص972، رقم2191) كتاب السلام، باب استحباب رقة المريض.

¹⁴⁰⁴() أخرجه مسلم (ص970، رقم5700) كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى.

1405) زاد المعاد لابن القيم 4 / 125.

آية الكرسي وسورة الكافرون والإخلاص والمعوذتان وجميع آيات السحر، ثم يشرب من الماء ويغتسل بالباقي، وبذلك يبرأ من الداء بإذن الله تعالى.

4- الحجامة، وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث» له بإسناده عن ابن أبي ليلى: «أن النبي ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طبَّ»⁽¹⁴⁰⁶⁾. أي حين سحر.

5- التوبة إلى الله عز وجل وكثرة الاستغفار، لأن كثيراً من هذه الأمراض تكون نتيجة الغفلة والبعد عن ذكر الله تعالى، فكلما استغفر العبد ربه، وندم على سالف عهده، كان أقرب إلى رحمة الله تعالى وعفوه وغفرانه، وبالتالي إلى الشفاء والمعافة، يقول عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» (1407).

6- الفأل الحسن، وحسن الظن بالله يعطي الإنسان الأمل في الشفاء والمعافة من أثر السحر، لأن النفع والضرر بإذن الله تعالى، ولا يمكن للساحر أو الشياطين أن يؤذوا بسحرهم عباد الله إلا بإذن الله كما قال جل شأنه: (يَذَرُونَهُمْ يَسْتَكْفِرُونَ) (1408).

يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني» (1409).

7- التعامل بإيجابية مع المرض، وذلك بالصبر عليه والرضى بقضاء الله تعالى، وعدم التضجر والتأفف من المصيبة، لأن الحياة كلها ابتلاء واختبار، وبصبر قليل في الدنيا يفوز الإنسان الدرجات العليا في الآخرة، يقول تبارك وتعالى: { ج ج ج ج ج ي د ن ذ ذ }^(١٤١٠).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء

¹⁴⁰⁶ () أخرجه أبوداود (ص235، رقم1588) كتاب الوتر، باب في الاستغفار. وابن ماجه (ص545، رقم3819) كتاب الأدب، باب الاستغفار. وأحمد (1/248، رقم2234). والحديث صحيح، ومعناه صحيح دلّ عليه القرآن.

1407() سورة البقرة، الآية 102.

1408() سبق تخريجه.

1409 () سورة البقرة، الآية 177.

¹⁴¹⁰ (أ) أخرجه مسلم (ص1295، رقم7500) كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

صبر فکان خیراً له» (1411).

8- عدم الانشغال كثيرًا بالمرض والتفكير بآثاره ومستقبله، لأن ذلك يزيد من المرض ويضعف الأمل في الشفاء، والأفضل استغلال الوقت في فترة المرض بالمفيد من الأعمال والأقوال، وخاصة الأذكار والأدعية وقراءة القرآن والإنفاق في سبيل الله، لأن ذلك من أسباب الشفاء والخروج من الأزمة، وكان هذا شأن نبي الله يونس عليه السلام فترة مكوثه في بطن الحوت، يقول الله عنه: ﴿ثُمَّ ثَوَّاهُ مَوْتَهُ﴾ {١٤١٢}.

ويقول جل ثناؤه: { ذُرْزُرٌ رُّكَّكَ كَـكْـكُوكِ }^(١٤١٣).

9- الحذر من التعامل مع السحرة والدجالين والذهاب إليهم لفك السحر أو أخذ العلاجات منهم، لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك بقوله: «من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة» (1414).

وقد أباح الشرع التداوي وتناول العقاقير التي قد تفيد في العلاج ولكنه نهى التداوي بحرام لقوله صلى الله عليه وسلم: «يا عباد الله تداؤوا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁴¹⁵⁾. والسحر من الكبائر، فلا يجوز التعامل معه على أنه علاج أو ملاذ للخروج من أثر السحر ومرضه.

8- التضرع إلى الله في الصلوات والخلوات بأن يزيل الغمّة عن النفس والجسد، وأن يرفع عنهما أذى السحرة ومكائد الشياطين، وهو علاج ناجع لجميع المصائب والابتلاءات، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل»⁽¹⁴¹⁶⁾.

علاقة السحر بالأمر اض النفسية:

هناك علاقة وطيدة بين السحر والمرض النفسي، من حيث مصدر المرض الذي هو الشيطان، حين يوحى إلى أوليائه السحرة والمشعوذين بإلحاق الضرر والأذى ببعض الناس، عن طريق السحر مباشرة أو عن طريق مداخل أخرى

¹⁴¹¹() سورة الصافات، الآيتان 143-144.

1412 () سورة الأعراف، الآية 201.

1413) سبق تخريجه.

1414 } سبق تخريجه.

سبق (1415) تخريجہ

1416) سورة الفلق، الآية: 5.

كالعين مثلاً، وعند ذلك يخرج المعان من حالته الطبيعية، ويفقد توازنه النفسي، ويضطرب التحكم عنده، لأنه يصبح أسير الشيطان الذي يحركه ويتحكم فيه، فتنشأ عنده حالات القلق والاكتئاب والخوف والأوهام واليأس، وقد يؤدي به الأمر في آخر الأمر إلى سلوكيات منحرفة وخطيرة للخروج من حالته من خلال ممارسة العنف والجريمة ضد الآخرين.

لذا كان التوجيه الرباني واضحاً للمؤمنين بضرورة الاستعاذة بالله تعالى من شرّ الحسد والعين، وذلك للآثار النفسية والمادية الخطيرة المترتبة عليها، فقال: {ج ج ج ج ج} (1417).

وقد يلجأ الشيطان أو الساحر إلى تخريب النفس من خلال السحر مباشرة، فيقطع العلاقات بين المحبين، لا سيما الزوجين، كما قال تعالى: (جِئْ بِجِدِّيجٍ جُجْ جُجْ) (١٤١٨). فإذا وقع الطلاق وتفككت الأسرة، فإن جميع أفراد هذه الأسرة معرضون للإصابة بالأمراض النفسية المختلفة، نتيجة هذا التشتت والتمزق، وهذا لون آخر من العلاقة بين السحر والمرض النفسي، بصورة غير مباشرة. وهكذا فإن السحر من العوامل الفاعلة في تفشي الأمراض النفسية بين الناس.

* * *

وفى الختام:

من خلال ما سبق عن السحر وآثاره الخطيرة على حياة الناس ومصالحهم والفساد الكبير الذي يتركه السحرة في ميادين الحياة المختلفة، كان الواجب على الأمة بجميع شرائحها وطبقاتها، ومؤسساتها وجمعياتها، أن تقوم بحملات توعوية وإرشادية لترسيخ بعض المفاهيم حول السحر والسحرة، وفق الآتي:

1- تحذير الناس من خطر السحر والسحرة، وبيان آثارها التي تفتك بالناس من زرع للأحقاد وتمزق للصف وتفش للأمراض النفسية والبدنية.

2- تعليم الناس الرقى الشرعية الصحيحة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والفرق بينها وبين حال السحرة والمشعوذين.

3- التعاون والمشاركة مع الهيئات المختصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغهم عن السحرة وأماكن وجودهم، لأن الأمر لا يقتصر على جهة بعينها، وإنما هو واجب على الأمة كلها، لأن أذى السحر والسحرة لا يتوقف عند أحد، بل يتعدى إلى المجتمع من جميع جوانبه.

(¹⁴¹⁷) سورة البقرة، الآية 102.
(¹⁴¹⁸) أخرجه مسلم (ص971، رقم 5702) كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى.



366

السحر: حقيقته والوقاية منه وعلاجه



روى مُسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»⁽¹⁴¹⁹⁾.

مفهوم العين:

في اللغة:

قال الرازي: العين حاسة الرؤية وهي مؤنثة وجمعها أعين، وعيون، وأعيان، وتصغيرها عيينة.

ورجل أعين: واسع العين، بين العين، والجمع عين، والمرأة عيناء⁽¹⁴²⁰⁾.

في الاصطلاح:

العين: «نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر»⁽¹⁴²¹⁾.

* * *

حقيقة العين:

والعين حقيقة ثابتة عند جمهور أهل العلم بالأدلة القطعية الثابتة، التي منها:

1- قوله تعالى: {كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ} ⁽¹⁴²²⁾. أي: ليعينوك بأبصارهم ويحسدوك لبغضهم وكراهيتهم لك.

2- قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: {كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ} ⁽¹⁴²³⁾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد، أنه خشي عليهم العين وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيبة حسنة ومنظر وبهاء فخشي عليهم أن تصيبهم الناس بعيونهم فإن العين حق⁽¹⁴²⁴⁾.

3- قوله تعالى: {كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ كُذِّبَتْ} ⁽¹⁴²⁴⁾.

¹⁴¹⁹ مختار الصحاح للرازي، 466-467.
¹⁴²⁰ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني 10/200.
¹⁴²¹ سورة القلم، الآية 51.
¹⁴²² سورة يوسف، الآية 67.
¹⁴²³ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، سورة يوسف.
¹⁴²⁴ سورة الفلق.

{ چ چ چ چ }⁽¹⁴²⁵⁾. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: { چ چ چ چ }⁽¹⁴²⁶⁾.
نفس ابن آدم وعينه

4- قول النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»⁽¹⁴²⁷⁾.

5- عن أمانة بن سهل بن حنيف قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، قال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، قال: فلبط سهل، فأتى رسول الله ﷺ عامراً، فتغيط عليه وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت؟ اغتسل له»، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجله، ودخله إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح مع الناس»⁽¹⁴²⁸⁾.

6- عن عبيد بن رفاعه الزرقى أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر نصيبهم العين أفاسترقى لهم؟ فقال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»⁽¹⁴²⁹⁾.

7- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة»⁽¹⁴³⁰⁾.

وقد شدّ عن هذا الرأي قوم استنكروا العين وعدّوها ضمن الأوهام والخيالات التي لا حقيقة لها، وهو قول ضعيف مخالف لقول عامة أهل العلم والمعرفة، ولا انفصل في هذا القول إذ الأدلة النصية والعقلية والواقع والحس يشهد بخلافه.

* * *

تأثير العين:

اتفق عامة أهل العلم على حقيقة العين وإصابة الإنسان بها، وأن هذا التأثير من الله تعالى أولاً وآخرًا، فلا يضر أحد ولا ينفع في هذا الكون إلا بإذن الله وحده وضمن إرادته، ولكنهم اختلفوا في الكيفية التي تحدث بها العين على

¹⁴²⁵ (فتح القدير للشوكاني. سورة الفلق).

¹⁴²⁶ (سبق تخريجه).

¹⁴²⁷ (أخرجه ابن ماجه (ص505، رقم 3509) كتاب الطب، باب العين. ومالك في الموطأ (2/938، رقم 1678) كتاب العين، باب الوضوء من العين. والحديث صحيح).

¹⁴²⁸ (أخرجه الترمذي (ص474، رقم 2062) كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين. وابن ماجه (ص506، رقم 3510) كتاب الطب، باب من استرقى من العين. وهو حديث حسن).

¹⁴²⁹ (أخرجه مسلم (ص974، رقم 5724) كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنحلة والحمة والنظرة).

¹⁴³⁰ (زاد المعاد 4/ 166).

أقوال:

- فمن قائل أنها تنبعث من النفس الرديئة قوة سمية تتصل بالمعين فيتضرر على إثرها.

- ومنهم من قال إنها جواهر لطيفة غير مرئية تتخلل مسام جسم المعين فيتضرر ويلحق به الأذى.

- ومن قائل إنها قوى شيطانية مهيئة عند الحاسد وتخرج إلى المعين وتصيبه إذا كان مكشوفاً وغير محصن بالقرآن والأدعية والأذكار.

وكل هذه الأقوال لا تصل إلى القطع، وإنما الذي يصل إلى القطع هو التأثير.

ومن الفائدة أن نذكر جزءاً من كلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب فيقول:

«ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً، ولهذا أمر الله رسوله أن يستعِذ به من شره، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصاية بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود، فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشباه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية»⁽¹⁴³¹⁾.

ومصدر العين هو نظر العائن وإعجابه وشدة استحسانه أو شدة عداوته وحسده للمعين، كما لا يلزم العين النظر البصري، لأن الأعمى قد يعين الناس ويحصل لهم الضرر والأذى.

أسباب العين:

يمكن إرجاع الإصابة بالعين وحدوث الضرر على المعين لسببين اثنين:

الأول: شدة العداوة النابعة من الحسد والبغض والحقد، فكثير من الناس يصرفون جلّ أوقاتهم في مراقبة الناس والنظر فيما عندهم من النعم، كالمال، والأولاد، والمنزل، والصحة، والهيئة الحسنة، والوظيفة المميزة، والمكانة بين

¹⁴³¹ () أخرجه البخاري (ص1059، رقم 6066) كتاب الأدب، باب: (أببببببب).

الناس، وغيرها، وتغيظهم هذه الأحوال لإخوانهم ويحسدونهم عليها، حتى يصل الأمر ببعضهم تمنى زوالها، وإحلال الهم والحاجة والمرض مكانها، وهذا الشعور النفسي السلبي نحو الآخرين سبب من أسباب إصابة الآخرين بالعين ووقوعهم في آثارها السلبية على جوانب الحياة المختلفة.

وقد نهى الإسلام عن الحسد الذي يفضي إلى التنافر والتمزق وانتشار الأمراض النفسية والمشكلات الاجتماعية، والاقتصادية وغيرها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»⁽¹⁴³²⁾. وحث على الحسد في حالتين اثنتين كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل. ورجل آتاه الله مالا ينفقه في حقه، فيقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل»⁽¹⁴³³⁾.

كما أمر الإسلام في المقابل بجميع أسباب الحب والوئام التي تقضي إلى التلاحم والتعاون والبناء والتقدم في المجالات المختلفة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوُفُّوْهُ نَوْمًا مُّوْتًا وَنَوْمًا مُّوْتًا﴾⁽¹⁴³⁴⁾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹⁴³⁵⁾.

الثاني: إعجاب الإنسان بالشيء واستحسانه له من غير أن يبرك أو يدعو لأخيه المنعم عليه بمزيد من الخير والصحة والعافية، عامل مهم في إصابة الآخرين بالعين وإلحاق الضرر بهم عبر هذا الشعور السلبي، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك حين أصيب سهل بن حنيف وقال لعامر بن ربيعة: «علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت؟».

ومن هنا كان واجباً على العبد إذا رأى نعمة أو هبة حسنة على أخيه المسلم أو سمع شيئاً من ذلك أن يبرك ويدعو له بالخير، لأن كل إنسان في نفسه شيء من الغيرة والحسد، فإنه بهذا الذكر يمسح هذا السواد بشعور طيب ناصع.

* * *

علاقة العين بالجن:

وقد تكون العين من الجان أنفسهم، لحديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة، فقال: «استرقوا لها، فإن بها

¹⁴³² أخرجه البخاري (ص1245، رقم 7232) كتاب التمني، باب تمنى القرآن والعلم.

¹⁴³³ سورة المائدة، الآية 2.

¹⁴³⁴ أخرجه البخاري (ص5، رقم 13) كتاب الإيمان، باب أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

¹⁴³⁵ أخرجه البخاري (ص1014، رقم 5739) كتاب الطب، باب رقية العين.

النظرة»⁽¹⁴³⁶⁾.

قال الحسين بن مسعود الفراء: وقوله: «سفعة» أي: نظرة، يعني: من الجن. يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح⁽¹⁴³⁷⁾.

كما ورد عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما⁽¹⁴³⁸⁾.

* * *

علاقة العين بالحسد:

يمكن الإشارة إلى ثلاثة نقاط تشترك فيها العين مع الحسد:

الأولى: أن الحسد أعم من العين، لأن الحسد يجلب العين، وهو سبب من أسبابه، وليس كل عين من الحسد، أي أن كل عائن حاسد وليس العكس، وقد جاء الأمر بالاستعاذة مما هو أعظم وأكبر من العين وهو الحسد كما في قوله تعالى: { چ چ چ چ }.

الثانية: أن الحسد في معظم حالاته يرافقه الحقد والضعينة في نفس صاحبه، بل يدفعه إلى تمنى زوال النعمة منه وإبتلائه بالحرمان والمشقة والضنك، أما العين فربما تقع من غير هذه الكراهية وإنما هي نتيجة إعجاب واستحسان. لذا فإن العين قد تقع على أشياء ليس من قبيل الحسد، مثل الذي يعين نفسه، فهو لا يحسدها وإنما العجب بها واستحسانه لها كان سبباً لوقوعها عليه.

الثالثة: أن نتيجة الحسد والعين واحدة، وهي وقوع الضرر على المحسود والمعين، بزوال الصحة أو المال أو الأولاد أو الوظيفة وغيرها من النعم المختلفة

* * *

علاقة العين بالأمراض النفسية:

إن الأثر الذي تتركه العين على الإنسان يتفاوت من حيث نوعه وقوته على النفس والجسم، فقد يكون هذا الأثر ضعيفا كأن يصاب المعين بمرض خفيف يتعافى منه بسرعة، أو يعان بزوال قليل من المال لا يؤثر على مصالحه وأعماله وتجارته، وغير ذلك من العوارض الخفيفة، وقد يكون هذا الأثر قويا فينجم عنه أمراض مزمنة أو حالات نفسية معقدة، أو هلاك كبير للأموال، أو ربما تؤدي إلى فقدان الأرواح في بعض الأحيان، وكل ذلك من الأمور التي

1436 () زاد المعاد 4 / 164.

١٤٣٧) أخرجه الترمذي (ص ٤٧٣، رقم ٢٠٥٨) كتاب الطب، باب الرقية بالمعوذتين.

1438) سورة ص، الآيات 77 - 83.

ترتبط بالعين بشكل مباشر أو غير مباشر.

وهذا يعني أن هناك علاقة وطيدة بين العين وكثير من الأمراض النفسية التي يعاني منها المجتمع، لا سيما وقد عرفنا أن للشياطين دورًا في وقوع العين، وأن نظراتهم أنفذ من أسنة الرماح، فلا يستبعد أبدًا أن يكون هذا المرض النفسي أو ذاك من أثر العين وفعل الشياطين.

إضافة إلى ما أخبر به النبي ﷺ من أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

* * *

وهذا التفسير يلزم الذين يتعاملون مع الطب النفسي من المختصين وغيرهم أن يضعوا في الحسبان دائماً هذا الاحتمال، لأن التشخيص دليل على سلامة التعامل مع المرض ووضع العلاج الناجع له، أما استبعاد هذا الاحتمال وربط المرض النفسي بأسباب مادية أو لظروف اجتماعية صرفة، وبالتالي معالجته بالمهدئات والأدوية الطبية وحدها ربما يطيل ذلك من عمر المرض أو يزيد من وطأته على المريض.

* * *

الوقاية من العين:

الوقاية خير من العلاج، هذه المقولة تنطبق على جميع شؤون الحياة والحالات التي يمر بها الإنسان سواء كانت مرضية أو غيرها من المشكلات والمصائب، وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن ثمة أمور حددها الشرع للوقاية من العين، ومن أهمها:

1- توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبودية والإخلاص فيها بصورة عملية وفق المنهج الذي رسمه لعباده في كتابه وسنة نبيه ﷺ، لأن ذلك يحفظ الإنسان ويحميه من جميع الشرور والمكائد الإنسانية والشيطانية، سواء عن طريق العين والحسد أو عن طريق السحر والشعوذة، وهذه حقيقة واضحة في كتابه الله، فقد أقسم الشيطان بإغواء الناس وإيذائهم وصدّهم عن الخير والهدى، لكنه استثنى عباد الله الموحدين والمخلصين الذين لا يستطيع السيطرة عليهم، يقول تبارك وتعالى في ذلك الحوار: {ثُمَّ لِيُذْهِبْ وَيَذْهُبْ ثُمَّ لِيَبْهَجْ ثُمَّ لِيُوْهِدْ بِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِي ثُمَّ لِيُزَيِّجَ لَهُمْ رَبِّيَ وَمَنْ أُشِئْتُ لَهُمْ فَيَعْلَمِ اللَّهُ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ شَيْئًا يَسِرُّهُ خِطَرٌ} (1439).

ثم إن الله تعالى أخبر الأمة بضعف الشيطان وقلة حيلته في قوله: {يَدْتَدُ

¹⁴³⁹() سورة النساء، الآية 76.

١٤٤٠ (1440).

2- الاستعاذة بالله تعالى من العين وأسبابها من الشياطين والحاسدين لقوله تعالى: {تَتَذَكَّرُ فِقْفَقًا جَجَجًا} [١٤٤١]. فالاستعاذة هنا من شر الشياطين ووساوسهم، ومن شر السحرة والمشعوذين، ومن شر الحاسدين وعيونهم.

کما یقول جل و علا: { گ گ گ گ گ گ گ }^(۱۴۲).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» (1443).

3- التوكل على الله تعالى يحفظ العبد من العين، لأن الله تكفل بحفظ المتوكلين وحمائهم من شرور الشياطين والحاسدين وغيرهم، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي يَخْفَى عَلَى الْعَيْنِ وَهُوَ الْغَوِيُّ الْعَلِيمُ﴾ (1444). ومن كان الله حسبه، فلا يخاف على نفسه وماله من الحسد أو العين.

4- عدم الاشتغال بالحسدة والعائنين، لأن الاشتغال بهم يؤدي إلى التأثير بهم واتباع سلوكهم والوقوع فيما وقعوا فيه من الحسد والحقد على الآخرين.

5- الإحسان إلى الحاسد إذا عُرِف، ومساعدته وقضاء حاجته إذا كان معسر الحال، حتى يخرج من صدره الحسد والضغينة نحو الآخرين، لأن الحاجة والفقر الإنسان أحياناً إلى الحسد والعين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ رُثِيَ﴾ (1445).

6- عدم التعرض لما يثير الحسد والغيرة عند الناس، فمن كان ميسور الحال، وعنده من متاع الدنيا ما ليس عند غيره، يجب أن يراعي مشاعر الناس وحاجتهم وفقدهم، فلا يتباهى باللبس الملفت، أو السيارة الفارهة، أو الكماليات النفيسة، وكذلك النساء فلا يتباهين بالحلي الثقيل، والهيئة الثرية، والزينة المفرطة، لأن ذلك من أسباب الحسد والإصابة بالعين.

ويلحق بهذا الأمر، الحذر من تزيين الأطفال بصورة ملفتة، أو الخروج بهم من غير القراءة عليهم والدعاء لهم، وفق الهدى النبوي.

1440 () سورة الفلق.

1441) سورة المؤمنون، الآية 97.

1442) سبق تخريجه.

1443 ﴿سورة الطلاق، الآية 3.﴾

1444 (سورة فصلت، الآية 34).

1445) سورة آل عمران، الآية 120.

وهذا لا يعني عدم التمتع بالمال، والنعم الأخرى، التي هي من فضل الله تعالى، ولكن ينبغي الاعتدال في ذلك وعدم التباهي بها، مراعاة لمشاعر الناس وأحوالهم وحرمانهم.

7- تقوى الله تعالى بالطاعات واجتناب معاصيه، في السر والعلن، وفي الشدة والرخاء، فمن حفظ الله تعالى في نفسه، حفظه الله وأعانته على الحركة في الحياة دون خوف أو جزع من العين أو السحر أو الهمزات واللمزات، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَنُثَبِّتَنَّ لَهُ أَتَقْوَى﴾ (1446)، وقال عليه الصلاة والسلام في وصيته لابن مسعود رضي الله عنه: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» (1447).

والتقوى هي القيام بكل ما أمر الله تعالى به من الطاعات والعبادات، والانتهاز عن كل ما نهى عنه من المنكرات والمعاصي.

8- تجديد التوبة إلى الله تعالى، لأن العين تأتي في لحظات الضعف عند الإنسان، وأثناء الغفلة عن ذكر الله وعند اقتراف المعاصي، لقوله تعالى: ﴿يُذِيقُ الْإِنْسَانَ خُلُقَ بَعْضِهِ كَالضُّفَى الْمَذْمُومِ﴾ (1448). والتوبة فيه تجديد العهد مع الله تعالى للإفلاح عن الماضي الأسود واستئناف حياة جديدة مليئة بالخير والنشاط والإنتاج.

9- التسمية في مواضعها، عند القيام بأي عمل مهما كان نوعه وشكله، لأنها من أسباب طرد الشياطين وحفظ الإنسان من العين والحسد، والغفلة عن التسمية تعرض الإنسان إلى العين وغيرها من الشرور، يقول عليه الصلاة والسلام: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتَر أو قال أقطع»⁽¹⁴⁴⁹⁾.

10- المحافظة على ما يلي في برنامج اليوم واللييلة:

أ- قراءة حزب من القرآن الكريم بتأمل وتدبر، ويستحب قراءته في المنزل.

ب - الأذكار الصباحية والمسائية، ومنها التعوذات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ج - تعويذ الصبيان وتعويذهم على ذلك، حيث كان عليه الصلاة والسلام يعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما.

¹⁴⁴⁶ () أخرجه الترمذي (ص572، رقم 2516) كتاب صفة القيامة، باب حديث حنظلة... وينظر ما كتبه حول هذا الحديث بعنوان: «حديث: احفظ الله يحفظك رواية ودراسة».

1447 () سورة الشورى، الآية 30.

1448 } سبق تخريجه.

1449) أخرجه الترمذي (ص758، رقم 3435) كتاب الدعوات، باب ما يقول عند الكرب. وابن ماجه (ص541، رقم 3793) كتاب الأدب، باب فضل الذكر. وهو حديث صحيح.

د - الأذكار المطلقة التي لا يقبدها وقت أو مكان، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا يزال لسانك رطباً بذكر الله»⁽¹⁴⁵⁰⁾. وكذلك الأذكار المقيدة بأحوال عند الخروج من البيت والدخول فيه وعند دخول دورات المياه، وعند النوم والاستيقاظ، وعند البدء بالطعام أو الشراب، وغيرها من الأحوال والأزمان.

هـ- دعاء الله بالحفظ والرعاية، وسؤاله عز وجل العافية والمعافة في الدنيا والآخرة كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم.

11- تطهير المنزل من الصور والكلاب وجميع وسائل المعصية، حتى تحضر الملائكة وتدعو للإنسان وتحميه من عين الحاسدين وحقد المتربصين، لأن الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه مثل هذه المعاصي، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة».

12 - تطهير النفس من أسباب الحسد نحو الآخرين وعدم النظر إلى ما هم فيه بعين حاسدة ونفس رديئة، لأن ذلك من مداخل الشيطان إلى النفس وإغوائها، والواجب على الإنسان إذا أحس في نفسه شيئاً من الحسد فليبرك لأخيه ما عنده ويدعو له بدوام النعمة والعافية.

13- تجنب البدع والخرافات للوقاية من العين، مثل تعليق الحروزات والتائم والخرق وغيرها من الأمور البدعية التي يعتقد بعض الناس أنها تحميهم من العين وما ينجم عنها من ضرر ومصائب وأمراض.

14- الاستمرار في برنامج الحياة وعدم الاستسلام للأوهام والخوف الذي قد يثيره الجهلة وضعاف النفوس حول العين، حتى تصبح هاجساً لدى البعض فينزل عن مجتمعه وينقطع عن عمله ودراسته ووظيفته، بل الواجب الوقوف في وجه هذه الأوهام والتوكل على الله تعالى والمضي في الحياة دون خوف أو كلل أو يأس متمثلاً بقوله الله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا كَانَ يَدْعُ إِلَى الْإِيمَانِ فَمَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁴⁵¹⁾.

* * *

العلاج من العين:

فإذا وقعت العين وأصاببت المعين وتضرر منها حسب قوتها، فإن هناك مجموعة من الأمور الواجب اتباعها للشفاء منها والتخفيف من وطأتها وتأثيرها على النفس والبدن والأموال، مع ضرورة الاعتقاد بأنه ليس كل مرض عين،

¹⁴⁵⁰ (سورة يوسف، الآية 64).
¹⁴⁵¹ (أخرجه مسلم (ص1295، رقم 7500) كتاب الزهد، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ويراجع ما كتبت في هذا البحث عن القضاء والقدر، وكذا عن الصبر.

أو أن كل مصيبة هي نتيجة حسد أحدهم، وإنما يُجْتَهد في هذه المسألة حسب أعراض المرض ووقت حدوثه والظروف المحيطة به، ومن ثم اتباع خطوات العلاج والتي نجلها - إضافة إلى ما سبق في الوقاية - فيما يلي:

1- الإيمان بأن كل ما يحدث للإنسان إنما هو بقدر الله، والقبول بهذا الحكم من الله والصبر عليه، الأمر الذي يحرر الإنسان من أغلال الحسرة والتحسّف على الماضي، بل يزيده قوة للتّعافي من أثر العين، ومن سائر الأمراض والبلاءات، يقول عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (1452).

و يقول تعالى: { چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ }^(۱۴۵۳).

2- الاغتسال. والأخذ من الأثر إذا عرف العائن، مثلما أمر عليه الصلاة والسلام في قصة سهل بن حنيف.

وصفة الاغتسال كما قال الزهري: «يؤمر الرجل العائن بقدح، فيدخل كفه فيه، فيتمضمض، ثم يمجّه في القدح، ويغسل وجهه في القدح، ثم يدخل يده اليسرى، فيصب على ركبته اليمنى في القدح، ثم يدخل يده اليمنى، فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره، ولا يوضع القدح في الأرض، ثم يُصب على رأس الرجل الذي تصيبه العين من خلفه صبة واحدة» (1454).

3- الرقية الشرعية التي هي علاج لكثير من الأمراض النفسية والعضوية، ومن السحر والعين وغيرها من الأضرار الناجمة عن النفوس الرديئة أو من كيد الشياطين، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يرقى المرضى بقوله: «اللهم رب الناس أذهب البأس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا» (1455). ثلاث مرات.

وجاء في الصحيح أن جبريل عليه السلام رَقِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «بسم الله أَرِقِكَ من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أَرِقِكَ» (1456). ثلاث مرات.

4- الدعاء بالشفاء والعافية، لأنه الوسيلة المباشرة مع الله تعالى لكشف الضر وتفريج المصائب، فضلاً عن أن الدعاء يدفع عن الإنسان كثيراً من المصائب قبل وقوعها، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الدعاء ينفع مما نزل

¹⁴⁵²() سورة الانسان، الآية 30.

1453 () زاد المعاد لابن القيم 4 / 164.

سبق تخریجه } 1454

¹⁴⁵⁵ أخرجه مسلم (ص970، رقم 2186) كتاب السلام، باب الطب والمرضى والرقى.

1456) سبق تخريجه.

ومما لم ينزل»⁽¹⁴⁵⁷⁾.

5- المحافظة على العبادات، وبخاصة الصلوات وأدائها في أوقاتها ومع جماعة المسلمين، فقد أمر الله عباده المؤمنين باللجوء إليها والاستعانة بها على الهموم والخطوب والمصائب والأمراض، فقال: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسَتَجِدُكَ يُدْعَىٰ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽¹⁴⁵⁸⁾، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لبلال: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»⁽¹⁴⁵⁹⁾، فالصلاة ملاذ وعلاج لكل ذي هم وحزن ومرض.

6- الإكثار الاستغفار في الأوقات المختلفة، لأنه من أسباب الخروج من الأزمان، وتقريج الكربات، وتيسير المعسرات، يقول عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»⁽¹⁴⁶⁰⁾. والعين كربة ومصيبة لعل الله تعالى يجعل الشفاء منها في الاستغفار والتوبة إليه بين الفينة والأخرى.

7- تقبل الواقع والعمل في ضوئه، وعدم الركون إلى اليأس والقنوط وبالتالي العزلة عن الحياة، بل إن من أهم أسباب المعافاة من الكروب النفسية والأمراض العضوية، هو التفاعل مع الواقع والمضي قدماً في مسيرة الحياة بأمل وتفاؤل، لأن المريض يعتقد أحياناً أن فيه عيناً أو سحراً، أو مساً من شيطان، والأمر ليس كذلك، وإنما هو مرض عضوي كسائر الأمراض التي تصيب الناس، ويحتاج إلى بعض الأدوية ليتعافى منها، ممتثلاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁴⁶¹⁾.

8- تجنب الاسترسال مع آثار العين والمرض الناجم عنها، والانشغال بما هو مفيد من الدعاء والذكر وقراءة القرآن والمحافظة على العبادات، لأن ذلك مقدمات للشفاء والمعاودة، وما عدا ذلك من الغفلة أو الركون إلى اليأس والتفكير الطويل في المرض، فإنه يطيل الشفاء ويؤخره، ويزيد من حجم المصيبة والمرض.

9- حسن الظن بالله مع الفأل الحسن والأمل بأن الله تعالى الذي خلق المرض قادر على إزالته وإبداله بالصحة والشفاء، لذا حثّ الشرع على هذا اليقين، لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين

⁽¹⁴⁵⁷⁾ سورة البقرة، الآية 153.
⁽¹⁴⁵⁸⁾ أخرجه أبو داود (ص702، رقم 4986) كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة. والنسائي (ص116، رقم 846) كتاب الإمامة، باب الجماعة للفائت من الصلاة. وهو حديث صحيح.

⁽¹⁴⁵⁹⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁴⁶⁰⁾ سبق تخريجه.

⁽¹⁴⁶¹⁾ أخرجه البخاري (ص273، رقم 7405) كتاب المناقب، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. ومسلم (ص1166، رقم 2675) كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن اقترب إلي شبرا اقتربت منه ذراعا وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»⁽¹⁴⁶²⁾.

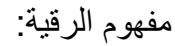
فكلما أحسن العبد الظن بالله تعالى واقترب منه بالعبادة والقربات، كلما اقتربت منه رحمة الله تعالى وعفوه وعافيته.

10- مراجعة النفس ومحاسبتها، فلربما وجد الإنسان خللاً فيصلحه، فيكون سبباً للشفاء والخير والبركة.

11- التأكيد على ما قيل في برنامج الوقاية والحرص عليها، فهي من العلاج أيضاً.



¹⁴⁶² () المعجم الوسيط، 1/ 368 مادة (رَقَا)



وفي الاصطلاح: هي التداوي من الأمراض التي تعتري الإنسان من قراءة القرآن والأدعية والأذكار الماثورة عن النبي ﷺ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في كتابه المبين بقوله: { هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ }^(١٤٦٤)، ويقول في آية أخرى: { يـ د ت ذ ث ز ر ك ك }^(١٤٦٥).

فقد أخبر الله تعالى أن في القرآن شفاء للناس من جميع الأمراض، العضوية والنفسية، ولم يقيدھا أو يحدد أنواعھا بل هو شفاء عام لجميع الأمراض والأوجاع، ومن ذلك تتبين ضرورة الرقية وأهميتها لحياة المؤمن، ليس للمريض فحسب، بل إن الصحيح والمعافى يحتاج إلى الرقية الشرعية حتى يتفادى شرور الشياطين ويتحصن من وساوسهم ونزغاتهم.

أنواع الرقى:

يمكن تصنيف الرقى إلى نوعين بحسب حكمها الشرعي، بين المشروعة والمحرمة:

أولاً: الرقى المشروعة:

هي الرقي التي تتوفر فيها ثلاثة شروط:

- 1- أن تكون الرقية بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، أو بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم .
- 2- أن تكون باللسان العربي المبين أو بما يعرف معناه من غيره.
- 3- أن يعتقد الراقي والمريض أن هذه الرقية لا تؤثر بذاتها وإنما الشفاء بإذن الله تعالى وقدرته.
- فقد جاء الإخبار عن الرقي وجوازها في كتاب الله تعالى كما في قوله جل

¹⁴⁶³() سورة الإسراء، الآية 82.

1464 (سورة يونس، الآية 57).

1465 (سورة الإسراء، الآية 82).

شأنه: { هـ هـ هـ }^(١٤٦).

كما وردت أحاديث كثيرة في جواز الرقية والحث عليها، كقوله صلى الله عليه وسلم: «بسم الله، تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفى سقيمنا بإذن ربنا»⁽¹⁴⁶⁷⁾.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسوله الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده. قالت: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به⁽¹⁴⁶⁸⁾.

وفي حديث أبي خزيمة عن أبيه قال « قلت: يا رسول الله، أ رأيت رقى نسترقها، ودواء تتداوى به، هل يرد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله » (1469).

كما تروي عائشة رضي الله عنها: « أن النبي ﷺ كان إذا أتى مريضاً، أو أتى إليه به قال: «أذهب البأس رب الناس، أشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً» (1470).

والأولى في الرقية أن يقرأ الإنسان على نفسه ويستعين بالله تعالى ويتوكل عليه، كما يفهم من الحديث الذي يرويه عمران رضي الله عنه أن النبي صلی الله عليه وسلم قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»⁽¹⁴⁷¹⁾.

وقد تكون هناك عوائق تمنع المريض من القراءة على نفسه، كمن يجهل القراءة، أو من يشتد به المرض، فحينها يمكن أن يقرأ عليه من يثق بهم من أهل العلم والدين، لقول عائشة رضي الله عنها: «رخص النبي ﷺ الرقعة من كل ذي حمة»⁽¹⁴⁷²⁾.

و عن أبي سفيان عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب وإنك نهيت عن الرقى قال: فعرضوها عليه فقال: ما أرى

¹⁴⁶⁶() أخرجه البخاري (ص1014، رقم 5746) كتاب الطب، باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم.

1467 } سبق تخريجه.

1468 () أخرجه الترمذي (ص475، رقم 2065) كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية والأدوية. وابن ماجه (ص496، رقم 3437) كتاب الطب، باب ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء. والحديث ضعيف، لكن معناه صحيح.

¹⁴⁶⁹ () أخرجه البخاري (ص1005، رقم 5675).

¹⁴⁷⁰ () أخرجه البخاري (ص1008، رقم 5705) كتاب الطب، باب من اکتوى أو کوى. واللفظ لمسلم (ص111، رقم 524) كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

¹⁴⁷¹() أخرجه البخاري (ص1014، رقم 5741) كتاب الطب، باب رقية الحية والعقرب.

1472) أخرجه مسلم (ص975، رقم 5731) كتاب السلام، باب الرقية من العين والنحلة والحمة.

بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»⁽¹⁴⁷³⁾.

ثانياً: الرقى المحرمة:

الرقية المحرمة هي كل رقية لا تتوافر فيها شروط الرقية الشرعية، وهي إما أن تكون كلاماً محرماً أو غير مفهوم وليس له معنى، أو يكون فيها عمل أو قول لغير الله تعالى، كالذبح لغير الله أو سؤال غير الله أو الاستنجاد بالجن والشياطين، كل ذلك من المخالفات الشرعية الواضحة التي تنافي عقيدة التوحيد وتخدش في أصولها وأركانها.

وقد نهى النبي ﷺ عن هذا النوع في أحاديث متعددة، منها ما ورد أنه عليه الصلاة والسلام « دخل عليه رجل وفي يده حلقة من صفر. فقال ما هذا؟ فقال: من الواهنة. فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، وأنت لو مت وأنت ترى أنها تنفَعك لمت على غير الفطرة »⁽¹⁴⁷⁴⁾. وأيضاً قوله ﷺ: « إن الرقى والتمايم والتولة شرك »⁽¹⁴⁷⁵⁾. والمراد بالرقى هنا التي تنافي التوحيد حيث يُستعاذ فيها بغير الله، من الشياطين وغيرهم، ويقدمون بين أيديهم صوراً من الكفر.

أما التمايم: فهي الأحجية المختلفة من الصور والألوان والأشكال التي توضع على البيوت والمراكب، أو تُعلق على الأطفال، باعتقاد أنها ترد عنهم العين والشور والمصائب.

والتولة: وهي ما يقوم به بعض المشعوذين والسحرة من أفعال شركية حتى تحبب المرأة إلى زوجها أو تحبب الزوج إلى زوجته.

وجميع هذه الأشكال والصور أعمال وأقوال شركية، لأنها استنجاد بغير الله تعالى، كما أن كثيراً من كتاباتها تكون على شكل رسومات وطلاسم كفرية غير مفهومة للعامة، وكلها من إحياءات الشياطين إلى أوليائهم من السحرة والمشعوذين.

* * *

صفة الرقية الشرعية:

أخبر النبي ﷺ عن صفة الرقية، فإما أن تكون بقراءة سورة أو آيات من

¹⁴⁷³ () أخرجه أحمد (5/384)، رقم (23306). والطبراني في المعجم الكبير (13/72)، رقم (14828). وهو حديث صحيح.

¹⁴⁷⁴ () أخرجه أبو داود (ص552، رقم 3883) كتاب الطب، باب في تعليق التمايم. وابن ماجه (ص508، رقم 3503) كتاب الطب، باب تعليق التمايم. وهو حديث صحيح.

¹⁴⁷⁵ () سورة الإسراء، الآية 82.

كتاب الله تعالى، أو تكون بدعاء وأذكار واردة عن النبي عليه الصلاة والسلام:

أولاً: الرقية بالقرآن الكريم:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ هَهُنَا بَهْهَاهُ﴾^(١٤٧٦)، ويقول أيضاً: ﴿يَدِيدَتْدٌ

تْدُدُّزْرُرْكِي﴾^(١٤٧٧).

وكل آيات القرآن شفاء لأنها جميعاً كلام الله تعالى، فمن قرأ بأي شيء من القرآن الكريم في الرقى تكون صحيحة، إلا أن النبي ﷺ كان يختار منها بعض السور والآيات، وهي:

1- قراءة سورة الفاتحة، فإن النبي ﷺ قال للنفر الذين رقبوا سيد القوم بالفاتحة سبع مرات، قال: وما يدريك أنها رقية⁽¹⁴⁷⁸⁾.

كما ورد فضل هذه السورة المباركة في قصة اللديغ من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن نفراً من أصحاب النبي صلی الله علیه وسلم مروا بماء فيهم لديغٌ أو سليمٌ، فعرض لهم رجلٌ من أهل الماء فقال: هل فيكم راقٍ؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً فانطلق رجلٌ منهم فقراً بفاتحة الكتاب على شاةٍ فبرأ فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا أخذت على كتاب الله أجرًا؟ حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرًا؟ فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»⁽¹⁴⁷⁹⁾.

2- قراءة سورة البقرة، فقد وردت أحاديث كثيرة عن فضائل هذه السورة وأثرها الكبير في دفع الشرور والأمراض والمصائب عن المؤمن، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»⁽¹⁴⁸⁰⁾.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة»⁽¹⁴⁸¹⁾. والبطلة: السحرة.

1476 () سورة يونس، الآية 57.
 1477 () أخرجه البخاري (ص363، رقم 2276) كتاب الإجارة، باب ما يعطي في الرقية على أحياء العرب بفتحة الكتاب.
 1478 () أخرجه البخاري (ص1013، رقم 5737) كتاب الطب، باب الشروط في الرقية بفتحة الكتاب.
 1479 () أخرجه مسلم (ص317، رقم 780) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته.
 1480 () أخرجه مسلم (ص325، رقم 804) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن.
 1481 () أخرجه البخاري (ص677، رقم 4008) كتاب المغازي. ومسلم (ص326، رقم 807)

3- كما جاء الحث من الهدي النبوي على قراءة آخر آيتين من سورة البقرة، لمدى أثرها في حفظ المؤمن وحمايته، لقول النبي ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»⁽¹⁴⁸²⁾.

4- قراءة آية الكرسي، فهي الحافظة للمؤمن، كما جاء في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان حين قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقراء آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله، فقال له النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»⁽¹⁴⁸³⁾.

5- سورة الإخلاص والمعوذتين، لقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده. قالت: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به⁽¹⁴⁸⁴⁾.

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما⁽¹⁴⁸⁵⁾. كما ورد عنه ﷺ أنه قال لأحد الصحابة: «قل: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»⁽¹⁴⁸⁶⁾.

ثانياً: الرقية بالأذكار من السنة النبوية:

مما ورد من الأذكار في السنة النبوية والتي تشكّل جزءاً من الرقية الشرعية:

1- قوله ﷺ: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي»⁽¹⁴⁸⁷⁾.

2- قوله ﷺ: «من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم»⁽¹⁴⁸⁸⁾.

كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتم سورة البقرة.
⁽¹⁴⁸²⁾ أخرجه البخاري (ص898، رقم 5010) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
⁽¹⁴⁸³⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁴⁸⁴⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁴⁸⁵⁾ أخرجه أبو داود (ص714، رقم 5082) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح. والترمذي (ص815، رقم 3575) كتاب الدعوات، باب: اللهم أسلمت وجهي إليك.
⁽¹⁴⁸⁶⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁴⁸⁷⁾ أخرجه الحاكم (1/542، رقم 1990). والطبراني في الكبير (20/29، رقم 1274).
⁽¹⁴⁸⁸⁾ أخرجه مسلم (ص1177، رقم 6878) كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من سوء القضاء.

3- قوله صلى الله عليه وسلم: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (1489).

4- قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» (1490).

5- قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياها ولو كانت مثل زبد البحر» (1491).

ثالثاً: الرقية بالأدعية الواردة في السنة النبوية:

كما وردت أدعية كثيرة في السنة النبوية تعدّ من الرقية الشرعية، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل» (1492).

ومن أهم الأدعية التي حثّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم ما جاءت في الأحاديث الآتية:

1- قوله صلى الله عليه وسلم: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً» (1493).

2- عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال نعم قال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك» (1494).

3- عن عثمان بن أبي العاص الثقفي - رضي الله عنه - أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات:

¹⁴⁸⁹ () أخرجه أبو داود (ص715، رقم 5081) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح. وهو حديث صحيح.

¹⁴⁹⁰ () أخرجه مسلم (ص1171، رقم 6842) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

¹⁴⁹¹ () سبق تخريجه.

¹⁴⁹² () سبق تخريجه.

¹⁴⁹³ () سبق تخريجه.

¹⁴⁹⁴ () أخرجه مسلم (ص976، رقم 5737) كتاب السلام، باب وضع اليد على موضع الألم مع الدعاء.

أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»⁽¹⁴⁹⁵⁾. وفي رواية: قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل ما كان بي، فلم أزل أمر به أهلي وغيرهم»⁽¹⁴⁹⁶⁾.

كما يجوز الرقية بأي دعاء شرعي آخر يكون خاليًا من الشرك وأسبابه، كالتوسل بالأموات والصالحين أو الاستنجاد بالسحرة والمشعوذين، أو الاستعاذة بالشياطين وغير ذلك من الأقوال والأعمال الشركية التي يقع فيها كثير من الجهلة والبسطاء.

هذا ولا يضير الرقية إذا كانت مع النفث أو بدونه، لأنها وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنفث ومن غير النفث.

* * *

الرقية الشرعية والتوكل على الله:

إن المفهوم الصحيح للتوكل على الله تعالى هو طلب القوة والعون منه جلّ وعلا، ثم اتباع ذلك بالعمل والأخذ بالأسباب، ترك أحد هذه الأمرين يعدّ خللاً ونقصاً في صحة التوكل ومساره، وهذا من السنن الكونية التي أودعها الله تعالى في عباده وسار عليها الرسل والأنبياء عليهم السلام، فلم يكن الوحي وإنزال الكتب السماوية إلى الرسل ومن ثم أمرهم بتبليغها إلى الناس إلا من باب اتباع الأسباب، الأمر الذي يدل على أن فعل السبب لا ينافي أصل التوكل، بل إنه جزء لا يتجزأ منه، مع اليقين بأن كل ما يجري في الكون يكون بأمر الله تعالى وبإرادته وقضائه وقدره.

وقد جاء هذا الربط واضحاً في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يكشف عن حقيقة التوكل حين قال: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»⁽¹⁴⁹⁷⁾.

ويمكن إسقاط هذا التصور عن حقيقة التوكل على علاقته بالرقية الشرعية التي تعدّ من سبباً من أسباب الشفاء الذي هو بيد الله وحده، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على العمل بهذا السبب كعلاج لبعض معاناة الإنسان النفسية والعضوية، كما قال: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁴⁹⁸⁾.

¹⁴⁹⁵ () أخرجه أبو داود (ص229، رقم 1557) كتاب الوتر، باب الاستعاذة. والترمذي (ص478، رقم 2080). وقال: حديث حسن صحيح.

¹⁴⁹⁶ () أخرجه الترمذي (ص536، رقم 2344) كتاب الزهد، باب التوكل على الله. وابن ماجه (ص607، رقم 4164) كتاب الزهد، باب التوكل على الله. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

¹⁴⁹⁷ () سبق تخريجه.

¹⁴⁹⁸ () سبق تخريجه.

كما أوضح النبي ﷺ هذا التصور حين ربط بين التوكل على الله وما يقوله من ذكر ودعاء الذي نوع من الرقية أثناء الخروج من البيت فقال: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال يقال حينئذ هديت وكفيت ووقيت فتنتحى له الشياطين فيقول له شيطان آخر كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي» (1499).

وهذا يعني أنه لا تعارض ولا تنافر بين ما يقوم به الإنسان من القراءة على نفسه أو قراءة غيره عليه، وبين التوكل الصحيح على الله تعالى، لأن كل واحد منهما يكمل الآخر.

* * *

قواعد وأصول وآداب في الرقية:

من أجل أن تكون الرقية شرعية وصحيحة، لا بد لها من أصول وقواعد وآداب تركز عليها، وتكون منطلقاً قوياً لها، سواء من الراقي أو المريض، ومن أهم هذه الأصول:

1- التقوى والصلاح من قبل الراقي والمرقي، من حيث المحافظة على أداء الفرائض والواجبات في أوقاتها وأدائها وفق ما يريد الله ورسوله ﷺ، وكذلك تقديم الأعمال الصالحة بين يدي الله تعالى مثل برّ الوالدين والإحسان إليهما، وقضاء حوائج الناس، والدعوة إلى دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الأعمال التي تدل صلاح الإنسان وقربه من الله تعالى.

2- استشعار عظمة القرآن الكريم وتأثيره على النفس، وأن فيه الشفاء من الأمراض جميعاً، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالْعَدَلَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (1500).

3- معرفة أن المرض ابتلاء من الله تعالى كسائر الابتلاءات الأخرى التي هي من سنن الحياة، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالْعَدَلَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (1501)، سواء كان هذا المرض نفسياً أو عضوياً، فإنه مما يصيب الناس جميعاً بصورة متفاوتة من حيث تأثيره ونوعه، فالتعامل مع المرض على هذا الأساس منطلق متين في التعامل معه بمنهج صحيح بعد ذلك.

4- معرفة أن الذي أوجد المرض هو الله تعالى، وأن الذي يشفي ويعيد

(1499) سورة يونس، الآية 57.

(1500) سورة الأنبياء، الآية 35.

(1501) سورة الشعراء، الآية 80.

العافية إلى المريض هو الله تعالى، يقول جل وعلا على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يُؤْتِي نَفْسًا نَفْسًا﴾⁽¹⁵⁰²⁾. فليس لأحد في الأمر تأثير أو قوة، ويجب على الراقي أن يبين هذه الحقيقة للمرضى الذين يقرأ عليهم، لأن غير هذا الاعتقاد يؤدي إلى زيادة المرض وعدم الشفاء منه.

5- القراءة بالقرآن وما ورد في السنة النبوية من الأذكار والأدعية، والبعد عما يخالف ذلك من القراءة بكلام غير مفهوم أو كتابة الطلاسم أو التوسلات الشركية وغيرها من الأقوال والأفعال التي توجب سخط الله تعالى وتطيل من أجل المرض وتضاعفه.

6- اعتقاد أن القرآن شفاء من كل الأمراض وأنه سبب من الأسباب، لا من باب التجريب فحسب، بل من باب اليقين المطلق، ولا يمنع هذا الاستفادة من الأسباب الأخرى، كمراجعة الأطباء المختصين وتناول الأدوية والعلاجات الطبية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁵⁰³⁾.

7- التعبد بسماع القرآن الكريم، والتدبر في آياته واستشعار عظمة الله تعالى من خلالها، وكذلك التأمل ما جاء في القرآن من القصص والعبر للأمم السابقة، ومعرفة أحوال الأنبياء والرسل الذين قضوا أعمارهم في الدعوة والجهاد، وما لاقوه في سبيل الله من الأذى والقتل والإعراض، بل إن بعضهم ابتلي إضافة إلى ذلك بأمراض وأسقام كحال أيوب عليه السلام وكيفية تعامله، مع المرض طويلاً، وغيرها من المعالم والأحداث والتوجيه والإرشاد في كتاب الله تعالى التي من شأنها أن تعين المريض على مرضه، وتجعل نفسه مطمئنة إلى ما قدر له الله تعالى، فيزيده صبراً وثباتاً في الدنيا وأجرًا وقرباً في الآخرة.

8- استشعار المريض أجر المرض، الذي هو ابتلاء من الله تعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽¹⁵⁰⁴⁾.

9- مواظبة المريض على الرقية وعدم التملل منها، لأن بعض الأمراض تحتاج إلى وقت وصبر، لا سيما الأمراض النفسية التي تكون بسبب مس أو سحر أو عين، أو تلك التي مضى عليها وقت طويل دون معالجة أو قراءة، وفي جميع الأحوال فإن المريض يؤثر على الصبر والاحتساب، لأن الملل والتضجر لا يفيد بل يزيده مرضاً وكرباً إلى حالته التي يعانيتها.

⁽¹⁵⁰²⁾ سبق تخريجه.

⁽¹⁵⁰³⁾ أخرجه الترمذي (ص546، رقم 2396) كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء. وابن ماجه (ص582، رقم 4031) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.

⁽¹⁵⁰⁴⁾ أخرجه مسلم (ص975، رقم 5732) كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

10- البعد عن المعاصي، وبالذات المخالفات الشرعية للرقاة أثناء الرقى والقراءة على المرضى، كالمحافظة على أعراض الناس وعوراتهم وأسرارهم، وكذلك الالتزام بقواعد الرقية الشرعية وعدم الخروج عنها، فقد ظهرت في الفترة الأخيرة بعض المظاهر المخالفة لحقيقة الرقى، كمن يقرأ على مجموعات من المرضى قراءة واحدة، أو يقرأ على كمية كبيرة من الماء ثم توضع في عبوات صغيرة ويوزع على المرضى، وهي لا شك تدل على الهدف المادي وكسب الأموال بطرق مختصرة، بعيداً عن المضمون الشرعي والإنساني لهذه المهنة الشرعية وهي تخفيف وطأة المرض على المريض وتحسين حالته بإذن الله تعالى.

11- ملء برنامج اليوم والليلة بالمفيد علمًا وعملاً قدر المستطاع، لأن الانشغال بالأعمال الصالحة تخفف عن المريض وطأة المرض، وتهدئ عنده القابلية للشفاء والمعافة، إضافة إلى الأجر العظيم المترتب عليها، أما الركون إلى الكسل والتفكير في المرض وطوله وآثاره فإنه يحبط عنده الأمل في الشفاء، ويطيل من أمد المرض، إضافة إلى ضياع الوقت وعدم استثماره والاستفادة منه.

12- طلب الأجر من الله وحده في الرقية، والتفكير في حال المريض والسعي من أجل تخفيف وطأة المرض عليه، وعدم تفضيل الجانب المادي على الجانب الإنساني حتى تؤتي الرقية ثمارها وتخرج بنتائج إيجابية وتتحقق الغاية المنشودة لها وهي الشفاء.

13- التوبة الدائمة وتجريدها لله سبحانه وتعالى، لأنها تزيل عن الإنسان ركام الآثام وسواد الذنوب والمعاصي، وتجعله مقبلاً على الله تعالى بصفاء ونقاء، وهي من الأسباب التي تقوي مفعول الرقية وتأثيرها على المريض.

14- تجنب القراءة الجماعية في الرقية، لأن بعض الرقاة يجمعون المرضى في صالة أو ساحة، ثم يقرأ عليهم جميعاً بصوت عال أو عبر جهاز مكبر الصوت، وهي من الأمور المخالفة للشرع ولحقيقة الرقية وغايتها.

15- تنمية الإرادة الذاتية لمواجهة المرض، وتدريب النفس على الثبات وعدم الاستسلام للمرض ومقاومة آثاره، بالإيمان بالله تعالى والإيمان بقضائه وقدره، وأن ما أصاب المريض لم يكن ليخطئه، وبالتالي التفاعل مع المرض بصورة إيجابية كحالة طبيعية، واتخاذ الأسباب المشروعة للشفاء والمعافة.

16- تنمية روح التفاؤل في نفس المريض، وحسن الظن بالله تعالى، أنه سيشفيه ويذهب عنه المرض والبلاء كما أذهبها عن نبيه أيوب عليه السلام الذي صبر واحتسب، إلى أن فرّج الله عنه وأبدل مرضه صحة وعافية وقوة، وهذا يحتاج إلى التواصل الدائم مع الله تعالى والبعد عن معصيته ومخالفة أمره.

17- عدم الاستعانة بالجن أو مخاطبتهم، أو اللجوء إلى السحرة والمشعوذين، لأن الذي يجمع بينهم هو معصية الله تعالى، فلا تقدم الشياطين خدمة إلا مقابل كفریات وشركیات منهم، مثل كتابة القرآن بدم الحيض أو القذارة، أو كتابة الفاتحة مقلوبة، أو الذبح للشياطين وغير ذلك من الأعمال والأقوال الكفرية، فكل ذلك ديدن هؤلاء المشعوذين والسحرة، فكيف يُطلب منهم الحوائج أو يُرجى منهم الشفاء وهذه حالهم؟!.

* * *

شروط الراقي:

إن من أهم الشروط التي الواجب توافرها في الراقي أو الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها هي:

1- إخلاص العمل لله تعالى، لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، والغاية من الرقية في الأصل هي إحياء النفس وإخراجها مما تعاني، وكذلك التعبد بالقراءة وطلب الأجر من الله تعالى.

2- أن يكون الراقي على قدر من الصلاح والتقوى، وبعيداً عن المعاصي والمحظورات الشرعية، لا سيما أن ما يقوم به من القراءة على الناس يجعله أكثر عرضة من غيره للمحاذير الشرعية كالبدع في القراءة، أو مخالطة النساء ولمسهن وغيرها، الأمر الذي يستوجب الحذر والمراقبة الدائمة للنفس من الوقوع في مثل هذه المخالفات.

3- اتباع الشرع والقواعد الشرعية، بحيث تكون الرقية بكلام الله تعالى والأذكار والأدعية الماثورة عن النبي ﷺ، أو أي دعاء آخر خال من المخالفات العقدية والشرعية، لقوله ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»⁽¹⁵⁰⁵⁾. وهذا يعني البعد عن جميع ألوان الشرك وأسبابه في الرقية كالطلاسّم والكلام غير المفهوم أو الذبح لغير الله وغيرها.

4- معرفة حال المريض وأخلاقه وسلوكه في الحياة، ومدى محافظته على الفروض والواجبات، أو إهماله لها وإغفاله عنها، وكذلك ضرورة معرفة الظروف المحيطة به والمشكلات التي يعانيها، من أجل أن يكون التشخيص صحيحاً وبالتالي تكون الرقية صائبة.

5- تجديد التوبة والاستغفار، لأن الرقية مجال للغرور والشهرة والاطلاع على عورات الناس.

6- لا يتخذ من الرقية طريقاً للكسب المادي، كما يفعل البعض من خلال

⁽¹⁵⁰⁵⁾ سبق تخريجه.

القراءة الجماعية أو القراءة على خزان من الماء ثم بيعه في علب صغير بأسعار باهظة.

7- العمل على تقوية الجانب الإيماني في المريض، بأن الله وحده هو الشافي، وأن ما يقوم به الراقي إنما هو من قبيل العمل بالأسباب فحسب.

8- عدم إيهام المريض بالسحر أو العين أو تفخيم الأمر عنده، أو السرعة في التشخيص ليوهم المريض بأنه عالم بمرضه، لأن ذلك يزرع في نفسه الأوهام، ويكبر مرضه ويتضاعف بدل أن ينحسر ويزول.

9- زرع روح التفاؤل لديه، وحثه على التعامل مع المرض بصورة إيجابية، بحيث يعطيه الأمل في الشفاء من خلال الاهتمام به والسؤال عنه وعدم الانقطاع عنه.

10- تجنب الضرب أو استخدام الأساليب القاسية أثناء القراءة، لأنها تأتي بنتائج عكسية، كزيادة المرض أو إلحاق الأذى بجسد المريض أو ربما موته في بعض الأحيان.

* * *

توجيهات إلى المرقى:

إن كثيرًا من الحالات المرضية التي تستدعي الرقية ما هي إلا نتائج ظروف وأحوال يمر بها الإنسان، أو ربما تكون مما تكسبه أيد بعض الناس من المظالم والتجاوزات وعدم الوقوف عند حدود الله تعالى، ومن أجل ذلك لا بد للمرقى أن يراجع ماضيه ويقوم ببعض الخطوات التي تسرع في شفاؤه ونجاح الرقية عليه، ومن أهم هذه الخطوات:

1- التأمل في مجموعة من الأمور التي لها علاقة بالمرض:

- دراسة حاله مع الله تعالى، بالمحافظة على الفرائض والواجبات وأدائها في أوقاتها، والتواصل مع القرآن والأذكار والأدعية التي من شأنها حفظ الإنسان وحمايته من مكائد الشياطين، وكذلك مراجعة حالات الغفلة عن الله، لأن المعاصي من الأسباب التي تمهد الطريق للشياطين ونزغاتهم إلى النفس.

- مراجعة حال أسرته وأهل بيته، ومدى قيامه بواجب المسؤولية الشرعية نحو جميع أفرادها، لقوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع ومسؤول عن رعيته»⁽¹⁵⁰⁶⁾.

- التأمل في حاله مع الناس في المجتمع الذي ينتمي إليه، ومراجعة سلوكياته وأخلاقه مع الآخرين، في التعاملات اليومية المختلفة، لأن كثيرًا من الأمراض

⁽¹⁵⁰⁶⁾ سبق تخريجه.

تكون نتيجة ظلم للناس أو اعتداء على حقوقهم، أو حسد وحقد عليهم، لأن النفس في هذه الحالات تضطرب وتفقد استقرارها وتصبح عرضة لأي مرض أو آفة بعد ذلك.

- التأمل في المال الذي يكتسبه ويعيش منه، ويصرفه على أهل بيته، لأن من ثمرات المال الحلال أن الله تعالى يبارك فيه وفيمن يصرف عليهم، وأما المال الحرام والمشبووه فإنه يسبب لصاحبه المصائب المتتالية، فضلاً عن أنه سحت كما قال عنه النبي ﷺ.

2- القيام بعملية التصحيح للأخطاء بعد التأمل في الحال، وتقويم ما كان معوجاً من الأعمال، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها إن كان هناك ظلم أو اعتداء، ثم التوبة إلى الله تعالى عما اقترَف في جنبه من الذنوب والمعاصي، وهي بوابة الخروج من مأزقه ومرضه بإذن الله تعالى.

3- أن يبدأ هو برقية نفسه، وهو الأولى في الشرع، إلا أن يمنعه مانع أو عذر، تقول عائشة رضي الله عنها: «رخص النبي ﷺ الرقية من كل ذي حمة»⁽¹⁵⁰⁷⁾. وهذا يعني أن الأصل أن يرقى الإنسان على نفسه، كما كان يفعل النبي ﷺ.

4- التوكل على الله تعالى في جميع الشؤون والأحوال، لأنه الأصل في الخروج من الأمراض والأوجاع، وما سواه من الرقي وغيرها إنما هي أسباب تكمل مفهوم التوكل الصحيح، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَدْعُ لَهُ شَيْئاً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾⁽¹⁵⁰⁸⁾.

5- الحفاظ على الوقت واستثماره في الأمور النافعة التي حث عليها الشرع، من عبادات وطاعات، وكذلك استغلاله في العمل الإيجابي في أمور الدنيا كالسعي من أجل التحصيل العلمي والمعرفي، والإتقان في العمل والإبداع فيه وتطويره، ورفع مستوى الإنتاج وغير ذلك من الأعمال الصالحة، لأنها جميعاً من العوامل التي تبعد المريض عن مداخل الشيطان وتعجل في شفائه ورد العافية إليه.

6- اختيار الراقي المناسب الذي يشهد له أهل العلم والصلاح، والتعامل معه بصورة إيجابية، وعدم إخفاء الحقائق عنه، من الأحداث والأحوال التي تحيط به، حتى يتمكن من رقيته بشكل صحيح ومن ثم اختصار الطريق عليه إلى الشفاء والمعافة بإذن الله تعالى.

¹⁵⁰⁷ (سورة الطلاق، الآية 3.
¹⁵⁰⁸ (سورة الأحزاب، الآية 53.

* * *

من أخطاء التعامل مع الرقية:

إن كثيراً من الرقاة والمقرئين يتبعون أثناء الرقية وسائل خاطئة وأساليب خارجة عن الضوابط الشرعية التي جاء بها الشرع من الكتاب والسنة، ومن أهم هذه الأخطاء:

أولاً: الاعتقاد أن القراءة وحدها هي الشافية:

وهو اعتقاد خاطئ يخالف التصور الشرعي الصحيح عن المرض وكيفية التعامل معه، فالمرض من الله والشفاء منه جل وعلا، والرقية سبب حث عليه النبي ﷺ، بل إنه عليه الصلاة والسلام كان يرقى نفسه، والأمر الآخر أن الرقية نفسها هي قراءة القرآن أو الدعاء أو الذكر الذي فيه استنشاع لعظمة الله تعالى وقدرته، وأنه القادر الوحيد على الشفاء.

كما أن هذا الاعتقاد يخالف حقيقة التوكل الصحيح الذي يعتمد على طلب العون من الله تعالى والأخذ بالأسباب.

ثانياً: الحكم الجازم على حالة المريض:

من الأخطاء التي يقع فيها بعض الرقاة هو الحكم السريع على المريض وأن فيه مساً أو عيناً، قبل أن يعرف أحواله وظروفه، مما يسبب أزمة في العلاج وبطئاً في الشفاء، لأن حالة المرض تختلف من إنسان لآخر، فالتشخيص الصحيح يعد أمراً مهماً في العلاج، والتشخيص الخاطئ سبب لوقوع الضحايا وتضاعف المرض.

ثالثاً: اللحن في القرآن:

إن من أهم الوسائل المتبعة في الرقية هو قراءة القرآن، مع بعض الأدعية والأذكار، وهنا لا بد من الإشارة إلى تجاوز وخطأ يقع فيه بعض القراء أثناء القراءة وهو اللحن في القرآن بصورة غير شرعية، وذلك من خلال مدّ المقصور أو قصر المد، أو إبدال حرف بحرف أثناء القراءة، كإبدال حرف الذال بالزاي أو الثاء بالسين، أو الخروج عن قواعد التجويد إلى ألوان من الغناء، حتى تتحول أحياناً إلى طلاس لا يفهمها أحد من الحضور من كثرة الإطالات والمدود والألحان، فكل ذلك من التجاوزات الشرعية المحرمة التي ينبغي على الرقاة والقراء ملاحظتها والانتباه إليها.

رابعاً: القراءة الجماعية:

من الوسائل التي يتبعها بعض الرقاة والقراء، جمع المرضى في صالة واحدة والقراءة عليهم دفعة واحدة باستعمال مكبر للصوت، وهو أسلوب خاطئ

وطريقة غير صحيحة، لأن حالة المرض تختلف من شخص إلى آخر، ربما يكون من الحاضرين مريض بعين وآخر بسحر والثالث بمس، والرابع فيه مرض عضوي بعيد عن الحالة النفسية، والخامس ليس فيه شيء وإنما حالة عصبية، وهكذا، فإن كل شخص يحتاج إلى جلسة خاصة لمعرفة حالته عن قرب ومعرفة الأعراض والقرائن التي تظهر عليه نتيجة هذه الحالة، ومن ثم قراءة الآيات والصور والأذكار المخصصة لحالته، أما أن يتم علاج الجميع بتشخيص واحد فهذا مما لا يقبله الشرع، وله أضرار ونتائج سلبية منها:

- أنها لم ترد القراءة الجماعية عن النبي ﷺ، ولم ترد عن السلف من الصحابة والتابعين، فيخشى أن تأخذ شكل البدعة والإحداث في الدين.
- القراءة الجماعية لا تتيح للراقي معرفة حقيقة المرض وأسبابه ومدى تأثر المريض به، وبالتالي فإن تشخيصه يكون خاطئاً ولن تأتي الرقية بالنتائج المأمولة.
- الخشية من انتقال المرض من شخص إلى آخر، أو تلبس شيطان أحدهم بمريض آخر أو أحد المرافقين، الأمر الذي يمنع كثيراً من المرضى من حضور القراءة الجماعية.
- عدم تأثر الشياطين بالقراءة الجماعية لعدم وجود التركيز على أحد منهم، لأن القراءة تكون عامة وغير مخصصة، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى ظهور سباب وشتم على الراقي، بخلاف القراءة الفردية التي تندر معها هذه الإشكالية.
- تظهر في القراءة الجماعية أحياناً أسرار المرضى، حين يكشف الشيطان المتلبس بالمريض أخباره وأسراره والظروف التي مرّ بها والأسباب التي دفعته إلى التلبس، وجموع من المرضى والمرافقين يسمعون ذلك، لا سيما أن كثيراً منهم يسجلون ويصورون مجالس الرقى والأحداث التي تجري فيها.

خامساً: لمس النساء:

ومن التجاوزات التي يرتكبها بعض القراء أو الرقاة حين يكون المريض من النساء، فلا يأخذون بالضوابط الشرعية المطلوبة الخاصة بهن، وأي تجاوز لذلك هو مخالفة شرعية يَأْتُمُّ بها الطرفان القراء والمرضى، ومن هذه التجاوزات لمس النساء أثناء القراءة دون وضع حاجز أو ساتر، وكذلك الاختلاء معهن أثناء القراءة، وأيضاً الكشف على بعض المواطن من جسدها، وغيرها من المحظورات، التي نهى الشرع عنها، وقد بيّن القرآن الكريم المنهج

المتبع في مثل هذه الحالات في قوله تعالى: {وَوُضِيْعٌ مِّنْ نَّاسٍ} (1509). وإذا كانت المرأة من اللاتي يصرعن أو يتحركن كثيراً أثناء القراءة، فلا بد أن يحتاط لهذا الجانب، ويلتزم بالضوابط الشرعية اللازمة، من حيث الحجاب والحشمة حتى تتسلم من التكشف.

سادسًا: إجراء مقابلات مع الجن:

ظهرت في الآونة الأخيرة بعض الرقاة والقراء صورة جديدة تختلف عن الصورة المألوفة عند الناس من قراءة للقرآن والأدعية فحسب، وإنما مزجوا الوسائل الشرعية المباحة للرقية بالمحرمة، اعتماداً على بعض الفتاوى التي فهِمَت خطأ، ليعطوا الشرعية على أعمالهم، وهذه الصورة هي التعامل المباشر مع الجن وبعضهم يسمونهم بالجن الصالحين، لأنهم يسعون من أجل سعادة الإنسان وإزالة الأمراض والأوجاع عنه.

ولم يرد في الشرع شيء من هذا، كما لم يعمل به أحد من سلف هذه الأمة، فهي مخالفة شرعية واضحة، لأن الجن أنفسهم مكفون مثل الإنس بالعبادة والطاعة، لقوله تعالى: {ج ج ج ج ج ج ج} (١٥١٠).

سابعًا: الضرب بالآلات قوية:

يتبع بعض الرقاة والقراء أثناء القراءة بعض الضرب وفي مواطن محددة من جسم المريض، وربما استخدم بعضهم آلات قوية ومؤذية كالعصي الكبيرة، أو الحديد، أو اللكمات القوية، كأسلوب لإخراج الشيطان من الجسم، وأحياناً يشترك في الضرب أكثر من شخص يأخذ كل واحد منهم جهة من المريض ويبدأ بضربه والشدة عليه، فإذا تجاوز الضرب الحد المعقول أو استخدم فيه آلة قوية أو جارحة ربما يؤدي إلى جرح المريض أو إعاقته أو حتى وفاته، وقد حدثت حالات كثيرة جراء هذا السلوك الخاطئ في الرقية.

فقد أمر عليه الصلاة والسلام بالرفقة الشرعية بالقرآن والأدعية والكلمات التي يتأذى منها الشياطين ويخاف منها، فعن عثمان بن أبي العاص قال لما استعمنني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ فقال: ابن أبي العاص قلت: نعم يا رسول الله قال: ما جاء بك؟ قلت: يا رسول الله عرض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أصلي قال: ذاك الشيطان ادنه فدنوت منه فجلست على صدور قمني قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال: «اخرج عدو الله» ففعل ذلك ثلاث مرات ثم قال: «الحق بعملك» فقال: عثمان

¹⁵⁰⁹() سورة الذاريات، الآية 56.

1510 () أخرجه ابن ماجه (ص511، رقم 3548) كتاب الطب، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه. وأحمد (4/171، رقم 17584). صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فلعمري ما أحسبه خالطني بعد»⁽¹⁵¹¹⁾.

فلم يستخدم عليه الصلاة والسلام الضرب المبرح ولا آلة قوية مؤلمة، وإنما ضرب بيده على صدره من غير أن يؤذيه ثم رقى عثمان ببعض الكلمات.

كما أن الضرب المبرح الذي يؤذي المريض ربما يخوفه ويخوف المرضى الآخرين من المجيء إلى الراقي أو القارئ مرة أخرى، لأن النفس تنفر من الغلظة والشدّة في التعامل.

ثامناً: الخلط بين الحالة النفسية والحالة العصبية:

إن من الأخطاء التي يرتكبها بعض الرقاة على المرضى هو الخلط بين الحالة النفسية الصحيحة والتي ينجم عنها بعض الأمراض المعروفة كالخوف أو القلق أو الاكتئاب أو التشاؤم، وبين الحالة العصبية التي تعتريه نتيجة ظروف اجتماعية أو اقتصادية أو وجود مظلمة أو شكوى أو غيرها، والفرق كبير بين الحالتين، لأن الحالة الثانية تعترى جميع الناس، حسب المواقف والأحداث التي يمرون بها في حياتهم اليومية، سرعان ما تزول وتتلاشى مع الوقت، أو ربما يكون ذلك مرضاً وراثياً يمكن التعامل معه عبر العيادات الطبية المختصة لها.

أما الحالة الأولى والتي هي حالة نفسية محضّة، فهي نتيجة تمكن الشيطان من النفس البشرية واستيلائه عليها وبث نزغاته ووساوسه فيها بصورة دائمة، أو هي نتيجة سحر أو عين أو حسد أو مس من الشيطان، وفي هذه الأشكال لا بد من القراءة الدائمة والدعاء المتواصل، إضافة إلى تناول الأدوية والعقاقير إذا احتاج الأمر ذلك.

تاسعاً: التحذير من الطب النفسي والاعتداء عليه:

ينتشر لدى بعض الرقاة والقراء مفهوم خاطئ عن الطب النفسي، ويعتدونه من العلوم التي لا تغني شيئاً عن المرضى سوى أكل أموالهم وإدخالهم في دوامة العقاقير والأدوية، وهذا التصور يتنافى مع الشرع الذي أمر المؤمنين بالتداوي الحلال، سواء كان في مراكز الرقاة، أو في العيادات الطبية النفسية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁵¹²⁾.

فلم يقتد عليه الصلاة والسلام التداوي بالقراءة فحسب، وإنما جعله مطلقاً ما دام ضمن دائرة الحلال والمباح.

⁽¹⁵¹¹⁾ سبق تخريجه.

⁽¹⁵¹²⁾ أخرجه البخاري (ص1206، رقم 6990) كتاب التعبير، باب المبشرات.

وفي الحقيقة فإن الطب النفسي الصحيح والرقية الشرعية الصحيحة يكمل أحدهما الآخر، ومن الخطأ الفصل بينهما أو إهمال أحدهما والاعتماد على الآخر.

عاشراً: التعامل مع الطب الشعبي دون دراسة للمواد المتناولة أو التحقق منها من خلال الاستشارات العلمية:

قد يقع بعض القراء في خطأ جسيم، يذهب المريض ضحية خطأ في تشخيصهم وعلاجهم، حين يصفون له بعض الأعشاب، أو السوائل، أو الخلطات، ثم يتناولها المريض دون أن يستشير طبيباً أو مركزاً علمياً متخصصاً، ثم تظهر نتائجها السلبية عليه، فتزداد حالته سوءاً وتعقيداً، أو ربما تؤدي إلى ظهور أمراض عضوية عليه كان بغنى عنها قبل ذلك.

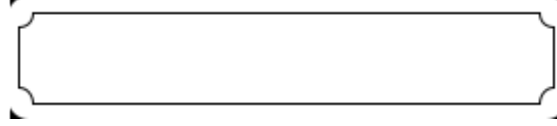
* * *

وفي الختام، فإن الأمة اليوم بحاجة إلى مزيد من العلم للفصل بين ما هو من الدين وما هو دخيل عليه، كما هي حال الرقية الشرعية التي دخلت عليها المخالفات العقدية والتجاوزات الشرعية إما بسبب الجهل أو الكسب المادي، الأمر الذي يفرض على أهل العلم والمسؤولين وجميع المؤسسات والهيئات النظر إلى ذلك والتعامل معه بصورة صحيحة وحاسمة، من خلال هاتين الخطوتين:

الأولى: متابعة مراكز الرقى ومراقبتها ودراسة أحوال الرقاة ومدى التزامهم بالضوابط الشرعية، واتخاذ الإجراءات الرادعة على جميع التجاوزات العقدية والشرعية في هذه المراكز وعند هؤلاء الرقاة.

الثانية: العمل بجميع الطاقات والإمكانات على نشر التصور الصحيح عن الرقية الشرعية الصحيحة، عبر الوسائل الإعلامية المختلفة، في الفضائيات والانترنت والندوات والمحاضرات والخطب وحتى في المناهج الدراسية بالمدارس والمعاهد والجامعات.





حقيقة الرؤيا:

الرؤيا: ما يراه الإنسان في نومه، وجمعه الرؤى.

قد يرى الإنسان ما يفرحه أو ما يحزنه، وقد يرى ما يفكر فيه في يومه وقبل نومه، وقد يرى قصة لا تنتهي من الماضي البعيد أو الحاضر القريب، وقد يرى هذا الإنسان متناقضات في النوم وأهوالاً، أو أحداث الواقع المختلفة الخاصة أو العامة وغيرها من الأمور الكثيرة المألوفة وغير المألوفة.

والرؤى في كل أشكالها وصورها من أسرار هذا الكون وعجائبه التي ترتبط بالنفس الإنسانية وتطلعاتها ومعاناتها، فيأنس أحياناً حين تكون مبشرة له، ويحزن أحياناً أخرى حين تكون مزعجة ومكروهة.

والرؤى في المنظور الإسلامي حقيقة لا يجوز إنكارها بصورة كلية، لأن فيها من الحقائق التي تمس واقع الرائي، لا سيما إذا كان من الصالحين.

وقد ذكر الله الرؤى في كتابه المبين، مثل رؤية إبراهيم ويوسف عليهما السلام.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»⁽¹⁵¹³⁾. وقال أيضاً: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»⁽¹⁵¹⁴⁾.

ووضع الإسلام منهجاً واضحاً في التعامل مع الرؤى، يعطي الأمن والطمأنينة للإنسان، ويجنبه مداخل الشياطين ووساوسهم.

* * *

أنواع الرؤى:

للرؤى أنواع كما جاء في حديث عوف بن مالك مرفوعاً: «الرؤيا ثلاث: منها أهوئيل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»⁽¹⁵¹⁵⁾.

⁽¹⁵¹³⁾ أخرجه مسلم (ص199، رقم 1074) كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع.

⁽¹⁵¹⁴⁾ أخرجه ابن ماجه (ص559، رقم 3907) كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث. والحاكم (4/432، رقم 8174) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

⁽¹⁵¹⁵⁾ أخرجه مسلم (ص1001-1002، رقم 5897) كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله.

فالرؤيا ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أهويل من الشيطان:

وهي جميع الرؤى التي تحزن الإنسان وتخيفه وتزعجه، كمن يرى طائفة تنفجر وتحترق، أو يرى سفينة تغرق، أو يرى زلزالاً أو بركاناً، أو يرى قتلاً، وغيرها من المحزنات والمفجعات، فإن على الرائي أن يتعامل مع هذا النوع بما يلي:

1- أن ينفث الرائي عن يساره ثلاث مرات ثم يتعوذ بالله من شر هذه الرؤى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره»⁽¹⁵¹⁶⁾.

2- أن يتعوذ الرائي بالله من الشيطان وشره وهمزاته، لحديث عمرو بن شعيب: «إذا فزع أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضره»⁽¹⁵¹⁷⁾.

3- أن يتفل الرائي عن يساره حين يهب من نومه، أو يبصق كما جاء في بعض الروايات، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق عن يساره وليستعذ منه فلن يضره»⁽¹⁵¹⁸⁾.

4- أن يتحول عن جنبه الذي كان نائماً عليه إلى الجنب الآخر، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»⁽¹⁵¹⁹⁾. قال أهل العلم: هذا من باب التناول الذي حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا عدوى ولا طيرة وأحب الفأل الصالح»⁽¹⁵²⁰⁾.

5- والأكمل أن يقوم ويصلي، فالصلاة تجمع هذه الآداب جميعها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس»⁽¹⁵²¹⁾. وإن لم يتمكن فيقرأ آية الكرسي.

6- ألا يحدث بها أحداً، عن جابر جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتدت أثره، فقال:

¹⁵¹⁶ () أخرجه الترمذي (ص804، رقم 3528) كتاب الدعوات، باب دعاء الفزع في النوم. وقال: هذا حديث حسن غريب.

¹⁵¹⁷ () أخرجه البخاري (ص548، رقم 3292) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

¹⁵¹⁸ () أخرجه مسلم (ص1002، رقم 5901) كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله.

¹⁵¹⁹ () أخرجه مسلم (ص987، رقم 5802) كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون في الشؤم.

¹⁵²⁰ () أخرجه مسلم (ص1003، رقم 5905) كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله.

¹⁵²¹ () أخرجه مسلم (ص1005، رقم 5926) كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان.

رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي: «لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك»⁽¹⁵²²⁾.

النوع الثاني: لما يهمل الرجل به في يقظته:

وهي من الأضغاث الناجمة عن الإفراط في الطعام أحياناً، أو من قلة النوم والإرهاق الشديد، أو تكون نتيجة مشاغل الحياة الكثيرة والمشكلات التي تعترض الإنسان كل يوم.

ولتفادي هذا النوع من الرؤى يمكن اتباع الخطوات الآتية:

- أ- المحافظة على الفروض والواجبات في أوقاتها، وعدم إهمالها أو تأخيرها.
- ب- الإكثار من الأذكار، والأدعية، وقراءة القرآن في الليل وأطراف النهار.
- ج- النوم على وضوء وطهارة، وقراءة أذكار النوم التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، مثل دعائه: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»⁽¹⁵²³⁾.
- د- الاعتدال في تناول الطعام وعدم الإفراط فيه، لأن التخمّة الزائدة بالأصل غير صحية، وسبب لكثير من الأمراض، فإذا نام الإنسان بعدها مباشرة فإنها تؤدي إلى اضطرابات هضمية، بحيث لا تؤدي كثير من الأعضاء والأوعية الدموية وظائفها بالشكل الكامل، الأمر الذي يتسبب في حدوث الأضغاث والرؤى المزعجة أو ما يسمى بالكوابيس.
- وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام الأمة بالاعتدال في الطعام فقال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فنثّل لطعامه ونثّل لشربه وثلثه لنفسه»⁽¹⁵²⁴⁾.

النوع الثالث: الرؤيا الصادقة:

وتتعلق بهذا النوع من الرؤى مجموعة من الحقائق، منها:

- أ- هذه الرؤيا هي الصالحة، والصادقة، والحسنة، التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»⁽¹⁵²⁵⁾.

¹⁵²² () أخرجه البخاري (ص1099، رقم 6320) كتاب الدعوات.

¹⁵²³ () أخرجه الترمذي (ص542، رقم 2380) كتاب الزهد، باب كراهية كثرة الأكل. وقال:

حديث حسن صحيح.

¹⁵²⁴ () أخرجه البخاري (ص1206، رقم 6990) كتاب التعبير، باب المبشرات.

¹⁵²⁵ () سورة الصافات، الآية 102-109.

ب- هذه الرؤيا بالنسبة للأنبياء وحي من الله تعالى، كما حدث لإبراهيم عليه السلام حين رأى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، قال الله تعالى: {ثُمَّ نَبَىٰ يٰ إِسْمٰعِيلُ ۖ اذْبَحْ نَحْنُ اِنِّىۤ اَبْرٰهٖمَ ۚ} (1526).

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام ورؤياه فقال عنه: {وَرٰى يٰۤاِسْمٰعِيْلُ ۖ اٰتٰىهُمَا مِّنْ رَّبِّكَ ۚ اِنَّمَا اَنْتَ مُبْصِرٌ ۚ} (1527)، وتحققت هذه الرؤيا بعد زمن طويل، حين صار يوسف عليه السلام ملكاً على خزائن مصر، وجاءه أبواه وإخوته واجتمع بهم وخرّوا له سجداً، قال الله تعالى: {ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1528).

وقد تقع الرؤيا من الكافر إذا أراد الله به خيراً كما وقع للعزیز: {وَرٰى اٰمَنُ ۙ اِنَّمَا اَنْتَ مُبْصِرٌ ۚ} (1529).

{ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1530).

فجاء تعبیرها من يوسف عليه السلام: {ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1531).

وكذلك الحال بالنسبة لمن دخل مع يوسف عليه السلام السجن، وقد سألاه عن رؤياهما، قال تعالى: {ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1532).

فعبر لهما الرؤى وبين مآلها، قال الله تعالى عنه: {ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1533).

أما عن غير الأنبياء عليهم السلام من الناس الصالحين، فالمراد أنها خبر صادق من الله لا يجوز عليه الكذب، فشابهت النبوة الصادقة.

- هذه النصوص تدل على تعظيم هذه الرؤيا، وكان الصحابة يعظمون شأنها، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تبارك وتعالى: {ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ} (1534) قال: هي

(1526) سورة يوسف، الآية 4.
 (1527) سورة يوسف، الآية 100.
 (1528) سورة يوسف، الآية 43.
 (1529) سورة يوسف، الآية 46.
 (1530) سورة يوسف، الآيات 47-49.
 (1531) سورة يوسف، الآية 36.
 (1532) سورة يوسف، الآية 41.
 (1533) سورة يونس، الآية 64.
 (1534) أخرجه الترمذي (ص522، رقم 2275) كتاب الرؤيا، باب قوله تعالى: (ثُمَّ اَنۡزَلۡنَاكَ مِصْرَآءَ ۚ) (1534) قال: هي

ومن القواعد: كلما كان الإنسان مستقيماً، وصالحاً، وصادقاً، صدقت رؤياه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أصدقهم حديثاً أصدقهم رؤياً» (1536).

1- يستبشر بها، ويحمد الله تعالى عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة فمن رأى خيراً فليحمد الله عليه وليذكره ومن رأى غير ذلك فليستعذ بالله من شر رؤياه ولا يذكرها فإنها لا تضره» (1537).

3- ألا يطلب تعبيرها إلا من عالم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح» (1539).

وقد قصّ يوسف عليه السلام رؤياه على أبيه يعقوب عليه السلام الذي هو نبي الله تعالى ولم يقصّها على أحد آخر من عامة الناس، قال تعالى: { وَهُيَ يُبَدِّلُ نَافِثًا مِّنْهُمْ نَجِيفًا } (1540).

3- ألاّ يقصّ على حاسد أو حاقد أو عدوّ، لقوله تعالى على لسان يعقوب: {أب ب ب ب ب پ پ پ پ پ پ پ پ پ پ پ ن ت ث ذ} (١٥٤١). فقد حذره أبوه عليه السلام من إخبار إخوته بالرؤيا خوفاً عليه من حسدهم وغيرتهم من يوسف عليه السلام.

* * *

مرآئى النبى صلى الله عليه وسلم :

ورد في السنة النبوية بعض المرائي الخاصة بالنبي ﷺ وهي بالنسبة له وحى، وقد تحققت جميعها، منها:

ث(٣). وأحمد (5/ 325، رقم 22819).
 1535 (أخرجه ابن حبان (3/405، رقم 604). والحاكم (4/432، رقم 8174).
 1536 سبق تخريجه.
 1537 أخرجه البخاري (ص1214، رقم 7044) كتاب تعبیر الرؤيا، باب إذا رأى ما يكره.
 1538 أخرجه الترمذي (ص523، رقم 2280) كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا، ما يستحب منها، وما يكره.
 1539 (سورة يوسف، الآية 4.
 1540 (سورة يوسف، الآية 5.
 1541 (أخرجه البخاري (ص742، رقم 4374) كتاب المغازي، باب قصة الأسود العنسي.

1- روياه صلی الله علیه وسلم للكذابين الذين ادّعى النبوة، مسليمة والعنسي، فعن نافع بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم مسليمة الكذاب على عهد رسول الله صلی الله علیه وسلم، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله صلی الله علیه وسلم، ومعه ثابت بن قيس بن شماس - وفي يد رسول الله صلی الله علیه وسلم قطعة جريد - حتى وقف على مسليمة في أصحابه فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ولن تعدو أمر الله فيك ولن أدبرت ليعقرنك الله وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت وهذا ثابت يجيبك عني» ثم انصرف عنه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - فسألت عن قول رسول الله صلی الله علیه وسلم: «إنك أرى الذي أريت فيه ما أريت» فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله صلی الله علیه وسلم، قال: «بيننا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحي إليّ في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذا بين يخرجان بعدي أحدهما العنسي والآخر مسليمة» (1542).

2- رؤياه عليه الصلاة والسلام في نقل الوباء من المدينة إلى الجحفة، كما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت في المنام امرأة سوداء ثائرة الشعر تقلة أخرجت من المدينة فاسكنت مهبة فأولتها في المنام وباء المدينة ينقله الله إلى مهبة» (1543).

3- رؤياه عليه الصلاة والسلام المدينة دار هجرته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: «قد رأيت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما حرتان»، فخرج من كان مهاجراً قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين⁽¹⁵⁴⁴⁾.

4- رؤياه عليه الصلاة والسلام لخلافة أبي بكر رضي الله عنه بعده، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بيننا أنا نائم رأيتني على قلب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعها ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن»⁽¹⁵⁴⁵⁾.

¹⁵⁴² () أخرجه البخاري (ص1212، رقم 7040) كتاب التعبير، باب المرأة الثائرة الرأس. ومسلم (ص487، رقم 1181) كتاب الحج، باب مواقيت الحج.

(١٥٤٣) أخرجه البخاري (ص 368، رقم 2297) كتاب الكفالة، باب الدين.

1544 (أ) أخرجه البخاري (ص1288، رقم 7475) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ثُمَّ نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ بِمَا عَمِلُوا) (سورة النحل: 62). ومسلم (ص1052، رقم 9232) كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عمر.

1545 () أخرجه أحمد (1/108، رقم 855). وابن حبان (10/265، رقم 4417). وهو حديث صحيح.

* * *

أصدق الرؤيا:

إن أصدق الرؤيا وأقربها إلى الحقيقة تلك التي تكون آخر الليل وفي الأسحار، كما قال بعض أهل العلم، لفضل هذا الوقت وخاصيته أنه وقت نزول الرحمة والسكينة على العباد، كما أنه من الأزمان التي يستجاب فيها الدعاء والسؤال، إضافة إلى أن جسم النائم يكون في هذا الوقت أكثر راحة وهذوءاً من بداية الليل، الأمر الذي يجعل الرؤيا بعيدة عن الشواغل والمسؤوليات والمشكلات، فتكون أقرب إلى الحقيقة من غيرها من الأوقات والأزمان.

الرؤيا الكاذبة:

حيث إن البعض يسردون رؤى ويقصون حولها القصص والأحداث، وينشرونها بين الناس، والأصل أنهم لم يروا هذه الرؤى وإنما قصص ملفقة وأحداث كاذبة من نسج أفكارهم وأوهامهم، ربما ابتغوا من وراء ذلك الشهرة أو إظهار الصلاح والتقى، أو الكسب المادي لا سيما مع البسطاء والجهلة، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وجعله من أكبر الفرى، فقال: «أفرى الفرى من ادعى إلى غير أبيه وأفرى الفرى من أرى عينيه في النوم ما لم تريا ومن غير تخوم الأرض» (1546).

* * *

علاقة الرؤيا بالأمر اض النفسية:

إن للرؤيا علاقة وطيدة مع الأمراض النفسية، وهي علاقة متبادلة، حيث تكون بعض هذه الأمراض نتيجة للرؤى، خاصة الأضغاث والأحلام المزعجة التي تتوالى على الإنسان في بعض المراحل أو الظروف، أو أن كثيراً من هذه الأحلام والأضغاث تلاحق الإنسان نتيجة الأمراض النفسية المختلفة التي يعاني منها، كالخوف أو القلق أو الحزن أو التشاؤم وغيرها.

إلا أن بعض هذه الرؤى ربما يستفيد منها الإنسان لمعالجة بعض الأمراض النفسية لديه، لا سيما إذا كانت من عبد صالح، وفيه من المبشرات، لأنها تعطيه أملاً في الشفاء والتخلص من الحال التي يعاني منها.

وبهذا يمكن تحديد العلاقة بين الرؤيا والمرض النفسي بشكل إيجابي أو سلبي:

أولاً: العلاقة الإيجابية بين الرؤيا والمرض النفسي:

من المعلوم أن الحياة دار ابتلاء واختبار، لقوله تعالى: { يَبْلُغُنَّ أَجَلَهُنَّ } ١

1546 () سورة الملك، الآية: 2.

ث ت ذ ظ { (1547).

وقد بيّن الله تعالى الزاد الذي يتزود به العبد نحو الشدائد والخطوب وجميع الابتلاءات، ألا وهو الصبر، والاحتساب، والرضى بقدر الله وقضائه، يقول تبارك وتعالى: ﴿قَفْ قَفْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ جَجْ﴾^(١٥٤٨).

وكان الصبر سنة للأنبياء والرسل، يقول تعالى: { چ چ چ چ د د د }⁽¹⁵⁴⁹⁾.

وقد ضرب نبي الله أيوب عليه السلام أروع المثل في الصبر على المرض الذي أكل من جسده سنين طويلة، فلم يتصجر ولم ييأس، بل بقي عنده الأمل بالله في الشفاء والعافية مستمراً وقوياً، حتى تمّ له ذلك وجزاه الله على صبره خيراً في الدنيا، وجنة وحوراً يوم القيامة، قال عنه الله تعالى: ﴿يُجْزَىٰ تَمَنَّىٰ﴾ (١٥٥٠).

ويقول رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وفي ولده، حتى يلقي الله يوم القيامة وما عليه من خطيئة»⁽¹⁵⁵¹⁾. ويقول أيضاً «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»⁽¹⁵⁵²⁾.

وفي الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» (1553).

فإذا كان العبد صابراً ومحتسباً في مرضه، وراضياً بقضاء الله وقدره، فإنه إنسان إيجابي، ويستطيع أن يستفيد من كل شيء في الحياة ويستغله في التعافي من المرض أو التخفيف من وطأته.

وبناء على ذلك فإن العبد المبتلى بأي مرض، سواء كان عضويًا أو نفسيًا، يستطيع أن يجد في الرؤيا خيرًا لنفسه ومخرجًا لمرضه وعلاجًا له، لا سيما إذا كان مخلصًا وصادقًا، لأن كثيرًا من الرؤيا تصبح صادقة، وتكون مبشرات له، تفتح عليه أبواب الأمل والتفاؤل، بل تزداد ثقته بالله تعالى وبقدرته على شفائه وإخراج المرض من جسده.

1547() سورة البقرة، الآيات 155-157.

1548 () سورة الأنبياء، الآية 85.

1549 ﴿سورة ص، الآيات 41-44﴾

1550) أخرجه الترمذي (ص547، رقم 2399) كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء. وصححه الترمذي.

1551 () سبق، تخرجه.

1552) أخرجه البخاري (ص1115، رقم 6424) كتاب الرقائق، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله

1553 () أخرجه البخاري (ص1206، رقم 6990) كتاب التعبير، باب المبشرات.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»⁽¹⁵⁵⁴⁾.

وإذا كان العبد صالحًا، ويتحلى بآداب الرؤى، بحيث إذا رأى رؤيا حسنة: يقوم بما وصّى به النبي ﷺ من: الحمد والثناء على الله، وإخبارها بمن يحبه، وعرضها على أهل العلم الموثوق بهم، وغير ذلك من التوجيهات النبوية، وكذلك الحال بالنسبة للرؤيا المحزنة والمزعجة، فيقوم وينفث عن يساره ثلاثًا، ويستعيز بالله من الشيطان، ولا يكلم بها أحدًا، ويصلي ركعتين لله، فإن هذا العبد بهذه الأعمال والسنن يدفع عن نفسه شرور الشياطين، ويسد أبواب التأثير بالأضغاث وأهويل الشياطين.

وبالتالي فإن الشفاء والمعافة تصبح قريبة منه بإذن الله تعالى، لأن جلّ الرؤى لديه تتحول إلى مبشرات ومفرجات، فيتعامل معها على هذا الأساس الذي من خلاله يمكن أن يتخلص من بعض معاناة النفس واضطرابها.

ثانيًا: العلاقة السلبية بين الرؤيا والمرض النفسي:

كما أن من الرؤيا مبشرات، فإن منها أهويل وألأعيب من الشيطان كما وصفها النبي ﷺ، في قوله: «الرؤيا ثلاث: منها أهويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهيم به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»⁽¹⁵⁵⁵⁾.

وتظهر السلبية في الرؤيا بالأمور الآتية:

1- بناء على الحديث السابق، فإن الرؤيا في الأصل إما تكون مبشرة، أو أهويل من الشيطان، أو ما يهيم به الرجل في صحوته، فإذا اختلط هذا الفهم عند الرائي وفَسَدَ عنده التصور الصحيح عن الرؤى، فإنه يصبح أكثر عرضة لشرار الشياطين ووساوسهم، مما يتسبب له في بعض الأمراض والاضطرابات النفسية.

2- إن الإخبار بالرؤيا، سواء كانت حسنة أو غير حسنة، يؤدي أحيانًا إلى ظهور الأثر السلبي لهذا السلوك الذي نهى عنه النبي ﷺ، لا سيما إذا أخبر بها الرائي من يكرهه من الناس، لأن الرؤيا الحسنة يُخبر بها المحبين فحسب، وأما المزعجة فلا يُخبر بها أحدًا.

3- عرض الرؤيا على غير أهل العلم، ومن ثم تأويلها وتعبيرها حسب

⁽¹⁵⁵⁴⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁵⁵⁵⁾ سورة يوسف، الآية 100.

الهوى أو الجهل، يزيد العبد المريض خوفاً وهلعاً، لأن المعبر العالم يرشد الرائي إلى الخير في جميع الأحوال، وإذا رأى في الرؤيا شيئاً سلبياً لم يخبر بها الرائي رافة بحاله وتقادياً لوقوعه في دوامة الوسوس والتخيلات.

4- إن الاهتمام الكبير بالأحلام وقضاء الأوقات في تحليلها وتفسيرها، وربطها بالواقع بصورة دائمة، وإسقاط الأحلام على جميع الحوادث في الحياة، يعدّ مدخلاً خطيراً من مداخل الشيطان إلى النفس، وخصوصاً إذا كانت تعاني بالأصل من بعض الأمراض، فإن هذا التصور السلبي عن الرؤيا وهذا التعامل الفاسد معها، يزيد من المرض على الرائي وبضاعف أثره عليه حتى تصبح الرؤيا الهاجس الذي يتحكم في مشاعره وسلوكياته في الحياة.

5- إن عدم الالتزام بتعاليم الرسول ﷺ في الرؤى يعكس على الرائي بصورة سلبية، سواء في نفسه أو بدنه، أو أهله وماله وغير ذلك من الأمور المتعلقة به، مثل التفل على الجنب الأيسر في حال الرؤى المزعجة والتعوذ من الشيطان أو السكوت عن رؤاه ولا يخبر بها أحداً، فإن الإفراط في مثل هذه التعاليم يؤثر سلباً على الرائي، بل إن كثيراً من هذه الرؤى قد تتحول إلى واقع أو هاجس أو مدخل للشيطان إلى النفس.

* * *

قواعد وأصول في تعبير الرؤى:

من خلال النصوص التي وردت في الرؤى من الكتاب والسنة يتبين أن الرؤيا الصالحة أو الصادقة تعبر وليست الأحلام والأضغاث، فقد عبّر يوسف عليه السلام رؤياه حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، وأخبر بها والده يعقوب عليه السلام حين التقى بوالديه وإخوته جميعاً، قال الله تعالى في ذلك: ﴿ثُمَّ رُؤِيَ أَنَّهُ كَادِحٌ فِي الْحَرْثِ إِذْ جِئَ بِكُلِّ كَفَّةٍ مِّنْهُ يَوْمَ إِثْنَيْنِ يُرِىٰهُنَّ إِصْرَ كُنْفٍ فَذَبَحَهُنَّ بَطْنُ يُثْرَيْنَ وَقَدْ خَشِيَ عِشْرِينَ ثَاثِينَ﴾ (1556).

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يسأل الصحابة أحياناً بعد صلاة الفجر ويقول: «من رأى منكم رؤيا فليقصّها أُعبرها له» (1557).

وتفسير الرؤيا له أصول وقواعد، لا بد من توافرها في العابر وفي المنهج الذي يتبعه في التعبير، ومن أهم هذه القواعد:

1- أن يكون العابر عالماً بالقرآن الكريم، وتفسير آياته وأسباب نزولها، ومعرفة الناسخ والمنسوخ منه، حتى لا يتجاوز التعبير القرآني للرؤيا إلى

¹⁵⁵⁶ (أخرجه مسلم (ص1006، رقم 5931) كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤى.

¹⁵⁵⁷ (أخرجه الترمذي (ص521، رقم 2270) كتاب الرؤيا، باب رؤيا المؤمنين جزء من 46 جزءاً من النبوة. وأحمد (2/507، رقم 10598). وهو صحيح على شرط الشيخين.

غيره، لأن في كتاب الله تعالى مدلولات وإشارات كثيرة يمكن من خلالها تفسير الرؤيا، مثل تفسير البقرات السمان بفترة الرخاء ورغد العيش، والبقرات العجاف بسنين القحط والمجاعة، فالجهل بالقرآن يؤدي إلى الجهل بالتعبير للرؤيا، مما يسبب ضرراً للرأي لأن المعبر قد أدخله المدخل الخاطئ، فيعيش في عالم كاذب من الخيالات والأوهام.

2- أن يكون عالماً بالسنة، لأنه ورد في السنة تفسير وتعبير لبعض الرؤى، كقوله صلى الله عليه وسلم في القيد والغل: «وأحب القيد في النوم وأكره الغل، القيد ثبات في الدين»⁽¹⁵⁵⁸⁾.

كما ورد في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أرى الليلة في المنام ظلة⁽¹⁵⁵⁹⁾ تنطف⁽¹⁵⁶⁰⁾ السمن والعسل، فأرى الناس يتكفون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى سبباً⁽¹⁵⁶¹⁾ واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراك أخذت به، فعلوت، ثم أخذ به رجل من بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وصل له فعلا.

قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت والله لتدعني فلأعبرنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعبرها. قال أبو بكر: أما الظلة؛ فظلة الإسلام. وأما الذي ينطف من السمن والعسل؛ فالقرآن حالوته ولينه. وأما ما يتكف الناس من ذلك؛ فالمستكثر من القرآن والمستقل. وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض؛ فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعلبك الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً». قال: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت. قال: «لا تقسم»⁽¹⁵⁶²⁾.

3- أن يكون لديه علم باللغة العربية، من حيث معاني الكلمات ودلالاتها، وأن يميز بين الحقيقة والمجاز، والمقيد والمطلق في اللغة، ومقاصد الألفاظ واستعمالات الكلمة الواحدة في المواضع المتعددة، لما في ذلك من فهم للنصوص الشرعية وأقوال الأولين من أهل العلم أولاً، ثم الحكم على الرؤيا وتعبيرها بشكل صحيح ومفيد ثانياً.

⁽¹⁵⁵⁸⁾ الظلة: السحابة.

⁽¹⁵⁵⁹⁾ تنطف: تقطر.

⁽¹⁵⁶⁰⁾ السبب: الحبل.

⁽¹⁵⁶¹⁾ أخرجه البخاري (ص1214، رقم 7046) كتاب التعبير، باب من لم يرد الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب. ومسلم (ص1006، رقم 2269) كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا.

⁽¹⁵⁶²⁾ سورة الحج، الآية 27.

4- توفر الفراسة اللازمة لدى العابر، وعدم الوقوف على ظواهر الأحداث والحكم عليها، كما عليه أن يعرف المصالح والمفاسد في هذا الباب.

5- معرفة حال الرائي، والظروف المحيطة به، لأن التعبير يتعلق بشكل مباشر مع حال الشخص ونفسيته وتصورات، فقد ورد أن رجلين سألا ابن سيرين رحمه الله عن رؤيا واحدة وهي أن كلا منهما رأى أنه يؤذن، فعبرها للرجل الصالح منهما أنها الحج لقوله تعالى: {ذُذِرْ} (1563)، وعبر للآخر أنه يسرق لقوله تعالى: {يُذِيقُ يَثِثُ} (1564).

6- الحفاظ على أسرار الناس وخصوصياتهم، لأن المعبر بمثابة المفتي والعالم، لذا عليه الستر على عورات الناس وأسرارهم وعدم إفشائها، فهم مستأمنون عليها كحال المفتي أو القاضي أو الطبيب.

7- عدم التسرع في تعبير الرؤيا والحكم عليه بالقطع، وعدم الإحراج في حال الجهل بحقيقتها أو تفسيرها، لأن الاعتذار عن التعبير خير من الحكم بالجهل الذي تترتب عليه مفسد كبيرة.

وقد كان ابن سيرين يُسأل عن مائة رؤيا، فلا يجيب فيها بشيء، ويقول: اتق الله وأحسن في اليقظة فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم.

8- الابتعاد عن تعبير الرؤى وتفسيرها على الفضائيات وفي المنتديات العامة، للمفاسد المترتبة على ذلك، لأن أحوال الناس تختلف من رأي إلى آخر، وقد تأخذ الرؤيا الواحدة أكثر من تعبير أو تفسير، والذين يشاهدون الفضائيات يعدون بالملايين، وفيهم الجهلة والبسطاء الذين يتأثرون بهذه الأحكام والتعابير، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج سلبية على حياتهم، فمن أجل تفادي هذه المفاسد كان الأولى والأسلم ألا تعبر الرؤيا على الشاشات والمنتديات العامة.

وخلاصة القول في هذا الباب أن تعبير الرؤى علمٌ كما سمّاه الله تعالى في كتابه العزيز على لسان يعقوب ليوسف عليهما السلام: {ثُتِ ثُتِ ثُتِ ثُتِ ثُتِ} (1565)، وقوله تعالى: {وَوَيْ يَ بَدِ دَنَا} (1566).

* * *

فوائد تعبير الرؤى:

إن لتعبير الرؤى فوائد كثيرة، تتعلق في مجملها بالرأي نفسه، ومن أهمها:

1563) سورة يوسف، الآية 70.

1564) سورة يوسف، الآية 6.

1565) سورة يوسف، الآية 21.

1566) سورة النمل، الآية 65.

1- أن الرؤيا تكون بشارة أو نذارة، وهي مفيدة في الحالتين، إما أن تكون مبشرة يفرح بها الإنسان وتدفعه إلى المزيد من العمل الصالح والإكثار من الطاعة والعبادة، أو تكون منذرة له حين يغفل عن ذكر الله تعالى وعبادته، فتذكره بضرورة الرجوع إلى الله تعالى وعدم مخالفته وعصيانته.

2- أن الرؤيا تكون في كثير من الأحيان سبباً لثبات المؤمن وتمسكه بتعاليم دينه، لا سيما عند كثرة الفتن والمحن، لأنه يرى عبر الرؤى مبشرات تكسر الأغلال وتجلي الظلام وتستقبل النور والهدى.

3- إن الرؤيا الصادقة تزيد من إيمان المؤمن بالله تعالى وبوعده الذي جعل مع كل عسر يسراً، ومع كل أزمة فرجاً ومخرجاً، كما حدث ليعقوب عليه السلام الذي لم يفقد الأمل في يوسف واللقاء به، حيث كان وثاقاً بحفظ الله تعالى له، لا سيما وأنه لم يتحقق بعد نتيجة رؤيا يوسف، فكان أمله بالله قوياً، وقد حصل له ذلك، رغم أن الجميع كانوا يعتقدون بموته عليه السلام.

4- إن تعبير الرؤيا الصادقة، تدفع الإنسان للعمل بجد وإخلاص وإتقان، وتفتح أمامه آفاق الإبداع والاختراع، وتحقيق الأهداف والغايات، لأنه ينظر إلى الحياة بمنظار تفاولي بعيد، لا يتوقف كثيراً عند المعوقات والتحديات، بل يقابلها بقوة التفاؤل والأمل بالله تعالى على الإنجاز والتحقيق.

* * *

وفي الختام:

فلا بد من إيضاح أمر مهم يتعلق بالرؤى وتعابيرها، وهو أن ذلك كله من علم الغيب الذي لا يعرف عنه أحد من الخلق، وأن الله تعالى هو الوحيد المطلع على حقيقة الرؤى وما فيها من المصالح والمفاسد على الرائي ومن لهم علاقة بالرؤى، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ فَهُم مُّسْمِئُونَ﴾ (1567).

وما يقوم به بعض أهل العلم الذين تخصصوا في تعبير الرؤى إنما على سبيل الظن وليس اليقين، إلا ما جاء حكمه واضحاً من الكتاب والسنة، كما عبر يوسف عليه السلام لرؤيا صاحبيه في السجن بأن أحدهما يسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، وكذلك تعبير النبي صلى الله عليه وسلم القيد بالثبات في الدين.

ويقول ابن سيرين رحمه الله حول تعبير الرؤى: «إنما أجيب بالظن، والظن يخطئ ويصيب».

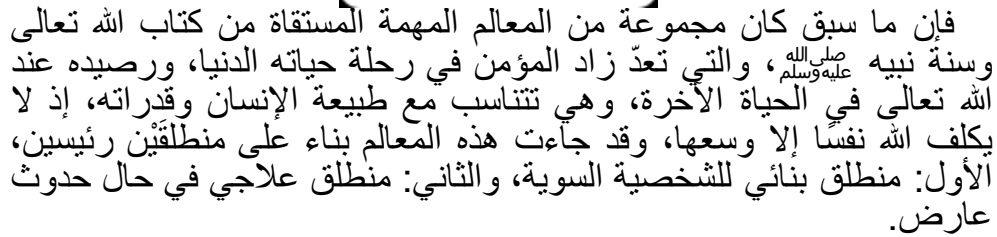
وهذا يعني أن الرائي لا يفرح كثيراً برؤياه الحسنة ويبني عليها صروحاً من الآمال والأمنيات، بل إنه يستبشر بها خيراً ويسأل الله تعالى

(1567) سورة الطلاق، الآية 3.

أن يجعل فيها فرجًا ومخرجًا لأمرضه ومعاناته، كما ينبغي ألا يحزن الرائي إذا رأى مكروهاً أو رؤيا مزعجة ثم يستسلم لحكم المعبر ويركن إلى اليأس والانعزال وينتظر نتيجة رؤياه المحزنة، بل عليه اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به من شرور الشياطين، ويقدم بين يديه العمل الصالح الذي إذا دُعي به استجاب له ربه، ويسأله السلامة في نفسه وأهله وماله.

هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع الرؤى بصورة عامة، والله المستعان في جميع الأحوال والأزمان.





1- العلم بالله تعالى وبرسوله ^{صلى الله عليه وسلم} وبشريعته، وهو الذي يعطي الإنسان التصور الصحيح عن الكون والحياة والإنسان، ويفسر حقيقة وجوده، الأمر الذي يجعله يتعامل مع المشكلات والأمراض بتوازن واعتدال، فلا يضل ولا يضل.

3- إخلاص الأعمال لله تعالى، وطلب الأجر منه جل وعلا وحده دون سواه، فيجرد النفس من العوالم الدنيوية، ويظهرها من النفاق والكذب، ويجعلها متعلقة بالله وحده، وهذا يسهم في بناء الشخصية السوية، لأن التعلق بالآخرين والعمل لإرضائهم يدخل الإنسان في دوامة القلق والهموم والتفكير المستمر.

5- محبة الله تعالى، المتمثلة في اتباع أوامره والانتهاز عن زواجره، وهي محور مهم لبناء الشخصية السوية، وتوثق عرى العلاقة بين العبد وربّه، فتزيد من قوة الإنسان وإرادته، لأنه لا يخرج عن أوامر المحبّ ولا يتجاوز شرعه إلى غيره، فيصبح أكثر تحكّمًا في سلوكه، وأشدّ ثباتًا أمام العوائق المادية

1568 () أخرجه مسلم (ص1173، رقم 2699) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.



والعوارض النفسية.

6- إن خشية الله تعالى وحده، والخوف من عذابه وعقابه، من العوامل القوية في بناء الشخصية القوية، لأنه يبعث في النفس الشجاعة والجرأة الواعية، ويزيل منها الخوف السلبي المذموم كالخوف من الأشياء ومن الأوهام والمجهول والمستقبل وغيره، وبهذه الروح يستطيع الإنسان أن يواجه ما يعترضه من المشكلات والعقبات في حياته.

7- الرجاء إلى الله تعالى في قبول العمل وحصول الأجر، عامل مهم في بناء النفس واستقراره، لأنه يربط الإنسان بالله تعالى في جميع الأحوال والأزمان، من خلال الشعور الدائم بقرب رحمة الله تعالى منه ومغفرته له، وهذا من شأنه أن ينزل الطمأنينة النفسية والراحة في النفس.

8- حسن الظن بالله تعالى، وأنه رؤوف بعباده رحيم بهم، وبكل ما تقتضيه أسماؤه الحسنی وصفاته العليا، حيث يتولى شؤونهم في الحياة الدنيا ويسهل عليهم أمور الآخرة، بإرسال الرسل والكتب، وكلها أسباب وقايتهم من عذابه وغضبه، كما تساعد في تكوين الشخصية السوية، لأن هذا التصور يطمئن النفس ويسكنها، ويترد عنها القلق والخوف والاضطراب.

9- إن شكر النعمة، بالاعتقاد والقول والعمل، يؤدي إلى الطمأنينة والراحة النفسية الدائمة، مما يساعد العبد على بناء الشخصية السوية المعتدلة، لأنه لم يجعل الدنيا في قلبه وإنما جعلها في يده، ولم يتكبر على الناس بنعم الله ولم ينسبها إلى نفسه، وإنما يرجعها ويرجع فضلها لله تعالى، ومن كانت هذه حاله استطاع أن يتغلب على المشكلات المختلفة والعوائق الكثيرة التي تعترضه في الحياة.

10- الصبر زاد المؤمن في الحياة وعامل مهم في بناء الشخصية السوية، فبالصبر تنفجر الكربات، وتتلاشى المشكلات، وتزول الأزمات، وتتحقق النجاحات، لأن العبد الصابر يعلم يقيناً أن ما يصيبه من البلاء إنما هو بأمر الله تعالى ولحكمه هو يعلمها، وهو على يقين أيضاً أن الله تعالى مجازيه على ذلك الجزاء الأوفى في الآخرة، فتطمئن نفسه وتستقر حالته، ولا يجد اليأس والقنوط إلى نفسه سبيلاً.

11- النظر إلى المستقبل بعين متفائلة، مع العمل الجاد والمتواصل، يمنح النفس الطمأنينة والسكينة، ويجعل خطوات الإنسان ثابتة ومدرسة في كل الظروف والأحوال، وهو عامل مهم في بناء الشخصية السوية والواعية.

12- الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره يعطي الإنسان قوة واندفاعاً نحو الأمام، ويجعله عنصراً متحرّكاً نحو الخير أينما حلّ وارتحل، لأنه على يقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه، وهذا الشعور يولد في النفس الراحة

والسكينة، الأمر الذي يسهم في تكوين الشخصية السوية المنشودة.

13- إن عبودية السرّاء والضرّاء تدخل السكينة والطمأنينة في نفس العبد، لأنه لم يصبه الغرور والتكبر عند السرّاء بل شكر الله على ذلك، كما أنه لم يتأفف أو يتضجر عند الضرّاء، بل صبر على ذلك، فهو يتطلع في الحالتين إلى الحياة بنظرة إيجابية، وهذا أساس قوى لبناء الشخصية القويمة في الحياة.

14- الصلاة أعظم أركان الإسلام وأجلها قدرًا، وهي أساس مهم في بناء الشخصية السوية، حين تؤدى بآركانها وشروطها، فالصلاة تزيل عن النفس ما يكدر صفوها، من الهموم والغموم، وتدفع عنها القلق والتعلق بالدنيا، فحين يدخل المؤمن الصلاة ويقف بين يدي الله تعالى تصغر في نفسه الدنيا كلها، ويخرج من ضيقها وأتاعها إلى رحمة الله الواسعة التي تمنح النفس السكينة والراحة.

15- إنفاق المال في وجوه الخير المختلفة، عامل مهم في بناء الشخصية السوية، لأنه يظهر النفس ويزكّيها، ويدفع عنها الآفات المتعددة كالحسد والحقد والشح، كما أنه وقاية لكثير من الأمراض والمصائب والابتلاءات، وفي الوقت نفسه علاج لهذه الأمراض حين وقوعها، وبالتالي فإن الإنفاق في سبيل الله يمنح المنفق الثقة والثبات في مواجهة التحديات المختلفة

16- القرآن الكريم هو كتاب هداية وتشريع قبل كل شيء، ثم إنه مصدر السكينة والطمأنينة، لقول النبي ﷺ: «وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»(١٥٦)، وفيه الشفاء والعافية لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يَشْفِي مَن يُرِيدُ} (١٥٧)، فهو شفاء من آفات النفس المختلفة كالكبـر والغرور والحسد والرياء وغيرها، وبهذا فإن القرآن الكريم عنصر مهم في بناء الشخصية السويّة.

17- الدعاء صورة من صور ذكر الله تعالى، وسنة من سنن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أوجبه الله تعالى على عباده وأحبّه لنفسه، وهو من الدعائم المهمة في بناء الشخصية السوية، أثناء الدعاء يتجرد من عوالم الدنيا، ويقف بين يدي ربه يسأله شكواه وضعفه ويطلب رحمته وتوفيقه ونصرته، الأمر الذي يريح النفس ويشرح الصدر.

18- الاستغفار يرفع من شأن النفس ويظهرها من أسباب الكبر والتمادي في المعصية، وهو من الأسس المهمة في بناء الشخصية السوية المعتدلة، يُشعر العبد بتقصيره نحو الله من ناحية، ومن ناحية أخرى فيه تجديد للحركة في

1569 () سورة الاسراء، الآية 82.

1570 سورة الإسراء، الآية 82.

11

20- صلة الرحم يطيل العمر ويبسط الرزق، ويبارك فيهما، وهي من الأسس المتينة في بناء الشخصية السوية، لأنها علامة على سلامة النفس وصفائها من الحقد والضغينة والأنانية، حين يتواصل العبد مع أقاربه بالسؤال عنهم وإظهار الودّ معهم، ومدّ يد العون والمساعدة إليهم.

الثاني: منطلق علاجى عند حدوث عارض:

المحور الأول: التمسك بأسس البناء النفسي – السابق ذكرها -، كإخلاص الأعمال لله، والاستقامة، وتعلم العلوم الشرعية، وقراءة القرآن، والاستغفار والدعاء والإيجابية وغيرها، فإنها تعدّ من الخطوات العلاجية أيضاً، رغم أنها تسهم بشكل كبير في الوقاية والبناء النفسي.

1571 () سبق تخريجه.

فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به⁽¹⁵⁷²⁾، وقولها رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضاً، أو أتى إليه به قال: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»⁽¹⁵⁷³⁾.

المحور الثالث: لا تتعارض المعالجة بالقرآن مع تناول الدواء إذا كان ضمن الضوابط الشرعية، فلا يكون التداوي بمحرم كالخمر أو الذهاب إلى المشعوذين والسحرة والكهّان، فإن ذلك مما جاء النهي عنه صريحاً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»⁽¹⁵⁷⁴⁾.

ونختم القول: أنه إذا استدعت حالة الإنسان اللجوء إلى العلاج النفسي، فإنه لا تعارض بينه وبين الرقية الشرعية، فالطب النفسي الصحيح والرقية الشرعية الصحيحة يكمل كل واحد منهما الآخر، وإن محاولة بعض الرقاة الفصل بينهما هو جهل بالشرع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء»⁽¹⁵⁷⁵⁾. أو ربما يكون محاولة من بعضهم من أجل جلب الزبائن والمرضى إليهم وتحقيق مكاسب مالية من وراء ذلك.

وهذا الكلام موجّه - في الوقت ذاته - إلى الأطباء النفسيين، فلا يغفلوا أثناء التشخيص النفسي من احتمال إصابة المريض بالسحر أو العين أو مسّ الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أن عليهم ألا يغفلوا في العلاج بضرورة التعامل مع الرقية الشرعية الصحيحة.

* * *

وبذلك نكون قد وصلنا إلى نتيجة مهمة بالنسبة إلى المرض النفسي، وهي إمكانية التعامل معه من خلال التوجيهات الشرعية المستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والجمع بينها وبين الطب النفسي الحديث، ضمن ضوابط الشرع من حيث الحلال والحرام.

* * *

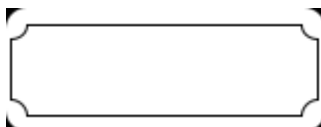
وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

⁽¹⁵⁷²⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁵⁷³⁾ سبق تخريجه.
⁽¹⁵⁷⁴⁾ سبق تخريجه.



* * *

وكتبه
فالح بن محمد بن فالح الصغير
المشرف العام على شبكة السنة النبوية وعلومها
faleh@alssunnah.com



الصفحة	الموضوع
5	المقدمة
9	تمهيد
10	منهج الإسلام في التعامل مع الأمراض النفسية
10	منطلق المنهج الإسلامي
15	الموقف من الأمراض
15	أولاً: الموقف الإيجابي
16	آثار هذا الموقف
18	ثانياً: الموقف السلبي
19	آثار هذا الموقف
20	وسائل التعامل مع المرض
21	الموقف من التداوي
23	* القسم الأول: البناء
25	العلم هو المنطلق
26	حكم العلم الشرعي
27	أهمية العلم وفضله
29	حاجة الإنسان إلى العلم الشرعي
30	علاقة العلم بالعمل
32	أحوال السلف في طلب العلم
34	وسائل معينة لتحصيل العلم الشرعي
37	ثمرات العلم الشرعي وآثاره
42	العلم الشرعي والبناء النفسي
45	الاستقامة
45	مفهوم الاستقامة
46	مجالات الاستقامة
47	أولاً: الاستقامة في العقيدة
47	ثانياً: الاستقامة في العبادة
48	ثالثاً: الاستقامة في التشريع
49	رابعاً: الاستقامة في الأخلاق
51	خامساً: الاستقامة في التعامل مع الناس بالعدل والإحسان
52	سادساً: الاستقامة في الدعوة إلى الله
53	آثار الاستقامة
57	الاستقامة والمرض النفسي
59	مناهج وسلوكيات خاطئة
63	إخلاص الأعمال لله تعالى

63	مفهوم الإخلاص
64	مدار قبول الأعمال على الإخلاص
65	منطلق البحث في هذه الشعيرة
67	الأعمال المنقذة بسبب الإخلاص
70	1 - الأعمال القلبية
72	2 - الأعمال اللسانية (القول)
76	3 - الأعمال العبادية المباشرة
78	4 - الأعمال المالية
79	5 - الأعمال المباحة
82	آثار الإخلاص
89	الوسائل المعينة على الإخلاص
93	آثار عدم الإخلاص (الرياء)
97	التوكل على الله
97	مفهوم التوكل
97	أهمية التوكل على الله
97	مكانة التوكل على الله
97	التوكل وفعل الأسباب
97	آثار التوكل على الله
97	ما يناقض التوكل على الله تعالى
97	توصيات
97	محبة الله تعالى
97	مفهوم المحبة
97	أقسام المحبة
97	1 - محبة الله تعالى
97	2 - محبة الرسول صلى الله عليه وسلم
97	3 - محبة سائر الخلق
97	4 - محبة الأشياء
97	المحباب الممنوعة
97	1 - محبة المعصية
97	2 - محبة ما هو أدنى على ما هو أعلى
97	المراد بالمحبة في هذا البحث
97	مقتضيات محبة الله تعالى
97	من يحبهم الله تعالى؟
97	من يبغضهم الله؟
97	آثار محبة الله تعالى
97	الخوف من الله تعالى
97	حقيقة الخوف
97	علاقة الخوف بالرجاء
97	أقسام الخوف
97	الأول: الخوف من الله تعالى
97	الثاني: الخوف الجبلي

97	الثالث: الخوف السلبي
97	علاج الخوف السلبي
97	آثار الخوف من الله تعالى على الإنسان
97	الرجاء
97	مفهوم الرجاء
97	علاقة الرجاء بالخوف
97	أقسام الرجاء
97	أولاً: الرجاء المحمود
97	آثار الرجاء المحمود
97	ثانياً: الرجاء المذموم
97	آثار الرجاء المذموم
97	حسن الظن بالله تعالى
97	مفهوم حسن الظن
97	الفرق بين حسن الظن والرجاء والتمني
97	منزلة حسن الظن بالله من الدين
97	علاقة حسن الظن بالله بالتوكل على الله
97	آثار حسن الظن بالله تعالى
97	وسائل تعيين على حسن الظن بالله تعالى
97	شكر الله تعالى
97	حقيقة الشكر
97	أنواع الشكر
97	1 - شكر القلب
97	2 - شكر اللسان
97	3 - شكر سائر الجوارح
97	آثار الشكر على النفس والسلوك
97	جود النعمة ونكرانها
97	وسائل معينة على شكر الله تعالى
97	الصبر
97	حقيقة الصبر
97	أنواع الصبر
97	أولاً: الصبر على الطاعة
97	ثانياً: الصبر عن المعاصي
97	ثالثاً: الصبر على أقدار الله المؤلمة
97	رابعاً: الصبر على أذى الناس
97	آثار الصبر على النفس والسلوك
97	مناقضات الصبر
97	النظر إلى المستقبل
97	مفهوم التفاؤل والتشاؤم
97	أولاً: التفاؤل
97	ثانياً: التشاؤم
97	الحكم الشرعي للتفاؤل والتشاؤم

97	صور من التفاؤل والتشاؤم
97	أولاً: صور من التفاؤل
97	ثانياً: صور من التشاؤم
97	أسباب ظهور التشاؤم عند الإنسان
97	معينات صناعة التفاؤل
97	آثار التفاؤل
97	آثار التشاؤم
97	علاج التشاؤم
97	التفاؤل والعمل
97	الرضا بالقضاء
97	مفهوم القضاء والقدر
97	مراتب القدر
97	أولاً: العلم
97	ثانياً: الكتابة
97	ثالثاً: المشيئة
97	رابعاً: الخلق والإيجاد
97	أنواع التقدير
97	الإرادة وأنواعها
97	أولاً: الإرادة الكونية
97	ثانياً: الإرادة الشرعية أو الدينية
97	الإنسان بين الاختيار والإجبار
97	هل الإيمان بالقدر يعارض فعل الأسباب؟
97	آثار الإيمان بالقضاء والقدر
97	عبودية السراء والضراء
97	حقيقة العبودية
97	عبودية السراء
97	أنواع السراء
97	كيف تتحقق عبودية السراء؟
97	عبودية الضراء
97	أنواع الضراء
97	كيف تتحقق عبودية الضراء
97	الرسول القدوة
97	آثار عبودية السراء والضراء
97	يا بلال أرحنا بها
97	مفهوم الصلاة
97	أهمية الصلاة وفضلها في الإسلام
97	صفة الصلاة
97	آثار الصلاة
97	الإنفاق في سبيل الله
97	المال في الإسلام

97	الإنفاق سنة كونية
97	أنواع الإنفاق
97	الأول: الإنفاق الواجب
97	الثاني: الإنفاق المستحب
97	آداب الإنفاق
97	آثار الإنفاق على النفس والمجتمع
97	القرآن الكريم وأثره النفسي
97	تعريف القرآن الكريم
97	موضوعات القرآن الكريم
97	1 - العقيدة
97	2 - العبادات
97	3 - المعاملات
97	4 - الأخلاق
97	5 - القصص
97	6 - الوعد والوعيد
97	فضائل القرآن الكريم
97	آداب التلاوة
97	الإعجاز في القرآن الكريم
97	حفظ القرآن الكريم
97	عوامل حفظ القرآن الكريم
97	حال السلف وأثر القرآن الكريم عليهم
97	آثار القرآن الكريم على النفس والمجتمع
97	ألا بذكر الله تطمئن القلوب
97	مفهوم الذكر
97	فضل الذكر
97	أنواع الذكر القولي من حيث الإطلاق والتقيد
97	أولاً: الذكر المطلق
97	ثانياً: الذكر المقيد
97	أ - ذكر المكان
97	ب - ذكر الزمان
97	ثالثاً: الذكر في الأحوال والهيئات الأخرى
97	علاقة الذكر بقوة الإيمان وضعفه
97	الذكر والشكر
97	صراع الذاكرين مع الشياطين
97	آثار الذكر على النفس والمجتمع
97	أولاً: أثره على النفس
97	ثانياً: أثره على المجتمع
97	ادعوني أستجب لكم
97	مفهوم الدعاء
97	المعاني الواردة للدعاء في كتاب الله

97	فضل الدعاء
97	أنواع الدعاء
97	شروط الدعاء
97	آداب الدعاء
97	دعوات مستجابة
97	أخطاء في الدعاء
97	آثار الدعاء على النفس والمجتمع
97	الاستغفار والفرج
97	مفهوم الاستغفار
97	حكم الاستغفار
97	علاقة الاستغفار بالتوبة
97	أهمية الاستغفار وحاجة الناس إليه
97	أوقات الاستغفار
97	آثار الاستغفار وثمراته
97	برّ الوالدين وعظيم الأثر
97	مفهوم برّ الوالدين
97	فضل برّ الوالدين
97	برّ الوالدين في قصص الأنبياء
97	من صور البرّ بالوالدين
97	برّ الوالدين بعد الزواج
97	آثار برّ الوالدين
97	آثار عقوق الوالدين وقطع الأرحام
97	برّ الوالدين والطمانينة والسكينة
97	صلة الرحم وطول العمر وسعة الرزق
97	من هم الأرحام
97	فضل صلة الرحم
97	صور من صلة الرحم
97	صور من قطع الأرحام
97	آثار صلة الأرحام
97	آثار قطع الأرحام
97	الإيجابية ومقامها الكبير
97	تعريف الإيجابية
97	حقيقة الأعمال الإيجابية
97	أ - النفع القاصر على النفس
97	ب - النفع المتعدي للآخر
97	آثار العمل الإيجابي على النفس والمجتمع
97	* القسم الثاني: المعالجة
97	من أسباب الأمراض النفسية
97	حقيقة المرض
97	أنواع المرض

97	النوع الأول: المرض العضوي
97	النوع الثاني: المرض النفسي
97	أسباب الأمراض النفسية
97	القسم الأول: الأسباب اللاإرادية
97	القسم الثاني: الأسباب الإرادية
97	أولاً: الغضب
97	ثانياً: الحسد
97	ثالثاً: الكبر
97	رابعاً: الرياء
97	خامساً: الظلم
97	سادساً: البخل
97	سابعاً: الخلافات الزوجية
97	ثامناً: المخدرات
97	السحر: حقيقته والوقاية منه وعلاجه
97	حقيقة السحر
97	أنوع السحر
97	أولاً: سحر التنجيم
97	ثانياً: سحر النفث في العقد
97	ثالثاً: سحر التخييلات
97	رابعاً: سحر الأبراج
97	خامساً: النميمة
97	حكم السحر
97	عقوبة الساحر
97	إشكالية حدوث السحر على النبي صلى الله عليه وسلم
97	الآثار السلبية المترتبة على السحر
97	الوقاية من السحر
97	العلاج من السحر
97	علاقة السحر بالأمراض النفسية
97	العين: مفهومها وآثارها والوقاية منها وعلاجها
97	مفهوم العين
97	حقيقة العين
97	تأثير العين
97	أسباب العين
97	علاقة العين بالجن
97	علاقة العين بالحسد
97	علاقة العين بالأمراض النفسية
97	الوقاية من العين
97	العلاج من العين
97	الرقية الشرعية أصل الدواء
97	مفهوم الرقية

97	أنواع الرقي
97	أولاً: الرقي المشروعة
97	ثانياً: الرقي المحرمة
97	صفة الرقية الشرعية
97	أولاً: الرقية بالقرآن الكريم
97	ثانياً: الرقية بالأذكار من السنة النبوية
97	ثالثاً: الرقية بالأدعية الواردة في السنة النبوية
97	الرقية الشرعية والتوكل على الله
97	قواعد وأصول وأداب في الرقية
97	شروط الراقي
97	توجيهات إلى المرقى
97	من أخطاء التعامل مع الرقية
97	الرؤى وعلاقتها بالأمراض النفسية
97	حقيقة الرؤيا
97	أنواع الرؤى
97	النوع الأول: أهويل من الشيطان
97	النوع الثاني: لما يهيم الرجل به في يقظته
97	النوع الثالث: الرؤيا الصادقة
97	مرائي النبي صلى الله عليه وسلم
97	أصدق الرؤيا
97	الرؤيا الكاذبة
97	علاقة الرؤيا بالأمراض النفسية
97	أولاً: العلاقة الإيجابية بين الرؤيا والمرض النفسي
97	ثانياً: العلاقة السلبية بين الرؤيا والمرض النفسي
97	قواعد وأصول في تعبير الرؤى
97	فوائد تعبير الرؤى
97	الخاتمة
97	فهرس المحتويات

